

مَنَاهِلُ الْعُرْفَانِ

فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ

طبق مافقره مجلس الأزهر الأعلى في دراسة تخصص الكليات الأزهرية

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ

محمد عبد العظيم الزرقاني

مدرس علوم القرآن وعلوم الحديث بتخصص الدعوة والإرشاد
بكلية أصول الدين سابقاً

جميع الحقوق محفوظة

الجزء الأول

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِلَهًا لَا
نَعْبُدُ إِلَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ. آمِينَ.

تصدير الطبعة الثالثة وفهرسها

١ - التصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

« الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى » . أما بعد ، فهذه الطبعة الثالثة من كتاب « مناهل العرفان في علوم القرآن » أقدمها لقرأني الأكرمين بعد أن أعدتُ النظر فيه ، رجاء أن أدرك الكمال أو أقارب ، فزدتُ وحذفتُ ، وقدمتُ وأخرتُ ، وصححتُ واستدركتُ ، ثم هَيَّا اللَّهُ - تباركت آلاؤه - مطبعةًعاونتني على حسن إخراجه ، فضبطته وشكلته ، ونظمته وصقلته . ولولا أزمة الورق الحادة للبس الكتاب حلةً أبهى من هذه الحلة . ولكن إذا سلم لك الجوهر واللباب ، فلا عليك من القشر والإهاب . « خُذْ بِنَصْلِ السِّيفِ وَاتْرِكْ غِمْدَهُ » واعتبر فضل الفتى دون الحبل . على أن الذنب في ذلك هو ذنب هذه الحرب الفروس الطاحنة ، التي طفت وبفت ، وطُمتْ وعمَّتْ ، حتى لم ينبج من شرها شرق ولا غرب ، ولا ضيق ولا رعب ، بل قعدت للناس بكل صراط ، وأثرت في جميع المرافق حتى أدوات الطبع (بالطبع) .

لطف الله بالبلاد والعباد ، وأخرج الإسلام من هذه المحنة قوى السناد ، رفيع العاد ، على الكلمة ، مسموع الصوت ، حتى ينفي الجميع إلى محبوبته ، ويتفشيوا وارِفَ ظلاله وسلامه ، وأمنه وإيمانه ، وعدله ورحمته ، وبصره وسماحته ، وحتى يعلموا أن نهضة العلم جنابة على الإنسانية جائحة ، إن لم تسيرها نهضة روحية صالحة ، توفّق بين مطالب الروح والجسد ،

وتواخى بين إنسان الشرق والغرب، وتستأصل النعرات الجنسية والطائفية، وتنظم من الكل جبهةً متحدةً على صراط الحق والخير، « حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » .

وهل توجد هذه المزايا مجتمعةً إلا في الإسلام؟ وهل يوجد الإسلام بغير القرآن؟ وهل يفهم القرآن إلا « بعلوم القرآن »؟ وهو موضوع كتابنا الآن؟ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * » .

محاولاتى :

ولقد حاولت في هذا التأليف أموراً خمسة :

أولها - أن تكون كتابتى من النسق الأزهرى الجديد فى تفكيره وفى تعبيره ، بحيث يمتسرفهمه وهضمه للقراء من أبناء هذا الجيل ، سواء منهم المحقق الأزهرى والمثقف المدنى ، فإن لكل زمان لغةً ولساناً ، ومنطقاً وبرهاناً . « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

على أنى فى هذه المحاولة لا ادعى أنى أنشأت وابتكرت ، ولا أحدثت وابتدعت . بل قصارى أنى فهمت وأحسنست العرض إذا كنت قد وقفت . أما المادة نفسها فالفضل فيها لعلماء هذه الأمة الذين أبلّغوا فى جمعها بلاءاً حسناً ، ولم يخرجوا من الدنيا إلا بعد أن شقوا لنا الطريق ، وقرءوا البعيد ، وجمعوا الشقيت ، وتركوا من خلفهم ثروة علمية هائلة ، وكنوزاً ثقافية زاخرة ، لا يوجد مثلها ولا قريب منها فى أية أمة من أمم الأرض إلى يوم الناس هذا ! وأعتقد أننا لو أحسننا القيام على هذه التركة لكان لنا شأن غير هذا الشأن ، ومكانة وسلطان لا يبدانها مكانة ولا سلطان !

ولكن ما قضى كان . ولعل المستقبل القريب يكون أسعد من هذا الحاضر الحزين
الأسوان ! .

ثانيها — أن أعالج شبهات عصرنا الراهن علاجاً ينبجى الأذى عن طريق عشاق الحق،
وطلاب الحقيقة ، ورواد البحث ، ومريدى الإسلام .

ولقد التزمت فى علاج هذه الشبهات أدب الباحث وواجب المناظر . ورأيت لمثل
هذا الاعتبار أن أرخى الستر على أسماء أصحاب هذه الشبه خصوصاً المعاصرين منهم .
وتعمدت هذه السياسية محاسبة لهم عسى أن يرعوا ، وحباً فى سلام البحث وهدوءه عسى
أن يسلموا ويهدوا ، وغضاً من شأنهم إن كان لهم شأن كيلا يقلدوا ، فإننا أصبحنا فى
زمان افتتن كثير من الناس فيه بالأسماء والرتب ، والأموال والنسب . وباتوا لا يعرفون
الرجال بالحق إنما يعرفون الحق بالرجال ، فالباطل إن صدر من فلان النابه فهو عندهم حقٌّ
وزين ، والحق إن جاء به فلان الخامل فهو عندهم باطل وشين ! وهكذا اختلت الضوابط
واتقلبت الموازين ! .

ثالثها — أن أظهر عند كل مناسبة جلال التعاخى بين الإسلام والعلم ، لتفكك
تلك الدسيسة الرخيصة المفضوحة التى خيلت إلى المخدوعين أن بين الدين والعلم خصومةً
قائمة ، وحرماً طاحنة ، وعداوة متأصلة ، كأن الدين رديف الجهل ، وكأن العلم حليف
الكفر ! « كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » .

رابعها — أن أُجَلِّيَ أسرار التشريع وحكمه كلما دعانى المقام ، ليعلم من لم يكن يعلم
أن هذا الدين هو حاجة الإنسانية ، ودواء البشرية ، وكمال الفرد ، وصلاح الجماعة ، ولتنقطع
أنفاس تلك الدعاية الضالة ، دعاية فصل الدين عن السياسة ، والثقافة الدينية عن الثقافة المدنية ،

وقوانين العدل ودساتير الحكم عن مقررات العقيدة وشعائر العبادة! وهى أخبث الدعوات وأفسقها فيما نعلم!

ولئن صحَّ أن يقال هذا فى أديانٍ قاصرة عن الوفاء بحاجات الإنسانية فى مناحى الإصلاح البشرى، فما كان يصحُّ أن يقال هذا فى دين الإسلام بحال من الأحوال، لأنه دين عقيدة وعمل، وعبادة وقيادة، وعلم وخلق، وحكم وعدل، ورحمة وحق، ومصحف، وسيف، ودنيا وآخرة!

ومن كان فى ريب فليسأل التاريخ عن جليل الآثار التى تركها الحكم الإسلامى الصالح فى أتباعه ومن انضوى تحت لوائهم من الأقليات الأجنبية، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم الطائفية.

بل ليسألوا العالم وأحداثه، والدهر وتصاريفه: أى الحكمين كان أنجح فى تربية الأفراد، وأنجح فى إصلاحات الجماعات، وأهدى سبيلاً فى الاعتدال والاستدلال؟ أحكم السماء أم حكم الأرض؟ وقانون الخالق أم قوانين الخلق؟ وتشريع العليم الحكيم المنزه عن الغرض والهوى، أم تشاريع الإنسان القاصر النظر والاطلاع، المتأثر بطغیان الغرائز وجحوش القوى؟ «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ. وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟»

وإن لم يكفهم هذا فليسألوا المنصفين من مشاهير الغرب، كغوستاف لوبون الفرنسى وبرناردشو الانجليزى، وأمثالهما من الذين درسوا الإسلام وبحوثه، ثم حكموا له وأنصفوه، وأطروه وامتدحوه. «والفضل ما شهدت به الأعداء»!

ولنمسك القلم عن الجولان في هذا الميدان، فالكلمة هنا للتصدير والتنوير، لا للمقارنة والتنظير. وحسبنا أن نردّد قول الشاعر العربي :

« ملَكْنَا فكانَ العفوُ منا سَجِيَّةً فلَمَّا ملَكْتُمْ سَالٌ بالدمِ أَبْطَحُ »
« فحسبكو هذا التفاوتُ بيننا وكلُّ إناءٍ بالذى فيه يَنْضَحُ »

خامسها : أن أنفخ الروح من بوق هذا الكتاب في الكرام القارئین ، لاسيما حلالي الأعراء الذين هم على وشك النزول إلى ميادين الدعوة والإرشاد، فأوقظهما أخاف أن تكون قد نامت ، وأحيي عزائم معاذ الله أن تكون قد ماتت . والروح هي كل شيء ! هي القوة الدافعة ، وهي الحياة الرائعة ! والروح الصحيحة لا توجد إلا في القرآن بل الروح الصحيحة هي القرآن ! « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ! إن الإسلام لا يريد من المسلم ولا يرضى له أن يكون هيكلًا جامدًا، ولا أن يكون تمثالًا هامدًا ، فإن الإسلام عدوُّ الهياكل والجود ، خصيم التماثيل والهمود .

إنما يريد الإسلام أن يكون المسلم روحًا يبعث الروح ، وحياةً يملأ الدنيا حياة ، ورسولاً من رسل السلام والرحمة والنجاة ! أجل . ويريد الإسلام أن يكون أهل العلم من أتباعه أصحاب همم علمية ، ونفوس أبيّة ، لا يشترن بعهد الله ثمنًا قليلًا ، ولا يريدون بعلمهم عرض هذا الأدنى . إنما همهم ورائة الأنبياء في إصلاح العالم ؛ وتبليغ دعوة الإسلام على وجهها لطبقات الخلق ، وتنفيذ أحكام الله في الأقضية وسائر شئون الحكم . « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » !

وهنا في هذه الآية الحكيمة تتجلى رسالة العالم والطالب . ويألها رسالة ! ثم يألها أمانة ! نسأل الله السلامة والإعانة .

رجائي

تلك محاولاتي وأهدافي، فإذا كنت قد أصبتها فذلك الفضل من الله، « وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ». وإن كانت الثانية فإنما هي نفسي، وأستغفر الله .
ورجائي من كل ناظر يطلع على عيب أن بدلتني عليه، ويرشدني إليه . فالدين النصيحة، والمسلمون بخير ماتعاونوا . وما ينجح سلفنا الصالح وكانوا خير أمة أخرجت للناس إلا بهذه الفضيلة . وإنه ليحلولي أن أقول هنا ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه :
« رحم الله رجلاً أهدى إلى عيوب نفسي » .

شكري

وإني لمدين ببالغ الشكر، وسابغ الحمد، لأولئك السادة الأماجد الذين طوفوا عنقي بجميل معاونتهم وتشجيعهم، وجميل تقريظهم وتقديرهم .
ولا أزال أحفظ بالإجلال والإكبار، ما لقيته في هذه المناسبة السعيدة من بعض رجالات الدولة، وكبار العلماء ورؤساء الجماعات الإسلامية، وأصحاب المجلات والصحف اليومية، وإخواني أبناء الأقطار الشقيقة، خصوصاً الذين عملوا منهم على ترجمة هذا الكتاب ونقله في دقة وأمانة إلى بعض اللغات الشرقية .
وأعتذر عن عدم نشر تقاريفهم والتنويه بفضلهم في هذه المرة، لخجل في طبعي، وضيق في طبع الكتاب .

عجل الله الفرج للأنام، وأعاد عهد الرخاء واليسر والسلام، وجعل العاقبة للإسلام وبلاد الإسلام « إِنَّ اللَّهَ بِأَلْعُ أَمْرِهِ . قَدْ جَمَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الحمد لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا » ، والصلاة والسلام على من أرسله الله بالقرآن رحمة للعالمين وفرجًا ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحابه ، وأتباعه ومحبيه وأمته .

أما بعد ، فهذا كتاب « مناهل العرفان في علوم القرآن » . كتبتّه تحقيقاً لرغبة طلابي المتخصصين في الدعوة والإرشاد من كلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية . مستمداً معارفه - بعد فتوح الله وتوفيقه - مما كتب علماء الإسلام قديماً وحديثاً ، في القرآن الكريم وعلومه ، والتفسير ومقدماته ، وعلم تاريخ التشريع ، وعلمي الكلام والأصول ، وعلوم اللغة العربية ومعالجها ، وعلمي الفلسفة والاجتماع ، وعلمي النفس والأخلاق ، وبعض البحوث المنشورة هنا وهناك ، في غضون الرسائل والمجلات ، من عربية صميمة ، ومترجمة منقولة .

وإلى الله تعالى أضرع ، أن يكتب لي فيه النجاح والتوفيق والقبول ، وأن يحقق به النفع المرجو والأثر المأمول . « إِنَّ رَبِّي أَسْمِيعُ الدُّعَاءَ » .

مقدمة

في القرآن وعلومه ومنهجي في التأليف

القرآن الكريم : كتاب ختم الله به الكتب، وأنزله على نبي ختم به الأنبياء، بدين عام خالد ختم به الأديان .

فهو دستور الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض ، أنهى إليه مُنزلُه كلَّ تشريع ، وأودعه كلَّ نهضة ، وناط به كلَّ سعادة .

وهو حجة الرسول وآيته الكبرى : يقوم في فم الدنيا شاهداً برسالته ، ناطقاً بنبوته ، دليلاً على صدقه وأمانته .

وهو ملاذ الدين الأعلى : يستند الإسلامُ إليه في عقائده وعباداته، وحكمه وأحكامه وآدابه وأخلاقه ، وقصصه ومواعظه ، وعلومه ومعارفه . !

وهو عماد لغة العرب الأسمى : تدين له اللغة في بقاءها وسلامتها، وتستمدُّ علومَها منه على تنوعها وكثرتها ، وتفوق سائر اللغات العالمية به في أساليبها ومادتها .

وهو - أولاً وآخرأ - القوة المحوِّلة التي غيّرت صورة العالم ، ونقلت حدود الممالك ، وحوّلت مجرى التاريخ ، وأنقذت الإنسانية العائرة ، فكانما خلقت الوجود خلقاً جديداً . !

لذلك كله ، كان القرآنُ الكريم موضعَ العناية الكبرى من الرسول ﷺ وصحابته ، ومن سلف الأمة وخلفها جميعاً إلى يوم الناس هذا .

وقد اتخذت هذه العناية أشكالاً مختلفة ، فتارة ترجع إلى لفظه وأدائه ، وأخرى إلى أسلوبه وإيجازه ، وثالثة إلى كتابته ورسمه ، ورابعة إلى تفسيره وشرحه إلى غير ذلك .

ولقد أفرد العلماء كل ناحية من هذه النواحي بالبحث والتأليف ، ووضعوا من أجلها العلوم ودوتوا الكتب ، وتباروا في هذا الميدان الواسع أشواطاً بعيدة ، حتى زخرت المكتبة الإسلامية بآثار مجيد من آثار سلفنا الصالح ، وعلمائنا الأعلام . وكانت هذه الثروة ولا تزال مفخرة نتعدي بها أمم الأرض ، ونفعم بها أهل الملل والنحل في كل عصر ومصر !

وهكذا أصبح بين أيدينا الآن مصنوعات متنوعة ، وموسوعات قيّمة ، فيما نسميه علم القراءات ، وعلم التجويد ، وعلم النسخ العثماني ، وعلم التفسير ، وعلم النسخ والنسخ ، وعلم غريب القرآن ، وعلم إعجاز القرآن ، وعلم إعراب القرآن ، وماشا كل ذلك من العلوم الدينية والعربية ، مما يعتبر بحق أروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة كتاب هو سيد الكتب ، وبات هذا المظهر معجزة جديدة مصدقة لقوله سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

ولقد أنجبت تلك العلوم الآلفة وليداً جديداً ، هو مزيج منها جميعاً ، وسليل لها جميعاً ، فيه مقاصدها وأغراضها وخصائصها وأسرارها ، و « الولد سرُّ أبيه » .

وقد أسمونه (علوم القرآن) وهو موضوع دراستنا في هذا الكتاب إن شاء الله . وسأحاول فيما أكتبه أن أمزج بين حاجة الأزهريين إلى البحث والتحليل ، وبين رغبات جماهير القراء المعاصرين في تقريب الأسلوب وتعبيد السبيل ، ما وسعني الإمكان . وسأضطر بسبب ذلك إلى شيء من الإسهاب والتطويل ، ولسكنها تضحية ضئيلة بجانب تأدية رسالتنا في وجوب الاتصال الديني بالجماهير .

وسأعرض — بعون الله وتأيمده — لعلاج الشبهات التي أطلق بخورها أعداء الإسلام ، وسددوا سهامها الطائشة إلى القرآن ، ولكن عند المناسبة وسنوح الفرصة .

وسأجتزئى في كل مبحث ببعض أمثلة من القرآن الكريم ، دون أن أحاول ما حاوله سلف الكتّاب من استيعاب كل فرد لكل نوع ؛ فإن حبل ذلك طويل وثقيل ، على حين أن الناظر يكفيه الإيضاح بقليل من التمثيل .
وسأجعل نقاط المنهج المقرر عناوين بارزة بين المباحث التي يقوم عليها هذا الكتاب مقتفياً في الغالب أثر تلك النقاط في التسمية وفي الترتيب . « وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » .

المبحث الأول

في معنى علوم القرآن

①

بقتضينا منهج البحث التحليلي لهذا المركب الإضافي ، أن نتحدث عن طرفيه ، وعن الإضافة بينهما ، ثم عن المراد بهذا المركب بعد نقله وتسمية هذا الفن المدون به .
(١) أما العلوم : فجمع علم ، والعلم في اللغة مصدر يرادف الفهم والمعرفة ؛ ويرادف الجزم أيضاً في رأى . ثم تداولت هذا اللفظ اصطلاحات مختلفة :
فالحكام : يريدون به صورة الشيء الحاصلة في العقل ، أو حصول الصورة في العقل ، أو تعلق النفس بالشيء على جهة انكشافه . والتحقيق عندهم هو الإطلاق الأول .
(والمتكلمون : يعرفون العلم : بأنه صفة يتجلى بها الأمر لمن قامت به) ، وهو مراد من قال منهم : « إنه صفة توجب لحظها تمييزاً لا يَحتمل النقيض » ولو كان هذا التمييز بواسطة الحواس كما هو رأى الأشعرى .

(ويطلق العلم في لسان الشرع العام : على معرفة الله تعالى وآياته ، وأفعاله في عباده وخلقه) قال الإمام الغزالي في الإحياء : « قد كان العلم يطلق على العلم بالله تعالى وآياته وبأفعاله في عباده وخلقه ، فتصرفوا فيه بالتخصيص حتى اشتهر في المناظرة مع الخصوم

في المسائل الفقهية وغيرها . ولكن ماورد في فضل العلم والعلماء أكثره في المعنى الأول « اه وهو يفيد أن العلم الشرعي الخاص يطلق على أخص من هذا الذي ذكره الغزال في لسان الشرع العام ، ولكن بحسب ما يقتضيه المقام . بل لقد نص الغزالي نفسه في الإحياء أيضاً على أن الناس اختلفوا في العلم الذي هو فريضة على كل مسلم ، وقال : إنهم تفرقوا فيه إلى عشرين فرقة . ثم ذهب إلى أن المراد به علم المعاملة الشامل لما يصلح الظاهر من عبادات وعادات إسلامية ، ولما يصلح الباطن من عقائد الإسلام وأخلاقه .

والماديون : يزعمون أن العلم ليس إلا خصوص اليقينيات التي تستند إلى الحسّ وحده . وسنناقش مذهبهم في مبحث نزول القرآن .

ولسنا بسبيل بيان تلك الاصطلاحات الآفة المذكور ، فلها علومها وكتبها ومباحثها ، إنما هو غرض عام ، يعرف منه كيف أن لفظاً واحداً - هو العلم - أنه كته الاصطلاحات المتعددة ، وتداولته النقول المتنوعة ، فلا تنفع في لبس إذا ورد عليك في صورة شبه متعارضة .

العلم في عرف التدوين العام :

والذي يعيننا كثيراً هو العلم في اصطلاح آخر ، هو اصطلاح علماء التدوين ؛ لأننا بصدد الكلام في علوم القرآن كفنّ مدون .

(قالوا : يطلق العلم على المسائل المضبوطة بجهة واحدة) والغالب أن تكون تلك المسائل نظرية كلية ، وقد تكون ضرورية ، وقد تكون جزئية . أقول : وقد تكون شخصية أيضاً كمسائل علم الحديث رواية ، فإنها في الواقع قضايا شخصية موضوعها ذات النبي ﷺ .

وقال السعد في « المقاصد » وعبد الحكيم على المطول : ما يفيد أن العلم المدون قد يطلق على طائفة من التصورات ، أي المفردات التي يتصورها العقل مضبوطة بجهة واحدة . وأقول : يمكن أن نستخلص من ذلك كلاً أن العلم في عرف التدوين العام يقال على المعلومات المنضبطة بجهة واحدة سواء كانت وحدة الموضوع أم وحدة الغاية ؛ وسواء

أكانت تلك المعلومات تصورات كعلم البديع ، أم تصديقات . وسواء أكانت تلك التصديقات قضايا كاية - وهو الغالب - أم جزئية أم شخصية كعلم الحديث رواية . هذا كله إطلاق واحد من إطلاقات ثلاثة لعلماء التدوين . والإطلاق الثاني عندهم : (هو الإدراك أى إدراك تلك المعارف السالفة) والإطلاق الثالث : هو على ما يسمونه ملكة الاستحصاى أى التى تستحصل بها تلك المعارف . أو ملكة الاستحضار أى التى تستحضر بها المعارف بعد حصولها . وأول هذه الإطلاقات هو أولها بالقبول لأنه المتبادر من نحو قولهم : « تعلمتُ علماً من العلوم ، وموضوع العلم كذا » والتبادر - كما يقولون - أمانة الحقيقة . ذلك ما أردنا بسطه فى الكلام على لفظ « علوم » من قولنا : « علوم القرآن » .

(٢ - أما لفظ القرآن : فهو فى اللغة مصدر مرادف للقراءة ، ومنه قوله تعالى : « إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ ، من باب إطلاق المصدر على مفعواه) . ذلك ما نختاره استناداً إلى موارد اللغة ، وقوانين الاشتقاق ، وإليه ذهب اللحيانى وجماعة . أما القول بأنه وصف من القرء بمعنى الجمع ، أو أنه مشتق من القرائن . أو أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء ، أو أنه مرتجل أى موضوع من أول الأمر علماً على الكلام المعجز المنزل ، غير مهموز ولا مجرد من أل ، فكل أولئك لا يظهر له وجه وجيه ، ولا يخلو توجيه بعضه من كلفة ، ولا من بعد عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة . وعلى رأى المختار فلفظ قرآن مهموز ؛ وإذا حذف همزه ، فإنما ذلك للتخفيف ، وإذا دخلته « أل » بعد القسمية فإنما هى للمح الأصل لا للتعريف)

(ويقال للقرآن : فرقان أيضاً ، وأصله مصدر كذلك ، ثم سمي به النظم الكريم ، تسمية للمفعول أو الفاعل بالمصدر ، باعتبار أنه كلام فارق بين الحق والباطل ، أو مفروق

بعضه عن بعض في النزول ، أوفى السور والآيات . قال تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ
الْقُرْآنَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » ثم إن هذين الاسمين هما أشهر أسماء
الغظم الكريم . بل جعلهما بعض المفسرين مرجع جميع أسمائه ، كما ترجع صفات الله على
كثرتها إلى معنى الجلال والجمال . وبلى هذين الاسمين في الشهرة : هذه الأسماء الثلاثة :
الكتاب ، والذكر والتعزيب . وقد تجاوز صاحب البرهان حدود القسمية ، فبلغ بعدتها
خمس وخمسين ، وأسرف غيره في ذلك حتى بلغ بها نيفاً وتسعين ، كما ذكره صاحب
التبيان . واعتمد هذا وذاك على إطلاقات واردة في كثير من الآيات والسور ، وفاتهما
أن يفرقا بين ما جاء من تلك الألفاظ على أنه اسم ، وما ورد على أنه وصف ، ويتضح
ذلك لك على سبيل التمثيل ، في عدما من الأسماء ، لفظ « قرآن » ولفظ « كريم » أخذاً
من قوله تعالى « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » كما عدّا من الأسماء لفظ « ذكر » ولفظ « مبارك »
اعتماداً على قوله تعالى : « وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ » على حين أن لفظ قرآن وذكر
في الآيتين ، مقبول كونهما اسمين . أما لفظ كريم ومبارك ؛ فلا شك أنهما وصفان كما ترى .
والخطب في ذلك سهل يسير ، بيد أنه مسهب طويل ، حتى لقد أفرد به بعضهم بالتأليف .
وفيما ذكرناه كفاية « وَكَلَى اللَّهُ قَصْدُ السَّبِيلِ » .

القرآن في الاصطلاح

معلوم أن القرآن كلام الله ، وأن كلام الله غير كلام البشر ، ما في ذلك ريب .
ومعلوم أيضاً أن الإنسان له كلام ، قد يراد به المعنى المصدري ، أى التكلم ، وقد يراد
به المعنى الحاصل بالمصدر ، أى المتكلم به . وكل من هذين المعنيين : لفظي ونفسي .
فالكلام البشرى اللفظي بالمعنى المصدري : هو تحريك الإنسان لسانه وما يساعده في
إخراج الحروف من الخارج . والكلام اللفظي بالمعنى الحاصل بالمصدر : هو تلك الكلمات

المنطوقة ، التي هي كيفية في الصوت الحسى ، وكلا هذين ظاهر لا يحتاج إلى توضيح .
أما الكلام النفسى بالمعنى المصدري ، فهو تحضير الإنسان في نفسه بقوته المتكلمة الباطنة ،
الكلمات التي لم تبرز إلى الجوارح ؛ فيتكلم بكلمات متخيلة يرتبها في الذهن بحيث إذا
تلفظ بها بصوت حسى كانت طبق كلماته اللفظية . والكلام النفسى بالمعنى الحاصل
بالمصدر : هو تلك الكلمات النفسية والألفاظ الذهنية المترتبة ترتيباً ذهنياً منطبقاً عليه
الترتيب الخارجى .

ومن الكلام البشرى النفسى بنوعيه قوله تعالى : « فَأَسْرَهَا يُوَسِّفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ
يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ : أَنَسِمُ شَرًّا مَكَانًا » . ومنه الحديث الشريف الذى رواه الطبرانى
عن أم سلمة أنها سمعت رسول الله ﷺ وقد سأله رجل فقال : « إِنِّى لأُحَدِّثُ نَفْسِى
بالشئ لَوْ تَكَلَّمْتُ بِهِ لأُحْبِطُ أَجْرِي » فقال عليه السلام : « لَا يَلْقَى ذَلِكَ الْكَلَامَ
إِلَّا مُؤْمِنٌ » فأنت ترى أن النبى ﷺ سَمَّى ذلك الشئ الذى تحدث به النفس كلاماً ،
مع أنه كلمات ذهنية لم ينطق بها الرجل مخافة أن يحبط بها أجره . وهذا الإطلاق من
الرسول يحمل على الحقيقة لأنها الأصل ولا صارف عنها .

كذلكم القرآن كلام الله - والله المثل الأعلى - قد يطلق ويراد به الكلام النفسى ،
وقد يطلق ويراد به الكلام اللفظى . والذين يطلقونه إطلاق الكلام النفسى هم المتكلمون
خسب ، لأنهم المتحدثون عن صفات الله تعالى النفسية من ناحية ، والمقررون لحقيقة
أن القرآن كلام الله غير مخلوق من ناحية أخرى . أما الذين يطلقونه إطلاق الكلام
اللفظى ، فالأصوليون والفقهاء وعلماء العربية ، وإن شاركهم فيه المتكلمون أيضاً ،
بإطلاق ثالث عندهم كما يقين لك بعد . وإنما عني الأصوليون والفقهاء بإطلاق القرآن
على الكلام اللفظى ، لأن غرضهم الاستدلال على الأحكام وهو لا يكون إلا بالألفاظ .
وكذلك علماء العربية يعنيهم أمر الإعجاز ، فلا جرم كانت وجهتهم الألفاظ .

والمتكلمون يُعْمِنُونَ أيضاً بتقرير وجوب الإيمان بكتب الله المنزلة ومنها القرآن ،
وبإثبات نبوة الرسول ﷺ بمجزة القرآن . وبدهى أن ذلك كله مناطه الألفاظ ، فلا
يدع أن ساهموا في هذا الإطلاق الثالث .

القرآن عند المتكلمين

ثم إن المتكلمين حين يطلقونه على الكلام النفسى يلاحظون أمرين :
(أحدهما : أن القرآن علم أى كلام ممتاز عن كل ماعداه من الكلام الإلهى .

ثانيهما : أنه كلام الله ، وكلام الله قديم غير مخلوق ، فيجب تنزهه عن الحوادث
وأعراض الحوادث)

وقد علمت أن الكلام النفسى البشرى يطلق بإطلاقين أحدهما : على المعنى المصدري
وثانيهما على المعنى الحاصل بالمصدر . فكذلك كلام الله النفسى . يطلق بإطلاقين أحدهما :
على نظير المعنى المصدري للبشر . وثانيهما : على نظير المعنى الحاصل بالمصدر للبشر . وإنما
قلنا (على نظير) لما هو مقرر من وجوب تنزه الكلام الإلهى النفسى عن الخلق وأشباه
الخلق . فعرفوه بالمعنى الأول الشبيه بالمعنى المصدري البشرى . وقالوا : « إنه الصفة
القديمة المتعلقة بالكلمات الحكيمية . من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس » .

وهذه الكلمات أزلية مجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية . وهى مرتبة
غير متعاقبة . كالصورة تنطبع فى المرآة مرتبة غير متعاقبة . وقالوا فى تعريفهم هذا :
إنها حكيمية لأنها ليست ألفاظاً حقيقية مصورة بصورة الحروف والأصوات . وقالوا :
إنها أزلية ، لثبتوا لها معنى القدم . وقالوا : إنها مجردة عن الحروف اللفظية والذهنية
والروحية لينفوا عنها أنها مخلوقة . وكذلك قالوا : إنها غير متعاقبة ، لأن التعاقب يستلزم
الزمان ، والزمان حادث . وأثبتوا لها الترتب ، ضرورة أن القرآن حقيقة مرتبة بل بممازاة
بكمال ترتبها وانسجامها .

إذا عرفت هذا الإطلاق الأول عند المتكلمين ، سهل عليك أن تعرف إطلاقهم الثاني للقرآن الكريم (وهو أنه تلك الكلمات الحكيمية الأزلية المترتبة في غير تعاقب لمجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية . وهو تعريف للقرآن كلام الله بما يشبه المعنى الحاصل بالمصدر لكلام البشر النفسى . ذاك إطلاقان اختص بهما المتكلمون كما رأيت .

وهناك إطلاق ثالث للقرآن يقول به المتكلمون أيضاً لكن يشاركون فيه الأصوليون والفقهاء وعلماء العربية . ذلك أنه هو :
« اللفظ المنزل على النبي ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس » الممتاز بخصائصه التي سنذكرها بعد قليل .

فهو مظاهر وصور لتلك الكلمات الحكيمية الأزلية ، التي أشرنا إليها آنفاً . ويطلق القرآن إطلاقاً رابعاً على النقوش المرقومة بين دفتي المصحف ، باعتبار أن النقوش دالة على الصفة القديمة ، والكلمات الغيبية ، واللفظ المنزل . وهذا إطلاق شرعى عام . ولنضرب لك مثلاً بوضح ذلك المقام الذى ضلّت فيه الأفهام ، وزلّت فيه الأقدام .

رجل شاعر ، كشراف الدين البوصيرى - رحمه الله - لا ريب أنه كان يحمل في نفسه قوة شاعرة ، يستطيع أن يصوغ بها ما شاء من غرر القصائد ، وعندما اتجهت شاعريته فعلاً ، أن يمتدح أفضل الخليقة صلوات الله وسلامه عليه بقصيدته المعروفة بالهمزية ، لا شك أنه عاجل النظم في نفسه ، واستحضر المعاني والألفاظ والأوزان ، حتى تمثل له ذلك القصيد في نفسه وتأثرت نفسه به ، على وجه إذا تكلم به بصوت حسى كان عين نظمه الملقى الموزون . ثم لاشك أنه نطق بقصيده بعد ، ثم كتبه بعد أن أنشده . فهذا الاسم الشهير بالهمزية في مدح خير البرية ، يمكن أن تقرب

به الإطلاقات الأربعة التي أطلقنا بها القرآن الكريم : يصح أن نطلق المهرزية على القوة الشاعرة لذلك الرجل باعتبار اتجاهها إلى هذا النظم الخاص ، الذي تمثل في نفسه من قبل أن يأخذ صورة اللفظ والنقش . ويصح أن نطلقها على هذا النظم الخاص ، الذي تمثل في نفسه من قبل أن يظهر بمظهر الألفاظ والنقوش كذلك . ويصح أن نطلقها على هذا النظم بعد أن تمثل أصواتاً ملفوظة وحروفاً موزونة . ويصح أن نطلقها على هذا النظم متمثلاً في صورته المرسومة ، ونقوشه المكتوبة .

القرآن عند الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية

أظنني قد أطلت عليك ولكن القام دقيق وخطير ، فلا تضق ذرعاً بهذا التطويل والتمثيل ، ثم استمع لما وعدتك إياه من بيان (معنى القرآن على أنه اللفظ المنزل على النبي ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس)

هذا الإطلاق كما علمت — ينسب إلى علماء الأصول والفقه واللغة العربية . ويوافقهم عليه المتكلمون أيضاً . غير أن هؤلاء الذين أطلقوه على اللفظ المنزل النح اختلفوا في تعريفه : فمنهم من أطل في التعريف وأطنب ، بذكر جميع خصائص القرآن الممتازة . ومنهم من اختصر فيه وأوجز . ومنهم من اقتصد وتوسط . فالذين أطنبوا عرفوه (بأنه الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ ، المكتوب في المصاحف ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بقلاوته) وأنت ترى أن هذا التعريف جمع بين الإعجاز ، والتنزيل على النبي ﷺ ، والكتابة في المصاحف ، والنقل بالتواتر ، والتعبد بالتلاوة . وهي الخصائص العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم . وإن كان قد امتاز بكثير سواها . ولا يخفى عليك أن هذا التعريف كان يكفي فيه ذكر بعض تلك الأوصاف ويكون جامعاً مانعاً ، غير أن مقام التعريف مقام إيضاح وبيان ، فيناسبه الإطناب لغرض زيادة ذلك والبيان . لذلك استباحوا لأنفسهم أن يزيدوا فيه ويسهبوا .

والذين اختصروا وأوجزوا في التعريف : منهم من اقتصر على ذكر وصف

واحد هو الإيجاز . ووجهة نظرم في هذا الاختصار أن الإيجاز هو الوصف الذاتي للقرآن .
وأنه الآية الكبرى على صدق النبي ﷺ ، والشاهد العدل على أن القرآن كلام الله .
ومنهم من اقتصر على وصفين : هما الإنزال و الإيجاز ، وحجتهم أن ما عدا هذين
الوصفين ليس من الصفات اللازمة للقرآن . بدليل أن القرآن قد تحقق فعلاً بهما دون
سواهما على عهد النبوة .

ومنهم من اقتصر على وصفي النقل في المصاحف والتواتر ، لأنهما يكتفيان في تحصيل
الغرض ، وهو بيان القرآن وتمييزه عن جميع ما عداه .

والذين توسطوا : منهم من عرض لإنزال الألفاظ ، وللكتابة في المصاحف والنقل
بالتواتر فحسب ، موجّهاً رأيه بأن المقصود هو تعريف القرآن لمن لم يدركه زمن النبوة ،
وأن ما ذكره من الأوصاف هو من اللوازم البينة لأولئك الذين لم يدركوها ، بخلاف
الإيجاز فإنه غير بين بالنسبة لهم ، وليس وصفاً لازماً لما كان أقل من سورة من القرآن .
ومن أولئك الذين توسطوا من عرض للإنزال والنقل بالتواتر والتعبد بالتلاوة فقط ،
مستنداً إلى أن ذلك هو الذي يناسب غرض الأصوليين . وعرفوه بأنه : (اللفظ المنزل على
النبي ﷺ ، المنقول عنه بالتواتر ، المتعبد بتلاوته) فاللفظ جنس في التعريف ، يشمل المفرد
والمركب . ولا شك أن الاستدلال على الأحكام كما يكون بالمركات يكون بالمفردات ،
كالعام والخاص والمطلق والمقيّد . وخرج بالمنزل على النبي ﷺ ما لم ينزل أصلاً مثل
كلامنا ، ومثل الحديث النبوي ، وما نزل على غير النبي ﷺ كالتوراة والإنجيل . وخرج
بالمنقول تواتراً جميع ما سوى القرآن من منسوخ التلاوة والقراءات غير المتواترة ، سواء
أكانت مشهورة نحو قراءة ابن مسعود « متتابعات » عقيب قوله تعالى « فَمَنْ لَمْ يُجِدْ
فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » أم كانت آحادية كقراءة ابن مسعود أيضاً لفظ « مُتَتَابِعَاتٍ » عقيب
قوله سبحانه « وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » فإن شيئاً

من ذلك لا يسمى قرآنًا ، ولا يأخذ حكمه . وخرجت الأحاديث القدسية إذا تواترت بقولهم « المتعبد بتلاوته » .

✕

هل القرآن علمٌ شخص ؟

أسلفنا أن القرآن يطلق على الصفة القديمة ، ويطلق على الكلمات الحكمية الأزلية ، وهذان الإطلاقان لا تعدد فيهما ألبتة ، لا حقيقة ولا اعتباراً . بل هما منزهان عنه ، لأن التعدد من أمارات الحدوث . كيف وهما قديمان ؟

وإذا فلفظ القرآن علم شخص بهذين الإطلاحين لا محالة . أما إذا أريد بالقرآن « اللفظ المنزل » فهذا يكون الخلاف . فالرأي السائد أنه علم شخص ، مدلوله تلك الآيات للنزلة الممتازة بخصائصها العليا من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس . وهذه الألفاظ المعينة لا يقدح في تشخصها اختلاف المتلفظين ولا تعدد القارئین ، كما لا يقدح في تشخص محمود مثلاً أن يكون في مكة أو في المدينة ، ولا أن يتقلب في أطوار مختلفة من طفولة إلى شيخوخة ، ومن صحة إلى مرض ، ومن حياة إلى موت ، ونحو ذلك . وبعضهم يجعله علم جنس ، نظراً إلى تعدد هذه الألفاظ المنزلة بتعدد قارئها وكتبتها . وهذا مردود من وجهين :

أحدهما : أن علم الجنس ضرورة نحوية اقتضتها أحكام لفظية ، كامتناع إضافته ، ودخول أل عليه . ولا ضرورة هنا لفظية .

ثانيهما : أن علم الجنس نكرة في المعنى . وأفراده منتشرة متعددة حقيقة لا اعتباراً . والتعدد الملحوظ هنا اعتباري لا حقيقي . للقطع بأن ما يقرؤه أو يكتبه كل منا فهو القرآن عينه لا فرد من أفراده .

هل يُصاغ للأعلام تعاريف

بقي علينا أن نسأل : إذا كان القرآن علماً فكيف ساغ أن يُصاغ له تعريف

بل تعاريف على نحو ماسبق ؟ مع أن التعاريف لا تكون إلا للكليات ، والعلم جزئي مركب من الماهية ومشخصاتها . والمشخصات لا يمكن معرفتها إلا بالاطلاع عليها بالحواس كالإشارة مثلا ، أو بالتعبير عنها باسم علم ؟
ولنا على ذلك أجوبة ثلاثة :

أولها : أنا نمنع أن التعاريف لا تكون إلا للكليات . لم لا يجوز أن تعرف الجزئيات بأمور كلية لا يتحقق مجموعها في الخارج إلا في هذا الشخص بخصوصه . وهذا الجواب قريب مما ذكره صاحب التلويح ؛ إذ قال : « الحق أن الشخص يمكن أن يُحدَّ بما يفيد امتيازَه عن جميع ما عداه بحسب الوجود ، لا بما يفيد تعينه وتشخصه بحيث لا يمكن اشتراكه بين كثيرين بحسب العقل . فإن ذلك إنما يحصل بالإشارة لا غير » اهـ .

ثانيها : أنا نسلم أن التعاريف لا تكون إلا للكليات . لكن ما ذكره ليس بتعريف حقيقى إنما هو ضابط مميز ، وليس بمعرّف .

ثالثها : أن هذا تعريف على رأى الأصوليين الذين لا يشترطون في التعاريف أجناساً ولا فصولاً . بل الحد عندهم هو الجامع المانع مطلقاً . وعليه فيصح أن يحد الشخص عند الأصوليين دون المناطقة .

إطلاق القرآن على الكل وعلى أبعاضه

لا شك أن القرآن يطلق على الكل وعلى أبعاضه . فيقال لمن قرأ اللفظ المنزل كله : إنه قرأ قرآنًا . وكذلك يقال لمن قرأ ولو آية منه : إنه قرأ قرآنًا . لكنهم اختلفوا : فقيل : إن لفظ قرآن حقيقة في كل منهما ، وإذاً يكون مشتركاً لفظياً . وقيل : هو موضوع للقدر المشترك بينهما ، وإذاً يكون مشتركاً معنوياً ، ويكون مدلوله حينئذ كلياً .

وقد يقال : إن إطلاقه على الكل حقيقة وعلى البعض مجاز . والفحقيق أنه مشترك لفظي ، بدليل التبادر عند إطلاق اللفظ على الكل وعلى البعض كليهما ، والتبادر أمانة الحقيقة . والقول بعلمية الشخص فيه كما حققنا آنفا يمنع أنه مشترك معنوي ، فتعين أن يكون مشتركاً لفظياً . وهو ما يفهم من كلام الفقهاء إذ قالوا مثلاً : (يحرم قراءة القرآن على الجنب) فإنهم يقصدون حرمة قراءته كله أو بعضه على السواء .

٣ — معنى علوم القرآن بالمعنى الإضافي

الآن وقد انتهينا من الكلام على المتضايين في لفظ « علوم القرآن » ننقل بك إلى أن الإضافة بينهما تشير إلى طوائف المعارف المتصلة بالقرآن سواء أكانت تصورات أم تصديقات ، على ما عرفت وجه اختياره في مدلول لفظ العلم في عرف التدوين العام . وإنما جمعت هذه العلوم ولم تفرد لأنه لم يقصد إلى علم واحد يتصل بالقرآن . وإنما أريد شمول كل علم يخدم القرآن أو يستند إليه . وينتظم ذلك علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الرسم العثماني ، وعلم إيجاز القرآن ، وعلم أسباب النزول ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم إعراب القرآن ، وعلم غريب القرآن ، وعلوم الدين واللغة إلى غير ذلك . وتلك أشقات من العلوم توسّع السيوطي فيها حتى اعتبر منها علم الهيئة والهندسة والطب ونحوها . ثم نقل عن أبي بكر بن العربي في قانونه التأويل أنه قال : « علوم القرآن ٧٧٤٥٠ خمسون وأربعمائة وسبعة آلاف وسبعون ألف علم ، على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة . إذ أن لكل كلمة ظهراً وبطناً ، وحداً ومطلماً . هذا في المفردات فحسب . أما إذا اعتبرت التراكيب وما بينها من روابط كان ما لا يحصى ، مما لا يعلمه إلا الله تعالى » اهـ بتصرف قليل .

وأجب أن تعرف أن هذا الكلام من السيوطي وابن العربي ، محمول على ضرب

كبير من التأويل والتوسع ، بأن يراد من العلوم كل ما يدل عليه القرآن من المعارف ، سواء أكانت علوماً مدونة أم غير مدونة ، وسواء أكانت تلك الدلالةً تصريحية أم تلميحية ، عن قرب أم عن بعد . فأما أن تُراد العلوم المدونة صراحة فدون ذلك خرط القناد وصعود السماء .

القرآن كتاب هداية وإعجاز

وتحقيق القول في هذا الموضوع : أن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز ، من أجل هذين المصحين نزل ، وفيهما تحدث ، وعليهما دل . فكل علم يتصل بالقرآن من ناحية قرآنيته ، أو يتصل به من ناحية هدايته أو إعجازه ، فذلك من علوم القرآن . وهذا ظاهر في العلوم الدينية والعربية .

أما العلوم الكونية ، وأما المعارف والصنائع ، وما جدّ أو يحدّ في العالم من فنون ومعارف كعلم الهندسة والحساب ، وعلم الهيئة والفلك ، وعلم الاقتصاد والاجتماع ، وعلم الطبيعة والكيمياء ، وعلم الحيوان والنبات ، فإن شيئاً من ذلك لا يحمل عدّه من علوم القرآن ؛ لأن القرآن لم ينزل ليُدلّل على نظرية من نظريات الهندسة مثلاً ، ولا ليقرّر قانوناً من قوانينها . وكذلك علم الهندسة لم يوضع ليخدم القرآن في شرح آياته ، أو بيان أسرارها . وهكذا القول في سائر العلوم الكونية والصنائع العالمية . وإن كان القرآن قد دعا المسلمين إلى تعلمها وحِذَقها والتمهّر فيها خصوصاً عند الحاجة إليها . وإنما قلنا : إنه لا يحمل اعتبار علوم الكون وصنائعها من علوم القرآن مع أن القرآن يدعو إلى تعلمها ؛ لأن هناك فرقاً كبيراً بين الشيء يحثُّ القرآن على تعلّمه في هوماته أو خصوصاته ، وبين العلم يدلُّ القرآن على مسائله أو يرشد إلى أحكامه ، أو يكون ذلك العلم خادماً للقرآن بمسائله أو أحكامه أو مفرداته . فالأول ظاهر أنه لا يعتبر من علوم القرآن بخلاف الثاني . وهو ما نريد أن نرشدك إليه ، وأن نعرض أنت بدورك عليه .

القرآن يحضُّ على الانتفاع بالكون

أَجَلٌ: إن القرآن حضُّ على معرفة علوم الكون وصنائع العالم، وحثُّ على الانتفاع بكل ما يقع تحت نظرنا في الوجود. قال سبحانه وتعالى «قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» وقال جلَّتْ حكمته «وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». فلا يليق بالمسلمين وهم المخاطبون بهذا أن يفرِّقوا من وجه هذه المنافع العامة، ولا أن يزهدوا في علوم الكون، ولا أن يحرِّموا أنفسهم فوائد التمتع بثمرات هذه القوى العظيمة التي أودعها الله خلقه، في خزائن سمواته وأرضه. ولهذا نصَّ علماؤنا على أن تعلم تلك العلوم الكونية، وحقق هذه الصناعات الفنية، فرضٌ من فروض الكفايات، ماداموا في حاجة إليها لمصلحة الفرد أو المجموع. وذلك لأن البقاء في هذه الحياة للأصلح، والحياة في هذا الوجود للسلام المسلح، والأسلحة في كل عصر عامة وفي هذا العصر خاصة إنما تقوم على التمهُّد في العلوم وعلى السبق في حلبة الصناعات والفنون. والويل فينا للضعيف، والخطأ كل الخط للقوى، والله تعالى يقول: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ»، والنبي ﷺ يقول فيما رواه مسلم عن أبي هريرة: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف، وفي كل خيرٍ. احرصن على ما ينفعك، واستعين بالله ولا تعجزن. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان».

إعجاز علمي للقرآن

وأحبُّ ألا أنتهى من هذا الموضوع حتى أنبهك إلى شيء آخر جدير بالنظر والتقدير: وهو أن القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حاكم الناس إلى عقولهم، وفتح عيونهم إلى الكون وما في الكون من سماء وأرض،

حور وبحر ، وحيوان ونبات ، وخصائص وظواهر ؛ ونواميس وسنن . وكان القرآن
على طريقة عرضه هذه موقفاً كل التوفيق ، بل كان معجزاً أبهر الإعجاز ؛ لأن حديثه
عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها ، الخبير بدقائقها ، المحيط بعلومها
ومعارفها ، على حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رجل أمي ، نشأ في أمة أمية جاهلة ،
لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ، ولا إلمام لها بكتبتها ومباحثها . بل إن بعض تلك
العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط الوحي بقرون وأجيال . فأتى بكون لرجل
أمي كمحمد ذلك السجل الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم
عليم ؟ قال سبحانه مقررأ لهذا الإعجاز العلمي : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ
كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي
صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ » ولعل من الحكمة أن
أن نسوق لك نموذجين من القرآن على سبيل التمثيل ؛ أولهما في سورة النور إذ يقول
الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى
الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » قل لي - بربك -
ألا يملكك العجب حين تقرأ هذا النص الكريم الذي يتفق وأحدث النظريات العلمية
في الظواهر الطبيعية : من سحب ، ومطر ، وبرق ١٩ .

النموذج الثاني : يقول الله تعالى في سورة القيامة مبيناً ومقررأ كمال اقتداره على
إعادة الإنسان وبعثه بعد موته : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ . بَلَى
قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِّيَ بَنَانَهُ » . أرجو أن تقف قليلا عند تخصيصه « البنان »
بالنسوية في هذا المقام . ثم تستمع بعد ذلك إلى هذا العلم الوليد (علم تحقيق الشخصية)
في عصرنا الأخير ، وهو يقرر أن أدق شيء وأبدع في بناء جسم الإنسان ، هو تسوية
البنان ، حتى إنه لا يمكن أن تجد بنانا لأحد يشبه بنان آخر بحال من الأحوال .
وقد انتهوا من هذا القرار إلى أن حكموا البنان في كثير من القضايا والحوادث

« فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » ! ولا أريد أن أطيل عليك في هذا ؛ فمجزات القرآن العلمية لها ميدان آخر . إنما هي نظرة خاطفة نوضح بها المراد بعلوم القرآن ، ونوجه بها كلام السيوطي في الإتيان ، ونعتذر فيها عن ابن العربي في التأويل . والله وحده هو المحيط بأسرار كتابه . ولا يزال الكون وما يحدث في الكون من علوم وفنون وشؤون : لا يزال كل أولئك بشرح القرآن ويفسره ، ويميط اللثام عن نواح كثيرة من أسرارهِ وإعجازه ، مصداقاً لقوله جلّ ذكره « سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي آلَاقٍ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » . « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

٤ — معنى علوم القرآن كفن مدون ، وموضوعه ، وقائده

أما بعد ، فقد تبين لك فيما سبق ، أن لفظ علوم القرآن يراد بمعناه الإضافي ما يشمل العلوم الدينية والعربية ، ونفيك هنا أن هذا اللفظ نقل من ذلك المعنى الإضافي ، ثم جعل علماً على الفن المدون ، وأصبح مدلوله بعد النقل وهو علم ، غير مدلوله قبل النقل وهو مركب إضافي ، ضرورة أن هذا الفن ليس هو مجموعة العلوم الدينية والعربية ، بل هو غيرها ، وإن كان مستمداً منها ، ومأخوذاً عنها ، ويمكن أن نعرفه : بأنه مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله ، وترتيبه، وجمعه ، وكتابته وقراءته وتفسيره ، وإعجازه ، وناسخه ومنسوخه ، ودفع الشبه عنه ، ونحو ذلك .

وموضوعه القرآن الكريم من أية ناحية من النواحي المذكورة في التعريف . بخلاف علوم القرآن بالمعنى الإضافي ، فإن موضوعه هو مجموع موضوعات تلك العلوم المنضوية تحت لوائه . وموضوع كل واحد منها هو القرآن الكريم من ناحية واحدة من تلك النواحي . فلم القراءات مثلاً موضوعه القرآن الكريم من ناحية لفظه وأدائه ، وعلم التفسير موضوعه القرآن الكريم من ناحية شرحه ومعناه ، وهلمّ جراً .

وقائده هذا العلم : ترجع إلى الثقافة العالية العامة في القرآن الكريم ، وإلى التسليح بالمعارف القيّمة فيه ، استعداداً لحسن الدفاع عن حمى الكتاب العزيز ، ثم إلى سهولة

خوض غمار تفسير القرآن الكريم به كمفتاح للفسرين ، فثله من هذا الناحية كمثل علوم الحديث بالنسبة لمن أراد أن يدرس علم الحديث .

وقد صرح السيوطي بذلك في خطبة كتابه الإتقان إذ قال : « ولقد كنت في زمان الطلب أتعجب من المتقدمين ، إذ لم يدونوا كتاباً في أنواع علوم القرآن ، كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث » ١٠ .

ثم رأيت صاحب كتاب التبيان في علوم القرآن ، يشير إلى ذلك المعنى ؛ إذ وضع على طرّة كتابه الكلمة الآتية :

« وهذا هو المقدمة الصغرى من مقدمتي التفسير » .

هذا - وإنما سمي هذا العلم القرآن (بالجمع دون الأفراد) . للإشارة إلى أنه خلاصة علوم متنوعة ، باعتبار أن مباحثه المدوّنة تتّصل اتصالاً وثيقاً - كما علمت - بالعلوم الدينية والعلوم العربية ، حتى إنك لتجد كل مبحث منها خليقاً أن يُسلك في إعداد مسائل علم من تلك العلوم .

فنسبته إليها كنسبة الفرع إلى أصوله ، أو الدليل إلى مدلوله . وما أشبهه ببقاوة منسقة من الورود والياسمين ، إزاء بستان حافل بألوان الزهور والرياحين . « والحمد لله رب العالمين » .

المبحث الثاني

في تاريخ علوم القرآن وظهور اصطلاحه

عهد ما قبل التدوين

كان الرسول ﷺ وأصحابه يعرفون عن القرآن وعلومه ، ما عرف العلماء وفوق ما عرف العلماء من بعد . ولكن معارفهم لم توضع على ذلك العهد كفنون مدوّنة ، ولم تجمع في كتب مؤلفة ، لأنهم لم تكن لهم حاجة إلى التدوين والتأليف .

أما الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فلا نه كان يتلقى الوحي عن الله وحده .
والله تعالى كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعه له في صدره ، وليطلقنَّ لسانه بقراءته
وترنيله ، وليميطنَّ له اللثام عن معانيه وأسراره . اقرأ إن شئت قوله سبحانه :
« لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ
قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » .

ثم بلغ الرسول ما أنزل عليه لأصحابه ، وقراه على الناس على مَكْتَبِ أى على
مَهْلٍ وتؤدة ، ليحسنوا أخذه ، ويحفظوا لفظه ، ويفهموا سره . ثم شرح الرسول
لهم القرآن بقوله ، وبعمله ، وبقريره ، وبخلقه ، أى بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله ،
وتقريراته ، وصفاته ، مصداقاً لقوله سبحانه « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ
مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » . ولكن الصحابة وقتئذ كانوا عرباً خلصاً ،
متمتعين بجميع خصائص العروبة ومزاياها الكاملة من قوة في الحافظة ، وذكاء في
القرينة ، وتدقيق للبيان ؛ وتقدير للأساليب ، ووزن لما يسمعون بأدق المعايير ، حتى
أدركوا من علوم القرآن ومن إعجازه بسليقتهم وصفاء فطرتهم ، ما لا نستطيع نحن أن ندرکه
مع زخمة العلوم وكثرة الفنون .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم مع هذه الخصائص أميين ، وأدوات الكتابة
لم تكن ميسورة لديهم ، والرسول نهام أن يكتبوا عنه شيئاً غير القرآن وقال لهم أول
العهد بنزول القرآن فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه :
« لَا تَكْتُبُوا عَنِّي . ومن كتب غير القرآن فَلْيَمَحْهُ . وَحَدَّثُوا عَنِّي فَلَا حَرَجَ . ومن
كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . وذلك مخافة أن يلتبس القرآن بغيره ، أو
يختلط بالقرآن ما ليس منه ؛ ما دام الوحي نازلاً بالقرآن . فلتلك الأسباب المتضاربة لم
تكتب علوم القرآن ، كما لم يكتب الحديث الشريف . ومضى الرعيل الأول على ذلك في عهد
الشيخين أبي بكر وعمر . ولكن الصحابة كانوا مضرب الأمثال في نشر الإسلام

وتعاليمه ، والقرآن وعلومه ، والسنة وتحريرها ، تلقيناً لا تدويناً ، ومشافهة لا كتابة .

عهد التمهيد لتدوين علوم القرآن

ثم جاءت خلافة عثمان رضى الله عنه ، وقد اتسعت رقعة الإسلام ، واختلط العرب الفاتحون بالأُم التي لا تعرف العربية ، وخيف أن تذوب خصائص العروبة من العرب من جراء هذا الفتح والاختلاف ، بل خيف على القرآن نفسه أن يختلف المسلمون فيه إن لم يجتمعوا على مصحف إمام ، فتكون فتنة في الأرض وفساد كبير . لهذا أمر رضى الله عنه أن يجمع القرآن في مصحف إمام ، وأن تُنسخ منه مصاحف يبعث بها إلى أقطار الإسلام ، وأن يحرق الناس كل ما عداها ولا يعتمدوا سواها . كما يأتيك تفصيله في مبحث جمع القرآن وكتابته .

وبهذا العمل وضع عثمان رضى الله عنه الأساس لما نسميه علم رسم القرآن أو علم الرسم العثماني .

ثم جاء على رضى الله عنه فلاحظ العجمة تحيف على اللغة العربية ؛ وسمع ما أوجس منه خيفة على لسان العرب فأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع بعض قواعد لحماية لغة القرآن من هذا العبث والخلل ، وخط له الخطط وشرع له المنهج . وبذلك يمكننا أن نعتبر أن علياً رضى الله عنه قد وضع الأساس لما نسميه علم النحو ، ويقبعه علم إعراب القرآن . (على الخلاف في هذه الرواية) .

ثم انقضى عهد الخلافة الرشيدة ، وجاء عهد بني أمية ، وهمة مشاهير الصحابة والتابعين متجهة إلى نشر علوم القرآن بالرواية والتلقين ، لا بالكتابة والتدوين . ولكن هذه المهمة في هذا النشر يصح أن نعتبرها تمهيداً لتدوينها . وعلى رأس من ضرب بسهم وفير في هذه الرواية : الأربعة الخلفاء ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير وكلهم من الصحابة رضوان الله عليهم .

وعلى رأس التابعين في تلك الرواية : مجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، وقتادة ،
والحسن البصري ، وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم بالمدينة ، وعنه أخذ ابنه عبد الرحمن
ومالك بن أنس من تابعي التابعين ، رضى الله عنهم أجمعين . وهؤلاء جميعاً يعقبون أنهم
واضعو الأساس لما يسمى علم التفسير ، وعلم أسباب النزول ، وعلم الناسخ والمنسوخ ،
وعلم غريب القرآن ، ونحو ذلك . وتستجد بسطاً لهذا الإجمال في بحث طبقات المفسرين .

عهد التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الإضافي

ثم جاء عصر التدوين ، فألفت كتب في أنواع علوم القرآن ، واتجهت المهم قبل
كل شيء إلى التفسير ، باعتباره أم العلوم القرآنية لما فيه من التعرُّض لها ، في كثير
من المناسبات عند شرح الكتاب العزيز . ومن أوائل الكتّاب في التفسير : شعبة بن
الحجاج ، وسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ، وتفسيرهم جامعة لأقوال الصحابة
والتابعين . وهم من علماء القرن الثاني . ثم تلام ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ
وكتابه أجل التفاسير وأعظمها ؛ لأنه أول من عرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها
على بعض ، كما عرض للإعراب والاستنباط . وبقيت العناية بالتفسير قائمة إلى عصرنا
هذا ، حتى وجدت منه مجموعة رائعة فيها المعجب والمطرب ، والموجز والمطول والمتوسط ،
ومنها التفسير بالمعقول والتفسير بالمأثور ، ومنها تفسير القرآن كله ، وتفسير جزء ، وتفسير
سورة وتفسير آية ، وتفسير آيات الأحكام إلى غير ذلك .

أما علوم القرآن الأخرى ، ففي مقدمة المؤلفين فيها : علي بن المديني شيخ البخاري ؛
إذ أُلّف في أسباب النزول ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ؛ إذ كتب في الناسخ والمنسوخ ؛
وكلاهما من علماء القرن الثالث . وفي مقدمة من أُلّف في غريب القرآن : أبو بكر
السجستاني ، وهو من علماء القرن الرابع . وفي طليعة من صنف في إعراب القرآن :
علي بن سعيد الحوفي ، وهو من علماء القرن الخامس . ومن أوائل من كتب في

مبهمات القرآن: أبو القاسم عبد الرحمن المعروف بالسبيلي، وهو من علماء القرن السادس. كذلك تصدّر للتأليف في مجاز القرآن: ابن عبد السلام، وفي القراءات: علم الدين السخاوي، وهما من علماء القرن السابع.

وهكذا قويت العزائم، وتبارت الهمم، ونشأت علوم جديدة للقرآن. وظهرت مؤلفات في كل نوع منها، سواء في ذلك أقسام القرآن، وأمثال القرآن، ووجعج القرآن، وبدائع القرآن، ورسم القرآن، وما أشبهها مما يروعك تصوّره بلاء الاطلاع عليه، وما يملأ خزائن كاملة من أعظم المكتبات في العالم. ثم لا يزال المؤلفون إلى عصرنا هذا يزبدون، وعلوم القرآن ومؤلفاته تنبى وتزدهر وتزيد، بينما الزمان ينفى والعالم يبيد! أليس إجمازاً آخر للقرآن؟ يريك إلى أي حد بلغ علماء الإسلام في خدمة التنزيل. ويريك أنه كتاب لا تنفى مجائبه، ولا تنقضى معارفه، ولن يستطيع أن يحيط بأسراره إلا صاحبه ومُنزله!

إذا أضفت إلى علوم القرآن ما جاء في الحديث النبوي الشريف وعلومه وكتبه وبحوثه باعتبارها من علوم القرآن، نظراً إلى أن الحديث شارح للقرآن يبين مبهمات، ويفصل مجملاته، ويخصّص عامه، كما قال سبحانه لنبيه ﷺ «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» أقول: إذا أضفت الحديث النبوي وعلومه إلى علوم القرآن، تراءى لك بحر متلاطم الأمواج. فإذا زدت عليها سائر العلوم الدينية والعربية باعتبارها خادمة للقرآن أو مستمدة منه، رأيت نفسك أمام مؤلفات كالجبال، وموسوعات تكاثر الرمال، ولا يسمع حينئذ إلا أن تردّد قول الله «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ».

وتزداد عجيباً إذا علمت أن طريقة أولئك المؤلفين في تأليفهم، كانت طريقة استيعاب واستقصاء، يعتمد أصحابها أن يحيطوا بمجزيات القرآن من الناحية التي كتبوا فيها بقدر طاقتهم البشرية. فمن يكتب في غريب القرآن مثلاً يذكر كل مفرد

من مفردات القرآن التي فيها غرابة وإيهام ، ومن يكتب في مجاز القرآن يقتنى أثر كل لفظ فيه مجازاً أياً كان نوعه في القرآن ، ومن يكتب في أمثال القرآن يتحدث عن كل مثل ضربه الله في القرآن ، وهكذا سائر أنواع علوم القرآن . ولا ريب أن تلك الجهود الجبارة لا يتهيأ لإنسان أن يحيط بها ولو أفنى عمره ، واستنفد وسعه ! .

لهذا اشتهرت أعناق العلماء أن يمتصروا من تلك العلوم علماً جديداً يكون كالنهر من لها ، والدليل عليها ، والمتحدث عنها . فكان هذا العلم هو ما نسميه (علوم القرآن) بالمعنى المدون .

ولا نعلم أن أحداً قبل المائة الرابعة للهجرة ألف أو حاول أن يؤلف في علوم القرآن بالمعنى المدون ، لأن الدواعي لم تكن موفورة لديهم نحو هذا النوع من التأليف . وإن كنا نعلم أنها كانت مجموعة في صدور المبرزين من العلماء ، على الرغم من أنهم لم يدونوها في كتاب ، ولم يفردها باسم .

أجل : كانت علوم القرآن مجموعة في صدور المبرزين من العلماء . فنحن نقرأ في تاريخ الشافعي رضي الله عنه أنه في محنته التي أشم فيها بأنه رئيس حزب العلويين باليمن ؛ وسبق بسبب هذه التهمة إلى الرشيد مَكْبَلًا بالخديد في بغداد ؛ سأله الرشيد حين لمح علمه وفضله ، فقال : كيف علمك يا شافعي بكتاب الله عز وجل ؟ فإنه أولى الأشياء أن يُبتدأ به . فقال الشافعي : عن أي كتاب من كتب الله تسألني يا أمير المؤمنين ؟ فإن الله تعالى قد أنزل كتباً كثيرة . قال الرشيد : قد أحسنت ، لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمي محمد ﷺ . فقال الشافعي : إن علوم القرآن كثيرة ؛ فهل تسألني عن محكمه ومتشابهه ، أو عن تقديمه وتأخيرهِ ، أو عن ناسخه ومنسوخه ، أو عن . . . أو عن . . . ؟؟ وصار يسرد عليه من علوم القرآن ، ويجيب على كل سؤال بما أدهش الرشيد والحاضرين .

فأنت ترى من جواب الشافعي هذا ، ومن فليحه بالصواب في هذا الموقف الرهيب ،

ما يفتك على أن قلوب أكابر العلماء كانت أناجيل لعلوم القرآن من قبل أن يجمع في كتاب ، أو تدون في علم . وقد نوة جلال الدين البلقيني في خطبة كتابه بكلمة الشافعي التي ذكرناها إذ قال : « قد اشتهر عن الإمام الشافعي رضي الله عنه مخاطبة لبعض خلفاء بني العباس ، فيها ذكر بعض أنواع علوم القرآن يحصل منها لمقصدنا الاقتباس . ونحن لا نستبعد على الشافعي هذا ، فقد كان آية من آيات الله في علمه وذكائه ، وفي ابتكاره وتجديده ، وفي قوة حجته وتوفيقه . حتى إنه وضع كتابه (الحجة) في العراق يستدرك به على مذاهب بعض أهل الرأي ، وألف في مصر كتاباً يستدرك بها على مذاهب بعض أهل الحديث . ثم وضع دستوراً للاجتهاد والاستنباط لم يقس لأحد قبله ، إذ كان أول من صنف في أصول الفقه وهو من علوم القرآن كما علمت . قال ابن خلدون في مقدمته « كان أول من كتب فيه - أي علم أصول الفقه - الشافعي رضي الله عنه ، أمل في رسالته المشهورة ، تكلم فيها على الأوامر والنواهي ، والبيان ، والخبر ، والنسخ ، وحكم العلة المنصوصة من القياس » ١ هـ .

وقال الزركشي في كتابه البحر المحيط في أصول الفقه « الشافعي أول من صنف في أصول الفقه . صنف فيه كتابه الرسالة ، وكتاب أحكام القرآن ، واختلاف الحديث ، وإبطال الاستحسان ، وكتاب جماع العلم ، وكتاب القياس الذي ذكر فيه توضيل المعزلة ورجوعه عن قبول رسالتهم » ١ هـ رضي الله عنه وعن سائر الأئمة المجتهدين .

أول عهد لظهور هذا الاصطلاح

ولقد كان المعروف لدى الكاتبين في تاريخ هذا الفن ، أن أول عهد ظهر فيه هذا الاصطلاح أي اصطلاح علوم القرآن ، هو القرن السابع .

لكني ظفرت في دار الكتب المصرية بكتاب لمحي بن إبراهيم بن سعيد الشهير

بالجوفى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ « اسمه البرهان فى علوم القرآن ». وهو يقع فى ثلاثين مجلداً ،
 والموجود منه الآن خمسة عشر مجلداً ، غير مرتبة ولا متعاقبة ، من نسخة مخطوطة .
 وإذن نستطيع أن نتقدم بتاريخ هذا الفن نحو قرنين من الزمان أى إلى بداية القرن
 الخامس بدلا من القرن السابع . ولقد كنت مشغوقاً أن أقرأ مقدمة كتابه هذا ،
 لأخذ اعترافاً صريحاً منه بمحاولته إنشاء هذا العلم الوليد . ولكن ماذا أصنع ، والجزء
 الأول مفقود ؟ غير أن اسم الكتاب يدلنى على هذه المحاولة . وكذلك استعرضت
 بعض الأجزاء الموجودة فرأيت أنه يعرض الآية الكريمة بترتيب المصحف ثم يتكلم
 عليها من علوم القرآن ، خاصاً كل نوع منها بعنوان ، فيسوق النظم الكريم تحت عنوان :
 (القول فى قوله عز وجل) . وبعد أن يفرغ منه يضع هذا العنوان : (القول فى
 الإعراب) ويتحدث عنها من الفاحية النحوية واللغوية : ثم يبع ذلك بهذا العنوان (القول
 فى المعنى والتفسير) ويشرح الآية بالمأثور والمعقول . ثم ينتقل من الشرح إلى العنوان
 الآتى : (القول فى الوقف والتمام) مبيناً تحتها ما يجوز من الوقف وما لا يجوز . وقد
 يفرّد القراءات بعنوان مستقل فيقول (القول فى القراءة) . وقد يتكلم فى الأحكام
 الشرعية التى تؤخذ من الآية عند عرضها ، فى آية (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
 وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ) من سورة البقرة يذكر أوقات
 الصلاة وأدلتها ، وأنصب الزكاة ومقاديرها . ويتكلم على أسباب النزول ، وعلى النسخ ،
 وما إلى ذلك عند المناسبة . فأنت ترى أن هذا الكتاب أتى على علوم القرآن ، ولكن
 لا على طريقة ضم النظائر والأشباه بعضها إلى بعض تحت عنوان واحد لنوع واحد ، بل
 على طريقة النشر والتوزيع تبعاً لانتشار الألفاظ المتشاكلة فى القرآن وتوزعها . حتى كأن
 هذا التأليف تفسير من التفاسير عرض فيه صاحبه لأنواع من علوم القرآن عند المناسبات .
 وأياً ما يكن هذا الكتاب فإنه مجهد عظيم ، ومحاولة جديرة بالتقدير فى هذا الباب . جزى
 الله مؤلفه خير الجزاء .

ثم جاء القرن السادس فألف فيه ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتابين : أحدهما اسمه « فنون الأفنان في علوم القرآن » والثاني اسمه « المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن ». وكلاهما مخطوط بدار الكتب المصرية.

وفي القرن السابع ألف علم الدين السخاوي المتوفى سنة ٦٤١ هـ كتاباً سماه « جمال القراء » وألف أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ كتاباً أسماه « المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز » وما - كما قال السيرطي - عبارة عن طائفة بسيرة ، ونبذ قصيرة ، بالنسبة للمؤلفات التي ألفت بعد ذلك في هذا النوع .

ثم أهل القرن الثامن فكتب فيه بدر الدين الزر كشي المتوفى سنة ٧٩٤ هـ كتاباً سماه « البرهان في علوم القرآن » وتوجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة التيمورية ، في دار الكتب المصرية ، تقع في مجلدين ناقصين . ثم طلع القرن التاسع على هذا العلم باليمن والبركة ، فدرج فيه وترعرع ، إذ ألف محمد بن سليمان الكافيحي المتوفى سنة ٨٧٣ هـ كتاباً يقول السيوطي عنه : « لأنه لم يسبق إليه ، وقد اشتمل على بابين : الأول في ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية . أما الثاني ففي شروط القول في القرآن بالرأى . وبمدهما خاتمة في آداب العالم والمتعلم » غير أنه قال أخيراً : « ولكن ذلك لم يشف لي غليلاً ؛ ولم يهتدي إلى المقصود سبيلاً » ١ . وفي هذا القرن أيضاً وضع جلال الدين البلقيني كتاباً سماه « مواقع العلوم من مواقع النجوم » . وقد رتبّه على ستة مباحث : الأول في مواطن النزول وأوقاته ووقائمه ، وفيه اثنا عشر نوعاً^(١) . الثاني في سند القرآن وهو ستة أنواع^(٢) . الثالث في أدائه وهو ستة

(١) السكبي ، المدني ، السفري ، الحضري ، الليلي ، النهاري ، الصفي ، الشتائي ، الفرائشي ، أسباب النزول ، أول ما نزل ، آخر ما نزل .
(٢) للتواتر ، الأحاد ، الشاذ ، قراءات النبي صلى الله عليه وسلم ، الرواة ، الحفاظ .

أنواع أيضاً^(١) . الرابع في ألفاظه وهو سبعة أنواع^(٢) . الخامس في معانيه المتعلقة بأحكامه ، وهو أربعة عشرة نوعاً^(٣) . السادس في معانيه المتعلقة بألفاظه وهو خمسة أنواع^(٤) . وبذلك يكمل الكتاب كله خمسين نوعاً غير مافية من أنواع الأسماء والكفى والألقاب والمبهمات . وهي لا تدخل تحت حصر .

وفي هذا القرن التاسع أيضاً ألف السيوطي كتاباً سماه « التعبير في علوم التفسير » ضمنه ما ذكره البقعي من الأنواع مع زيادة مثلها ، وأضاف إليه فوائد سمحت قريحته بنقلها . وقد أوفى هذا الكتاب على الاثنى عشر بعد المائة من الأنواع . وفرغ الإمام من تأليف تحبيره هذا سنة ٨٧٢ هـ غير أن نفسه الكبيرة لم تقنع بهذا المجهود العظيم بل طمح إلى التبجّر والتوسع والترتيب ، فوضع كتابه الثاني « كتاب الإتيان في علوم القرآن » ، وهو عمدة الباحثين والكتّابين في هذا الفن . ذكر فيه ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والإدماج ، ثم قال بعد أن سردها نوعاً نوعاً : « ولو نُوعَتْ باعتبار ما أدجمته فيها لزادت على الثلاثمائة » ا هـ .

وتوفي السيوطي رحمه الله سنة ٩١١ هـ في مفتتح القرن العاشر ، وكان نهايته كانت نهاية لهضة التأليف في علوم القرآن ، عليه سبحانه الرحمة والرضوان ، فلم نر من صار في هذا المضمار مثله بعده ، كما لم نر من برّه فيه قبله .

(١) الوقف ، الابتداء ، الإمالة ، اللد ، تخفيف الهزرة ، الإدغام .

(٢) الغريب ، العرب ، الحجاز ، المشترك ، المترادف ، الاستعارة التشبيهية .

(٣) العام الباقي على عمومته ، العام الخصوص ، العام الذي أريد به الخصوص ، ماخص فيه الكتاب السنة ، ماخصت فيه السنة الكتاب المجلد ، المبين ، المؤول ، المفهوم ، المطلق ، المقيد ، الناسخ ، للنسخ ، نوع من الناسخ والنسخ وهو ما عمل به مدة معينة والعامل به واحد من المكلفين .

(٤) الفصل ، الوصل ، الإيجاز ، الإطناب ، القصر .

علوم القرآن في القرن الأخير

بيد أنه ظهرت في أيامنا بوادر استئناف لحركة النشاط والتأليف في هذا العلم . إذ ألفت العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري كتاباً جليلاً سماه « التبيان في علوم القرآن » يقع في قريب من ثلاثمائة صفحة . و فرغ من تأليفه سنة ١٣٣٥ هـ .

و ألفت العلامة المرحوم الشيخ محمود أبو ذقينة مذكرة قيّمة لطلاب تخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين . و فقه العلامة الشيخ محمد علي سلامة فوضع كتاباً حافلاً لطلاب تخصص الدعوة والإرشاد كذلك سماه « منهج الفرقان في علوم القرآن » . و توجد مؤلفات في بعض مباحث علوم القرآن لكثير من أفاضل العلماء والأدباء ، نذكر من بينهم الأعلام المرحومين : الشيخ محمد نجيت ، والشيخ محمد حسين العدوي والشيخ محمد خلف الحسيني ، إذ كتبوا في نزول القرآن على سبعة أحرف ، وفي بعض مباحث أخرى ، و المرحوم السيد مصطفى صادق الرافعي ؛ إذ ألفت في إعجاز القرآن كتاباً جليلاً طبعه المغفور له الملك فؤاد الأول على نفقته . ومنهم المرحوم الشيخ عبد العزيز جاديش . إذ كتب محاضرات موضوعها : أثر القرآن في تحرير العقل البشري وألقاها في نادي دار العلوم . و المرحوم الشيخ عبد العزيز الخولي ؛ إذ وضع كتابه « للقرآن الكريم : وصفه ، أثره ، هدايته ، وإعجازه » . و المرحوم الشيخ طنطاوي جوهرى ؛ إذ وضع رسالة سماها : القرآن والعلوم العصرية .

ثم أنبرى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر للقول بجواز ترجمة القرآن ، و كتب في ذلك رسالة عظيمة الشأن وأيده آخرون ، و نصّدّي العلامة الكبير الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام بتركها سابقاً للردّ على ذلك في كتاب دقيق سماه « مسألة ترجمة القرآن » و ظاهره آخرون . و قد اطلعت أخيراً على صدر كتاب اسمه : « النبأ العظيم عن القرآن الكريم » .

والطريقة المثلى في دراسته ، فراعنى دقة بحثه وتفكيره ، وراقى رقة أسلوبه وتعبيره
ووددت لو تم هذا الكتاب ، وهو لصديق العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز مبعوث
للأزهر إلى فرنسا الآن (رده الله سالماً غانماً وأمتع به الإسلام والمسلمين آمين) .

خلاصة

ويمكنك أن تستخلص مما سبق أن علوم القرآن كفن مدون استهلت صارخة على
يد الحوفى في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، ثم تربت في حجر ابن الجوزى والسخاوى
وأبى شامة في القرنين السادس والسابع . ثم ترعرعت في القرن الثامن برعاية الزركشى .
ثم بلغت أشدها واستوت في القرن التاسع بعناية الكافيجى وجلال الدين البلقينى . ثم
اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج في نهاية القرن التاسع وبداية العاشر ، بهمة
خارس ذلك الميدان صاحب كتابى التحجير ، والإتقان في علوم القرآن : للسيوطى
عليه ألف رحمة من الله ورضوان . ثم وقف نموها بعد ذلك حتى هذا القرن الأخير .
ثم بدأت تنتمش في هذه السنين من جديد ، وعسى أن تعود سيرتها الأولى (ألا إن
نصر الله قريب) .

كلمة لا بد منها

وقبل أن ننهى من هذا البحث نلفت نظرك إلى أن هذا العلم يسير على سنة غيره
من العلوم بين جزر ومد . وزيادة ونقص . على مقدار ما يستهدف له من مؤثرات
خاصة . فلا بدع أن تجد في منهج دراستك اليوم مباحث جليلة ، ومواضع مبتكرة ،
لم تنتظم قبل في سمط علوم القرآن ؛ ذلك لأن الأفكار متحركة ومتجددة ، ولأن
الشبهات التى تحوم فى رءوس بعض الناس فى هذا العصر ، والمطاعن التى يوجهها

أعداء الإسلام في هذا الجيل ، قد تكون هي الأخرى جديدة ومبتكرة . ومن الحكمة أن تقاتل الناس بمثل سلاحهم ، وأن ندرس في علوم القرآن ما يحمي حرم القرآن الشريف ، من هذا المدوان الخبيث . أضف إلى ذلك أن العلوم تخبئ بالإهمال والترك ، وتزكو بالدرس والبحث . **سُنَّةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » .**

المبحث الثالث

في نزول القرآن

هذا مبحث مهم في علوم القرآن بل هو أهم مباحثه جميعاً ، لأن العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن وأنه كلام الله ، وأساس للتصديق بنبوة الرسول ﷺ وأن الإسلام حق . ثم هو أصل لسائر المباحث الآتية بعد في علوم القرآن . فلا جرم أن يتصدّرها جماعة ليكون من تقريره وتحقيقه ، سبيل إلى تقريرها وتحقيقها . وإلا فكيف يقوم البناء على غير أساس ودعام ؟ .

ولأجل الإحاطة بهذا المطلب العزيز ، نتكلم - إن شاء الله - على معنى نزول القرآن ، ثم على مرات هذا النزول ، ودليل كل نزول ، وكيفية ، وحكمته ، ثم على الوحي وأدلتها العقلية والعلمية ، مع دفع الشبهات الواردة في ذلك المقام .

١ - معنى نزول القرآن

جاء التعبير بمادة نزول القرآن وما تصرف منها في الكتاب والسنة ، ومن أمثله قوله سبحانه في سورة الإسراء : **« وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ » .** وقوله

ﷺ : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ » . وهو حديث مشهور بل قيل فيه بالتواتر كما سيأتي .

لكن النزول في استعمال اللغة يطلق ويراد به الحلول في مكان والأوئى به . ومنه قولهم « نزل الأمير المدينة » . والمتعدى منه وهو الإنزال يكون معناه إحلال الغير في مكان وإيواءه به . ومنه قوله جل ذكره « رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » ويطلق النزول إطلاقاً آخر في اللغة على انحدار الشيء من علو إلى سفلى نحو « نَزَلَ فُلَانٌ مِنَ الْجَبَلِ » . والمتعدى منه يكون معناه تحريك الشيء من علو إلى سفلى ومنه قوله سبحانه : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » .

ولا ريب أن كلا هذين المعنيين لا يليق إرادته هنا في إنزال الله للقرآن ، ولا في نزول القرآن من الله ، لما يلزم هذين المعنيين من المسكانية والجسمية . والقرآن ليس جسمًا حتى يحل في مكان أو ينحدر من علو إلى سفلى ، سواء أردنا به الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الغيبية الأزلية ، أم أردنا به نفس تلك الكلمات ، أم أردنا به اللفظ المعجز ؛ لما علمت من تنزه الصفة القديمة ومتعلقها وهو الكلمات الغيبية عن الحوادث وأعراض الحوادث ، ولما تعرفه من أن الألفاظ أعراض سيالة تنقضي بمجرد النطق بها ، كما يقولون .

إذن فنحن بحاجة إلى التجوز ، والمجاز بابه واسع وميدانه فسيح . ويمكن المعنى المجازي لإنزال القرآن هو الإعلام في جميع إطلاقاته . أما على أن المراد بالقرآن الصفة القديمة أو متعلقها ، فإنزاله : الإعلام به بواسطة ما يدل عليه من النقوش بالنسبة لإنزاله في اللوح المحفوظ وفي بيت العزة من السماء الدنيا ، وبواسطة ما يدل عليه من الألفاظ الحقيقية بالنسبة لإنزاله على قلب النبي ﷺ ، والعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي هي اللزوم ؛ لأن إنزال شيء إلى شيء يستلزم إعلام من أنزل إليه ذلك الشيء به إن كان عاقلًا ، ويستلزم إعلام من يطلع عليه من الخلق به مطلقًا ، وإذن فالمجاز مرسل .

وأما على أن المراد بالقرآن اللفظ المعجز، فعنى إنزاله بالإعلام به أيضاً ، ويمكن
بوساطة إثباته هو أو إثبات دالّه ، فإثباته هو بالنسبة لإنزاله على قلب النبي ﷺ ،
وإثبات دالّه بالنسبة إلى اللوح المحفوظ وبيت العزة ، والعلاقة للزوم كذلك ، والحاز
هرسل كتابه .

ويمكن أن يكون هذا التجوّز من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، بأن
يُشَبَّه إعلام السيد لعبده بإنزال الشيء من علو إلى سفلى ، بجامع أن فى كل من طرفى
التشبيه صدوراً من جانب أعلى إلى جانب أسفل ، وإن كان العلو والسفلى فى وجه
الشبه حسياً بالنسبة إلى المشبه به ، ومعنوياً بالنسبة إلى المشبه .

وأنت خير بأن النزول مطاوع الإنزال ، فما يجرى من التجوّز فى أحدهما يجرى
نظيره فى الآخر . وقل مثل ذلك فى التزليل والتنزل .

وكان وجه اختيار التعبير بمادة الإنزال وما تصرف منها أواللقى معها ، هو التنويه
بشرف ذلك الكتاب ، نظراً إلى ما تشير إليه هذه المادة من علو صاحب هذا
الكتاب المنزل علواً كبيراً ، كما قال تعالى فى فاتحة سورة الزخرف : « حَمَّ وَالْكِتَابِ
الْمُبِينِ ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَإِنَّهُ فى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا
لَعَلِّ حَكِيمٌ » .

ثم إن تأويل الإنزال بالإعلام على ما رأيت هو الأقرب والأوفق بالمقام ، وذلك
من وجوه ثلاثة :

أحدها : أن تعلق الكلام تعلق دلالة وإفهام ، ولا ريب أن القرآن كلام ،
فتأويل إنزاله بالإعلام ، رجوع إلى ما هو معلوم من تعلقه ، ومفهوم من تحقيقه .
ثانيها : أن المقصود من ثبوت القرآن فى اللوح وفى سماء الدنيا وفى قلب النبي
ﷺ ، هو إعلام الخلق فى العالمين العلوى والسفلى بما شاء الله دلالة البشر عليه من
هذا الحق .

(ثالثها : أن تفسير الإنزال بالإعلام ، ينسجم مع القرآن بأى إطلاق من إطلاقاته ، وعلى أى تنزّل من تنزلاته .)

٢ - تنزلات القرآن

شرف الله هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزلات :

١- التنزيل الأول إلى اللوح المحفوظ . ودليله قول سبحانه : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ » . وكان هذا الوجود فى اللوح بطريقة وفى وقت لا يعلمها إلا الله تعالى ، ومن أطلعه على غيبه ، وكان جملة لامفرقا ، لأنه الظاهر من اللفظ عند الإطلاق ، ولا صارف عنه . ولأن أسرار تنجيم القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم لا يعقل تحققها فى هذا التنزيل .

وحكمة هذا النزول ، ترجع إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه ، وإقامته سجلا جامعا لكل ما قضى الله وقدر ، وكل ما كان وما يكون من هوالم الإيجاد والتكوين . فهو شاهد ناطق ، ومظهر من أروع الظاهر ، الدالة على عظمة الله ، وعلمه ، وإرادته ، وحكمته ، وواسع سلطانه وقدرته . ولا ريب أن الإيمان به يقوى إيمان العبد بربه من هذه النواحي ، ويبعث الطمأنينة إلى نفسه ، والثقة بكل ما يظهره الله خلقه ، من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أفضيته وشؤونه فى عباده ، كما يحمل الناس على السكون والرضا ، تحت سلطان القدر والقضاء ، ومن هنا تهون عليهم الحياة بضرائها ، وسرائها ، كما قال - جل شأنه - « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » ١٥ من سورة الحديد . وللإيمان باللوح وبالكتابة فيه ، أثرٌ صالح فى استقامة المؤمن على الجادة ، وتقانيه فى طاعة الله ومراضيه ، وبعبء عن مساخطه ومعاصيه ، لا اعتقاده أنها مسطورة عند الله فى لوحه . مسجلة لديه فى

كتابه . كما قال - جل ذكره - : « وكلٌ صغيرٌ وكبيرٌ مستطرٌ » ١ هـ من سورة القمر .

(ب — التنزيل الثاني للقرآن كان هذا التنزل الثاني إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، والدليل عليه قوله سبحانه في سورة الدخان « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » . وفي سورة القدر « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . وفي سورة البقرة « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » .)

دلّت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة ، توصف بأنها مباركة أخذاً من آية الدخان ، وتسمى ليلة القدر أخذاً من آية سورة القدر ، وهي من ليالي شهر رمضان أخذاً من آية البقرة . وإنما قلنا ذلك جمعاً بين هذه النصوص في العمل بها ، ودفعاً للتعارض فيما بينها . ومعلوم بالأدلة القاطعة - كما يأتي - أن القرآن أنزل على النبي ﷺ مفرقاً لا في ليلة واحدة ، بل في مدى سنين عدداً ، فتمين أن يكون هذا النزول الذي نوهت به هذه الآيات الثلاث نزولاً آخر غير النزول على النبي ﷺ . وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينةً لمكان هذا النزول وأنه في بيت العزة من السماء الدنيا ، كما تدل الروايات الآتية :

١٧ — أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : « فُصِّلَ القرآن من الذكر فَوُضِعَ في بيتِ العزة من السماء الدنيا فجعل جبريلُ ينزلُ به على النبي ﷺ » .

٢ — وأخرج النسائي والحاكم والبيهقي من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : « أنزل القرآنُ جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزلَ بعد ذلك في عشرين سنة » ثم قرأ « وَلَا يَأْتُوكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ »

وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا . « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » .

٣ — وأخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما من طريق منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض .

٤ — وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس أنه سأل عطية بن الأسود فقال : أوقع في قلبي الشك قوله تعالى : « شَهْرُ رَمَضَانَ أَذَى أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ » وقوله : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . وهذا أنزل في شوال ، وفي ذى القعدة ، وفي ذى الحجة ، وفي المحرم ، وصفر ، وشهر ربيع . فقال ابن عباس : « إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام » . قال أبو شامة : رسلاً أى رفقاً . وعلى مواقع النجوم أى على مثل مساقطها . يريد أنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم مفرقاً ، يتلو بعضه بعضاً على تؤدة ورفق .

هذه أحاديث أربعة من جملة أحاديث ذكرت في هذا الباب ، وكلها صحيحة كما قال السيوطي ، وهي أحاديث موقوفة على ابن عباس ، غير أن لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ ، لما هو مقرر من أن قول الصحابي ما لا مجال للرأى فيه ولم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات ، حكمه حكم المرفوع . ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تعرف إلا من المعصوم ، وابن عباس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات ، فثبت الاحتجاج بها .

وكان هذا النزول جملة واحدة في ليلة واحدة هي ليلة القدر كما علمت ؛ لأنه المتبادر من نصوص الآيات الثلاث السابقة ، وللتنصيص على ذلك في الأحاديث التي

عرضها عليك بل ذكر السيوطي أن القرطبي نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا .

وهناك قول ثان ينزل القرآن إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ينزل في كل ليلة قدر منها ما يقدر الله إنزاله في كل سنة ، ثم ينزل بعد ذلك منجماً في جميع السنة على النبي ﷺ .

وثمة قول ثالث : أنه ابتدئ إنزاله في ليلة القدر ؛ ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأزمان على النبي ﷺ . وكان صاحب هذا القول ينفى النزول جملة إلى بيت العزة في ليلة القدر .

وذكروا قولاً رابعاً أيضاً هو أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة ، وأن الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة ، وأن جبريل نجمه على النبي ﷺ في عشرين سنة . ولكن هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة بعزل عن التحقيق ، وهي محجوجة بالأدلة التي سقناها بين يديك تأييداً لقول الأول .

والحكمة في هذا النزول ، على ما ذكره السيوطي نقلاً عن أبي شامة - هي تفخيم أمره (أى القرآن) وأمر من نزل عليه ، بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم ، وإنزاله مرتين ، مرة جملة ومرة مفزعة . بخلاف الكتب السابقة ، فقد كانت تنزل جملة مرة واحدة .

وذكر بعضهم أن النزول إلى السماء الدنيا إلهاباً لشوق النبي ﷺ إليه على حد قول القائل :

« وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام »

أقول : وفي تعدد النزول وأما كنهه ، مرة في اللوح ، وأخرى في بيت العزة ، وثالثة على قلب النبي ﷺ : في ذلك التعداد مبالغ في نفي الشك عن القرآن وزيادة

للإيمان وباعث على الثقة فيه، لأن الكلام إذا سُجِّلَ في سجلات متعددة، وضعت له وجودات كثيرة، كان ذلك أنفى للريب عنه وأدعى إلى تسليم ثبوته، وأدنى إلى وفرة الإيقان به، مما لو سُجِّلَ في سجل واحد، أو كان له وجود واحد.

(ج - التنزيل الثالث للقرآن هذا هو واسطة عقد التنزيلات، لأنه المرحلة الأخيرة التي منها شمع النور على العالم، ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النزول بواسطة أمين الوحي جبريل يهبط به على قلب النبي ﷺ. ودليله قول الله تعالى في سورة الشعراء مخاطباً لرسوله عليه الصلاة والسلام: « نزل به الروح الأمين ». على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين » .)

كيفية أخذ جبريل للقرآن، وعن أخذ

هذا من أنباء الغيب. فلا يطمئن الإنسان إلى رأى فيه إلا إن ورد بدليل صحيح عن المعصوم، وكل ما عثرنا عليه أقوال منشورة هنا وهناك، نجتمعها لك فيما يأتي مع إبداء رأينا في كل منها:

(أولها: قال الطيبي: « لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقفه تلقفاً روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ، فينزل به على النبي ﷺ فيلقيه إليه » اهـ) وأنت خير بأن كلمة (لعل) هنا لا تشفى غليلاً، ولا تهدينا إلى المقصود سبيلاً، ولا نستطيع أن نأخذ منها دليلاً.

(ثانيها: حكى الماوردي أن الحفظة نجمت القرآن على جبريل في عشرين ليلة؛ وأن جبريل نجمه على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة اهـ. ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الحفظة نجومًا عشرين) ولكننا لا نعرف لصاحب هذا الرأي دليلاً ولا شبه دليل.

ثالثها: قال البيهقي في معنى قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» يريد - والله أعلم - إِنَّا أَسْمَعْنَا الْمَلَكَ وَأَفْهَمْنَاهُ إِيَّاهُ وَأَنْزَلْنَاهُ بِمَا سَمِعَ كَمَا هـ. ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله سماعاً. وذلك فيما أرى أمثل الأقوال من ناحية أخذ جبريل عن الله لامن ناحية تأويل النزول في الآية باقتداء النزول. ويؤيده ما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سمعان مرفوعاً إلى النبي ﷺ «إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمَاءُ رَجْفَةً شَدِيدَةً مِنْ خَوْفِ اللَّهِ، فَإِذَا سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ صُعِقُوا وَخَرُّوا سَجْدًا فَيَكُونُ أَوَّلُهُمْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جَبْرِيلُ، فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ بِوَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، فَيَنْتَهِي بِهِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ فَكُلُّهُمْ مَرَّةً بِسْمَاءٍ سَأَلَهُ أَهْلُهَا: مَا قَالَ رَبُّنَا؟ قَالَ: الْحَقُّ، فَيَنْتَهِي بِهِ حَيْثُ أَمَرَ».

وأياً ما تكن هذه الأقوال، فإن هذا الموضوع لا يتعلق به كبير غرض، مادامنا نقطع بأن مرجع التنزيل هو الله تعالى وحده.

ما الذي نزل به جبريل؟

ولتعلم في هذا المقام، أن الذي نزل به جبريل على النبي ﷺ هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس. وتلك الألفاظ هي كلام الله وحده، لا دخل لجبريل ولا لحمد في إنشائها وترتيبها، بل الذي رتبها أولاً هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك تنسب له دون سواه، وإن نطق بها جبريل ومحمد، وملايين المخلوق من بعد جبريل ومحمد، من لدن نزول القرآن إلى يوم الساعة. وذلك كما ينسب الكلام البشري إلى من أنشأ ورتبه في نفسه أولاً دون غيره، ولو نطق به آلاف المخلوقات، في آلاف الأيام والسنين إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فإنه - جلّت حكمته - هو الذي أبرز ألفاظ القرآن وكلماته مرتبة على وفق ترتيب كلماته النفسية لأجل التفهيم والتفهيم، كما نبرز نحن كلامنا اللفظي على وفق كلامنا النفسي

لأجل التفهيم والفهم ، ولا ينسب الكلام بحال إلا إلى من رتبته في نفسه أولاً ، دون من اقتصر على حكايته وقراءته ، ولذلك لا يجوز إضافة القرآن على سبيل الإنشاء إلى جبريل أو محمد ، ولا لغير جبريل ومحمد ، كما لا يجوز نسبة كلام أنشاء شخص ورتبه في نفسه أولاً إلى شخص آخر حكاه وقراه حين اطلع عليه أو سمعه .

وقد أسفَّ بعضُ الناس فزعم أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ بمعاني القرآن ، والرسول يعبر عنها بلغة العرب . وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل وأن الله كان يوحى إليه للمعنى فقط ، وكلاهما قول باطل أثيم ، مصادم لمصريح الكتاب والسنة والإجماع ، ولا يساوى قيمة اللداد الذي يكتب به . وعقيدتي أنه مذكور على المسلمين في كتبهم . وإلا فكيف يكون القرآن حينئذ معجزاً واللفظ لمحمد أو لجبريل ؟ ثم كيف تصح نسبته إلى الله واللفظ ليس لله ؟ مع أن الله يقول : (حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) ، إلى غير ذلك مما يطول بنا تفصيله .

والحق أنه ليس لجبريل في هذا القرآن سوى حكايته للرسول وإيحائه إليه ، وليس للرسول ﷺ في هذا القرآن سوى وعية وحفظه ، ثم حكايته وتبليغه ، ثم بيانه وتفسيره ، ثم تطبيقه وتنقيذه . نقرأ في القرآن نفسه أنه ليس من إنشاء جبريل ولا محمد نحو « وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » . ونحو « وَإِذْ لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجْتَنِبَتْهَا . قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي » . ونحو « وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغُ قَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَأْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ . قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » . ونحو « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

ثم إن ما ذكرناه هو تحقيق ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن، وإن كان قد نزل عليه أيضاً غير القرآن؛ مثل السيوطي عن الجويني أنه قال: «كلام الله المنزل قسمان: (قسم) ظاهراً لله جبريل؛ قل للنبي الذي أتت مرسل إليه: إن الله يقول افعل كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا ففهم جبريل ما قاله ربه ثم نزل على ذلك النبي، وقال له ما قاله ربه. ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول الملك لمن يثق به: قل لفلان يقول لك الملك: اجتهد في الخدمة واجمع جندك للقتال، فإن قال الرسول: يقول لك الملك: لا تنهوا من في خدمتي، ولا تترك الجند يتفرق، وحشهم على المقاتلة، لا ينسب إلى كذب ولا تبصير في أداء الرسالة. (وقسم آخر) قال الله لجبريل: اقرأ على النبي هذا الكتاب، فنزل به جبريل من ربه من غير تغيير، كما يكتب الملك كتاباً ويسله إلى أمين، ويقول اقرأه على فلان، فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفاً» ١٥١.

قال السيوطي بعد ذلك: قلت: «القرآن هو القسم الثاني والقسم الأول هو السنة، كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى؛ لأن جبريل أداها بالمعنى. ولم تجز القراءة بالمعنى لأن جبريل أداها باللفظ، ولم يبيع له أداؤه بالمعنى. والسر في ذلك أن المقصود منه التعبد بلفظه والإعجاز به، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه، وأن تحت كل حرف منه معاني لا يحاط بها كثرة، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه. والتخفيف على الأمة حيث جعل المنزل إليهم على قسمين: قسم يروونه بلفظه الموحى به وقسم يروونه بالمعنى. ولو جعل كله مما يروونه باللفظ لشتى، أو بالمعنى لم يؤمن التبديل والتحريف فتأمل» ١٥٢.

أقول: وهذا كلام نفيس، بيد أنه لا دليل أمامنا على أن جبريل كان يتصرف في الألفاظ الواحدة إليه في غير القرآن. وما ذكره الجويني فهو احتمال عقلي لا يكتفي في هذا الباب. ثم إن هذا التقسيم خلا من قسم ثالث للكتاب والسنة، وهو الحديث القدسي الذي قاله الرسول صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الله تعالى، فهو كلام الله تعالى أيضاً،

غير أنه ليست فيه خصائص القرآن التي امتاز بها عن كل ما سواه. والله تعالى حكمة في أن يجعل من كلامه المنزل معجزاً وغير معجز ، لمثل ما سبق في حكمة التقسيم الأنف ، من إقامة حجة للرسول ولدين الحق بكلام الله للمعجز ، ومن التخفيف على الأمة بغير المعجز ، لأنه تصح روايته بالمعنى ، وقراءة الجنب وحمله ومسه إياه ، إلى غير ذلك .

وصفة القول في هذا المقام أن القرآن أوحيت ألفاظه من الله اتفاقاً ، وأن الحديث القدسي أوحيت ألفاظه من الله على المشهور ، والحديث النبوي أوحيت معانيه في غير ما اجتهد فيه الرسول والألفاظ من الرسول صلى الله عليه وسلم . بيد أن القرآن له خصائصه من الإعجاز والتعبدية ووجوب المحافظة على أدائه بلفظه ونحو ذلك (وليس للحديث القدسي والنبوي شيء من هذه الخصائص) والحكمة في هذا التفريق أن الإعجاز منوط بالآفاظ القرآن ، فلو أبيع أداؤه بالمعنى لذهب إعجازه ، وكان مظنة للتغيير والتبديل ، واختلاف الناس في أصل التشريع والتنزيل (أما الحديث القدسي والحديث النبوي فليست ألفاظهما مناط إعجاز ، ولهذا أباح الله روايتهما بالمعنى ، ولم يمنحهما تلك الخصائص والقداسة المتأثرة التي منحها القرآن الكريم ، تخفيفاً على الأمة ، ورعاية لمصالح الخلق في الحالين من منح ومنع « إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ »)
 لمدة هذا النزول

وابتداً هذا الإنزال من مبعثه عليه الصلاة والسلام ، وانتهى بقرب انتهاء حياته الشريفة ، وتقدَّر هذه المدة بعشرين أو ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين عاماً ، تبعاً للخلاف في مدة إقامته صلى الله عليه وسلم في مكة بعد البعثة ، أكانت عشر سنين أم ثلاث عشرة أم خمس عشرة سنة . أمامدة إقامته بالمدينة فبعشر سنين اتفاقاً . كذلك قال السيوطي .
 ولكن بعض محققى تاريخ التشريع الإسلامى يذكر أن مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً من ١٧ رمضان سنة ٤١ من مولده

الشريف إلى أول ربيع الأول سنة ٥٤ منه . أما مدة إقامته في المدينة بعد الهجرة فهي تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من أول ربيع الأول سنة ٥٤ من مولده إلى تاسع ذى الحجة سنة ٦٣ منه . ويوافق ذلك سنة عشر من الهجرة . وهذا التحقيق قريب من القول بأن مدة إقامته ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة وفي المدينة عشر سنين ، وأن مدة الوحي بالقرآن ثلاثة وعشرون عاماً .

لكن هذا التحقيق لا يزال في حاجة إلى تحقيقات ثلاثة ؛ ذلك لأنه أهمل من حسابه باكورة الوحي إليه ﷺ عن طريق الرؤيا الصادقة ستة أشهر ، على حين أنها ثابتة في الصحيح . ثم جرى فيه على أن ابتداء نزول القرآن كان ليلة السابع عشر من رمضان وهي ليلة القدر على بعض الآراء ، غير أنه يخالف المشهور الذي يؤيده الصحيح ثم ذهب فيه مذهب القائلين بأن آخر ما نزل من القرآن هو آية «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» وذلك في تاسع ذى الحجة سنة عشر من الهجرة ، وسترى في مبحث آخر ما نزل من القرآن أن هذا المذهب غير صحيح .

دليل تنجيم هذا النزول

مهم

والدليل على تفرق هذا النزول وتنجييمه ، قول الله تعالى حكيمته - في سورة الإسراء : « وَقرآنًا فرقناه لئلقراه على الناس على مكثٍ ، ونزلناه تنزيلاً » وقوله في سورة الفرقان : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » . روى أن الكفار من يهود ومشركين عابوا على النبي ﷺ نزول القرآن مفرقاً ، واقترحوا عليه أن ينزل جملةً ، فأنزل الله هاتين الآيتين ردّاً عليهم ، وهذا الرد يدل على أمرين :

أحدهما : أن القرآن نزل مفروقاً على النبي ﷺ . والثاني : أن الكتب السماوية من قبله نزلت جملةً ، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعاً .
ووجه الدلالة على هذين الأمرين ، أن الله تعالى لم يكذبهم فيما ادعوا من نزول الكتب السماوية جملةً ، بل أجابهم ببيان الحكمة في نزول القرآن مفروقاً ، ولو كان نزول الكتب السماوية مفروقاً كالقرآن لردّ عليهم بالكذب ، ويأعلان أن التنجيم هو سنة الله فيما أنزل على الأنبياء من قبل ، كما ردّ عليهم بقوله : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) . حين طعنوا على الرسول وقالوا : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » (١٠٩ هـ من سورة الفرقان .

الحكم والأسرار في تنجيم القرآن

لتنجيم نزول القرآن الكريم أسراراً عدّة وحكم كثيرة ، نستطيع أن نجملها في أربع حكيم رئيسية :-

الحكمة الأولى

تثبيت قواد النبي ﷺ ، وتقوية قلبه ، وذلك من وجوه خمسة :
الوجه الأول : أن في تجدد الوحي ، وتكرار نزول الملك به من جانب الحق إلى رسوله ﷺ ، سروراً يملأ قلب الرسول ، وغبطة تشرح صدره ، وكلاهما يتجدد عليه بسبب ما يشعر به من هذه العناية الإلهية ، وتعهد مولاه إياه في كل نوبة من نوبات هذا النزول .

الوجه الثاني : أن في التنجيم تيسيراً عليه من الله في حفظه وفهمه ، ومعرفة أحكامه وحكمه ، وذلك مطمئن له على ما يؤتى إليه حفظاً وفهماً ، وأحكاماً وحكماً ، كما أن فيه تقوية لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كله .

كَيْدِ يَدِ الْمَعْجُزَةِ

الوجه الثالث : أن في كل نوبة من نوبات هذا النزول النجم معجزة جديدة غالباً حيث تدهام كل مرة أن يأتوا بمثل نوبة من نوب التنزيل ، فظهر عجزهم عن المعارضة ، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت . ولا شك أن المعجزة نشدُّ أزره وترهف عزمه ، باعتبارها مؤيدة له ولجزبه . خاذلة لأعدائه وخلصه .

الوجه الرابع : أن في تأييد حقه ودحض باطل عدوه - المرة بعد الأخرى - تكراراً للذة فوزه وقلجته بالحق والصواب ، وشهوده لضحايا الباطل في كل مهبط للوحي والكتاب . وإن كل ذلك إلامشجّع للنفس مقوٍ للقلب والفؤاد . والفرق بين هذا الوجه والذي قبله ، هو الفرق بين الشيء وأثره ، أو المألوم ولازمه ، فالمعجزة من حيث إنها قوة للرسول ومؤيدة له مطمئنة له ومثبتة لفؤاده ، بقطع النظر عن أثر انتصاره وهزيمة خصمه بها . ثم إن هذا الأثر العظيم وحده مطمئن لقلبه الكريم ومثبت لفؤاده أيضاً ، أشبه شيء بالسلاح : وجوده في يد الإنسان مطمئن له ولو لم يستعمله في خصمه ثم انتصار الإنسان وهزيمة خصمه به إذا عمل في نفسه مطمئن للفؤاد مريح للقلب مرة أخرى .

الوجه الخامس : تمهد الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما جهون عليه هذه الشدائد ، ولا ريب أن تلك الشدائد كانت تحدث في أوقات متعددة ، فلا جرم كانت التسليية تحدث هي الأخرى في مرات متكافئة . فكلما أخرج خصمه ، سلاهم به . ونجى تلك التسليية تارة عن طريق قصص الأنبياء والرسلين ، التي لها في القرآن عرض طویل ، وفيها يقول الله : « وَكَأَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » من سورة هود . وتارة نجى التسليية عن طريق وعد الله لرسوله بالنصر والتأييد والحفظ ، كما في قوله سبحانه في سورة الطور : « وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » وقوله في سورة المائدة : « وَاللَّهُ يَتَصَدَّقُ مِنَ النَّاسِ » ونحو ما في

سورتي الضحى وألم نشرح من الوعود الكريمة ، والعطايا العظيمة . وطوراً ثانية التسلية عن طريق إبعاد أعدائه وإذارهم نحو قوله تعالى في سورة القمر : « سَيُزَمُّ الْجُمُعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ » وقوله سبحانه في سورة فصلت : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَتُذَرُّكُمْ حَاقِقَةً مِثْلَ حَاقِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » . وطوراً آخر يُرد التسلية في صورة الأمر الصريح بالصبر نحو قوله جل شأنه في سورة الأحقاف : « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » أو في صورة النهي عن التفجع عليهم ؛ والحزن منهم . نحو قول الله في سورة طه : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » ونحو قوله سبحانه في خواتم سورة النحل : « وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » .

ومن موارد تسلية الله لرسوله أن يخوفه عواقب حزنه من كفر أعدائه نحو : « لَعَلَّكَ بِأَخِيعَ نَفْسِكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » في فاتحة سورة الشعراء . ومنها أن يؤسسه منهم ليستريح ويفسلي عنهم نحو : « وَإِنْ كَانَ كِبَارُ هَٰذِهِكَ إِعْرَاضَهُمْ فَإِنْ أُسْطِقَتْ أَنْ تَبْتَغَىٰ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ نَعْمَ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ » من سورة الأنعام .

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة بوجوهها الخمسة تحت قول الله في بيان الحكمة من تنجيم القرآن « كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » من سورة الفرقان .

الحكمة الثانية

التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة علماً وعملاً . وينصوي تحت هذا الإجمال أمور

خمس أيضاً :

أولها : تبشير حفظ القرآن على الأمة العربية ، وهي كما علمت كانت أمة أمية .

وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم ، وكانت مُستغلة بمصالحها المعاشية ، وبالدفاع عن دينها الجديد بالحديد والدم ، فلو أنزل القرآن جملة واحدة لمجزوا عن حفظه ، فاقترضت الحكمة العليا أن ينزله الله إليهم مفرقاً ليسهل عليهم حفظه ، ويتهيأ لهم اختظاره .

ثانيها : تسهيل فهمه عليهم كذلك ، مثل ما سبق في توجيه التيسير في حفظه .
ثالثها : التمهيد لكمال تحللهم عن عقائدهم الباطلة ، وعباداتهم الفاسدة ، وعاداتهم للرذولة . وذلك بأن يراضوا على هذا التخلّي شيئاً فشيئاً ، بسبب أنزول القرآن عليهم كذلك شيئاً فشيئاً ، فكلما نجح الإسلام معهم في هدم باطل ، انتقل بهم إلى هدم آخر ، وهكذا يبدأ بالأهم ثم بالهم ، حتى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلها فطهرهم منها وهم لا يشعرون بعنت ولا حرج ، وفطمهم عنها دون أن يرتكسوا في سابق فتنه أو عادة . وكانت هذه سياسة رشيدة ، لا بد منها في تربية هذه الأمة المحيدة ، لاسيما أنها كانت أئمة معاندة ، تتحسّس لموروثاتها ، وتستमित في الدفاع عما تعتقده من شرفها ؛ وتتهوّر في سفك الدماء وشنّ الفارات ، لأنفه الأسباب .

رابعها : التمهيد لكمال تحللهم بالعقائد الحقّة ، والعبادات الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة ، بمثل تلك السياسة الرشيدة السابقة . ولهذا بدأ الإسلام بقطامهم عن الشرك والإباحة ، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء ، من جرّاء ما فتح عيونهم عليه من أدلة التوحيد ، وبراهين البعث بعد الموت ، وحجج الحساب والمسئولية والجزاء . ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات فبدأهم بفرضية الصلاة قبل الهجرة ، وثقّى بالزكاة والصوم في السنة الثانية من الهجرة ، وختم بالحج في السنة السادسة منها . وكذلك كان الشأن في العادات : زجرهم عن الكبائر وشدّد النكير عليهم فيها . ثم نهاهم عن الصفات في شيء من الرفق ، وتدرّج بهم في تحرّم ما كان مستأصلاً فيهم

كالخمر . . تدرجاً حكماً حتى الغاية ، وأنقذهم من كابوسها في النهاية . وكان الإسلام في انتهاج هذه الخطة المثلى أبعد نظراً ، وأهدى سبيلاً ، وأنجح تشريعاً ، وأنجح سياسةً ، من تلك الأمم المتمدنية المتحضرة التي أفلست في تحريم الخمر على شعوبها أفطن ، وفشلت أمرٌ فشل . وماعهد أمريكا في مهزلة تحريمها الخمر ببيعيد . !

أليس ذلك إعجازاً للإسلام في سياسة الشعوب ، وتهذيب الجماعات ، وتربية الأمم ؟ بلى ، والتاريخ على ذلك من الشاهدين ! !

خامسها : تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين ، بسبب ما كان يقضه القرآن عليهم الفينة بعد الفينة والحين بعد الحين ، من قصص الأنبياء والمرسلين وما كان لهم ولأتباعهم مع الأعداء والمخالفين ، وما وعد الله به عباده الصالحين ، من النصر والأجر والتأييد والتمكين . والآيات في ذلك كثيرة حسبك منها قول العلي الكبير في سورة النور : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا . وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » . وقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده « فَقَطَّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثانية بما انضوى تحتها في قول الله تعالى في سورة الإسراء « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ » كما يمكن أن يُفسر بها قوله تعالى في سورة الفرقان في بيان أسرار التنجيم « وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » باعتبار أن الترتيل للتعظيم إشارة إلى المعاني المنطوية تحت هذا الترتيل .

الحكمة الثالثة

مُسَايَرَةُ الْحَوَادِثِ وَالطَّوَارِيءِ فِي تَجَدُّدِهَا وَتَفْرِقِهَا ، فَكُلَّمَا جَدَّ مِنْهُمْ جَدِيدٌ ، نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا يَنْاسِبُهُ ، وَفَصَّلَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ أَحْكَامِهِ مَا يَوَاقِفُهُ . وَتَنْتَظِمُ هَذِهِ الْحِكْمَةُ أُمُورًا أَرْبَعَةً :

أولها : إجابة السائلين على أسئلتهم عند ما يوجهونها إلى الرسول ﷺ . سواء أ كانت تلك الأسئلة لغرض التثبت من رسالته . كما قال الله تعالى في جواب سؤال أعدائه إياه . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » في سورة الإسراء ، وقوله « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقُرْآنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا » الخ الآيات في هذا الموضوع من سورة الكهف . أم كانت لغرض التنوير ومعرفة حكم الله كقوله تعالى في سورة البقرة : « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ » . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ : إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ . وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ » .

ولاريب أن تلك الأسئلة كانت تُرفع إلى النبي ﷺ في أوقات مختلفة ، وعلى نوباتٍ متعدِّدة ، حاكية أنهم سألوا ولا يزالون يسألون . فلا بدع أن ينزل الجواب عليها كذلك في أوقاتها المختلفة ، ونوباتها المتعدِّدة .

ثانيها : مجازاة الأفضية والوقائع في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها . ومعلوم أن تلك الأفضية والوقائع لم تقع جملة ، بل وقت تفصيلًا وتدريجًا ، خلا مناص إذن من فصل الله فيها بنزول القرآن على طيِّها تفصيلًا وتدريجًا . والأمثلة على هذا كثيرة ، منها قوله سبحانه في سورة النور : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ » إلى قوله سبحانه « أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » ومن عشر آيات نزلن في حادث من أروع الحوادث : هو اتهام السيدة الجليلة

أَمَ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِالْإِفْكَ . وَفِيهَا دُرُوسُ اجْتِمَاعِيَّةٌ لَا تَزَالُ تَقْرَأُ عَلَى النَّاسِ ، كَمَا لَا تَزَالُ تُسَجِّلُ بَرَاءَةَ هَذِهِ الْخَصَانِ الطَّاهِرَةِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ .

وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي مُفْتَتِحِ سُورَةِ الْمَجَادِلَةِ : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى « وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وَهِيَ ثَلَاثُ آيَاتٍ نَزَلْنَ عِنْدَمَا رَفَعَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ شَكَاوَاهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَنَّ زَوْجَهَا أَوْسَ بْنَ الصَّامِتِ ظَاهَرَ مِنْهَا ، وَجَادَلَتْ الرَّسُولَ بِأَنَّ مَعَهَا صَبِيَّةً صَغِيرًا إِنْ ضَمَّتْهُمْ إِلَى زَوْجِهَا ضَاعُوا ، وَإِنْ ضَمَّتْهُمْ إِلَيْهَا جَاعُوا .

ثَالِثًا : لَقِيَ أَنْظَارَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى تَصْحِيحِ أَغْلَاطِهِمُ الَّتِي يَخْطِئُونَ فِيهَا ، وَإِرْشَادَهُمْ إِلَى شَاكِلَةِ الصَّوَابِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ . وَلَا رَيْبَ أَنَّ تِلْكَ الْأَغْلَاطَ كَانَتْ فِي أَرْزَامٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، فَفِي الْحِكْمَةِ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ النَّازِلُ فِي إِصْلَاحِهَا ، مُتَكَافِئًا مَعَهَا فِي زَمَانِهَا .

أَقْرَأُ إِنْ شِئْتَ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » إِلَى آيَاتٍ كَثِيرَةٍ بَعْدَهَا ، وَكُلُّهَا نَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ إِرْشَادًا لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى مَوَاضِعِ أَخْطَائِهِمْ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الرَّهيبِ وَالْمَأْرَقِ الْعَصِيبِ . وَكَذَلِكَ أَقْرَأُ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ : « وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُذْرِبِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وَهِيَ آيَاتٌ تَرُدُّعُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ رَذِيلَةِ الْإِعْجَابِ وَالِاغْتِرَالِ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ ، وَتَلَقَّى نَظَرَهُمْ إِلَى مَقْدَارِ تَدَارُكِ اللَّهِ لَهُمْ فِي شِدَّتِهِمْ ، وَإِلَى وَجْهِ أَنْ يَتَوَبَّعُوا إِلَى رَشَدِهِمْ ، وَيَتَوَبَّعُوا إِلَى رَبِّهِمْ .

رابعها: كشف حال أعداء الله المنافقين، وهتك أستارهم وسرائرهم للنبي والمسلمين،
 كما يأخذوا منهم حذرهم فيأمنوا، شرهم . وحتى يتوب من شاء منهم . اقرأ - إن شئت -
 قوله تعالى في سورة البقرة: « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ » إلى قوله « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وهن ثلاث عشرة آية
 فضحت للمنافقين ، كما فضحتهم سورة التوبة في كثير من الآيات ، وكما كشف القرآن
 أسرارهم في كثير من المناسبات . ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثالثة بمضامينها
 الأربعة في قول الله تعالى في تلك الآية من سورة الفرقان: « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا
 جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » .

الحكمة الرابعة

الإرشاد إلى مصدر القرآن ، وأنه كلام الله وحده ، وأنه لا يمكن أن يكون كلام
 محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه .
 وبيان ذلك . أن القرآن الكريم تقرأه من أوله إلى آخره ، فإذا هو مُحْكَمُ السرد،
 دقيق السبك ، متين الأسلوب ، قوى الاتصال ، أخذ بعضه برقاب بعض في سورته
 وآياته وجملة ، يجرى دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى بائه كأنه سبيكة واحدة ، ولا يكاد
 يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة ! أو كأنه سبط وحيد وعقد
 فريد يأخذ بالأبصار : نُظِمَتْ حروفه وكلماته ، ونسقت جملة وآياته، وجاء آخره مساوفاً
 لأوله ، وبدا أوله مؤاتياً لآخره . . .

وهنا نقسأل : كيف اتسق للقرآن هذا التألف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التماسق
 للدهش؟ على حين أنه يتنزل جملة واحدة بل تنزل آحاداً مفرقة تفرق الوقائع
 والحوادث في أكثر من عشرين عاماً . . .

الجواب : أننا نلتح هنا ميراً جديداً من أسرار الإعجاز ، ونشهد سمة فذة من

سميات الربوبية ، ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن ، وأنه كلام الواحد الديان « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

وإلا فحدثني - بريك - كيف نستطيع أنت ؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط ، متين النسيج والسرمد ، متكافئ البدايات والنهايات ، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر ، وهي وقائع الزمن وأحداثه التي يجرى كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها ، ومتحدتاً عنها : سبباً بعد سبب ، وداعية إثر داعية ، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي ، وتغاير ما بين تلك الأسباب ، ومع تراخي زمان هذا التأليف ، وتطاول آمد هذه النجوم ، إلى أكثر من عشرين عاماً .

لأربب أن هذا الانفصال الزماني ، وذاك الاختلاف للمحفوظ بين هاتيك الدواعي ، يستلزمان في مجرى المادة التفكير والانحلال ، ولا يدعان مجالاً للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام .

أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضاً : نزل مُفرقاً منجماً ، ولكنه تمّ مترابطاً مُحْكَمًا . وَتَفَرَّقَتْ نَجْمُوهُ تَفَرُّقَ الْأَسْبَابِ ، ولكن اجتمع نظمه اجتماع شمل الأحياء . ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاماً ، ولكن تكامل انسجامه بدايةً وختاماً !! .

أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القوي والمُقدر ، ومالك الأسباب والمسببات ، ومدبر الخلق والكائنات ، وقويوم الأرض والسماوات ، العليم بما كان وما سيكون ، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شئون ؟؟ .

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أو آيات ، قال « ضوها في مكان كذا من سورة كذا » . وهو بشر لا يدري (طبعاً) - ما ستجيء به الأيام ، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان ، ولا يدرك ما سيحدث

من الدواعي والأحداث فضلاً عما سينزل من الله فيها . وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد ، يأتيه الوحي بالقرآن نجماً بعد نجم ، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم ، وينتظم وينأخي ويأنلف ويأنم ، ولا يؤخذ عليه أدنى تحاذل ولا تفاوت ، بل يمجز الخلق طراً بما فيه من انسجام ووحدة وترباط : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » ١١ .

ولانه ليستبين لك سر هذا الإعجاز ، إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتساق والانسجام ، لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن ولا على قريب من هذا النمط ، لا في كلام الرسول ﷺ ولا كلام غيره من البلغاء وغير البلغاء .

خذ مثلاً حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ما هو في روعته وبلاغته ، وطهره وسموه : لقد قاله الرسول ﷺ في مناسبات مختلفة ، لدواع متباينة ، في أزمان متطاولة فهل في مكنتك ومكنة البشر معك ، أن ينظموا من هذا السرد الشتيت وحدة ، كتاباً واحداً يصفه الاسترسال والوحدة ، من غير أن ينقصوا منه أو يزيّدوا عليه أو يتصرفوا فيه ؟؟

ذلك ما لن يكون ، ولا يمكن أن يكون ، ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث ، ويخرج للناس شوب مرقع ، وكلام ملفق ينقصه الترابط والانسجام ، وتغور الوحدة والاسترسال ، وتعمج الأشماع والأفهام .

إذن : فالقرآن الكريم ينطق نزوله متجسماً بأنه كلام الله وحده . وتلك حكمة جليلة الشأن ، تدل الخلق على الحق في مصدر القرآن : « قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » .

٣ — المعركة الطاحنة

أو الوحي بين معتقديه ومنكريه

كل ما قدمناه إليك في نزول القرآن لا يسلم ولا يقبل إلا من آمن بالوحي وأسانيه ، والاتصالات الروحية بالملأ الأعلى ، واستعداد الإنسان لمعارفه عن الله تعالى بوساطة الملك ، على غير الطريقة المعتادة بين البشر . ولكن العقلية المصرية أصابها مس من المادية والإلحاد والإباحة ، فأصبح كثير من المتعلمين تعليماً مدرسياً ناقصاً ، لا يهضمون هذه الحقائق العليا ، ولا يستطيعون فهمها ، بل يلقنون حبالاً وعصياً في سبيل المؤمنين بها ، ولا شبهة لم فيما ذهبوا إليه إلا شكوك تلقفوها من هنا وهناك ، يروجونها باسم العقل مرة ؛ وباسم العلم مرة أخرى .

لهذا نرى لزماً علينا أن نقف هنا بجانب الوحي وقفة نرفع فيها الثباب عن حقيقته وأنواعه وكيفياته ، ثم ننبع ذلك بالأدلة العلمية على الوحي وإمكانه ، ثم نردفها بالأدلة العقلية على تحققه ووقوعه . ثم نختم هذا المبحث بعلاج الشبهات التي تعترضهم ويعترضون بها في هذا الموقف الجلل . والموضوع الخطير .

تلك نقاط أربع إذا وقفتنا في بحثها ، قطعنا الطريق على عصابات مجرمة ، اتخذت مبحث الوحي أداة للفتنة ، وستاراً يقضون من ورائه وطراً للغواية ، ومأرباً للإباحة ، وسبيلاً إلى هدم الأديان ، وضلال الإنسانية والإنسان .

١ — حقيقة الوحي وأنواعه وكيفياته

أما الوحي فعناه في لسان الشرع : أن يُعلم الله تعالى من اصطفاة من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة سرية خفية ، غير معتادة للبشر .

يكون على أنواع شتى : منه ما يكون مكالةً بين العبد وربّه ، كما كلم الله موسى تكليماً . ومنّه ما يكون إلهاماً يقذفه الله في قلب مُصطفاه على وجهٍ من العلم الضروري لا يستطيع له دفعاً ، ولا يحدُّ فيه شكاً . ومنّه ما يكون مناماً صادقاً يحىء في تحقّقه ووقوعه ، كما يحىء فلقُ الصبح في تبلّجه وسطوعه . ومنّه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام : وهو ملكٌ كريم ذو قوّة عند ذى العرش مكين ، مطاعٌ ثمّ أمين . وذلك النوع هو أشهر الأنواع وأكثرها . ووحى القرآن كله من هذا القبيل ، وهو المصطلح عليه بالوحي الجليّ . قال الله تعالى في سورة الشعراء : « نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » .

ط

ثم إن ملك الوحي يهبط هو الآخر على أساليب شتى : فتارة يظهر للرسول في صورته الحقيقية الملكية . وتارة يظهر في صورة إنسانٍ يراه الحاضرون ويستمعون إليه . وتارة يهبط على الرسول خفية فلا يرى ، ولكن يظهر أثرُ التغيّر والانفعال على صاحب الرسالة فيفطّ غطيظُ النائم ، ويفيب غيبة كأنها غشية أو إغماء وما هي في شيء من الغشية والإغماء ، إن هي إلا استغراقٌ في لقاء الملك الروحاني ، وانخلاعٌ عن حالته البشرية المادية ، فيؤثّر ذلك على الجسم ، فيفطّ ويثقل ثقلاً شديداً ، قد يتصبّب منه الجبين عرقاً في اليوم الشديد البرد . وقد يكون وقع الوحي على الرسول كوقوع الجرس إذا صلّصل في أذن سامعه ، وذلك أشدّ أنواعه . وربما سمع الحاضرون صوتاً عند وجه الرسول كأنه دوى النحل ، لكنهم لا يفقهون كلاماً ، ولا يفقهون حديثاً . أما هو - صلوات الله وسلامه عليه - فإنه يسمع ويبي ما يوحى إليه ، ويعلم علماً ضرورياً أن هذا هو وحي الله دون لبسٍ ولا خفاء ، ومن غير شك ولا ارتياب ، فإذا انجلي عنه الوحي وجد ما أوحى إليه حاضراً في ذاكرته ، متيقّناً في حافظته ، كأنما كتّب في قلبه كتابةً .

والأدلة الشرعية على ما ذكرنا كثيرة في الكتاب والسنة ، منها ما قصصنا عليك في تنزيلات القرآن ، ومنها قوله تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ » .

ومنها الحديث الذي يرويه البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علي - فيفهم عني وقد وعيت عنه ما قال . وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفهم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

ب - الوحي من ناحية العلم

اعلم أن أعداء الوحي ومنكريه لا يؤمنون بالشرع وأدلة الشرع . إنما يؤمنون بالعقل على الطريقة التي يستسيغونها ، وبالعالم الذي تواضعوا عليه في اصطلاحهم الحديث ، وهو جملة المعارف اليقينية التي أنتجها دستور البحث الجديد في الوجود وكائناته ، من جعل الشك أساساً للبحث ، والاستناد إلى القاطع الذي يؤيده الحس دون سواه ، فهم يقدّمون الشك ويؤمنون فيه ، ثم لا يعترفون إلا بالحسيات ، ولا يحفلون بمجرد العقليات . ومن هنا سجنوا أنفسهم في سجن المادة ، ومكنوا حيناً من الدهر ينكرون ما وراء المادة ، ويسرفون في الشكوك إلى أبعد الحدود ويستخفون بأمر الإلهيات والنبوءات والوحي إلى مدى بعيد لم تصل إليه أعظم عهود الجاهلية ، لولا أن صدمهم العلم نفسه صدمة عنيفة غيرت رأيهم في إنكار ما وراء المادة كما يأتي إن شاء الله . وإنما نبداً هنا بأدلة الوحي العلمية ؛ لأنها في الواقع أدلة لإمكان الوحي وتقريبه إلى العقول . وإمكان الوحي هو الخطوة الأولى في الموضوع ،

وهو ملحوظ في المقدمة الأساسية من مقدمات الدليل العقلي الآتي ، فلا غرو أن يكون لتلك الأدلة العلمية مكان الصدارة والتقديم .

« الدليل الأول » التنبؤ الصناعي ، أو التنبؤ المغناطيسي ، وهو من المقررات العلمية الثابتة . كشفه الدكتور « مسمر » الألماني في القرن الثامن عشر ، وجاهد هو وأتباعه مدى قرن كامل من الزمان في سبيل إثباته وحمل العلماء على الاعتراف به وقد نجحوا في ذلك ، فاعترف العلماء به علمياً ؛ بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلفين من الخلق واطمأنوا إلى تجاربه . وأخيراً أثبتوا بوساطته ما يأتي :

١ - أن للإنسان عقلاً باطنياً أرق من عقله المعتاد كثيراً .

٢ - أنه وهو في حالة التنبؤ يرى ويسمع من بعد شاسع ، ويقراء من وراء حجب ، ويخبر عما سيحدث ، مما لا يوجد في عالم الحس أقل علامة لحدوثه .

٣ - أن للتنبؤ درجات بعضها فوق بعض يزداد العقل الباطن سموً ببقائه فيها .

٤ - أنه قد يصل إلى درجة ————— تخرج فيها روح الوسيط من جسده ؛ وتمثل إلى جانبه غير مرئية ، بينما يكون الجسم في حالة تشبه الموت ، لولا علاقة خفية بين الروح والجسم .

٥ - أثبتوا من وراء ذلك أن هناك روحاً .

٦ - أن الروح مستقلة عن الجسم كل الاستقلال .

٧ - أن الروح لا تنحل بالتحلل .

٨ - أنها تتصل بالأرواح التي سبقتها إذا تجردت عن المادة ، إلى غير ذلك مما

لا نسلم جميع تفاصيله تقليداً ، وإن كنا نسلم هذا العلم وتجاربه . ومقرراته في الجملة ، لثبوت الدليل بها في الجملة أيضاً بواسطة التجارب العديدة .

والمشاهدات الكثيرة . وله في الغرب أنصار من علماء وطلاب ؛ وله دورٌ وكتب ، وله مستشفيات يؤمها الناس للتداوى به .

وليس من موضوعنا أن نتوسّع لك في هذا العلم وتاريخه وتجاربه وفوائده ، ولكننا نريد أن نتقدّم إليك بفكرة مجملة عنه ، تريك إلى أى حد أظهر الله في هذا العصر آيات باهرات ، على أيدي الطبيعيين الذين ينكرون ما وراء المادة ويسرفون في الإنكار ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ينشكروا ما وراء المادة ويسرفون في الإثبات . تحقيقاً لقوله سبحانه « سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » ١ هـ من خاتمة سورة فصلت .

وإننا نضع بين يديك هنا تجربة واحدة من تجارب التنويم ، تقرّب إليك الوحي كل التقريب ، وهذه التجربة رأيها بعيني ، وسمعتها بأذني ، بنادي جمعية الشبان المسلمين ، على مرأى ومسمع من جمهور مثقف كبير ، حضر ليشهد محاضرة مهمة في التنويم المغناطيسي وإثبات أنه يمكن أن يتخذ سلاحاً مسموماً لتغيير عقيدة الشخص ودينه ، كما نسفل إلى ذلك بعض المبشرين ، إذ فتن بهذا العدوان الخبيث شاباً من خيرة الشبان المسلمين حول سنة ١٣٥١ هـ في حادثة مشهورة مروّعة ، وما هي منكم ببعيد .

قام المحاضر ، وهو أستاذ في التنويم المغناطيسي ، وأحضر الوسيط وهو فتى فيه استعداد خاص للتأثر بالأستاذ ، والأستاذ فيه استعداد خاص للتأثير على الوسيط ، فالأول ضعيف النفس ، والثاني قويها . وللضعف والقوة وجوه ليس هذا موضع بيانها . نظر الأستاذ في عين الوسيط نظرات عميقة نافذة ، وأجرى عليه حركات يسمونها سحبات ، فما هي إلا لحظة حتى رأينا الوسيط يغط غطيظ النائم ، وقد امتنع لونه ، وهد جسمه ، وفقد إحساسه المعتاد ، حتى لقد كان أحداً يخزّه بالإبرة وخزّات عدة ، ويخزّه كذلك ثان وثالث ، فلا يبدي الوسيط حرّاً كآ ، ولا يظهر أى عرض لشعوره وإحساسه بها . وحينئذ تأكدنا أنه قد نام ذلك النوم الصناعي أو المغناطيسي .

وهناك تسلط الأستاذ على الوسيط بسأله : ما اسمك ؟ فأجابه باسمه الحقيقي . فقال الأستاذ : ليس هذا هو اسمك ، إنما اسمك كذا (وافترى عليه اسماً آخر) ثم أخذ يقرر في نفس الوسيط هذا الاسم الجديد الكاذب ، ويمحو منه أثر الاسم القديم الصادق ، بوساطة أغاليط يلقنها إياه في صورة الأدلة ، وبكلام يوجهه إليه في صيغة الأمر والنهي . وهكذا أملى عليه هذه الأكذوبة إملاءً ، وفرضها عليه فرضاً ؛ حتى خضع لها الوسيط وأذعن !

ثم أخذ الأستاذ وأخذنا نناديه باسمه الحقيقي المرة بعد الأخرى في فترات متقطعة ، وفي أثناء الحديث على حين غفلة ، كل ذلك وهو لا يحجب . ثم نناديه كذلك باسمه الموضوع فيجب ، دون تردد ، ولا تَلَمُّع .

ثم أمر الأستاذ وسيطه أن يتذكر دائماً أن هذا الاسم الجديد هو اسمه الصحيح حتى إلى ما بعد نصف ساعة من صحوه ويقظته . ثم أيقظه وأخذ يتم محاضراته ونحن نفجأ الوسيط بالاسم الحقيقي فلا يحجب ، ثم نفجؤه باسمه الثاني فيجب ، حتى إذا مضى نصف الساعة المضروب عاد الوسيط إلى حاله الأولى من العلم باسمه الحقيقي !

وبهذه التجربة أثبت الأستاذ أن النوم « بكسر الواو » يستطيع أن يمحو من نفس وسيطه كل أثر يريد محوه ، مهما كان ثابتاً في النفس ، كاسم الإنسان عينه ، ومهما كان مقدساً فيها كعقائد الدين .

وإنما اختار الأستاذ محو الاسم دون الدين لأمرين : أحدهما أن محو الدين عدوانٌ أليم ، وإجرام شنيع ، لم تقبله نفسيّة المحاضر ولا الحاضرين . ثانيهما : أن الاسم أثبت في نفس صاحبه من دينه ؛ فمحوه منها أعجب ، ومنه تعلم أن محو الدين منها أيسر ! . وبهذه التجربة أيضاً ثبت لي أنا من طريق علمي ، ما قرّب إلى الوحي عملياً ، وما جعلني أعلمّه تعليلاً علميًّا : فالوحي « عن طريق الملك » عبارة عن اتصال الملك

بالرسول اتصالاً يؤثر به الأول في الثاني ، ويتأثر فيه الثاني بالأول ، وذلك باستعداد خاص في كليهما ، فالأول فيه قوة الإلقاء والتأثير ، لأنه روحاني محض ، والثاني فيه قابلية التلقى عن هذا الملك لصفاء روحانيته ، وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك . وعند تسلط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية ، ويظهر أثر التغير عليه ، ويستغرق في الأخذ والتلقى عن الملك ، وينطبع ما تلقاه في نفسه ، حتى إذا انجلى عنه الوحي وعاد إلى حالته الأولى ، وجد ما تلقاه ماثلاً في نفسه ، حاضراً في قلبه ، كأنما كتب في صحيفة فؤاده كتاباً .

أتظن - أيها القارئ الكريم - أن المخلوق يستطيع أن يؤثر في نفس مخلوق آخر ذلك التأثير بواسطة التنويم المغناطيسي ، ثم لا يستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثر في نفس من شاء من عباده بواسطة الوحي ؟ كلا ثم كلا « إِنَّهُ عَلَى مَا يُشَاءُ قَدِيرٌ » .

« الدليل العلمي الثاني » أن العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب ما تعرفه ونشاهده ونتفجع به ، مما يسمونه التليفون ، واللاسلكي ، والميكروفون ، والراديو . وعن طريق أولئك أمكن الإنسان أن يخاطب من كان في آفاق بعيدة عنه وأن يفهمه ما شاء ويرشده إلى ما أراد . فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإله القادر ، عن أن يوحى إلى بعض عباده ما شاء ، عن طريق الملك أو غير الملك ؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

« الدليل الثالث » استطاع العلم أيضاً أن يملأ بعض أسطوانات من الجاد الجامد الجاهل ، بأصوات وأنغام ، وبقرآن وأغانٍ وكلامٍ ، على وجه يجعلها حاكية له بدقة وإتقان ، وبين أيدينا من ذلك شيء كثير لا سبيل إلى إنكاره بسمونه (بالقوافر) . أبعد هذه المخترعات القائمة ، يستبعد على القادر تعالى بواسطة ملك ومن غير وساطة ملك ؟ أن يملأ بعض نفوس بشرية صافية من خواص عبادته ، بكلام مقدس

يهدي به خلقه . ويُظهر به حقّه ، على وجهٍ يجعل ذلك الكلام منتقشاً في قلب رسوله ،
حتى يحكمه بدقة وإتقان كذلك ؟

« الدليل الرابع » أننا نشاهد بعض الحيوانات الدنيا تأتي بمجائب الأنظمة
والأعمال ، مما يُحيل معه أن يكون صادراً عن تفكير لها ، أو غريزة ساذجة فيها ،
ومما يجعلنا نوقن بأنها لم تصدر في ذلك إلا عن إرادة عليا ، توحى إليها وتلهمها تلك
العجائب والغرائب ، من الصناعات والأعمال ، والدقة والاحتتيال .

وإذا صحّ هذا في عالم الحيوان ، فهو أولى أن يصح في عالم الإنسان ، حيث استمداده
للانصال بالأفق الأعلى يكون أقوى ، وأخذة عنه يكون أتمّ ، ومن ذلك ما يكون
بطريق الوحي .

وإن شئت أمثلةً لتلك الحيوانات التي ضربناها لك مثلاً في إلهاماته العلوية ،
فدونك النمل والنحل ، وما تأتيا من ضروب الأعمال ، ودقّة النظام . وهاك
حيواناً غريباً أسموه « اكسيكلوب » . وقال عنه الأستاذ « ميلن إدوار » المدرس
بجامعة (السوربون) بفرنسا ما ترجمته : « إن الحيوانات المسماة « اكسيكلوب »
تعيش منفردة ، وتموت بعد أن تبيض مباشرة ، وتخرج صغارها على حالة ديدان
لا أرجل لها ، ولا تستطيع حماية نفسها من أكلة عادية ، كما لا تستطيع الحصول على
غذائها . ومع ذلك فحياتها تقتضى أن تعيش مدة سنة في مسكن مقفل ، وفي هدوء تام ،
وإلا هلكت .

فترى الأم متى حان وقت ببيضها ، تعمد إلى قطعة من الخشب ، فتحفر فيها
سرداباً طويلاً ، فإذا أتمته أخذت في جلب ذخيرة إليه ، تسكني صغيراً واحداً مدة
سنة ، تلك الذخيرة هي طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ، فتحشو بها قاع
السرداب ، ثم تضع عليه بيضة واحدة ، ثم تأتي بنشارة الخشب ، وتكوّن منها
عجينة تجعلها سقفاً على تلك البيضة ، ثم تأتي بدخيرة أخرى فتضعها فوق ذلك

السقف ، ثم تضع بيضة أخرى ، وهلمَّ جرّاً حتى يفرغ بيضها ، ثم تترك الكل وتموت . ١١ .

فمن ذا الذى علم هذه الحشرة الضعيفة الساذجة ، تلك الصفاة المحيرة للعقل ؟ ومن أفهمها وهى تموت بعد أن تبيض مباشرة أن صفارها التى ستولد ، فى حاجة إلى البقاء سنة فى حالة ضعف وعجز ؟ من الذى غرس فى قلبها هذه العناية بنوعها ، حتى كلفتها كل هذه المشقة فى وضع بويضاتها ١٢ .

لارب أن قيوم الوجود يؤتى الكائنات علماً بما يقيمها وبما يصلحها ، من غير طريق الحواس التى لا تستطيع أن تكتسبها . ومن العبث وضلال رأى أن يثبت الباحث الطبيعى إلهاماً تبعته القدرة الإلهية إلى أحقر الحشرات ، ثم ينفيه عن النوع البشرى وهو أشد ما يكون حاجة إلى هذا الوحي والإلهام فى حياته الفردية والاجتماعية .

« الدليل الخامس » العبقرية ، ويعرّفها أفلاطون بأنها حالٌ إلهيةٌ مولدةٌ للإلهامات العلية للبشر ، ويقرر الفلاسفة أنها حال علية لا شأن للعقل فيها . ويقول الطبيعىون : إنها هبة من الطبيعة نفسها لا تحصلها دراسة ، ولا يوجد لها تفكير .

وهاك أمثلةً للعبقرية والعباقرة ، نشع على موضوع الوحي نوراً كشافاً يهدى الخياري الضالين ، إلى سواء السبيل .

١ - قال الأستاذ « ميرس » الانجليزى مدرس علم النفس بجامعة « كامبردج » فى كتاب كبير له أسماء « الشخصية الإنسانية » ما ترجمته : كان للمسترييدلر خاصّة تكاد تلتحق بالمعجزات ، فإنه كان يعين على البديهة العوامل التى إذا ضرب بعضها فى بعض أنتجت عدداً من سبعة أو ثمانية أرقام . فإذا سئل مثلاً : ما هما العددان اللذان إذا ضرب أحدهما فى الآخر نتج العدد (١٧٨٦١) أجابك على الفور بأنهما

(٥٣٣٣٧). وهو يقول : إنه لا يدري على أية حال يأتي بهذا الجواب ، فكانت الإجابة عنده كأنها غريزة طبيعية .

(٢) ونقل عن الشاعر الكبير (سولي برودوم) الفرنسي أنه قال : « حدث لي في بعض الأحيان أني كنت أجد فجأة برهان نظرية هندسية أقيت إلى منذ سنة ، وذلك بدون أن أتى إليها أقل التفات » .

(٣) وذكر المسيو (رينيه) الشاعر الفرنسي أنه ينام غالباً وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم ، ثم يستيقظ فيجدها تامة .

(٤) وكذلك يقول الشاعر (موسيه) الفرنسي « أنا لا أعمل شيئاً ولكن أسمع ما يلقى إلى فأنقله ، فكان إنساناً مجهولاً يناجيني في أذني » .

وهذه الأمثلة التي سقناها تثبت وجود اتصالات روحانية باطنة في بعض الأفراد ، تمتد الإنسان بعلم وهداية من طريق غير معتاد ؛ وذلك يقرب الوحي أَيْماً تقريب ؛ في وقت اشتد شك الناس فيه حتى كذبوا بالإلهيات والنبوات ، وسخروا بالأديان والشرائع ، مع أنها أعظم عوامل التحول الاجتماعي والفكري في الإنسان ؛ وأكبر الأحداث التي غيرت العالم وحوّلت مجرى التاريخ ، ومن العار الجارح لكرامة البشر ، أن تكون تلك العوامل والأحداث العظمى ، قامت على أوهام خاطئة ، أو على أكاذيب متعمدة .

« الدليل السادس » قرّر العلم الحديث أنه شوهد على بعض الناس أنهم يظهرون بمظاهر روحانية ، تعتبر من الخوارق التي لم يكن يحلم بحدوثها العلماء ، على حين أن هؤلاء الذين أتوا بتلك الظواهر الخارقة كانوا في حالة ذهول ، وقد استحال تحليل ما أتوا تحليلاً مادياً يستند إلى الحس ، وقد اختبروا تلك الظواهر ، واستحضروا لشهودها أكبر مشعوذي الأرض ، فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة في شيء ؛ وإنما هي أحداث روحانية ، لا أثر فيها للمهارة وخفة اليد .

تلك حقيقة من حقائق العلم الحديث الحاضر ، يقررون فيها أنه قد يفتح على بعض الناس في حالة من حالات ذهولهم بانكشافات وظواهر روحية ، فكيف يُستبعد بجانب هذا الكشف العلمي أن يفتح الله على بعض الممتازين من خلقه بانكشافات علمية عن طريق الوحي ، بينما هم من كلمة العقول والأخلاق ؟ لقد أسفر الصبح لذي عينين !

ج - الوحي من ناحية العقل

عرفت فيما سقناه لك من الأدلة العلمية أن الوحي ممكن وقريب من الوقوع ، ونقيم لك الدليل العقلي هنا على أن هذا الأمر الممكن قد وقع فعلاً : ذلك أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم محمد ﷺ ، وكل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ثابت ، وذلك هو المطلوب ، أما الدليل على أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم ، فما مرَّ عليك من أنباء الوحي في الكتاب والسنة . وأما الدليل على أن كل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ثابت ، فإن ذلك هو مقتضى الصدق والعصمة . وأما الدليل على أن محمدًا ﷺ صادقٌ معصومٌ فإنما هي المعجزة القائمة مقام قوله تعالى لعباده في شأن تصديق رسوله : « صدق أعبدي في كل ما يبئُّغني » . ومن ذلك أنه يوحى إليه مني .

وهنا نجد أنفسنا قد انتهينا إلى المعجزة ، فما هي المعجزة ؟ .

المعجزة

هي أمر يعجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله ، أو هي أمرٌ خارق للعادة ، خارجٌ عن حدود الأسباب المعروفة ، يخلق الله تعالى على يد مدعي النبوة عند دعواه إياها شاهداً على صدقه . فإذا قام إنسان ما ، وادعى أنه مبعوث الله إلى

خلقه ؛ ورسوله إلى عباده ؛ وقال : إن آية صدقي فيما أدعيه ؛ أن يغير الله الذي أرسلني عادة من عاداته على يدي ، وأن يخرج الآن عن سنة من سنته العامة في وجوده ، ثم قال : وسيأتاكم الله بهذا الأمر العجيب من باب ترون أنكم فيه نابون ، وعليه قادرون ، وإني أنهدكم زراقاتٍ ووحدانا أن تأتوا بمثل هذه الآية ، وأمامكم الباب مفتوحاً كما تعتقدون ، وفيكم النبوغ موفور كما تدعون ، ثم أنتم مجتمعون وأنا وحدي . قال ذلك بلغة الواثق ؛ وتحدانا هذا التحدي الظاهر ، في وقت يشور فيه على عقائدنا وهاداتنا وأخلاقنا ، ويسفه فيه أحلامنا وأحلام أمثالنا من آبائنا ، ونحن أحرص ما نكون على تعجيزه وتبهيته والغلبة عليه والظفر به ، دفاعاً عن كرامتنا ، وانتصاراً لأعز شيء لدينا .

ثم لم يلبث أن قام وقمنا ؛ وأجمع أمره وأجمعنا ، وإذا نحن جميعاً بعد محاولات ومُصاولات ؛ لم نستطع أن نأثي بمثل ما أتى به ، فضلاً عن أعظم منه . مع أننا أمة وهو فرد . ومع أنه قد دخل علينا من أيسر الطرق في نظرنا ؛ ومن أشهر فن في زماننا ، ومع أنه قد أعطانا الفرصة الكافية لمناظرته ، وأنصفنا كل إنصافٍ من نفسه !! هل يشك ذو مُسكة من عقل ، في أن هذا الإنسان المتفوق الممتاز ، صادق في رسالته ، محق في دعايته ؟ خصوصاً إذا عرفنا فوق ذلك كله ، أنه نشأ فينا على الصدق والأمانة ومكارم الأخلاق ، من لدن صباه وطفولته ، إلى يوم مبعثه ورسالته ! .

لأنه جاء بالمعجزة من باب لا نعرفه ، لقلنا : رجل حَذَقَ فنا من الفنون التي لا علم لنا بها ، أو تعلم صناعة من الصناعات التي لم نُحِطْ بنجهرها . أما وقد جاءنا من الناحية التي نشهد لأنفسنا فيها بالفوق والسبق ، فلا يسعنا إلا الإذعان له ، والإيمان بما جاء به ، ما دما منصفين .

مولنضرب لك مثلاً : جاء موسى عليه السلام بمعجزته عصاً من الخشب ، لا روح

فيها ولا حركة ، ولا لين ولا رطوبة ، ثم ألقاها باسم الذي أرسله ؛ فإذا هي حية تسعى بينا الأمة التي تحداها بذلك كانت قد تفوقت في السحر وحذقته ؛ وضربت فيه بأوفر سهم وأوفى نصيب ، خصوصاً أنهم أمة وهو فرد . وهم نابفون في السحر وهو مع نشأته فيهم لم يُعرف يوماً من الأيام بمعالجة السحر . وهم معتزّون بعدادهم وعددهم وسلطانهم ، وهو خلو من هذه الأسباب والمظاهر .

فهل يبقى للشك ظل بعد أن أتى موسى عصاه فإذا هي تلتف ما يافكون ، ووقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، وَالْبَقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ .

الحق أبلج . ولذلك كان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم ، لأنهم أعرف بالسحر ومقدماته ونتائجها ، وقد رأوا رأى العين أن ذلك الإعجاز ليس من نوع هذا السحر المبني على مقدمات يستطيع كل إنسان أن يزاوها ، ولها نتائج محدودة لا يمكن أن يتجاوزها نعم لم يطق السحرة صبراً عن المسارعة إلى الاعتراف والخضوع للحق بعد ما تبين ، مهما كلفهم ذلك أن يقتلوا أو يُصلبوا ؛ وقالوا لفرعون مليكهم ومعبودهم بالأمس « لَنْ نُؤْتِيَكَ حَتَّى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا . فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » . اقرأ إن شئت الآيات بعدها في سورة طه إلى قوله سبحانه : « وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى » .

قل مثل ذلك في معجزة كل رسول أرسله الله : قلّه في عيسى عليه السلام وإبراهيم الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير بإذن الله ؛ أمام قوم نبغوا في الطب أيما نبوغ ومهروا فيه أيما مهارة^(١) .

(١) لا تعبأ هنا بما يُعزى إلى المسيو رينان من إنكاره نبوغ قوم عيسى في الطب . فإنه ناف ، والمثبتُ مقدّم على النافي . وعلى فرض صحة هذا النفي فإن هذا لا يضرنا شيئاً لأن المعجزة يكفي في تحققها عجز البشر عن مثلها . وليس تفوق المواجّهين بها شرطاً ، إنما هو أمر زائد غير مشروط .

شبهات

وقل مثل ذلك وأكثر من ذلك في خاتم الأنبياء سيدنا ومولانا محمد ﷺ وما جاء به من آيات بينات ، ومعجزات واضحة ! وحسبك القرآن وحده برهاناً ساطعاً بل براهين ساطعات : كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة تقوم في فهم الدنيا إلى يوم الساعة . تتحدّى العالم بما يكون فيها من أسرار الفصاحة والبيان ، والعلوم والمعارف ، وأنباء الغيب وشواهد الحق .

أضف إلى ذلك أن الذين شوفوها بخطابه عند مهبط الوحي كانوا أئمة الفصاحة ، وفُرسان البلاغة ، بضاعتهم الكلام والتفنن في إجادته . وصناعتهم التنافس في النثر وديباجته ، والشعر وروثقه . وكرامتهم مرتبطة بما يُحمّدون في هذا الباب ، لا بما يجمعون من الذهب أو يحملون من ألقاب . حتى بلغوا في هذا الميدان شأواً لا يُبارى ، وغاية لا تُدرّك . وما يكون لنا أن نطلق العنان هنا للقلم . وإلا ضاق بنا التأليف والزمن . وأنت خبير بإعجاز القرآن ، وما كتبت في إعجاز القرآن . فاكثف بهذه الإشارة الخاطفة . وإن أردت المزيد فعليك بما كتبت في إعجاز القرآن .

د - دفع الشبهات

ولكنني أعالج بين يديك لهذه المناسبة شبهاتٍ عشرًا يردّها كثيرٌ من المفتونين : « الشبهة الأولى » يقولون : إن المعجزات شأنها شأن كثير من المخترعات . فإذا كان فيها طرافة أو دهشة أو عجب ، فكذلك آثار العلم ومدعشاته فيما نرى ونسمع . والجواب : تعرفه مما ذكرناه آنفاً في بحث المعجزة . مما يقين به الفرق بعيداً والبولن شاسعاً بين المعجزة وما جدّ أو يحدّ في العالم من عجائب العلم ، وروائع الفن ، وبدائع الاختراع . فالمعجزة ليست لها أسباب معروفة حتى تلمّس ويؤتى بمثلها . أما هذه المخترعات فإن لها أسباباً معروفة عند أصحابها ، ويمكن معرفتها لمن لم يعرفها ببسر وسهولة متى التمسها من طريقها .

« الشبهة الثانية » يقولون : إن المعجزة كالسحر والشعوذة وما إليهما : إن هي إلا تخييلات وتضليلات .

والجواب : يتبين لك مما قصصنا عليك في المعجزة وفي ضرب المثل لها بموسى . ويمكن تلخيصه بأن المعجزة نفحة من نفحات الحق تخرج عن أفق الأسباب المعتادة ، والوسائل للمشاهدة ، والغايات المألوفة . أما السحر وما أشبهه ، فإنها فنون خبيثة ، ذات قواعد وأوضاع يعرفها كل من ألم بها ، ويصل إلى وسائلها وغاياتها كل من عالجها من بابها . ولهذا كان أول من آمن بموسى هم السحرة أنفسهم ، لأنهم أعلم بهذا الفرق الواضح ، والبون الشاسع ، كما تقدم .

« الشبهة الثالثة » يقولون : إن ما تسمونه معجزات من العلوم والمعارف التي اشتمل على مثلها القرآن ، ما هي إلا آثار لمواهب بعض النابغين من الناس ، وهذه المواهب وآثارها وجدت ويمكن أن توجد في كل أمة .

والجواب : أن مواهب النابغين ، ونبوغ الموهوبين ، وما يكون منهم من آثار وأفكار كل ذلك له وسائل وعوامل ، ثم له أشباه معتادة ونظائر ، في كل أمة وجيل ، وفي كل عصر ومصر ، أما المعجزات فلن تجد لها من وسائل ولا عوامل ، وإن تستطيع أن تصل إلى أشباه معتادة لها نظائر ، اللهم إلا إذا خرجنا عن نطاق الكون المعروف ، وسنن الوجود المألوف .

« الشبهة الرابعة » يقولون : إن خرق الله لعاداته على أيدي رسله كما تقولون ، يعتبر خروجاً عن النظام العام الذي تقتضيه الحكمة ، وتتناط به المصلحة .

والجواب : أن المعجزة - وإن كانت خارجة عن حدود الأنظمة المعتادة لا تعتبر خروجاً على النظام العام الذي تقضى به الحكمة ، وتتناط به المصلحة ، بل هي من مقتضيات ذلك النظام العام الذي تمليه الحكمة ، وتوحيه المصلحة . وأي حكمة أجل من تأييد الحق وأهل الحق ؟ وأي مصلحة أعظم من اهتداء الخلق إلى طريق سعادتهم ؟ بوساطة تلك المعجزات التي يفهمون منها مراد الخالق من تأييد رسله ، ووجوب تصديقهم لهم ، واتباعهم إياهم .

« الشبهة الخامسة » يقولون : لو كان الوحي ممكناً لأوحى الله إلى أفراد البشر عامة ، ولم يخص به شريحة قليلين يجعلهم واسطة بينه وبين خلقه .

والجواب : أن عامة البشر ليس لديهم استعداد لتلقى الوحي عن الله ، لا مباشرة ولا بواسطة الملك ، حتى لو جاءهم ملك لم يستطيعوا رؤيته إلا إذا ظهر في صورة إنسان ، وحينئذ يعود اللبس ويبقى الإشكال . فقضت الحكمة أن يجعل الله من بنى الإنسان طائفة ممتازة لها استعداد خاص يؤهلها لأن تتلقى عن الله الوحي ، ثم تؤديه في أمانة إلى العامة من إخوانهم في الإنسانية ، بعد أن وضع الله في أيديهم شواهد الحق الفاطقة التي تدل العالم على مراده سبحانه من تصديقهم ، وبعد أن سلّحهم بالآيات التي تطمئن الناس على أنهم رسل لا نفاذهم وإرشادهم من عند ربهم . ثم إن اختصاص بعض أفراد النوع الإنساني بالوحي والنبوة ، فيه نوع من الاختبار والابتلاء ، الذي بنى الله عليه هذه الحياة وميز به الخبيث من الطيب . « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

وتلك الشبهة يقول الله في مثلها من سورة الأنعام : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ . وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » .

« الشبهة السادسة » يقولون : كيف تدلُّ المعجزة على تصديق الله لرسوله ، مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه .

والجواب : أن دلالة المعجزة على تصديق الرسول ، كدلالة الكون على خالقه مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه . ولنضرب لهم للمثال ، كيلا تبقى لهم شبهة ولا يقوم لهم عذر : افرض أنك حضرت مجلساً عاماً فيه ملك من الملوك ، وكان من تقاليد هذا الملك ألا يكشف رأسه في مجلس من المجالس العامة ، وبينما القوم جلوس في حضرة صاحب الجلالة إذ نهض رجل من الحاضرين معروف للجميع بصدقه وأمانته ، وأدبه واستقامته ، وحسبه ونسبه . وإذا هذا الرجل يقول على مرأى ومسمع من المليك ورعيته : أيها القوم إن مولاي الملك حملني هذه الرسالة أبلغكم إياها ، وهي أن تفعلوا

كذا ، وتتركوا كذا ، ثم سكت الملك ولم يكذبه ، ثم لم يكتف الرجل بطهارة ماضيه ، وسكوت مليكه في ترويح دعوته ، وتأيد رسالته . بل قال إن آية صدق أن يُغيّر مولاي الملك عادته الآن ، ويخرج عن تقليد من تقاليده المعروفة لكم جميعا ، وذلك بأن يُعرّئ رأسه في هذا المجلس العام . ثم ما كاد ينتهي حتى غرّى المليك رأسه وخلع تاجه . أفلا يعتبر ذلك دليلا كافيا على صدق هذا الرجل وصدق ما جاء به ؟ ثم ما باللك إذا هو قد عزّز دليله بالتحدّى فقال : إني أنحدّاكم أن يمحىكم الملك إلى مثل ما أجبني إليه . فأخذوا يطلبون ويُلحّون ، فلم يستجب لهم الملك ، ولم يغير عادته معهم ولا مرة واحدة . أفلا يكون ذلك برهانا أبلغ من الصبح على أن هذا الداعي هو رسول هذا الملك حقّا ؟ ثم ألا يكون المكذب بعد ذلك معانداً ومكابراً ، ويكون بالحيوان الذي لا يفهم ولا يعقل ؛ أشبه منه بالإنسان الذي يفهم ويعقل ؟ « أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ؛ أولئك هم الغافلون » .

وذلك المثل هو مثل رُسُل الله ، تؤيدهم معجزات الله . « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

« الشبهة السابعة » يقولون : إن هذا الوحي الذي تدّعونه وتدّعون تنجيّمه ، جاء بهذا القرآن غير مرتّب ولا منظم ، فلم يُقرّد كلّ غرض من أغراضه بفصل أو باب ، شأن سائر الكتب المنظمة . بل مُزجت أغراضه مزجاً غير مُراعى فيه نظام التأليف ، فيبمد أن يكون وحيًا من الله . وهذه الشبهة واردة كما ترى على تنجيم القرآن وترتيبه أيضاً .

الجواب : أن مخالفة القرآن لأنظمة الكتب المؤلفة لا تعتبر عيباً فيه ، ولا في وحيه ،

وموحيه ، بل هي - على العكس - دليلٌ مادّي ، على أنه ليس بكتاب وضعى بشرى ؛ يجلس إليه واضعه من الناس ؛ فيجعل لكل طائفة من معلوماته المتناحبة فصلاً ، ولكل مجموعة من فصوله المتناسقة باباً ؛ بل هو مجموع إشراقات من الوحي الإلهي الأعلى - اقتضتها الحكمة ودعت إليها المصلحة . على ما هو مفصّل في أسرار تنجيم القرآن .

ثم إن هذا المزيج الطريف الذي تجده في كل سورة أو طائفة منه ، له أثر بالغ في التذاذ قارئه ، وتشويق سامعه ، واستفادة المستفيد بأنواع متنوعة منه ، في كل جلسة من جلساته أو درس من درسه . وهذا هو الأسلوب الحكيم في التعليم والإرشاد ، خصوصاً لتلك الأمة الأُمّية التي نزل عليها . فما أشبه كل مجموعة من القرآن بروضة يانعة يَتَنَقَّلُ الإنسان بين أفيائها ممتعاً بكل الثمرات ، أو بمائدة حافلة بشتى الأطعمة يُشَبِّعُ الجائعُ حاجته بما فيها من جميع الألوان .

وهنا دقيقة أحب ألاَّ تَعُزَّبَ عن علمك . وهي أن هذا الروض الربانيّ البائع (القرآن الكريم) يقوم بين جملة وآيهِ وسُورِهِ تناسبٌ بارع ، وارتباطٌ محكم ، واتِّلافٌ بدیع ، ينتهي إلى حدِّ الإعجاز ، خصوصاً إذا لاحظنا نزوله مُنَجَّمًا على السنين والشهور والأيام .

قال الشيخ ولي الدين الملوّی : « قَدْ وَهَمَ مَنْ قَالَ : لَا يُطْلَبُ اللَّائِي الْكَرِيمَةُ - مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة . وَفَضَّلُ الْخُطَّابُ أَنَّهَا عَلَى حَسَبِ الْوَقَائِعِ تَنْزِيلًا ، وَعَلَى حَسَبِ الْحِكْمَةِ تَرْتِيبًا وَتَأْصِيلًا . فَالْمَصْحَفُ عَلَى وَفْقِ مَا فِي اللَّوْحِ الْحَفُوظِ مَرْتَبَةً سُورُهُ ، كُلُّهَا وَآيَاتُهُ بِالتَّوْقِيفِ كَمَا أَنْزَلَ جَمَلَةً إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ . وَمِنَ الْمَعْجَزِ الْبَيِّنِ أَسْلُوبُهُ وَنَظْمُهُ الْبَاهِرُ ، وَالَّذِي يَنْبَغِي فِي كُلِّ آيَةٍ أَنْ يُبْعَثَ أَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ عَنْ كَوْنِهَا مَكْمَلَةً لِمَا قَبْلَهَا أَوْ مُسْتَقْلَةً ، ثُمَّ الْمُسْتَقْلَةُ مَا وَجَّهَ مَنَاسِبَتَهَا لِمَا قَبْلَهَا ؟ فَنَفِي ذَلِكَ عِلْمٌ جَمٌّ . وَهَكَذَا فِي السُّورِ يُطْلَبُ وَجْهُ اتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهَا وَمَا سَيَقَتْ لَهُ » .

وقال الإمام نجر الدين الرازي في تفسيره لسورة البقرة ما نصّه :

« وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي لَطَائِفِ نَظْمِ هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي بَدَائِعِ تَرْتِيبِهَا ، عِلْمٌ أَنَّ الْقُرْآنَ كَمَا أَنَّهُ مَعْجَزٌ بِحَسَبِ فَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ وَشَرَفِ مَعَانِيهِ ، فَهُوَ مَعْجَزٌ أَيْضًا بِسَبَبِ تَرْتِيبِهِ وَنَظْمِ آيَاتِهِ . وَلَعَلَّ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّهُ مَعْجَزٌ بِسَبَبِ أَسْلُوبِهِ أَرَادُوا ذَلِكَ ، إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ جَهْلَ

«المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار وليس الأمر في هذا الباب إلا كقليل :

والنَّجْمُ تَسْتَضْفِرُ الْأَبْصَارُ رُؤْيَتَهُ وَالذَّنْبُ لَلْطَرْفِ لَالِنَّجْمِ فِي الصَّغَرِ
« الشبهة الثامنة » يقولون : إن محمداً كان عصبياً حاد المزاج ، وكان مريضاً بما يسمونه (المستريا) فالوحي الذي كان يزعمه ما هو إلا أعراض لتلك الحال التي أصيب بها .

والجواب : أن هذه فِرْيَةٌ تدلُّ على جهلهم الفاضح بمحمد ﷺ . فالعروف عنه بشهادة التاريخ الصحيح ، والأدلة القاطعة ، أنه كان صلى الله عليه وسلم وديعاً ، صبوراً حليماً ، بل كان عظيم الصبر ، واسع الحلم ، فسيح الصدر ، حتى إنه وسع الناس جميعاً ببسطه وخلقه . وكان شجاعاً مقداماً سليم الجسم ، صحيح البدن ، حتى إنه صارع رُكَّانَةَ المشهور بشجاعته فصرعه ، وكان يثبت في الميدان حين يفرُّ الشجعان ، ويفزع الخلق ويشتدُّ الأمر ، ويقول : « أنا النبيُّ لَا كَذِبُ » ، أنا ابنُ عبدِ المطلب » ويقول : « إلىَّ عبادَ الله » ولا يزال كذلك حتى يُنفذَ الموقف ويكسب المعركة . ولو أفضنا في هذا الموضوع لطال بنا الكلام ، ولكن موضوعه كتب السيرة والشمال المحمدية فارجع إليها إن شئت . . . أما مرض (المستريا) الذي يَصِفُوه ﷺ كذباً به فهو داء عصبِيٌّ عُضَال ، أكثر إصاباتة في النساء . ومن أعراضه شدوذ في الخلق ، وضيق في التنفس ، واضطراب في الهضم . وقد يصل بصاحبه إلى شلل موضعي ، ثم إلى تشنج ، ثم إلى إغماء ، ثم إلى هذيان مصحوب بحركة واضطراب في اليدين والرجلين ، وقفز من مكان إلى مكان . وقد يزعم المصاب أنه يرى أشباحاً تهدده ، وأعداء تحاربه أو أنه يسمع أصواتاً تخاطبه ، على حين أنه لا وجود لشيء من ذلك كله في الحسِّ والواقع .

فهل يتفق ذلك وما هو معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه كان أمة وحده في أخلاقه ، وثباته ، وحلمه ، وعقله ، ورباطة جأشه ، وسلامة جسمه ، وقوة بنائه ؟
نم كيف يتفق ذلك الداء العضال الذي أعيا الأطباء ، وما انتدب له محمد ﷺ من تكوين أمة شمس أبية ، وتربيتها على أسنى نوااميس الهداية ، ودساتير الاجتماع ، وقوانين الأخلاق ، وقواعد النهضة والرقى ؟ !

أضف إلى ذلك أنه نجح في هذه المحاولة المعجزة إلى درجة جعلت تلك الأمة بعد قرن واحد من الزمان ، هي أمة الأمم ، وصاحبة العلم ، وربّة السيف والقلم ! !
فهل المريض المهووس الذي لا يصلح لقيادة نفسه يقضى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفارقة ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجز المدهش ؟ !

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمْدٍ وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ
« الشبهة التاسعة » يقولون : إنكم تستدلون على الوحي بإعجاز القرآن وتستدلون على إعجاز القرآن بما فيه من أسرار البلاغة ، ونحن لا ندرك تلك الأسرار ولا نسلّمها ، فلا نسلّم الوحي المبني عليها .

والجواب : أن للقرآن نواحي أخرى في الإعجاز غير ما يحويه من أسرار البلاغة والبيان ، ومن السهل معرفتها على من لم يتمهر في علوم العربية واللسان . منها ما يحويه هذا التنزيل من المعارف السامية والتعاليم العالية ، في العقائد والعبادات ، وفي التشريعات المدنية والجنائية ، والحربية والمالية ، والحقوق الشخصية ، والاجتماعية والدولية . وإن مقارنة بسيطة بين تلك الهدايات القرآنية وبين ما يوجد على وجه الأرض من سائر التشريعات الدينية وغير الدينية ، توضّح لك ذلك الإعجاز الباهر ، خصوصاً إذا لاحظت أن هذا الذي جاء بتلك المعارف الخارقة كان رجلاً أمياً ، نشأ وعاش ، وشبّ وشاب ، وسقى ومات ، بين أمة أمية ، كانت لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ! .

كذلك أنباء الغيب التي تحدث بها القرآن - وهي كثيرة - يمكن إدراك وجه الإعجاز فيها بيسر وسهولة لكل منصف . اقرأ إن شئت فاتحة سورة الروم ، لتعرف كيف أخبر القرآن صراحةً بأمرٍ كان لا يزال مستتراً في ضمائر الغيب ، بل كانت العوامل والظواهر لا تساعد عليه ، ذلك أنه أخبر في وقت انتصر فيه الفرس على الروم في أدنى الأرض ، بأن الروم سيُدال لهم على الفرس وينصرون في بضع سنين ؛ وكان كما قال .

ثم اقرأ قوله سبحانه مخاطباً للنبيه في موقف من مواقف الخصومة والحاجة بينه وبين أعدائه اليهود : « قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » وهذا من أبرز شواهد الإعجاز والتحدى : إذ كيف يَنسَى لرجل عظيم في موقف من المواقف الفاصلة بينه وبين أعدائه ، أن يجروا على تحدّيهم بشيء هو من شأنهم وحدهم ، وكان في استطاعتهم عادةً ، بل في استطاعة أقلّ واحد منهم ، أن يقول ولو ظاهراً : « إني أتمنى الموت » ليظفروا بذلك التنى على محمد ﷺ ، ويطلبوا به دعوته ، ويستريحوا منه على زعمهم . ولكن كل ذلك لم يكن ، فما تمنى أحد منهم الموت ، بل صرفوا وما زالوا مصروفين عنه أبداً ، ثم سجّل القرآن عليهم ما هو أبعد من ذلك ، إذ قال عقيب تلك الآية : « وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » ١٥ من سورة البقرة .

أليست تلك أدلةً ماديةً قامت ولا تزال قائمةً ، على أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه كان مؤيداً بالوحي من ربه ، وأنه إنما يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ؟

أما إعجاز القرآن من ناحية الأسرار البلاغية فلا يقدح فيه أن جهره للناس اليوم لا يدركونها ولا يتذوقونها ، فإن ذلك لا يرجع إلى خلو القرآن من أسرار البلاغة والبيان ، إنما يرجع إلى جهل الناس باللغة العربية وأساليبها ، وإلى فساد ذوقهم من غلبة العجمة عليهم ، ومعروف أن عدم الإدراك لشيء ، لا ينهض دليلاً على عدم ذلك الشيء . ونظير ذلك أن عدم علمنا بلغة من اللغات الأجنبية مثلاً ، لا يلزم منه أن ننكر أن فلاناً متفوقاً في تلك اللغة بشهادة الإخصائيين فيها والحاذقين لها ، بل نحن نؤمن بوجود لغات لا نعرف منها شيئاً ، كما نؤمن بوجود نابغين فيها لا نعرفهم ولا نعرف من وجوه نبوغهم شيئاً ، اللهم إلا عن طريق سماعنا لذلك من مصادر تثق بها .

كذلك القرآن الكريم ، قد شهد الفنيون والإخصائيون من خُذاق اللغة العربية ، في أزهى عصور التوفّر عليها والتميّز فيها ، أنه كتاب فاق الكتب ، وكلام برز سائر ضروب الكلام ، وبلغ في سموه وتفوقه حدود الإعجاز والإفحام ، من ناحية الفصاحة والبلاغة وما يحمل لها من أسرار ! . ثم نقل إلينا ذلك كله نقلاً متواتراً قاطعاً لا ظلّ فيه للشك والنكران .

فلماذا لا نقبل هذا الحكم العادل ، ومصادره كثيرة محترمة كل الاحترام ؟

أليس ذلك تمصّباً وعناداً ، على حين أن الباب كان ولا يزال مفتوحاً أمام كل من يحذق علوم اللغة العربية وأساليبها ، أن يتذوق أسرار البلاغة والإعجاز في هذا القرآن ، وأن يحكم هو نفسه بما حكم به الآلاف المؤلفة في كل زمان ومكان !

وإذا لم ترَ الملالَ فسلمَ لأناسٍ رأَوْهُ بالأبصارِ
على أن لإعجاز القرآن ميداناً آخر فاطلبه إن شئت . « وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ » .

(الشبهة العاشرة) يقولون : إن إعجاز القرآن للعرب لا يدلُّ على أن القرآن كلام الله . بل هو كلام محمد نُسبه إلى ربه ليستمدَّ قدسيَّته من هذه النسبة . وإعجازه جاء من

من ناحية أن محمداً كان الفرد الكامل في بيانه بين قومه ، لذلك جاء قرآنه الفرد الكامل أيضاً بين ما جاء به قومه ، ولم يستطيعوا لهذا الاعتبار وحده أن يأتوا بمثله ، شأن الرجل الفذ بين أقرانه في كل عصر .

ونجيب على هذه الشبهة بأجوبة خمسة :

(أولها) أن كل مَنْ أوتي حظاً من حسِّ البيان وذوق البلاغة ، يفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبويّ فرقاً كبيراً يمثل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق . وهما القرآن والحديث النبويّ ، لا يزالان قائمين بيننا ، يفاديان الناس بهذا الفارق البعيد ، إن كان لهم إحساس في البيان وذوق في الكلام .

ولو كان لهذه الشبهة شيء من الوجاهة ، لكان أولى الناس أن يرفعوا عقيرتهم بها هم أولئك العرب المُخلص الذين شافهم القرآن ؛ لأنهم كانوا أحرص على تمجيز محمد وإسكاته للاعتبارات التاريخية المعروفة . لكنهم ما قالوا هذا . بل كانوا أكرم على أنفسهم من أن يقولوه ، إيقاناً منهم بظهور المميزات الفائقة بكلام الربوبية عن كلام النبوة ، بحيث لا يلتبس أحدهما بالآخر في شيء . وهكذا « مَنْ ذاقَ عَرَفَ وَمَنْ حُرِمَ انْحَرَفَ » .

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَآفَقُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

(الجواب الثاني) أن القرآن لم يأت الناس من الخلف ، بل جاءهم من أوسع الأبواب ، ودخل عليهم من طريق العرب المخلص ذوي اللسن والبيان . وتحداهم من الناحية التي نبغوا فيها وهي صناعة الكلام ، تلك الصناعة البيانية الفائقة التي وقفوا عليها مواهبهم وأنفقوا فيها حياتهم ، حتى صارت موضع تنافسهم وسبقهم ، وموضوع فخرم وفوقهم . شأن سائر معجزات الله تعالى : لم تأت الناس إلا من

الناحية المفهومة لم كل الفهم، وذلك ليظهر أمر الله واضحاً جلياً، لا لبس فيه ولا غوض، ولا شبهة ولا شكوك «ثلاثاً يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»، وكان الله عزيزاً حكيماً..

ومن هنا نعلم، والتاريخ يشهد، أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد - كما يقول أولئك الملاحدة - لأمكن هؤلاء العرب البارزين في البيان أن يعرفوا أنه كلامه، بما أوتوا من ملكة النقد، وما وهبوا من نباهة الحسِّ والدوق، ثم لأمكنهم أن يجاروه ولو شوطاً قريباً إن لم يمكنهم مجاراته شوطاً بعيداً. لاسيما أن القرآن قد اكتفى منهم في مقرر الضميمة بأن يأتي بسورة من مثل أقصر سورة، أي بمثل ثلاث آيات قصار من بين تلك الآلاف المولدة التي اشتمل عليها الكتاب العزيز. وأنت خير بأن هؤلاء لم تكن لتعنيهم تلك المساجلة وهم فرسان ذلك الميدان، وأئمة الفصاحة والبيان، لو كان الأمر من صناعة محمد ﷺ وإنشائه. كما يزعم أولئك الخرافصون. فما بالك وقد خرسست ألسنتهم، وخشعت أصوات الأجيال كلها من بعدهم.

ومعلوم أن النافذة القد في أي عصر من العصور، يستطيع أقرانه يُيسر وسهولة، أن يحاكيه مجتمعين ومنفردين في الشيء القليل، على فرض أنهم لا يستطيعون معارضته في الجميع أو الشيء الكثير.

(الجواب الثالث) أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد، لكان من الفخر له أن ينسب إلى نفسه. ولأمكن أن يدعى به الألوهية فضلاً عن النبوة. ولما كان مقدساً في نظر الناس وهو إله، أكثر من قداسه في نظرهم وهو نبي. ولما كان في حاجة إذاً إلى أن يلمس هذه القدسية الكاذبة بنسبته القرآن إلى غيره «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً»؟؟

(الجواب الرابع) أن هؤلاء الملاحدة غاب عنهم أنهم يتحدثون عن أكرم شخصية عرفها التاريخ طهرأً ونبلأً، وذهلوا عن أنهم يمسون أسنى مقامٍ اشتهر أمانةً وصدقاً. فكان ﷺ إذا مرَّ بقومه يثيرون إليه بالبنان ويقولون: هذا هو الصادق الأمين. ثم صدروا عن رأيه، ورضوا بحكمه. والعقل المنصف قال ولا يزال يقول: ما كان هذا الأمين الصدوق لِيَذَرَ الكَذِبَ على الناس ثم يكذب على الله « وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ».

(الجواب الخامس) أن هذه الشبهة وليدة الغفلة عن مضامين القرآن العلمية، وأنبائه الغيبية، وهداياته الخارجة عن أفق العادة في كافة النواحي البشرية، فردية كانت أو اجتماعية. لاسيما أن الآتي بهذا القرآن رجل أمي في أمة أمية كانت في أظلم عهود الجاهلية. أضف إلى ذلك ما سجّل القرآن على النبي ﷺ من أخطاء في بعض اجتهداته، ومن عتاب نحس تارةً بلطفه، وأخرى بعنفه. ولو كان هذا التنزيل كلامه ماسمح أن يسجّل على نفسه ذلك كله. ولكن الملاحدة سفهوا أنفسهم؛ حوزعوا رَغَمَ هذه البراهين اللائحة أن محمداً افترى القرآن على ربه. كذبوا وضلّوا. « مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى : وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ».

(ذيل لهذه الشبهة) ويتصل بهذه الشبهة شبهة أخرى قد تعرض لبعض المأفونين. وهي أن هذا البعد الشاسع بين القرآن والحديث لم يحس من ناحية أن القرآن كلام الله والحديث كلام محمد. إنما جاء من ناحية أن محمداً كان له ضربان من الكلام: أحدهما يحتفل به كل احتفال، ويُعنى مزيد العناية بهذهبه وتنميته وتحضيره، وذلك هو ما سماه بالقرآن ونسبه إلى الله. وثانيهما يُرسله لإرسالاً غير معني بتجبيره وتحريره، وهو المسمّى بالحديث النبوي. ثم يقولون لترويج شبهتهم هذه:

إن ذلك ليس بدعاً فيما نرى من آثار الأدباء والبلغاء ، بل نحن نلاحظ أن الأديب الواحد يعلو كلامه الصادر عن تأمل وعناية وروية ، علواً كبيراً عن كلامه المرسل على البديهة ، حتى كأنهما لكتابين اثنين ، بينهما بُعد ما بين المشرقين .

(والجواب الأول) أن هذه الشبهة الجديدة مبنية على قياس فاسد ، وهو تشبيه أدباء ذلك العصر الزاهر الذي نزل فيه القرآن وصلت فيه السليقة العربية ، بأدباء هذا العصر المولدين الذين فسدت لغتهم ، وتبطلت ألسنتهم . وشتان ما بين الطبقتين ، وباعد ما بين العصرين !! .

« أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟
هِيَ شَاكِمِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ وَسُهَيْلٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّ يَمَانٌ »

فالتفاوت البعيد بين الكلام المرسل والكلام المحرر ، لم يظهر إلا منذ فسد اللسان العربي ، ونطرت العجمة إلى المولدين من العرب وأشباههم . أما أولئك العرب الغلص الذين كانوا يتكلمون العربية بالسليقة ، فلم يك منهم أحدم البياني مختلفاً هذا الاختلاف الكبير ، تبعاً للإرسال والتحرير . بل العربي القح نهجه في الكلام نهج واحد ، هو نهج السليقة الصافية والطبيعة السليمة . ولم يكن التعبير ليذهب به مذهب الذبذبة التي تجعل له أسلوبين متباينين في كلامه ، بل قصاره في تحبيره أن يحيط بأطراف موضوعه دون أن يقد عنه مقصد من مقاصده ، ودون أن يخرج عن أسلوبه الذي ينبع من نفسه وتفيض به سجيته العرباء ، ذلك الأسلوب الذي يتعب أهل الفن منا أنفسهم في محاكاته وهيئات أن يبلغوا إلا بعد طول عناء .

على أن معاناة ذلك العربي القح إذا عانى التعميق والتزويق ، لم تكن لتزيد كلامه روعةً وحسناً بل كانت تنزل به بمقدار ما يظن أحداً أنها تصعد فيه . ولهذا كان العرب يعافون من الكلام ما ظهرت فيه آثار الصنعة والتكلف ويعدون ذلك من التفاضح النازل إلى مهواة العي والتنطع ، كما كانوا مأخوذين بالجميل السلس ، وبالسهل المعتم

ولقد كان النبي ﷺ أبعد العرب عن هذا التعمُّل والتصنع والتحبير ، حتى لقد نهى عن ذلك وناط به الهلاك والخسران . تدبَّر ما يرويه مسلم وأبوه داود من أن النبي ﷺ قال : « هَلَاكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » والمنطَّع في الكلام : التعمُّق فيه والتفصُّح .

وروى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم جاءه رجل من هذيل يخاصم في دية الجنين ، فقال : يا رسول الله كيف أغرم دية من لا شرب ولا أكل . ولا نطق ولا استهل . فمثل ذلك يُطل . فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُفَّانِ مِنْ أَجْلِ سَجْعِهِ الَّذِي سَجَعَ » . وفي رواية أنه قال : « أَسَجَّعَ كَسَجَعَ الْأَعْرَابِ » . وفي رواية أخرى أنه قال : « أَسَجَّعَ الْجَاهِلِيَّةَ وَكُفَّانَهَا » . فأنت ترى أنه صلى الله عليه وسلم ذمَّ هذا السجع المصنوع ، وجعل صاحبه من إخوان الكُفَّان ومن جهلة الجاهلية . وما ينبغي له صلى الله عليه وسلم أن يذم شيئاً ثم يقع فيه . وحاشاه وحاشا بيان الشرف ، من هذا الإسفاف والتعمُّل الخسيس . ودونك السنة النبوية فاقراً منها ما شئت ، فلن تجد إلا جيداً مطبوعاً ، ومعاذ الله أن تجد فيها متكلفاً مصنوعاً . والقرآن أعلى في هذا الباب وأجل . « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » .

(الجواب الثاني) أن هذه الشبهة تخالف في أساسها ما هو واقعٌ معروف : ذلك أن القرآن الكريم منه ما نزل مُفاجأةً على غير انتظار وتفكير ، وبدون تلبُّث وتدبير ، وهو أكثره . ومنه ما نزل بعد تشوُّفٍ واسقشراف وطول انتظار ، وهو أقله . ومع هذا فأسلوبه الأعلى هو أسلوبه الأعلى ؛ ونظمه المعجز هو نظمه المعجز ؛ في الحالين على سواء . تأمل ما جاء في سبب نزول قوله سبحانه : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » وهو أن اليهود قالت لقريش : سلوا محمداً عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، فسألوه ، فقال : « ائْتُونِي غَدًا أَخْبِرْكُمْ » ولم يستثن ، فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه ، ثم نزلت الآيات جواباً لتلك الأسئلة ، بعد تلك المدة الطويلة

التي قدرها بعضهم بأربعين يوماً ، وأنت إذا قرأتها لن تجد فرقاً بين أسلوبها وأسلوب كثرة القرآن الغامرة التي نزلت مُبَاغَةً مُفَاجِئَةً .

وهذا الذي يقال في القرآن ؛ يقال مثله في الحديث النبوي . فمنه ما كان وليد التفكير والتدبير والمشاورة والمداولة ، كحديثه ﷺ في شئون الحرب والصلح ، ومنه ما كان وَحْيَ الساعة وإرسال البديهة ، كحديثه الكثير فيما هو ظاهر من أمور الدين . ومنه ما كان وَحْيَ الله إليه يهبط به الأمين جبريل ، كحديث المعتمر للتصمخ بالطيب ، وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن طيبه في عمرته هذه . فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ساعة حتى جاءه الوحي ، ولمَّا سُرِّيَ عنه قال : **أَيُّ السَّائِلِ عَنْ الْعُمَرَةِ خَجِيءٌ بِهِ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أَمَّا الطَّيِّبُ الَّذِي بَكَ فَانْغَسِلْهُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ . وَأَمَّا الْجَبَبَةُ فَانْزِعْهَا وَأَصْنَعْ فِي خُمُرَتِكَ مَا تَصْنَعُ فِي حَجَّكَ »** رواه الشيخان .

نعرف هذه الظروف المختلفة لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنهما مع اختلافهما لم يختلف فيها الأسلوب النبوي ، بل هو طراز واحد من أرق الأساليب البشرية إن لم يكن أرقها ، وقلما تلحظ فيه تفاوتاً كثيراً . لافرق في ذلك بين ما أرسله على البديهة ، وما أجال فيه الرأي والاستشارة ، وما نزل به وَحْيُ الشَّيْءِ ، وما احتفل به احتفالاً ممقاراً ، بالمواقف المشهودة ، والمجامع المحشودة .

إذن هما نمطان متمايزان لا يشتبهان : نمط القرآن كله ونمط الحديث كله لكل منهما مَسْجَعٌ وبيانٌ ودرجةٌ في الفوق والسبق ، بينها وبين الأخرى بُعد ما بين شأني الخالق والخلق ، وفرقٌ ما بين مَسْكَانَتِي السَّيِّدِ وَالْعَبْدِ ، فالقرآن يمتاز بمسجعة بلاغية خاصة ، وطابع بياني فريد ، لا يترك باباً لأن يلتبس بغيره أو يشق به سواه ، ولا يُعْطَى الفرصة لأحد أن يمارضه أو يحسوم حَوْلَ حِمَاهُ ، بل مَنْ خَاصَهُ خُصِمَ ، ومن عَارَضَهُ قُصِمَ ، ومن حَارَبَهُ هُزِمَ . أما الحديث الشريف فهو وإن حَلَقَ في جَوْ الفصاحة ، وسما في جلته

عن أساليب العرب ، فإنه لا يزال في أرض العبودية لم يصل إلى سماء الإعجاز ، وتُشبهه
أساليب بعض خواص أصحابه ، وبينه وبين حكم العرب المأثورة قرابة مائة وشبهه
قريب . بخلاف القرآن فإنه ليس كمثل بيان ، لأنه كلام من ليس كمثل شيء . « وكلام
الملك ملوك الكلام » .

خاتمة البحث

نحسب أننا أفضنا في هذا البحث ، ولكننا نعتقد أن هذه الإفاضة واجب لا بد
منه ، ما دمتنا بصدد تسليح طلابنا متخصّصي الدعوة والإرشاد ، وهم على أهبة النزول
إلى ميادين الوعظ العامة ، وفيها المؤمن والجاهل ، والمتدين والملحد ، والإلهيون
والطبيعويون ، وفيها ضحايا الطوائف المعادية للإسلام ، وصرعى المذاهب المتطرفة
في العالم .

ونلفت نظرك إلى أن بعض ما ذكرناه في أدلة الوحي العلمية ، قد اعتمدنا فيه على
أدلة جدلية يؤمن بها المنكرون أكثر مما يؤمنون بآيات الله .
وإن أردت التوسّع في هذا فارجع إلى ما كتبه العلامة « محمد فريد وجدى » في
المجلد العاشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٨ هـ ، وما كتبناه من قبل في المجلد الخامس من
مجلة الهدية الإسلامية سنة ١٣٥١ هـ ، وما كتبه العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز في
كتابه : « النبأ العظيم » . وبالله تعالى التوفيق .

المبحث الرابع

في أول ما نزل ، وآخر ما نزل من القرآن

مدار هذا المبحث على النقل والتوقيف . ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة ، أو الجمع بينها فيما ظاهره التعارض منها .

ومن فوائد الإلمام بأول ما نزل وآخره ، تمييز النسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات على موضوع واحد ، وكان الحكم في إحدى هذه الآيات يغير الحكم في الأخرى ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع الإسلامى ، ومراقبة سيره التدريجى ، والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام وسياسته في أخذ الناس بالموادة والرفق ، والبعد بهم عن غوائل الطفرة والعنف ، سواء في ذلك هدم مآمر دوا عليه من باطل ، وبناء مالم يحيطوا بعلمه من حق .

يضاف إلى هاتين الفائدتين فائدة ثالثة : هي إظهار مدى العناية التي أحيط بها القرآن الكريم ، حتى عُرف فيه أول ما نزل وآخر ما نزل ، كما عُرف مكّيه ومدنيّه ، وسفريّه وحضرته ، إلى غير ذلك . ولا ريب أن هذا مظهر من مظاهر الثقة به ، ودليل على سلامته من التغيير والتبديل . « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

وليس من غرضنا في هذا الباب أن نتحدث عن أول ما نزل وآخر ما نزل في كل تعليم من تعاليم الإسلام ، فتلك غاية بعيدة المدى ، ومجهود طويل جدير أن يُفرد بالتأليف ، وله مواضع أخرى يمكن طلبه منها . إنما اليسور لنا أن نحدثك عن أمرين :

أحدهما : أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ، وآخر ما نزل منه على الإطلاق ، وهذا هو المقصود المهم .

الثاني : نماذج من أول ما نزل في بعض الأحكام التشريعية وآخر ما نزل منها ، أي أوائل وأواخر إضافية مخصوصة ومقيّدة ببعض الأحكام .

أول ما نزل على الإطلاق

ورد في ذلك أقوال أربعة :

« القول الأول » وهو أصحها : أنه صدر سورة « اقرأ باسم ربك الذي خلق »

إلى قوله سبحانه : « علم الإنسان ما لم يعلم » ودليله ما يأتي :

١ — روى البخاري ومسلم (واللفظ للبخاري) عن عائشة أم المؤمنين رضى

الله عنها أنها قالت « أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في

النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حُبَّ

إليه الخلوة ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه « وهو التعمد » الليالي ذوات

العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزوّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة

فيتزوّد لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقاري . فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقاري . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني .

فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقاري . فأخذني فغطني الثالثة . ثم أرسلني فقال :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم »

وفي بعض الروايات « حتى بلغ ما لم يعلم » . فرجع بها إلى خديجة برجف

فؤاده « إلى آخر الحديث وهو طويل . وعلق الصبح : ضياؤه . والتحنث المراد به التعمد

وأصله ترك الحنث ؛ لأن هذه الصيغة تدل على التجنب والتنحي عن مصادرها ونظيره

التهجد ، والتأم ، والتخرج . وغطني بفتح الغين وتشديد الطاء المفتوحة أى ضمّني ضمّا

شديداً حتى كان لي غطيظ ، وهو صوت من حُبست أنفاسه بما يشبه الخنق . والجهد بفتح

الجيم : يطلق على المشقة وعلى الوسع والطاقة ، وبضم الجيم : يطلق على الوسع والطاقة لا غير ،

وهما روايتان .

٢ - وصحح الحاكم في مستدركه ، والبيهقي في دلائله عن عائشة أيضاً رضي الله عنها أنها قالت : «أول سورة نزلت من القرآن » أقرأ باسم ربك .

٣ - وصحح الطبراني في الكبير بسنده عن أبي رجاء العطاردي قال : كان أبو موسى يقرأنا فيجلسنا حلقاً وعليه ثوبان أبيضان ، فإذا تلا هذه السورة « أقرأ باسم ربك الذي خلق » قال : هذه أول سورة نزلت على محمد ﷺ .

٤ - وردت آثار في هذا المعنى أيضاً في بعضها زيادة تعرفها من رواية الزهري وهي : أن النبي ﷺ كان بحراء إذ أتى الملك بنمط من ديباج مكتوب فيه « أقرأ باسم ربك الذي خلق » إلى « ما لم يعلم » اهـ . والنمط بفتح النون والميم هو الثياب ، والديباج هو الحرير .

« القول الثاني » أن أول منازل إطلاقاً : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » . واستدل أصحاب هذا الرأي بما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : سألت جابر بن عبد الله : أي القرآن أنزل قبل ؟ فقال : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » فقلت : أو « أقرأ باسم ربك » وفي رواية نبئت أنه « أقرأ باسم ربك الذي خلق » . فقال : أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي جَاوِزْتُ بِحِرَاءَ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي نَزَلْتُ ، فَاسْتَبَطَنْتُ الْوَادِي » زاد في رواية « فَتَوَدَّيْتُ فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي ، ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا هُوَ (يعني جبريل) زَادَ فِي رِوَايَةٍ : جَالِسٌ عَلَى عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » فَأَخَذَنِي رَجْفَةً فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ ، فَأَمَرْتُهُمْ فَدَثَرُونِي ، فَأَنزَلَ اللَّهُ : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ » .

لكن هذه الرواية ليست نصاً فيما نحن بسبيله من إثبات أول منازل من القرآن إطلاقاً ، بل تحتل أن تكون حديثاً عما نزل بعد فترة الوحي ، وذلك هو الظاهر من رواية أخرى رواها الشيخان أيضاً ، مع أني سلمة عن جابر أيضاً « فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ

سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصْرِي قِبَلَ السَّمَاءِ ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِوَاهِ قَاعِدَةٍ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَجَثَّتْ حَتَّى هَوَيْتَ إِلَى الْأَرْضِ ، فَجَثْتُ أَهْلِي ، قُلْتُ : زَمِّلُونِي فَزَمِّلُونِي . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ - وَنِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » قَالَ أَبُو سَلَمَةَ : وَالرُّجْزُ : الْأَوْتَانِ أَهْ قُلْتُ : وَجَثْتُ عَلَى وَزْنِ فَرَحٍ مَعْنَاهُ ثَقُلَ جَسْمِي عَنْ الْقِيَامِ ، وَسَبِيهِ فَزَعِ الرَّسُولِ وَخَوْفِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَظَاهَرَ هَذِهِ الرَّوَايَةَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جَابِرًا اسْتَفَنَدَ فِي كَلَامِهِ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ الْمُدَّثِّرُ ، إِلَى مَا سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَحْدُثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ بِمَا حَدَّثَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْوَحْيِ قَبْلَ فِتْرَتِهِ ، مِنْ نَزُولِ الْمَلَكِ عَلَى الرَّسُولِ فِي حِرَاءٍ بِصَدْرِ سُورَةِ اقْرَأْ « كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ » فَاقْتَصَرَ فِي إِخْبَارِهِ عَلَى مَا سَمِعَ ظَانًّا أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ غَيْرُهُ ، اجْتِهَادًا مِنْهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَخْطَأَ فِي اجْتِهَادِهِ بِشَهَادَةِ الْأَدْلَةِ السَّابِقَةِ فِي الْقَوْلِ الْأَوَّلِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّصَّ يَقْدُمُ عَلَى الْجَهْدِ ، وَأَنَّ الدَّلِيلَ إِذَا تَطَرَّقَ إِلَيْهِ الْإِحْتِمَالُ ، سَقَطَ بِهِ الْاسْتِدْلَالُ ، فَبُطِلَ إِذَا الْقَوْلُ الثَّانِي وَثَبَتَ الْأَوَّلُ .

القول الثالث :

أَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ هُوَ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ أَصْحَابُ هَذَا الرَّأْيِ بِمَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ بِسَنَدِهِ عَنْ مَيْسَرَةَ عُمَرَ بْنِ شَرْحِبِيلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَخَدِيجَةَ « إِنِّي إِذَا خَلَوْتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نَدَاءً فَقَدْ وَاللَّهِ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ يَكُونَ هَذَا أَمْرًا » . قَالَتْ : مَعَاذَ اللَّهِ ، مَا كَانَ اللَّهُ لِيَفْعَلَ بِكَ ، إِنَّكَ لَتَوْدِي الْأَمَانَةَ ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ . فَلَمَّا دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ ذَكَرْتُ خَدِيجَةَ حَدِيثَهُ لَهُ وَقَالَتْ : اذْهَبْ مَعَ مُحَمَّدٍ إِلَى وَرْقَةٍ . فَاذْهَبْ فَقَصَّ عَلَيْهِ فَقَالَ : « إِذَا خَلَوْتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نَدَاءً خَلَنِي يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ، فَاذْهَبْ هَارِبًا فِي الْأَفْقِ » . فَقَالَ : لَا تَفْعَلْ إِذَا أَنَاكَ قَائِمَةٌ حَتَّى تَسْمَعَ مَا يَقُولُ . ثُمَّ اتَّفَقْنِي فَأَخْبَرَنِي . فَلَمَّا خَلَا نَادَاهُ : يَا مُحَمَّدُ قُلْ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » . حتى بلغ « وَلَا الضَّالِّينَ »

ولكن هذا الحديث لا يصلح للاحتجاج به على أولية ما نزل مطلقاً ، وذلك من وجهين :

أحدهما : أنه لا يفهم من هذه الرواية أن الفاتحة التي سمعها الرسول صلى الله عليه وسلم

كانت في فجر النبوة أولَ عهده بالوحي الجليُّ وهو في غار حراء ، بل يفهم منها أن الفاتحة

كانت بعد ذلك العهد ، وبعد أن أتى الرسول إلى ورقة ، وبعد أن سمع النداء من خلفه

غير مرة ، وبعد أن أشار عليه ورقة أن يثبت عند هذا النداء حتى يسمع ما يلقي إليه .

وليس كلامنا في هذا ، إنما هو فيما نزل أول مرة الثاني : أن هذا الحديث مرسل سقط

من مسنده الطحاوي ، فلا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق في بدء الوحي ،

وهو مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فبطل إذاً هذا الرأي الثالث وثبت الأول

أيضاً .

بيد أن صاحب الكشاف عزّاه هذا القول الثالث إلى أكثر المفسرين ، ولكن

ابن حجر فنده فيما ذهب إليه من هذا الغزو ، وصرح بأن هذا القول لم يقل به إلا عددٌ

أقل عن القليل .

القول الرابع : - أن أول ما نزل هو « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » واستدل قائلوه بما

أخرجه الواحديُّ بسنده عن عكرمة والحسن قالا : أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ « بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَأَوَّلُ سُورَةٍ أُقْرَأَ » . وهذا الاستدلال مردود من ناحيتين أيضاً :

إحدهما : أن الحديث مرسل كسابقه فلا يناهض المرفوع . الثانية : أن البسملة كانت

بطبيعة الحال تنزل صدر الكل سورة إلا ما استثنى . إذن فهي نازلة مع ما نزل من صدر

سورة اقرأ ، فلا يستقيم اعتبار الأولية في نزولها قولاً مستقلاً برأسه .

آخر ما نزل على الإطلاق

اختلف العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق ، واستند كل منهم

إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فكان هذا من دواعي الاشتباه ، وكثرة الخلاف على أقوال شتى :

١) الأول : أن آخر ما نزل ، قول الله تعالى في سورة البقرة « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » . أخرجه النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس ، وكذلك أخرج ابن أبي حاتم قال : « آخر ما نزل من القرآن كله » « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » الآية . وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها تسع ليالٍ ، ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول .

الثاني : أن آخر ما نزل هو قول الله تعالى في سورة البقرة أيضاً « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . أخرجه البخاري عن ابن عباس والبيهقي عن ابن عمر .

الثالث : أن آخر ما نزل آية الدين في سورة البقرة أيضاً وهي قوله سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » إلى قوله سبحانه : « وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » وهي أطول آية في القرآن . أخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب : « أنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين » . أخرج أبو عبيد في الفضائل عن ابن شهاب قال : « آخر القرآن عهداً بالعرش آية الرِّبَا وآية الدين » .

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة بما قاله السيوطي رضي الله عنه من أن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف لأنها في قصة واحدة ، فأخبر كلٌّ عن بعض ما نزل بأنه آخر ، وذلك صحيح .

أقول : ولكن النفس تستريح إلى أن آخر هذه الثلاثة نزولاً هو قول الله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » . وذلك لأمرين أحدهما : ما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة

إلى ختام الوحي والدين، بسبب ماتحت عليه من الاستعداد ليوم المعاد، وما تنوّه به من الرجوع إلى الله، واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم، وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها. ثانيهما. التخصيص في رواية ابن أبي حاتم السابقة على أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزولها تسع ليال فقط، ولم تظفر الآيات الأخرى بنصٍ مثله.

الرابع : أن آخر القرآن نزولاً قبول الله تعالى في سورة آل عمران : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى » الآية . ودليل هذا القول ما أخرجه ابن مردويه من طريق مجاهد عن أم سلمة أنها قالت : آخر آية نزلت هذه الآية : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ » إلى آخرها . وذلك أنها قالت : يارسول الله . أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت «^(١) وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ» ، ونزل «^(٢) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » ونزلت هذه الآية ، فهي آخر الثلاثة نزولاً ، وآخر ما نزل بعد ما كان ينزل في الرجال خاصة .

ومن السهل رد الاستدلال بهذا الخبر على آخر ما نزل مطلقاً ، وذلك لما يصرّح به الخبر نفسه من أن الآية المذكورة آخر الثلاثة نزولاً وآخر ما نزل بالإضافة إلى ما ذكر فيه النساء أي فهي آخر مقيد لا مطلق ، وليس كلامنا فيه .

الخامس : أنه آية (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) واستدلوا بما أخرجه البخاري وغيره .

(١) من سورة النساء وتامها : (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبْنَ ، وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) .
(٢) أي من أولها إلى آخرها وهي في سورة الأحزاب .

عن ابن عباس . قال : هذه الآية : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ » هي آخر ما نزل ، وما نسخها شيء . ولا يخفى عليك أن كلمة « وما نسخها شيء » تشير إلى أن المراد من كونها آخر ما نزل ، أنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمداً ، لا آخر ما نزل مطلقاً .

السادس : أن آخر آية نزلت « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » وهي خاتمة سورة النساء وأن آخر سورة نزلت سورة « براءة » . واستند صاحب هذا الرأي إلى ما يرويه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب أنه قال : آخر آية نزلت « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » وآخر سورة نزلت « براءة » . ويمكن نقض هذا الاستدلال بحمل الخبر المذكور على أن الآية آخر ما نزل في المواريث وأن السورة آخر ما نزل في شأن تشريع القتال والجهاد ، فكلها آخر إضافي لا حقيقي .

السابع : أن آخر ما نزل سورة المائدة . واحتج صاحب هذا القول برواية للترمذي والحاكم في ذلك عن عائشة رضي الله عنها . ويمكن ردّه بأن المراد أنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام ، فلم تُنسخ فيها أحكام . وعليه فهي آخر مقيد كذلك . الثامن : أن آخر ما نزل هو خاتمة سورة براءة : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخر السورة . رواه الحاكم وابن مردويه عن أبي بن كعب . ويمكن نقضه بأنها آخر ما نزل من سورة براءة لا آخر مطلق ، وبؤيده ما قيل من أن هاتين الآيتين مكيتان بخلاف سائر السورة . ولعل قوله سبحانه : « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ » الخ ؛ يشير إلى ذلك من حيث عدم الأمر فيه بالجهاد عند تولى الأعداء وإعراضهم .

التاسع : أن آخر ما نزل هو آخر سورة الكهف : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » أخرجه ابن جرير

عن معاوية بن أبي سفيان . قال ابن كثير : « هذا أثرٌ مشكل ، ولعله أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها بل هي مثبتة بحكمة » ١٥ . وهو يفيد أنها آخر مقيّد لا مطلق .

العاشر : أن آخر ما نزل هو سورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » رواه مسلم عن ابن عباس . ولكم تك تستطيع أن تحمل هذا الخبر على أن هذه السورة آخر ما نزل مُشعراً بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم . ويؤيده ما روى من أنه صلى الله عليه وسلم قال حين نزلت : « نُفِيتَ إِلَى نَفْسِي » وكذلك فهم بعض كبار الصحابة . كما ورد أن عمر رضى الله عنه بكى حين سمعها وقال : « السكّال دليل الزوال » ويحتمل أيضا أنها آخر ما نزل من السور فقط ، ويدل عليه رواية ابن عباس : آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » .

تلك أقوال عشرة ، عرفتها وعرفت توجيهها ، ورأيت أن الذى تستريح إليه النفس منها هو أن آخر القرآن نزولاً على الإطلاق قولُ الله فى سورة البقرة : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » وأن ماسواها أواخر إضافية أو مقيدة بما علمت ، لكن القاضى أبا بكر فى الانتصار يذهب مذهباً آخر إذ يقول : « هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلّ قال بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلامهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ فى اليوم الذى مات فيه أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو » ١٥ ، وكأنه يشير إلى الجمع بين تلك الأقوال المتشعبة بأنها أواخر مقيدة بما سمع كل منهم من النبي ﷺ وهى طريقة مريحة ، غير أنها لا تلقى ضوءاً على ما عسى أن يكون قد اختتم الله به كتابه الكريم .

مثلان من أوائل وأواخر مخصوصة

نضع بين يديك هنا مثلين من أوائل وأواخر مخصوصة ببعض الأحكام الشرعية لنلاحظ فيهما سير التشريع الإسلامى وتدرج الحكيم .

١ — ما نزل في الخمر

روى الطيالسى فى مسنده عن ابن عمر قال : نزل فى الخمر ثلاث آيات ، فأول شئ : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ » الآية (١) فقيل : حرمت الخمر ، فقالوا : يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله ، فسكت عنهم . ثم نزلت هذه الآية (٢) « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » فقيل حرمت الخمر قالوا : يا رسول الله لا نشربها قرب الصلاة فسكت عنهم . ثم نزلت : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ » (٣) فقال رسول الله ﷺ : « حُرِّمَتِ الْخَمْرُ » .

٢ — ما نزل فى أمر الجهاد والدفاع

لم بشرع الجهاد دفاعاً فى صدر الإسلام على الرغم من أن الأذى كان يُصبُّ على المسلمين من أعدائهم صلباً . بل كان الله يأمر بالعمو والصفح ، ومن ذلك قوله

(١) وهى فى سورة البقرة وتتمتها : « قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » .

(٢) وهى من سورة النساء وكألفها : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » .

(٣) والآية وما يليها : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » وهى من سورة المائدة .

سبحانه في سورة البقرة : « وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ
إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا
حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فكانت أمراً صريحاً لهم بالعفو
والصفح حتى يأتي الله بأمره فيهم من القتال ، وبتضمن ذلك النهي عن القتال حتى
يأتي أمر الله . ثم شرع القتال دفاعاً في السنة الثانية من الهجرة ، بقوله تعالى في سورة الحج
« أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ
لَهَدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ
اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .
ثم حضَّ الله عليه حصاً شديداً في آخر الأمر ، فنزلت سورة براءة وهي من آخر
ما نزل من القرآن . وفيها قوله سبحانه : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ
كَافَّةً » وقوله : « أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ . ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » . وقوله . « إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

شبهة في هذا المقام

بقي أن ندحض شبهة أثبتت حول تعيين آخر ما نزل من القرآن . قالوا : لماذا لا
تكون آية المائدة آخر ما نزل من القرآن ؟ وهي قوله سبحانه « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ
دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » . مع أنها صريحة
في أنها إعلام بإكمال الله لدينه في ذلك اليوم المشهود الذي نزلت فيه ، وهو يوم عرفة
في حجة الوداع بالسنة العاشرة من الهجرة .

والظاهر أن إكمال دينه لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن ، وإتمام جميع الفرائض والأحكام .

والجواب : أن هناك قرآنًا نزل بعد هذه الآية حتى بأكثر من شهرين ، ولعلك لم تنس أن آية : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » كانت آخر الآيات نزولاً على الإطلاق ، وأن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليالٍ فقط . وتلك قربنة تمنعنا أن نفهم إكمال نزول القرآن من إكمال الدين في آية المائدة المذكورة . والأقرب أن يكون معنى إكمال الدين فيها يومئذ هو إنجازه وإقراره ، وإظهاره على الدين كله ولو كره الكافرون . ولا ريب أن الإسلام في حجة الوداع كان قد ظهرت شوكته وعلت كلمته ، وأدبل له على الشرك وحزبه ، والكفر وجنده ، والنفاق وحشراته ، حتى لقد أجلى المشركون عن البلد الحرام ؛ ولم يخالطوا المسلمين في الحج والإحرام . قال ابن جرير في تفسير الآية المذكورة : « الأولى أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، حتى حججه المسلمون لا يخالطهم المشركون » وأيد هذا التأويل بما رواه عن ابن عباس قال : « كان المشركون والمسلمون يمجئون جميعاً ، فلما نزلت سورة براءة نفى المشركون عن البيت ، وحجج المسلمون لا يشاركون في البيت الحرام أحد من المشركين ، فكان ذلك من تمام النعمة » وأتممت عليكم نعمتي .

نسأل الله أن يتم علينا نعمته آمين .

ملاحظة

لعلك بعد تحقيق أول ما نزل وآخره ، تستطيع أن تستدرك على ما أسلفناه في البحث الثالث ، تقديرًا لمدة نزول القرآن على النبي ﷺ ناقلين إياه عن بعض محققى تاريخ التشريع الإسلامى . ذلك أنه اعتبر يوم التاسع من ذى الحجة سنة عشر من الهجرة ، هو آخر أيام النزول وكأنه اعتمد على ما فهمه في قوله سبحانه : « أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » الآية ، من أنه إكمالٌ للدين بإكمال نزول القرآن . لكنك قد علمت ما فيه .

فلتصف أنت إلى تلك المدة التي ذكرها اثنين وسبعين يومًا ، هي عدة الفرق بين التسعة والواحد والثمانين يومًا ، إذ أن آية « أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » عاش النبي ﷺ بعدها أحدًا وثمانين يومًا كما روى ، وآية « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » عاش ﷺ بعدها تسعة فقط كما عرفت .

أما مبدأ نزول الوحي بالقرآن فمعلوم أنه كان في اليوم الذى هبط فيه جبريل على النبي ﷺ بغار حراء بصدر سورة اقرأ . وقد قالوا : إنه يوافق السابع عشر من رمضان ، واعتمدوا في ذلك على قوله سبحانه في سورة الأنفال : « إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ » . فجعل يوم الفرقان هو يوم التقاء الجمعين في غزوة بدر . وكان يوافق السابع عشر من رمضان على ما ذكره بعض أصحاب المغازى والسير .

ولا ريب أن هذا احتمال في الآية مقبول ، ولكن هذا الاحتمال لا يكفي في مثل هذا المقام ، لأنه احتمالٌ مرجوحٌ ، وظاهر الأدلة على خلافه . ذلك لأن السنة الصحيحة جاء فيها ما يفيد صراحةً أن أَرْجَى ما تكون ليلة القدر التي نزل فيها القرآن ، في الوتر في العشر الأخير من رمضان . وإلى ذلك ذهب جمهور العلماء . بل ثبت من طريق

صحيح يرويه البخارى أيضاً أنه ﷺ قال : « التمسوها في سابعة تَبَقَى ، في تاسعة تَبَقَى » أى اطلبوا ليلة القدر ليلة الحادى والعشرين أو ليلة الثالث والعشرين من ذلك الشهر . وهو مذهب الشافعى رضى الله عنه . ولا جدال في أن هذه نصوص تنافى أن تكون ليلة القدر ليلة السابع عشر من رمضان . . .

ثم إن هذه الآية التى استدلل بها هؤلاء ليست نصاً صريحاً في أن المراد بما أنزله الله على عبده يوم الفرقان هو ما أنزله على نبيه ليلة القدر من القرآن . بل الظاهر أن قوله سبحانه : « وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ » معناه وما أنزلنا على عبدنا محمد ﷺ من الوحي والملائكة والفتح في ذلك اليوم المشهود الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والكفر ، في أول موقعة تاريخية انتصف فيها الإسلام من أعدائه ، وقام للمسلمين بسببها شوكة ودولة وسلطان . « وهى غزوة بدر الكبرى » . وإلى هذا رأى جنح أكثر المفسرين . ويؤيده سياق النظم القرآنى الشكرى ؛ فإن الآية نزلت لتروض قلوب المسلمين على الرضا بما شرع الله في قسمة الغنائم ، وليقطعوا أطماعهم من الخمس الذى قضى الله أن يكون له لا لهم ، وليقتنعوا بعد ذلك بالأربعة الأخماس الباقية ، فإن الفضل في هذه الغنائم إنما هو لله قبلهم ، هو الذى أنزل في هذا اليوم ما أنزل من هدايات وبشائر ثبتت قلوبهم . وهو الذى أنزل مدداً من لدنه ملائكة مقربين كثيرين وهو الذى سخر سائر أسباب الانتصار ، المعروفة في هذه المعركة العظيمة . . . وإذا كان الفضل يرجع إلى الله في هذا الانتصار ، فاطيعوا أيها المسلمون أمره في قسمة الغنائم المتخلفة عنه . « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ اتَّخَذَ الْجَمْعَانِ . وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

المبحث الخامس

في أسباب النزول

القرآن الكريم قسمان : قسم نزل من الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة ، إنما هو لحض هداية الخلق إلى الحق . وهو كثير ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان . وقسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة . وهو موضوع بحثنا الآن . غير أننا لا نريد أن نستعرض جميع الآيات التي جاءت على أسباب ، فذلك شأؤ بعيد . وقد ائتمدب له جماعة أفردوه بالتأليف ، منهم على بن المديني شيخ البخاري ، ومنهم الواحدى والجمبرى وابن حجر ، ومنهم السيوطى الذى وضع فيه كتاباً خافلاً محرراً سماه (لباب النقول فى أسباب النزول) .

إنما غرضنا فى هذا المبحث أن نحيطك علماً بأسباب النزول من أطرافه الأحدى عشر وهى معنى سبب النزول ، وفوائده معرفة أسباب النزول ، وطريق هذه المعرفة ، والتعبيرات عن سبب النزول ، وحكم تعدد الأسباب والنازل واحد ، وتعدد النازل والسبب واحد ، والعموم والخصوص بين لفظ الشارع وسببه ، وتحقيق الخلاف فى عموم اللفظ وخصوص سببه ، وأدلة الجمهور فى ذلك ، وشبهات الخالفين وتفنيدها ، وشبيهه بالسبب الخاص مع اللفظ العام .

معنى سبب النزول

سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدةً عنه أو مُبَيَّنَّةً لحكمه أيام وقوعه . والمعنى أنه حادثة وقعت فى زمن النبى ﷺ ، أو سؤال وُجِّه إليه ، فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يقتضيه بتلك الحادثة ، أو بجواب هذا السؤال .

سواء أ كانت تلك الحادثة خصومةً دبت ، كاخلاف الذى شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج ، بدسيسة من أعداء الله اليهود حتى تنادوا : السلاح السلاح ، ونزل بسببه تلك الآيات الحكيمة فى سورة آل عمران من أول قوله سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْعَانَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ » إلى آياتٍ أخرى بعدها من أروع ما ينفر من الانقسام والشقاق ويرغب فى المحبة والوحدة والاتفاق . أم كانت تلك الحادثة خطأ فاحشاً ارتكب ، كذلك السكران الذى أم الناس فى صلاته وهو فى نشوته ، ثم قرأ السورة بعد الفاتحة فقال : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ أَعْبُدُوا مَا تَعْبُدُونَ » وحذف لفظ (لا) من « لا أَعْبُدُ » فنزلت الآية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » فى سورة النساء .

أم كانت تلك الحادثة تمنياً من التمنيات ، ورغبة من الرغبات ، كوافقات عمر رضى الله عنه التى أفرد بها بعضهم بالتأليف . ومن أمثلتها ما أخرجه البخارى وغيره عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر : (وافقت ربي فى ثلاث : قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت يا رسول الله : إن نساءك يدخلن عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب ^(١) . واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة فقلت لهن : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » فنزلت كذلك (١ هـ . وهذه فى سورة التحريم .

(١) وهى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرٍ لَكُمْ . وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْخَلْقِ . وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » من سورة الأحزاب

وسواء أكان ذلك السؤال المرفوع إلى النبي ﷺ يتصل بأمر مضى نحو قوله سبحانه في سورة الكهف : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ » الخ . أم يتصل بخاضر نحو قوله تعالى في سورة الإسراء : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » وما أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » أم يتصل بمستقبل نحو قوله جل ذكره في سورة النازعات : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا » الخ .

والمراد بقولنا (أيام وقوعه) الظروف التي ينزل القرآن فيها متحدثاً عن ذلك السبب، سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة، أم تأخر عنه مدة لحكمة من الحكم، كالحديث ذلك حين سألت أقرش رسول الله ﷺ عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين . فقال ﷺ (غداً أخبركم) ولم يستثن (أى لم يقل إلا أن يشاء الله) فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوماً على ما رواه ابن إسحاق، وقيل ثلاثة أيام، وقيل أربعين يوماً، حتى شق عليه ذلك . ثم نزلت أجوبة تلك المقترحات ، وفي طيها يرشد الله تعالى رسوله إلى أدب الاستثناء بالمشبهة ويقول له في سورة الكهف : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » .

ثم إن كلمة « أيام وقوعه » في تعريف سبب النزول ، قيد لا بد منه للاحتراز عن الآية أو الآيات التي تنزل ابتداءً من غير سبب ، بينما هي تتحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو المستقبلية ، كبعض قصص الأنبياء السابقين وأعمهم وكالحديث عن الساعة وما يتصل بها ، وهو كثير في القرآن الكريم .

٢ — فوائد معرفة أسباب النزول

زعم بعض الناس أنه لا فائدة للإلمام بأسباب النزول، وأنها لا تعدو أن تكون تاريخاً للنزول أو جارية بحرى التاريخ، وقد أخطأ فيما زعم؛ فإن لأسباب النزول فوائد متعددة، لا فائدة واحدة: (الأولى) معرفة حكمة الله تعالى على التعمين، فيما شرعه بالتنزيل، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن. أما المؤمن فيزداد إيماناً على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه، لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطة بهذه الأحكام ومن أجلها جاء هذا التنزيل. وأما الكافر فتنسوق تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفاً، حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامى قام على رعاية مصالح الإنسان، لا على الاستبداد والتحكم والظلم، خصوصاً إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد. وحسبك شاهداً على هذا تحريم الخمر وما نزل فيه، وقد مرّ بك في البحث السابق، فلا نعيده، ولا تغفل.

(الفائدة الثانية) الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها. حتى لقد قال الواحدى: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها. وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالسبب اهـ.

ولنبين لك ذلك بأمثلة ثلاثة: (الأول) قال الله تعالى في سورة البقرة: «وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمُؤْتَمَّ وَجْهُهُ اللَّهُ. إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» فهذا اللفظ الكريم يدلُّ بظاهره على أن للإنسان أن يصلى إلى أية جهة شاء، ولا يجب عليه أن يولى وجهه شطر البيت الحرام، لا في سفر ولا حضر. لكن إذا علم أن هذه الآية نازلة في نافلة السفر خاصة، أو فيمن صلى باجتهاده ثم بان له خطؤه، تبين له أن الظاهر غير مراد، إنما المراد التخفيف على خصوص المسافرين في صلاة النافلة، أو على المجتهد

في القبلة إذا صلى وتبين له خطؤه . عن ابن عمر رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت . وقيل : عنيت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة ، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعدروا . وقيل في الآية غير ذلك ، ولكن ما ذكرناه يكفيك .

(المثال الثاني) روى في الصحيح أن مروان بن الحكم أشكل عليه معنى قوله تعالى : « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » من سورة آل عمران .

وقال : لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لعذبن أجمعون . وبقي في إشكاله هذا حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتبوه إياه وأخبروه بغيره ، وأرواه أنهم أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه أي طلبوا منه أن يحمد على ما فعلوا . وهناك زاو الإشكال عنه ، وفهم مراد الله من كلامه هذا ووعيده .

(المثال الثالث) أشكل على عروة بن الزبير رضي الله عنه أن يفهم فرضية السعي بين الصفا والمروة مع قوله سبحانه : « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » .

وإشكاله نشأ من أن الآية الكريمة نفت الجناح ، ونفى الجناح لا يتفق والفرضية في رأيه ، وبقي في إشكاله هذا حتى سأل خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فأفهمته أن نفى الجناح هنا ليس نفياً لفرضية ، إنما هو نفى لما وقر في أذهان المسلمين يومئذ من أن السعي بين الصفا والمروة من عمل الجاهلية نظراً إلى أن الصفا كان عليه صنم يقال له (إلساف) وكان على المروة صنم يقال له : (نائلة) . وكان المشركون إذا سعوا بينهما تمسحوا بهما . فلما ظهر الإسلام وكثر

الأصنام ، تخرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك ، فنزلت الآية . كذلك جاءت بعض الروايات .

لكن جاء في رواية صحيح البخارى مانصه : فقال (أى عروة) لها (أى لعائشة) أ رأيت قول الله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » : فوالله ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفاء والمروة . قالت : بينما قلت يا ابن أختي ، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه ، كانت « لا جناح عليه ألا يطوف بهما » ولكنها أنزلت في الأنصار ، كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، فكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفاء والمروة . فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك ، قالوا : يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ » الآية . قالت عائشة « وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما » انتهى ما أردنا نقله . ومعنى يهلون : يحججون . ومناة الطاغية : أسم صنم ، وكان صخرة نصبها عمرو بن لحي بجهة البحر فكانوا يعبدونها . والشلل بضم الميم ، واللام الأولى مشددة مفتوحة : اسم موضع قريب من قديد من جهة البحر . وقديد بضم القاف : قرية بين مكة والمدينة . وكلمة « سن » معناها في هذا الحديث شرع ، أو فرض بدليل من السنة لا من الكتاب .

وهذه الرواية — كما ترى — تدل على أن عروة فهم من جملة « فلا جناح عليه أن يطوف بهما » أن الجناح منفي أيضاً عن عدم الطواف بهما وعلى ذلك تنفي الفرضية ، وكأنه اعتمد في فهمه هذا على أن نفى الجناح ، أكثر ما يستعمل في الأمر المباح . أما عائشة رضي الله عنها فقد فهمت أن فرضية السعي بين الصفا والمروة مستفادة من السنة ، وأن جملة « فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

لا تنافي تلك الفرضية كما فهم عروة وإنما الذي ينبغي أن يقال : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ إِلَّا يَطُوفَ بِهِمَا وَإِنَّمَا تَوَجَّهْ نَفْيُ الْحَرَجِ فِي الْآيَةِ عَنِ الطَّوَافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمُرْوَةِ ، لِأَنَّ هَذَا الْحَرَجَ هُوَ الَّذِي كَانَ وَقُرَأَ فِي أُذْهَانِ الْأَنْصَارِ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ الَّذِي ذَكَرْتَهُ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ فَتَدْبِرُ .

(الفائدة الثالثة) دفع توهم الحصر ، عما يفيد بظااهره الحصر : نحو قوله سبحانه في سورة الأنعام : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ ، فَإِنَّهُ رِجْسٌ ، أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » . ذهب الشافعي إلى أن الحصر في هذه الآية غير مقصود ، واستعان على دفع توهمه ، بأنها نزلت بسبب أولئك الكفار الذين أبوا إلا أن يحرموا ما أحل الله ويحلوا ما حرم الله عناداً منهم ومحاداة لله ورسوله ، فنزلت الآية بهذا الحصر الصوري مشادة لهم ومحاداة من الله ورسوله ، لا قصداً إلى حقيقة الحصر .

نقل السبكي عن الشافعي أنه قال مامعناه : « إِنْ الْكُفَّارَ لَمَّا حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ ، وَأَحَلَّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَكَانُوا عَلَى الْمُضَادَّةِ وَالْمُحَادَاةِ جَاءَتِ الْآيَةُ مُنَاقِضَةً لِفَرْضِهِمْ . فَكَانَ قَالُ : لَا حَلَالَ إِلَّا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا أَحَلَّتْهُمُ . نَازِلًا مِنْزِلَةً مِنْ يَقُولُ لَكَ : لَا تَأْكُلِ الْيَوْمَ حَلَاوَةً فَتَقُولَ لَا أَكُلُ الْيَوْمَ إِلَّا حَلَاوَةً ، وَالْفَرْضُ الْمُضَادَّةُ لَا النِّفْيَ وَالْإِثْبَاتِ عَلَى الْحَقِيقَةِ . فَكَانَ تَعَالَى قَالَ : « لَا حَرَامَ إِلَّا مَا أَحَلَّتْهُمُ مِنَ الْمَيْتَةِ ، وَالْدَّمِ ، وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ ، وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » وَلَمْ يَقْصِدْ حِلَّ مَا وَرَاءَهُ ، إِذْ الْقَصْدُ إِثْبَاتُ التَّحْرِيمِ ، لَا إِثْبَاتُ الْحِلِّ ١٥ .

قال إمام الحرمين : وهذا في غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كفا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية ١٥ .

(الفائدة الرابعة) تخصيص الحكم بالسبب ، عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ . فأيات الظهار في مُفْتَتَحِ سورة المجادلة - وقد تقدمت -

سببها أن أوس بن الصامت ظَاهرَ من زوجته خَوَلة بنت حكيم بن ثعلبة ، والحكم الذي تَضَمَّنَتْه هذه الآيات خاصٌّ بهما وحدهما (على هذا الرأي) ، أما غيرها فيعلم بدليل آخر قياساً أو سواه . وبدَهِى أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم ولا القياس عليه إلا إذا علم السبب . وبدون معرفة السبب نصير الآية مُعْطَلَةً خالية من الفائدة . (للفائدة الخامسة) معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا وَرَدَ خُصُّصٌ لَهَا . وذلك لقيام الإجماع على أن حكم السبب باقٍ قطعاً . فيكون التخصيص قاصراً على ما سواه . فلو لم يعرف سبب النزول لجاز أن يفهم أنه مما خرج بالتخصيص ، مع أنه لا يجوز إخراجها قطعاً للإجماع المذكور . ولهذا يقول الغزالي في المستصفى : « (ولذلك يشير إلى امتناع إخراج السبب بحكم التخصيص بالاجتهاد) غلط أبو حنيفة رحمه الله في إخراج الأمة المستفرشة من قوله ﷺ (الولد للفراش) . والخبر إنما ورد في وليدة زَمْعَةَ إذ قال عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ : هو أخي وابن وليدة أبي ، وَلِدَ على فراشه . فقال عليه الصلاة والسلام ، (أولدُ للفراش وللعاهر الحجر) فأنبت للأمة فراشاً وأبو حنيفة لم يبلغه السبب ؛ فأخرج الأمة من العموم » ١ هـ .

(الفائدة السادسة) معرفة من نزلت فيه الآية على التعمين ؛ حتى لا يشق به غيره ، فيتهم البريء ويبرأ المريب (مثلاً) . ولهذا رَدَّتْ عائشة على مروان حين اتهم أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر بأنه الذي نزلت فيه آية « وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمَا » النخ من سورة الأحقاف . وقالت : (وَاللَّهِ مَا هُوَ بِهِ ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَسْمِيَهُ لَسَمَيْتُهُ) إلى آخر تلك القصة .

(الفائدة السابعة) تيسير الحفظ ، وتسهيل الفهم ، وتثبيت الوحي ، في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها . وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات ، والأحكام بالحوادث ، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة . كل أولئك من دواعي

تقرّر الأشياء وانتقاشها في الذهن ، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر ، وذلك هو قانون تداعي المعاني ، المقرّر في علم النفس .

٣ — طريق معرفة سبب النزول

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح ، روى الواحدى بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الحديث إلا ما علمتم فإنه من كذب على متعمداً فليقبوا مقعده من النار . ومن كذب على القرآن من غير علم فليقبوا مقعده من النار » . . . ومن هنا لا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسمع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحوثها عن علمها . ٥١ .

وعلى هذا فإن روى سبب النزول عن صحابي فهو مقبول ، وإن لم يعتضد أى لم يعزز برواية أخرى تقويه . وذلك لأن قول الصحابي فيما لا مجال للاجتهاد فيه ، حكمه حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه يبعد كل البعد أن يكون الصحابي قد قال ذلك من تلقاء نفسه ، على حين أنه خبر لا مردّ له إلا السماع والنقل ، أو المشاهدة والرؤية .

أما إذا روى سبب النزول بحديث مرسل ، أى سقط من سنده الصحابي وانتهى إلى التابعي ، فحكمه أنه لا يقبل إلا إذا صح واعتضد بمرسل آخر وكان الراوى له من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة ، كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير .

٤ — التعبير عن سبب النزول

تختلف عبارات القوم في التعبير عن سبب النزول . فتارة يصرّح فيها بلفظ السبب فيقال : (سبب نزول الآية كذا) وهذه العبارة نص في السببية لا تحتمل غيرها .

وتارة لا يُصرَّحُ بلفظ السبب ولكن يؤتى بفاء داخلية على مادة نزول الآية عقب سرّد حادثة ، وهذه العبارة مثل تلك في الدلالة على السببية أيضاً . ومثاله رواية جابر الآتية قريباً . ومرة يُسأل الرسول ، فيُوحى إليه ويُجيب بما نزل عليه ولا يكون تعبيرٌ بلفظ سبب النزول ، ولا تعبيرٌ بتلك الفاء ، ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام ، كرواية ابن مسعود الآتية عندما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح . وحكم هذه أيضاً حكم ما هو نصٌّ في السببية . ومرة أخرى لا يُصرَّحُ بلفظ السبب ولا يؤتى بتلك الفاء ، ولا بذلك الجواب المبني على السؤال ، بل يقال : نزلت هذه الآية في كذا (مثلاً) . وهذه العبارة ليست نصّاً في السببية ، بل تحتملها وتحتمل أمراً آخر ، هو بيان ما تضمنته الآية من الأحكام . والقرائن وحدها هي التي تُعين أحدهما هذين الاحتمالين أو ترجّحه . ومن هنا نعلم أنه إذا وردت عبارتان في موضوع واحد : إحداهما نصٌّ في السببية لنزول آية أو آيات ، والثانية ليست نصّاً في السببية لنزول تلك الآية أو الآيات ، هنالك نأخذ في السببية بما هو نصٌّ ، ونحمل الأخرى على أنها بيانٌ للدلول الآية ، لأن النص أقوى في الدلالة من المحتمل .

مثال ذلك : ما أخرجه مسلم عن جابر قال : كانت اليهود تقول « من أتى امرأة من دُبُرِها في (قُبْلِها) جاء الولدُ أَحْوَلَ » ، فأنزل الله « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ، وَقَدْ مَوَّا لِنَفْسِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » من سورة البقرة . . . وما أخرجه البخاري عن ابن عمر قال : (أنزلت « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » في إتيانِ النساءِ في أدبارهنَّ) .

فالمعول عليه في بيان السبب هو رواية جابر الأولى ، لأنها صريحة في الدلالة على السبب . وأما رواية ابن عمر فتحمل على أنها بيانٌ لحكم إتيانِ النساءِ في أدبارهن وهو التحريم . استنباطاً منه .

أما إذا كان الاختلاف دائراً بين عبارتين أو عبارات ليس شيء منها نصاً ، كأن يقول بعض المفسرين : نزلت هذه الآية في كذا . ويقول الآخر : نزلت في كذا « ثم يذكر شيئاً آخر غير ما ذكره الأول » ، وكان اللفظ يتناولهما ، ولا قربنة تصرف إحداها إلى السببية ، فإن الروایتين كليهما تحملان على بيان ما يتناوله من المدلولات . ولا وجه لملهما على السبب .

وأما إذا كان الاختلاف دائراً بين عبارتين أو عبارات كلها نصٌّ في السببية ، فهنا يقشع الكلام . ولنفرده بعنوان :

٥ — تعدد الأسباب والنازل واحد

إذا جاءت روايتان في نازل واحد من القرآن ، وذكرت كلٌّ من الروایتين سبباً صريحاً غير ما تذكره الأخرى ، نُظر فيهما . فإذا أن تكون إحداها صحيحة ، والأخرى غير صحيحة . وإما أن تكون كلتاها صحيحة ولكن لإحداها مرجح دون الأخرى . وإما أن تكون كلتاها صحيحة ، ولا مرجح لإحداها على الأخرى ، ولكن يمكن الأخذ بهما معاً . وإما أن تكون كلتاها صحيحة ، ولا مرجح ، ولا يمكن الأخذ بهما معاً . فتلك صور أربع ، لكل منها حكم خاص نسوقه إليك :

« أما الصورة الأولى » - وهي ما صحت فيه إحدى الروایتين دون الأخرى - فحكمها الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب . وردُّ الأخرى غير الصحيحة . مثال ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب قال : « اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأنته امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك » فأنزل الله : « وَالضُّحَى ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » . وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة ، عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت

خادم رسول الله ﷺ : « أَنْ جَرَوْا دَخَلَ بَيْتَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَدَخَلَ تَحْتَ السَّرِيرِ فَاتَ ، فَكَثَّ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ لَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فَقَالَ : يَا خَوْلَةُ مَا حَدَّثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ جَبْرِيلُ لَا يَأْتِنِي . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَوْ هَيَّأْتُ الْبَيْتَ وَكُنَّسْتِهِ ، فَأَهْمَوْتُ بِالْمِكْنَسَةِ تَحْتَ السَّرِيرِ ، فَأَخْرَجْتُ الْجُرُوءَ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ تَرَعْدُ^(١) لِحِقَّتِهِ ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ أَخَذَتْهُ الرَّعْدَةُ » فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « وَالضُّحَى » إِلَى قَوْلِهِ « فَتَرَضَى » . فَتَحْنُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الرِّوَايَتَيْنِ نَقْدُ الرِّوَايَةِ الْأُولَى فِي بَيَانِ السَّبَبِ لَصَحَّتِهَا ، دُونَ الثَّانِيَةِ لِأَنَّ فِي إِسْنَادِهَا مِنْ لَا يَعْرِفُ . قَالَ ابْنُ حَجَرٍ : « قِصَّةُ إِبْطَاءِ جَبْرِيلَ بِسَبَبِ الْجُرُوءِ مَشْهُورَةٌ ، لَكِنْ كَوْنُهَا سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ غَرِيبٌ ، وَفِي إِسْنَادِهِ مِنْ لَا يَعْرِفُ ، فَالْمَعْتَمَدُ مَا فِي الصَّحِيحِ » ١٠٨ .

« وَأَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ » - وَهِيَ صَحَّةُ الرِّوَايَتَيْنِ كُلَّتَيْهِمَا وَإِلْحَادُهُمَا مَرَّجَّحٌ - فَحُكْمُهَا أَنْ نَأْخُذَ فِي بَيَانِ السَّبَبِ بِالرَّاجِعَةِ دُونَ الْمَرْجُوحَةِ . وَالْمَرَّجَّحُ أَنْ تَكُونَ إِحْدَاهُمَا أَصَحَّ مِنَ الْأُخْرَى ، أَوْ أَنْ يَكُونَ رَاوِي إِحْدَاهُمَا مَشَاهِدًا لِلْقِصَّةِ دُونَ رَاوِي الْأُخْرَى . مِنْهَا ذَلِكَ : مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : « كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ . وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ . فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَوْ سَأَلْتُمُوهُ . فَقَالُوا : حَدَّثْنَا عَنْ الرُّوحِ . فَقَامَ سَاعَةً وَرَفَعَ رَأْسَهُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُوْحِي إِلَيْهِ ، حَتَّى صَعِدَ الْوَحْيُ ، ثُمَّ قَالَ : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » . وَمَا أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : « قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلْيَهُودِ ، أَعْطَوْنَا شَيْئًا نَسْأَلُ هَذَا الرَّجُلَ . فَقَالُوا : اسْأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ ، فَسَأَلُوهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » الْآيَةُ .

(١) قَالَ فِي الْقَامُوسِ : « وَقَدْ رَعْدَ كَنَصْرٍ وَمَنْعٍ . وَقَالَ هَامِشُ الْقَامُوسِ : وَقَدْ اسْتَعْمَلَ رَعْدٌ ثَلَاثِيًّا أَيْضًا مَجْهُولًا دَائِمًا ، كَجُنَّ . قَالُوا : رَعْدٌ أَيْ أَصَابَتْهُ رَعْدَةٌ . قَالَهُ الْخَلْفَاجِيُّ فِي شَرْحِ الشِّفَاءِ » ١٠٩ .

فهذا الخبر الثاني يدلُّ على أنها بمكة ، وأن سبب نزولها سؤال قريش إياه . أما الأول فصریحٌ في أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إياه ، وهو أرجح من وجهين : أحدهما أنه رواية البخارى ، أما الثانى فإنه رواية الترمذى ، ومن المقرر أن ما رواه البخارى أصبح مما رواه غيره . ثانيهما أن راوى الخبر الأول وهو ابن مسعود كان مشاهد القصة من أولها إلى آخرها كما تدلُّ على ذلك الرواية الأولى ، بخلاف الخبر الثانى فإن راوِيه ابن عباس لا تدلُّ الرواية على أنه كان حاضر القصة ، ولا ريب أن للمشاهدة قوة في التحمل وفي الأداء ، وفي الاستيثاق ليست تغير المشاهدة ، ومن هنا أَعْمَلْنَا الرواية الأولى ، وأَهْمَلْنَا الثانية .

« وأما الصورة الثالثة » - وهى ما استوت فيه الروايتان في الصحة ، ولا مرجح لإحداها ، لكن يمكن الجمع بينهما ، بأن كلاً من السبيين حصل ونزلت الآية عقب حصولها معاً ، لتقارب زمنيهما فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد السبب لأنه الظاهر ، ولا مانع يمنع . قال ابن حجر : « لا مانع من تعدد الأسباب » .

مثال ذلك : ما أخرجه البخارى من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قدف امرأته عند النبي ﷺ بِشريك بن سحماء . فقال النبي ﷺ : « الْبَيْتَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ » . فقال يا رسول الله ، إِذَا وَجَدَ أَحَدُنَا مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيْتَةَ . وفي رواية أنه قال : وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّى لَصَادِقٌ ، وَلَيُنْزِلَنَّ اللَّهُ تَعَالَى مَا يُرِئِى ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ . فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ » حتى بلغ « إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ » اهـ وهذه الآيات من سورة النور .

وأخرج الشيخان « واللفظ للبخارى » عن سهل بن سعد « أَنَّ عُومِرًا أَتَى عَاصِمَ ابْنَ عَدِيٍّ ، وَكَانَ سَيِّدَ بَنِي عَجْلَانَ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ وَجَدَ مَعَ

امراته رجلاً أ يقتله فتقتلونه ، أم كيف يصنع ؟ سل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فاتى عاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله « وفي رواية مسلم » فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها . فقال عويمر والله لا أنتهى حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فجاءه عويمر فقال يا رسول الله رجل وجد مع امراته رجلاً ، أ يقتله فتقتلونه ، أم كيف يصنع ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك . فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملاعنة بما سمي الله في كتابه فلا عنها « ١٥ . فهاتان الروايتان صحيحتان ، ولا مرجح لإحداهما على الأخرى ، ومن السهل أن نأخذ بسكاتيهما لقرب زمانيهما ، على اعتبار أن أول من سأل هو هلال ابن أمية ، ثم قفاه عويمر قبل إجابته ، فسأل بواسطة عاصم مرة وب نفسه مرة أخرى ، فأنزل الله الآية إجابة للحادثين معاً . ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع ، أولى من إعمال إحداهما وإهمال الأخرى ، إذ لا مانع يمنع الأخذ بهما على ذلك الوجه . ثم لا جائز أن نردّها معاً ، لأنهما صحيحتان ولا تعارض بينهما . ولا جائز أيضاً أن نأخذ بسواحدة ونردّ الأخرى ، لأن ذلك ترجيح بلا مرجح . فتعين المصير إلى أن نأخذ بهما معاً . وإليه جنح النووي وسبقه إليه الخطيب فقال : « لعلهما اتفقا لما ذلك في وقت واحد » ١٥ .

ويمكن أن يفهم من الرواية الثانية أن آيات الملاعنة نزلت في هلال أولاً ، ثم جاء عويمر فأفقه الرسول بالآيات التي نزلت في هلال . قال ابن الصباغ : قصة هلال تبين أن الآية نزلت فيه أولاً . وأما قوله صلى الله عليه وسلم لعويمر « إن الله أنزل فيك وفي صاحبك » فمعناه ما نزل في قصة هلال ؛ لأن ذلك حكم عام لجميع الناس .

« وأما الصورة الرابعة » - وهي استواء الروايتين في الصحة ، دون مرجح

لإحداها ، ودون إمكان للأخذ بهما معاً لِبُعْدِ الزمان بين الأسباب - فحكمها أن
نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعد أسباب النزول التي تحدثت عنها هاتان
الروايتان ، أو تلك الروايات - لأنه إعمال لكل رواية ، ولا مانع منه . قال الزركشي
في البرهان : « وقد ينزل الشيء تعظيماً لشأنه ، وتذكيراً عند حدوث سببه خوف
نسيانه » ١٥ .

(مثال ذلك) ما أخرجه البيهقي والبرزاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقف على
حزرة حين استشهد وقد مثل به ، فقال : « لَأَمَثَلَنَ بِسبعينَ منهم مكانك » فنزل
جبريل والنبي ﷺ واقف - بخواتيم سورة النحل « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ
مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ » إلى آخر السورة ، وهن ثلاث آيات .

وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب قال : (لَمَّا كَانَ يَوْمُ أَحَدٍ أَصِيبَ مِنَ
الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُونَ ، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ ، مِنْهُمْ حِزْرَةٌ ، فَتَلَّوْا بِهِ ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ :
لَنْ أَصِيبَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لُزَيْنٍ) (أى لنزيدن) عليهم . فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ
مَكَّةَ أَنْزَلَ اللَّهُ « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ » الآية .

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد ، والثانية تفيد أنها نزلت يوم
فتح مكة ، على حين أن بين غزوة أحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين ، فبعد أن
يكون نزول الآية كان مرة عقيبها معاً . وإذن لا مناص لنا من القول بتعدد نزولها ،
مرة في أحد ومرة يوم الفتح . وقد ذهب البعض إلى أن سورة النحل كلها مكية .
وعليه فيكون خواتيمها المذكورة نزلت مرة بمكة قبل هاتين المرتين اللتين في المدينة ،
وتكون عدة مرات نزولها ثلاثاً . وبمضمون يقول إن سورة النحل مكية ما عدا
خواتيمها تلك فإنها مدنية ، وعليه فعدة مرات نزولها ثنتان فقط .

شبهة وجوابها

وإذا استشكل على تكرار النزول بأنه عبث مادامت الآية قد نزلت قبل ذلك السبب الجديد ، وحفظها الرسول ﷺ واستظهرها الحفاظ من الصحابة ، ويمكن الرجوع إليها من غير حاجة إلى نزولها مرة أخرى .

(فالجواب) أن هناك حكمة عالية في هذا التكرار ، وهي تنبيه الله لعباده ، ولفت نظرهم إلى ما في طي تلك الآيات المكررة من الوصايا النافعة ، والفوائد الجمة ، التي هم في أشد الحاجة إليها . فخواص سورة النحل التي معنا مثلاً ، نلاحظ أن الحكمة في تكرارها هي تنبيه الله لعباده أن يحرصوا على العمل بما احتوته من الإرشادات السامية في تحري العدالة ، وضبط النفس عند الغضب ، ومراقبة الخالق حتى في القصاص من الخلق ، والتدرع بالصبر والثبات . والاعتماد على الله والثقة بتأييده ونصره ، لكل من اتقاه وأحسن في عمله ، جعلنا الله منهم أجمعين آمين .

أضف إلى هذه الحكمة ما ذكره الزركشي آنفاً من أن تكرار النزول تعظيم لشأن المكرر ، وتذكير به خوف نسيانه .

٦ — تعدد النازل والسبب واحد

قد يكون أمر واحد سبباً لنزول آيتين أو آيات متعددة « على عكس ما سبق » ولا مانع من ذلك ، لأنه لا ينافي الحكمة في إقناع الناس ، وهداية الخلق ، وبيان الحق عند الحاجة ، بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع وأظهر في البيان .

مثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان ، ما أخرجه ابن جرير الطبري والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه . فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال : علام تستمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما طلوا حتى تجاوز

عَنْهُمْ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ . فَإِنْ يَتُوبُوا إِلَيْكَ خَيْرُ اللَّهِمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » من سورة التوبة .

وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالوا : فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « يَوْمَ يَنْفَعُهُمْ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ عَلَى شَيْءٍ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ . اسْتَحْذَرُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ . أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ . أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ » ١ هـ من سورة المجادلة .

ومثال السبب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتين ما أخرجه الحاكم والترمذي عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، لا أسمع الله ذكرَ النساء في الهجرة بشيء فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ ، مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَأُودُوا فِي سَبِيلِي ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا ، لَا أَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ » ١ هـ من سورة آل عمران .

وأخرج الحاكم أيضاً عنها أنها قالت : قلت يا رسول الله : تذكر الرجال ولا تذكر النساء فَأَنْزَلَ : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ^(١) » وَأَنْزَلَ : « أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى ^(٢) » .

(١) من سورة الأحزاب وتماها : « وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّامِعِينَ وَالصَّامِعَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » .

(٢) وهي من آية آل عمران السابقة .

وأخرج الحاكم أيضا أنها قالت تفزُّ الرجال ولا تفزُّ النساء، وإنا لئنا نصف الميراث.
فأنزل الله « وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ »^(١) وأنزل : « إِنَّ
الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ »^(٢) .

٧ — العموم والخصوص

بين لفظ الشارع وسببه

هذا مبحث أفردَه الأصوليون بالكلام لأن مهمتهم الاستدلال بألفاظ الشارع على
الأحكام ، ونحن نلخص لك هنا ما يسمح به المقام لمناسبة أسباب النزول وما ينزل فيها
عما يوافقها أو لا يوافقها في العموم والخصوص فنقول : اعلم أن لفظ الشارع الوارد جواباً
لسؤال أو سبب قد يكون مستقلاً أو مفيداً وحده بقطع النظر عن السبب أو السؤال
الوارد فيه . وقد يكون غير مستقل ، بمعنى أنه لا يفيد إلا إذا لوحظ معه السبب أو
السؤال .

ولكل من هذين النوعين حكمه :

فأما الجواب الذي ليس بمستقل : فحكمه أنه يساوى السؤال في عمومته باتفاق
الأصوليين ويساويه أيضاً في خصوصه على الرأي السائد عندهم .

فلو قال سائل : هل يجوز الوضوء بماء البحر ، فأجيب بلفظ (نعم) ، أو لفظ
(يجوز) ، كان المعنى : يجوز الوضوء بماء البحر لكل من أراد من الناس لا لخصوص
هذا السائل ، وذلك لأن السؤال استفهام عن الجواز مطلقاً من غير اعتبار خصوص
المتكلم ، فكذلك جوابه ، لأنه غير مستقل .

ولو قال السائل : توضأت بماء البحر ، فأجيب بلفظ (يُجْزِيكَ) ، كان معناه :

(١) من سورة النساء وتامها قد تقدم .

(٢) من سورة الأحزاب ، وتامها قد تقدم أيضاً قريباً .

أن الوضوء بماء البحر يجزى السائل وحده ، لأن السؤال خاص بالتسكيم ، فكذلك جوابه غير المستقل . أما غير التسكيم فلا يعلم حكمه من هذا الجواب ، بل يعلم من دليل آخر كالقياس ، أو كقوله ﷺ : « حَكَمَى عَلَى الْوَاحِدِ حَكْمَى عَلَى الْجَمَاعَةِ » . ذلك كله في الجواب غير المستقل .

وأما الجواب المستقل فتارة يكون مثل السبب ، في أن كلاً منهما عامٌ أو خاصٌ . وحكمه إذن أنه يساويه . فاللفظ العام يتناول كل أفراد سببه العام في الحكم ، واللفظ الخاص مقصورٌ على شخص سببه الخاص في الحكم . وهذا محل اتفاق بين العلماء ، لمكان التكافؤ والتساوى بين السبب وما نزل فيه . وأمثلة الأول - وهو العام - فيها - كثيرة . منها الآيات النازلة في غزوة بدر ، والآيات النازلة في غزوة أحد من سورة آل عمران . ومثال الثاني - وهو الخاص - فيها - قوله سبحانه في سورة الليل : « وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى » .

قال الجلال الحلي : هذا نزل في الصديق رضى الله عنه ، لما اشترى بلالا المذنب على إيمانه وأعتقه . فقال للكفار : إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده فزلت : « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى » .

واعلم أن هذا التمثيل لا يستقيم إلا على اعتبار أن آل في لفظ « الْآتَى » للعهد ، والمعهود هو الصديق رضى الله عنه .

وتارة يأتي الجواب المستقل غير متكافئ مع السبب في عمومته وخصوصه . وتحت ذلك صورتان : (إحداها) عقلية محضة غير واقعة ، وهى أن يكون السبب عاما واللفظ خاصا . وإنما كانت عقلية محضة وفرضية غير واقعة ، لأن حكمة الشارع تجل عن أن تأتي بجواب قاصر ، لا يتناول جميع أفراد السبب . أضف إلى ذلك أنه يخل ببلاغة القرآن ، القائمة على رعاية مقتضيات الأحوال . وهل يعقل أن يسأل

سائلٌ فيقول مثلاً؟ هل يجوز لجماعة المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم ويقاتلوا من قاتلهم،
فيأتي الجواب قائلًا : لك أنت أن تدافع عن نفسك وتقاتل من قاتلك .
(الصورة الثانية » هي عموم اللفظ وخصوص سببه .

٨ - عموم اللفظ وخصوص سببه

ومعناه أن يأتي الجواب أعم من السبب، ويكون السبب أخص من لفظ الجواب.
وذلك جائز عقلاً ، وواقعٌ فعلياً ، لأنه لا محذور فيه ولا قصور ، بل إن عمومته مع
خصوص سببه موفٍ بالغاية ، ومؤدٍ للمقصود وزيادة .
بيد أن العلماء اختلفوا في حكمه : أعموم اللفظ هو المعتبر أم خصوص السبب ؟ .
ذهب الجمهور إلى أن الحكم يتناول كل أفراد اللفظ ، سواء منها أفراد السبب ، وغير
أفراد السبب . ولنضرب لك مثلاً : حادثة قذف هلال بن أمية لزوجته ، وقد نزل
فيها قول الله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » الخ ، نلاحظ فيها أن السبب
خاصٌ ، وهو قذف هلال هذا ، لكن جاءت الآية النازلة فيه بلفظ عامٍ - كما ترى -
وهو لفظ « الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » . وهو اسم موصول ، والموصول من صيغ
العموم ، وقد جاء الحكم بالملاعنة في الآية محمولاً عليه من غير تخصيص . فيتناول بعمومه
أفراد القاذفين في أزواجهم ، ولم يجدوا شهداء إلا أنفسهم ، سواء منهم هلال بن أمية
صاحب السبب وغيره ، ولا يحتاج في سحب هذا الحكم على غير هلال إلى دليل آخر
من قياس أو سواء بل هو ثابت بعموم هذا النص . ومعلوم أنه لا قياس ولا اجتهاد
مع النص . ذلك مذهب الجمهور .

وقال غير الجمهور : إن العبرة بخصوص السبب . ومعنى هذا أن لفظ الآية يكون
مقصوراً على الحادثة التي نزل هو لأجلها ، أما أشباهها فلا يعلم حكمها من نص الآية ،
إنما يعلم بدليل مستأنف آخر ، هو القياس إذا استوفى شروطه ، أو قوله ﷺ :

« حُكْمِي عَلَى الْوَاحِدِ حُكْمِي عَلَى الْجَمَاعَةِ ». فَأَيَّةُ الْقَذْفِ السَّابِقَةِ النَّازِلَةُ بِسَبَبِ حَادِثَةِ هَلَالٍ مَعَ زَوْجِهِ خَاصَّةً بِهَذِهِ الْحَادِثَةِ وَحْدَهَا، « عَلَى هَذَا الرَّأْيِ ». أَمَّا حُكْمُ غَيْرِهَا مِمَّا يَشْبِهُهَا، فَإِنَّمَا يَعْرِفُ قِيَاسًا عَلَيْهَا أَوْ عَمَلًا بِالْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ .

وَيَجِبُ أَنْ نَلَاظِظَ، أَنَّ هَذَا الْخِلَافَ الْقَائِمَ بَيْنَ الْجُمْهُورِ وَغَيْرِهِمْ، مُحْتَلٌّ إِذَا لَمْ تَقُمْ قَرِينَةٌ عَلَى تَخْصِيسِ لَفْظِ الْآيَةِ الْعَامِّ بِسَبَبِ نَزْوِلِهِ، أَمَّا إِذَا قَامَتْ تِلْكَ الْقَرِينَةُ فَإِنَّ الْحُكْمَ يَكُونُ مَقْصُورًا عَلَى سَبَبِهِ لِاحْتِمَالِهِ، بِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ .

كَأَيْبُ أَنْ نَلَاظِظَ أَيْضًا أَنَّ حُكْمَ النَّصِّ الْعَامِّ الْوَاردِ عَلَى سَبَبٍ يَتَعَدَّى عَنْهُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ إِلَى أَفْرَادٍ غَيْرِ السَّبَبِ: بَيِّدُ أَنَّ الْجُمْهُورَ يَقُولُونَ إِنَّهُ يَتَنَاوَلُهُمْ هَذَا النَّصُّ نَفْسَهُ، وَغَيْرِ الْجُمْهُورِ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَا يَتَنَاوَلُهُمْ إِلَّا قِيَاسًا أَوْ بِنَصِّ آخَرٍ كَالْحَدِيثِ الْمَعْرُوفِ: « حُكْمِي عَلَى الْوَاحِدِ حُكْمِي عَلَى الْجَمَاعَةِ » .

وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى يُشِيرُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ بِقَوْلِهِ: « قَدْ يَحْيَى كَثِيرًا مِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ: هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي كَذَا، لَا سُمِّيَ إِنْ كَانَ الْمَذْكُورُ شَخْصًا، كَقَوْلِهِمْ: إِنْ آيَةُ الظَّهَارِ نَزَلَتْ فِي امْرَأَةِ قَيْسِ بْنِ ثَابِتٍ، وَإِنْ آيَةُ السَّكَلَالَةِ نَزَلَتْ فِي جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَإِنْ آيَةُ قَوْلِهِ « وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ » بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ » نَزَلَتْ فِي بَنِي قَرِيطَةَ وَالنُّضَيْرِ، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ مِمَّا يَذْكُرُونَ أَنَّهُ نَزَلَ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، أَوْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، أَوْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَالَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ لَمْ يَقْصِدُوا أَنَّ حُكْمَ الْآيَةِ يَخْتَصُّ بِأُولَئِكَ الْأَعْيَانِ دُونَ غَيْرِهِمْ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ وَلَا عَاقِلٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَالنَّاسُ وَإِنْ تَنَازَعُوا فِي اللَّفْظِ الْعَامِّ الْوَاردِ عَلَى سَبَبٍ: هَلْ يَخْتَصُّ بِسَبَبِهِ؟ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إِنْ عُمُومَاتُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَخْتَصُّ بِالشَّخْصِ الْمَعِينِ. وَإِنَّمَا غَايَةُ مَا يُقَالُ: إِنَّهَا تَخْتَصُّ بِنَوْعِ ذَلِكَ الشَّخْصِ، فَتَعَمُّ مَا يَشْبِهُهُ وَلَا يَكُونُ الْعُمُومُ فِيهَا بِحَسَبِ اللَّفْظِ. وَالْآيَةُ الَّتِي لَهَا سَبَبٌ مُعَيَّنٌ إِنْ كَانَتْ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا فَهِيَ مُتَنَاوِلَةٌ لِذَلِكَ الشَّخْصِ وَلِغَيْرِهِ مِمَّنْ كَانَ بِمَنْزِلَتِهِ » اهـ .

ولعل ثمرة هذا الخلاف ترجع إلى أمرين: «أحدهما» أن الحكم على أفراد غير السبب مدلول عليه بالنص النازل فيه عند الجمهور. وذلك النص قطعي المتين اتفاقاً، وقد يكون مع ذلك قطعي الدلالة. أما غير الجمهور فالحكم عندهم على غير أفراد السبب ليس مدلولاً عليه بذلك النص بل بالقياس أو الحديث المعروف، وكلاهما غير قطعي.

«الثاني» أن أفراد غير السبب كلها يتناولها الحكم عند الجمهور، مادام اللفظ قد تناولها. أما غير الجمهور فلا يسحبون الحكم إلا على ما استوفى شروط القياس منها دون سواه إن أخذوا فيه بالقياس.

د — أدلة الجمهور

استدل الجمهور على مذهبهم بأدلة ثلاثة: «الأول» أننا نعلم أن لفظ الشارع وحده هو الحجة والدليل دون ما احتف به من سؤال أو سبب؛ فلا وجه إذن لأن نخص اللفظ بالسبب. وكيف يسوغ أن نجعل ما ليس حجة في الشرع متحكماً بالتخصيص على ما هو الحجة في الشرع؟

والدليل على أن لفظ الشارع وحده هو الحجة أن الشارع قد يصرف النظر عن السؤال، ويعمل بالجواب عن سنن السؤال للحكمة، نحو قوله تعالى في سورة البقرة: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ قُلْ مَا أَفْقَمْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآقَرِ بَيْنَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ» فإن ظاهر هذه الآية أن النبي ﷺ سئل عن بيان ما ينفقونه؛ فجاء الجواب ببيان من ينفقون عليهم. وذلك من أسلوب الحكميم؛ لأن معرفة مصارف النفقة والصدقة أهم من معرفة المصروف فيها، فإن إصلاح الجماعة البشرية لا يكون إلا عن طريق تنظيم النفقة والإحسان، على أساس توجيههما إلى المستحقين دون سواهم. وهذا وجه في الآية نراه وجيهاً،

وإن كانت الآية قد أشارت إشارة خفيفة إلى بيان ما ينفقونه بقوله سبحانه «من خير» غير أنها إشارة إجمالية لا تشيع حاجة السؤال .

ويمكن أن تنظم من هذا دليلاً منطقيًا من باب القياس الاقترائی ، تقريره هكذا :
اللفظ العام الوارد على سبب خاص هو الحجة وحده عند الشارع ، وكل ما كان كذلك يعتبر عمومه ، فاللفظ العام الوارد على سبب خاص يُعتبر عمومه . وهو المطلوب .

كما يمكن أن تنظم منه قياساً استثنائيًا تقريره :

لو لم يكن اللفظ العام الوارد على سبب خاص مُعتبراً عمومه لما كان لفظ الشارع وحده هو الحجة ، لكن التالي باطل ، فبطل ما أدى إليه وهو المقدم ، وثبت نقيضه وهو أن اللفظ العام الوارد على سبب خاص يعتبر عمومه ، وهذا هو المطلوب .

« الدليل الثاني » أن الأصل هو حمل الألفاظ على معانيها المتبادرة منها عند الإطلاق أى عند عدم وجود صارفٍ يصرف عن ذلك المتبادر ، ولا صارفٍ للفظ هنا عن إرادة العموم ، فلا جرم يبقى على عمومه . أما ما يتوهمه المخالفون من أن خصوص السبب صارفٌ عن إرادة العموم ، فمدفوعٌ بأن مجرد خصوص السبب لا يستلزم إخراج غير السبب من تناول اللفظ العام إياه . فلا يصلح أن يكون قرينة مانعة من إرادة ما وضع له اللفظ العام . وهو العموم الشامل لجميع الأفراد .

ويمكن أن تنظم من هذا الدليل قياساً اقترائيًا هكذا : اللفظ العام الوارد على سبب خاص يتبادر منه العموم عند الإطلاق ، وكل ما كان كذلك يبقى على عمومه . فاللفظ العام الوارد على سبب خاص يبقى على عمومه وهو المطلوب .

ويمكن أن تنظم من ذلك الدليل قياساً استثنائيًا أيضاً يقول : لو لم يكن اللفظ العام الوارد على سبب خاص باقياً على عمومه عند الإطلاق للزم استعمال اللفظ في غير ما وضع له بلا قرينة ، لكن التالي باطل ، فبطل المقدم وثبت نقيضه وهو أن اللفظ العام

الوارد على سبب خاص باقي على عمومته عند الإطلاق . وذلك هو المطلوب .
 « الدليل الثالث » احتجاج الصحابة والمجاهدين في سائر الأصناف والأصناف بمبرم
 تلك الألفاظ الواردة على أسباب خاصة في وقائع وسوانح كثيرة من غير حاجة إلى تخماس
 أو استدلال بدليل آخر . وكيف يتكرر هذا ؟ وأكثر أصول الشرع أخرجت على أسباب
 خاصة ، ويرغم خصوص تلك الأسباب قد فهموا من الألفاظ النازلة فيها بمقتضى العموم ،
 ثم صاغوا من مبرماتها كثيراً من الأميول . فاستدلوا بآية السرقة على وجوب قطع كل
 يد مع أنها نازلة في خصوص سرقة الحنّ أو رداء صفوان . واحتجوا بآيات الظهار
 على وجوب الكفارة المذكورة فيها والعمل بأحكامها على كل من ظاهمه ، مع أنها
 نازلة في خصوص من عرف قبل . وكذلك رهنوا بآيات اللعان على قبول حكمة
 لكل من قذف زوجته ولم يكن معه شهود على حين أنها نازلة في خصوص من
 ذكرنا سابقاً .

ويمكن أن تنظم من هذا الدليل قياساً اقترانياً أنه : عموم اللفظ الوارد على سبب
 خاص قد اعتبره الصحابة والمجاهدون ، وكل ما كان كذلك فهو المعتبر . خصوص اللفظ
 الوارد على سبب خاص هو المعتبر .

ويمكن أن تنظم منه دليلاً استثنائياً أنه : لو لم يكن عموم اللفظ الوارد على سبب
 خاص هو المعتبر ، لما اعتبره الصحابة والمجاهدون ، لكن الثال باطل فيطل القدم ،
 وثبتت قضيته ، وهو المطلوب .

ملاحظة

لا يبعد عليك أن تستدل بالمقدمات المنفردة والكبرى في الأقيسة الاقترانية التي
 ذكرناها ، خصوصاً بعد أن ننظر فيما نثرناه قبلها من عرض الأدلة بالأسلوب المؤلف الخالي
 من القيود الشكلية ، في الاصطلاحات المنطقية .

وبمثل ذلك نستطيع أن نشهد للملزمات وطلان الثوال، فيما نظمناه بين يديك من
الأقنية الاستثنائية. حائل

١ - شبهات المخالفين وتقنيوها

السيد هاشم الجمهور إلى شبهات خص بتأييدهم - وهو أن العبارة بخصوص
السبب لا يسوم اللفظ - ولكنك ستري مخرج هذه الشبهات بين يديك :

والشبهة الأولى : يقولون : إن الإجماع قد انتقد على عدم جواز إخراج السبب من
حكم العام الوارد على سبب خاص ، إذا ورد مخصص . وذلك يستلزم أن العام مقصور
على أفراد السبب لا يتناول غيرها ، لأنه لو لم يكن مقصوراً عليها لتساوت هي وغيرها
في جواز الإخراج عند المخصص . وذلك ممنوع ، للإجماع المذكور .

والجواب : أن الإجماع المذكور لا يستلزم قصر العام على أفراد الخاص
كما يقولون ، بل هو قائم عند حدود مضاف من أن أفراد السبب لا تخرج بالمخصص ،
وذلك المعنى مضمّن لعدم التساوي بين أفراد السبب وغيرها في حالة الإخراج بالمخصص ،
لأنه لا يمنع حصول غير أفراد السبب في حكم العام إذا تناول اللفظ ، وذلك لأدلة الجمهور
السابقة .

ويمكن أن تنظم من هذا قياساً استثنائياً يقول :

لو لم تكن العبارة بخصوص السبب ، لحاز إخراج أفراد السبب إذا ورد مخصص
لكن إخراج أفراد السبب عند وجود المخصص ممنوع ، لانقضاء الإجماع على امتناعه .
فبطل ما أدى إليه وهو للقدم ، وثبت قضيته ، وهو أن العبارة بخصوص السبب
دليل للتلازم أن العام يستلزم أفراداً ، فإذا أخذنا بسوم اللفظ ولم نخصصه بالسبب

تساوت أفراد السبب وغيرها مما اندرج تحت ذلك العام ، فإذا جاء مخصص جاز أن يخرج أفراد السبب .

ويُجَاب بإبطال الملازمة ، ومنع أن أفراد العام متساوية . وسند للنوع أن الإجماع منمقد على أن أفراد السبب تمتاز عن غيرها بأنها لا تخرج بالتخصيص . فإن تساوت هي وأفراد غير السبب دخولاً ، فلن يتساوى الجميع خروجاً . وإذن يبقى العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، للأدلة السابقة .

« الشبهة الثانية » يقولون : إن الرواة نقلوا أسباب النزول واهتموا بها وتدوينها . ولا فائدة لذلك إلا ما نذهب إليه من وجوب قصر العام على أفراد سببه الخاص . وهذا معنى أن العبارة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ .

والجواب : أنه لا وجه لكم في أن تجعلوا فائدة نقل الأسباب هي قصر العام على أفراد سببه ، فإن لأسباب النزول والإحاطة بها علماً عن طريق نقل الرواة فوائد عدة ، ومزايا جمة ، وذكرناها في مطالع هذا البحث . وهي غير ما ذكرتم ، فارجعوا إليها إن شئتم . ويمكن أن ننظم من ذلك قياساً استقنائياً أيضاً هكذا : لو لم تكن العبارة بخصوص السبب لما نقل الرواة واهتموا ببيانها وتدوينه لكن التالي باطل بالحس والمشاهدة ، ثبت نقيض التقدم وهو أن العبارة بخصوص السبب دليل للملازمة أنه لا يفهم لنقل الرواة وهنأيتهم ببيان الأسباب فائدة غير التخصيص .

والجواب أننا نمنع دليل الملازمة ، كيف ؟ ولأسباب النزول فوائد متعددة قد قصصناها عليك أول هذا البحث فحذار أن تنسى .

« الشبهة الثالثة » يقولون : إن تأخير البيان عن وقوع الواقعة وتوجيه السؤال في العام الوارد على سبب يدل على أن العبارة بخصوص السبب ، لأن تأخير لفظ الشارع إلى ما بعد حدوث سببه ، يفهم منه أن السبب هو الملحوظ وحده للشارع في الحكم عليه بهذا اللفظ العام النازل فيه ، وإلا لما ربطه بالسبب ، بل لأنزله قبله ، أو أخره عنه .

والجواب أنه يكفي في حكمة تأخير البيان إلى ما بعد السبب أن يكون اللفظ العام بياناً له ولو مع ما يشابهه من كل ما يندرج تحت اللفظ العام، ولا يستلزم أن يكون بياناً له وحده كما ذكرتم.

ويمكن أن تصور من هذا قياساً هكذا: لو لم تكن العبرة بخصوص السبب، لما أخر البيان إلى وقوع الواقعة أو توجيه السؤال. لكن التالي باطل، فثبت تقيض المقدم وهو الطرأ. دليل الملازمة أن تأخير لفظ الشارع إلى ما بعد وقوع الواقعة وتوجيه السؤال لا يفهم منه إلا أنه بيان لهذا السبب وحده، وذلك معنى أن العبرة بخصوصه. والجواب: أننا نمنع دليل الملازمة، أي نمنع أنه لا يفهم من تأخير البيان إلى ما بعد وقوع الواقعة وتوجيه السؤال إلا أن يكون اللفظ العام النازل بسببها بياناً لهذا السبب وحده. كيف؟ والتأخير يفهم منه أن اللفظ العام جاء بياناً له مع أشباهه من كل ما ينتظم وإياه في سلك العلم للأدلة السابقة.

« الشبهة الرابعة » يقولون: قد اتفقت كلمة الفقهاء على أنه إذا دعا رجل رجلاً آخر إلى طعام الفداء وقال له: (تندّ عندي) فرفض وقال: (والله لا أتندّي)، ولم يقل « عندك »، ثم تناول الفداء عند غير هذا الداعي، فإنه لا يحث. وماذا لك إلا لأن هذا اللفظ العام قد تخصّص بسببه وهو كلمة (تندّ عندي) التي خصّ بها الداعي نفسه، فكان الحلف قال: (لا أتندّي عندك وحدك) ولذلك لا يحث بفدائه عقد غيره.

والجواب: أن حكم الفقهاء في هذا المثال ليس مبنياً على أن كل عام يتخصّص بسببه كما فهمتم، بل هو مبني على أن هذا المثال وأشباهه تخصّص بقرينة خارجية وهي حكم العرف هنا بأن الحالف إنما يريد ترك الفداء عند داعيه فقط. وليس كلامنا فيما تخصّص بقرينة خارجية، سواء أكانت العرف أم سواء، فذلك محسّل وفاق.

ونظيره أن يقال لك (كلم فلاتاً في واقعة معينة) فتقول (والله لا أكلمة أبداً) فإنك لا تبحث إذا كلمته في غير تلك الواقعة ، لأن العرف يحكم أيضاً بأنك تريد عدم تكليمه في خصوص تلك الواقعة لا مطلقاً .

ويمكن أن تنظم من هذا قياساً استثنائياً يقول :

لو لم تكن العبرة بخصوص السبب ، لكان من قال (والله لا أنفدى) ولم يقل (عندك) ، في إجابة من قال له (تفدى عندي) حائثاً إذا نفدى عند غيره . لكن التالي باطل ، لنص الفقهاء على عدم حشده حينئذ ، فبطل للقدم ، وثبت قضيضه ، وهو المطلوب .

دليل الملازمة أن كلمة (لا أنفدى) شاملة للتفدى عند المخاطب وعند غيره ، لأن حذف للعمول يؤذن بالعموم . وقد جاءت هذه الكلمة على سبب وهو دعوة المخاطب إياه للتداء . فلو أخذنا بعموم هذا اللفظ ، وأهملنا خصوص هذا السبب ، لكان يبحث عدائته عند غيره ، لأنه فرد من أفراد ذلك العام .

والجواب : أن التخصيص بالسبب هنا لم يحى من نفس السبب ، إنما جاء من قرينة خارجة هي حكم العرف بأن حالف مثل هذه اليمين إنما يقصد عدم التفدى عند من دعاه وحده . ولا كلام لنا في ذلك ، لأن التخصيص بالقرينة الخارجة محل وفاق كما تقدم .

« الشبهة الخامسة » يقولون : إن التطابق بين السؤال وجوابه واجب ، في نظر الحكمة ، وبحكم قانون البلاغة . وهذا التطابق لا يستقيم إلا بالتساوى بين لفظ العام وسببه الخاص . والتساوى لا يكون إلا إذا خصصنا اللفظ العام بسببه الخاص . لاسيما إذا وقع ذلك في كلام الشارع الحكيم ، وجاء في أرقى نصوص البلاغة وواحدتها إيجازاً ، وهو القرآن الكريم .

والجواب : أن طرد اللفظ على عمومته لا يحل مطابقته لشيء الخاص ، لأن هذه المطابقة تحصل بكون اللفظ أعم من سببه ، كما تحصل بمساواته إياه ، فإن المقصود من المطابقة أن يكون اللفظ مبيناً لحكم السبب وغير قاصر عن الوفاء به ، وهو إذا جاء أعم يكون قد وفق بالمراد وزاد .

ويمكن أن تسبك من هذا قياماً استثنائياً صيغته هكذا : لو لم تكن العبارة بخصوص السبب ، لكان اللفظ غير مطابق للسبب . لكن التالي باطل ، فثبت تقيض المقدم . دليل للضرورة : أن الكلام هنا مفروض في سبب خاص ولفظ عام ، ولا شك أن العام لا يطابق الخاص . ودليل بطلان التالي : أن عدم المطابقة منافي للحكمة ، وعمل بالبلاغة .

والجواب : أننا نبطل تلك اللازمة ، ونمنع دليلها وهو أن العام لا يطابق الخاص . كيف ؟ والمطابقة كما تحصل بمساواة اللفظ للسبب عموماً وخصوصاً ، تحصل بكون اللفظ أعم من السبب ، لأن المراد من الجواب أن يتحدث عن السبب وبين حكمه ، وذلك حاصل مع كونه أعم منه ، ولا يتوقف على مساواته إياه .

ملاحظة : يمكنك بعد هذا البيان ، أن تحول تلك الأقيسة الاستثنائية إلى أقيسة افتراضية ، ثم تستدل على مقدماتها بسهولة ويسر ، على نمط ما فعلنا بأدلة الجمور . فأمامك المجال ، ولا داعي لإطالة المقال .

كما أرجو أن يعذرنى القارى الكريم ، إذا شق عليه بعض الشيء أن يهضم تلك الصناعة الفنية في صياغة الأدلة بعض الأحيان ؛ فإن الوسط قضاء لا يرد ، وللصناعة حكماً لا ينقض . ومن واجبي أن أشبع حاجة هؤلاء وهؤلاء ، لذلك تراءى طوراً هنا وطوراً هناك . والله هو الفتح العليم ؛ وهو الموفق والمعين .

١١ - شبه السبب الخاص مع اللفظ العام

نوة السيوطي في الإتيان ، وابن الشككي والخلي في جمع الجوامع وشرحه ، بأن القرآن الكريم قد يرد فيه ما يشبه السبب الخاص مع اللفظ العام النازل فيه ، فيكون لهذا شبه أثر صالح في تناول الآية العامة للمضون الخاص في الآية التي معها ، تناولاً ممتازاً يعمده أسبق إلى الذهن من غيره ، وأبعد عن خروجه بالتخصيص إذا ورد مخصص لفظ الآية العامة . فكانه قطعي الدخول . وكأنه يجمع على عدم خروجه بالتخصيص ، كما أجمعوا على عدم خروج السبب الخاص من لفظ العام النازل فيه .

وهاك مثلاً بوضع لك للقسام : قال الله تعالى في سورة النساء : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ ، يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا » إلى آخر الآيات الواردة في هذا الموضوع .

فأنت ترى أن هذه الآيات شتمت على الخيانة والظانين من اليهود ، ونوعدهم أنقطع الوعيد ، ووبختهم أشدَّ التوبيخ . وذلك في معنى النهي البالغ عن تلك الخيانة أي خيانتهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، حيث جعلوا للمشركين أهدي سبيلاً منهم . ومن المقرر أن النهي عن شيء أمرٌ بضده ، فلا جرم تضمنت هذه الآيات أيضاً أمر اليهود بالأمانة في الحكم على النبي ﷺ وأصحابه ، ووصفهم بالصفات الحقيقية خصوصاً أنهم قد مدحوا في كتابهم التوراة كما قال الله تعالى في سورة الأعراف : « يُحْذَرُونَ مَسْكُوتًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » الخ والضمير للنبي ﷺ ، وكما قال في سورة الفتح بعد أن وصف النبي وأصحابه : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّعًا أَخْرَجَ شَطْأَهُ » الخ .

ثم جاء عقيب تلك الآيات في الترتيب الوضعي قوله سبحانه وتعالى : « إِنْ أَهْلَ

بأنهم إنما نزلوا بالأماني إلى أهلها ، فكانت منسوبة إليها رانما ، والعلّة وثيقة
والاستدلال حجة ، لأنّ هذه لا تظهر إلا بالأماني في عمومها كما نرى ، وذلك الآيات تأمر
بأمانها كقوله : وما الحكم للعلّة من العام والخاص ، فممكن ذلك تنبيهاً بالسبب
الخاص بغيره لفظ عام ، فإذا كان تناول العام لأفراد الخاص محملاً عليه ولا يصح
خروجه بخصوص ، فكذلك الأمانة العامة التي معنا تنظم في تلك الأمانة العامة
استلزاماً محملاً بغيره لا أولاً ، حتى لو قيل إنه لا يحمل إخراجها منها بخصوص
لم يحد ، وذلك ما حذرنا من السبكي أن يحلها مرةً دون السبب وفوق التعميم .
وعالم محمل في معرفة السبب ، لأن الأولى ليست شيئاً في الثانية ، ولأن المقارنة بينهما
ليست إلا في حيز آيات القرآن ووضع بعضها بآراء بعض ولا يستقارنة زماناً في النزول
بل إن بينهما اتفاقاً شيئاً ، فالثانية تأخرت عن الأولى بنحو ست سنين ، ولا يضر ذلك
لأنّ قارب الزمان ليس شرطاً في وضع آية لصق آية تناسبها ، إنما هو شرط في أسباب
النزول مع ما يبعد فيها فحسب .

ولعل من تمام الفائدة أن نشوق إليك ما جاء في جمع الجوامع للإمام ابن السبكي
وشاوح جلال الدين المكي في هذه المناسبة : « (ويقرب منها) أي من صورة
السبب حتى يكون ظاهراً في الخول أو ظاهراً (خلاصاً في القرآن تلاء في الرسم) أي
وسم القرآن بمعنى وجهه مواضعه ، وإن لم يتله في النزول (عامٌ للنسبة) بين التلوي
والتلو ، كما في قوله تعالى : « ألم نوحِ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ،
يؤمنون بالحسن والطهرين » الخ فإله - كما قال أهل التفسير - إشارة إلى كعب
ابن الأشرف ونحوه من علماء اليهود لما قدموا مكة وشاهدوا قتلى بدر ، حرّضوا
المشركين على القتل بتأزم ، ومحاربة النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : من أهدى سبيلاً ،
معداً وأصحابه أم نحن ؟ قالوا : أقم ، مع علمهم بما في كتابهم من نص النبي صلى الله
عليه وسلم المنطبق عليه ، وأخذوا ما يثق عليهم ألا يكتبوه ، فكان ذلك أمانة لازمة لم ولم

يُودُّوهُمَا ، بِحَسْبِ عِلْمِ الْكَافِر : أَنْتُمْ أَهْدَى سَبِيلًا لَدُنِي سُبْحَانَكَ . وَتَسَدَّدَتْ
الْآيَةُ مَعَ هَذَا الْقَوْلِ التَّوَعُّدِ عَلَيْهِ الْمُنْيَةُ لِلْأَمْرِ بِمُقَابَلَةِ الشُّغْلِ عَلَى أَدَاءِ الْأَمَانَةِ الَّتِي هِيَ
بَيَانُ صِفَةِ النَّبِيِّ سُبْحَانَكَ ، بِإِفَادَةِ أَنَّهُ الْمَوْصُوفُ فِي كِتَابِهِمْ ، وَذَلِكَ مُنَاسِبٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :
وَإِنْ آتَاكَ بِكُلِّ بَلَدٍ كُفْرًا أَنْ تَرْكُودُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، فَمَهْذَا عَامٌّ فِي كُلِّ أَمَانَةٍ ،
وَذَلِكَ خَاصٌّ بِأَمَانَةِ هِيَ بَيَانُ صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالطَّرِيقِ السَّابِقِ ، وَالنَّامُ تَحَالٍ
لِلْخَاصِّ فِي الرِّسْمِ مَقَرَّاعٍ عَنْهُ فِي التَّزْوِيلِ بَسْتُ سَنِينَ ، مَدَّةَ مَا بَيْنَ بَقَرَةٍ فِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ
الثَّانِيَةِ ، وَالْفَتْحِ فِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : وَيَقْرَبُ مِنْهَا كُنَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ
الْعَامُّ بِسَبَبِهِ بِخِلَافِهَا « ١ » وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا .

المبحث السادس

في نزول القرآن على سبعة أحرف

هَذَا مَبْحَثٌ طَرِيفٌ وَشَائِقٌ ، غَيْرَ أَنَّهُ مُخِيفٌ وَشَائِكٌ ١ . أَمَّا طَرَفُهُ وَشَوْقُهُ ،
فَلِأَنَّهُ يَرِينَا مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَتَخَفِيفِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَتَبْسِيزِهِ لِكِتَابَتِهِ عَلَى كَافَّةِ
الْقِبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ ، بَلْ عَلَى جَمِيعِ شُعُوبِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، مِنْ كُلِّ جِيلٍ وَقَبِيلٍ ، حَتَّى
يَنْظُورُوا بِهِ لَوْنَةً أَلْسِنَتِهِمْ ، سَهْلَةً لِهَاجَتِهِمْ ، بَرَعًا مَا بَيْنَهُمْ مِنْ اخْتِلَافِ فِي اللُّغَاتِ ، وَتَنَوُّعِ
فِي الْخُصَائِصِ وَالْمِيزَاتِ .

وَمِنْ طَرَفِهِ هَذَا الْمَبْحَثُ أَيْضًا أَنَّكَ تَشَاهِدُ فِيهِ عَرْضًا عَامًّا لِمُنْتَجَاتِ أَفْكَارٍ كَثِيرَةٍ ،
وَتَشْهَدُ جَيْشًا جَرَارًا مِنْ مَذَاهِبٍ وَأَرْوَاحٍ كُلِّهَا تَحَاوِلُ الْعَمَلَ لِمُدَّةِ الْعِلْمِ ، وَإِظْهَارِ الْحَقِّ ،
وَالْفَتَاخِ عَنْ عَرِينِ الْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ .

وَأَمَّا مَخَافَةُ هَذَا الْمَبْحَثِ وَشَوْكُهُ ، فَلِأَنَّهُ كَثُرَ فِيهِ الْقَبِيلُ وَالْقَالُ ، إِلَى حَدِّ كَادِ
يَطْمَسُ أَوَارِاقَ الْحَقِيقَةِ ، حَتَّى اسْتَعْمَى فِيهِ عَلَى بَعْضِ الْعُلَمَاءِ وَلَاذٍ بِالْقَرَارِ مِنْهُ وَقَالَ : إِنَّهُ

مشكل. وحتى اضطرر جماعة من كبار المحدثين أن يقرروه بالتأليف فديها وجدتها ما بين
العلامة المعروف بأبي شامة في القرن السابع الهجري ، والعلامة الشيخ محمد نجيب في القرن
الرابع عشر .

أضف إلى ذلك أن الخطأ في هذا الباب قد يتخذ منه أمداً الإسلام سبيلاً هو جاك إلى
توجيه الطامع لطيفة إلى القرآن ، كما وقعت أو وقع على كتاب لمن يدعون أنفسهم
بمشرقي ، أموهة مباحث قرآنية ، وخطوا موضوع الجزء الأول منه « هل من تحريف
في الكتاب الشريف ؟ » وتصيدوا فيه من الآراء المزيقة ما لحق منه برى . وهو ما
لم ينالوا .

ونحن نستعين الله ونسأله ، أن يُخلص لنا الورد من الشوك في هذا الموضوع الشائق
الثالث ، وأن يهي لنا من أمرنا رشداً .

وستحول في هذا الميدان - إن شاء الله - جولات عدة ، نتحدث فيها عن أدلة
نزول القرآن على سبعة أحرف ، وعن شواهد بارزة في هذه الأحاديث الواردة ، بينها فوائد
كثيرة لا اختلاف الحروف والقراءات ، وعن معنى نزول القرآن على سبعة أحرف وعن
الوجوه السبعة في المذهب المختار ، وعن تحقيق النسبة بين المذهب المختار وأشباهه ، وعن
وجوه اختيار هذا المذهب ، وعن دفع الاعتراضات الواردة عليه ، وعن بقاء هذه الأحرف
السبعة في المصاحف ، وعن الأقوال الأخرى وتنفيذها ، وعن دفع إجمالي للأقوال الأخيرة
منها ، ثم نختم البحث بملاج الشبهات الواردة على هذا الموضوع : والله المستعان .

١ - أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف

لا سبيل إلى الاستدلال على هذا إلا بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد جاء هذا النقل الصحيح من طرق مختلفة كثيرة ، وروى حديث نزول القرآن على سبعة أحرف عن جمع كبير من الصحابة . منهم عمر ، وعثمان ، وابن مسعود وابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو بكر ، وأبو جهم ، وأبو سعيد الخدري ، وأبو طلحة الأنصاري ، وأبي بن كعب ، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وسلمان بن صرد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمر بن أبي سلمة ، وعمر بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأنس ، وحذيفة ، وأم أيوب امرأة أبي أيوب الأنصاري ، رضى الله عنهم أجمعين . فهؤلاء أحد وعشرون صحابياً ، ما منهم إلا رواه وحكاه .

وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده الكبير أن عثمان رضى الله عنه قال يوماً وهو على المنبر : « أذكر الله رجلاً سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف » لما قام . فقاموا حتى لم يحضوا ، فشهدوا أن رسول الله ﷺ قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف » فقال عثمان رضى الله عنه : « وأنا أشهد معهم » .

وكان هذه الجموع التي يؤمن تواطؤها على الكذب هي التي جعلت الإمام أبا عبيد ابن سلام يقول بتواتر هذا الحديث . لكنك خبير بأن من شروط التواتر ، توافر جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الرواية . وهذا الشرط إذا كان موفوراً هنا في طبقة الصحابة كما رأيت ، فليس بموفور لدينا في الطبقات المتأخرة .

وهاك طائفة من تلك الأحاديث نسوقها إليك استدلالاً من ناحية ، وتنويراً في

بيان المعنى وإقامة لمعالم الحق فيه من ناحية ثانية :

(١) روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أقرأنى جبريلُ على حروفٍ فراجعتهُ ، فلم أزلُ أستزيدُهُ ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعةٍ أحرفٍ » زاد مسلم : « قال ابن شهاب : بلغنى أن تلك السبعة فى الأمر الذى يكونُ واحداً لا يختلفُ فى حلالٍ ولا حرامٍ » .

(٢) وروى البخارى ومسلم أيضاً - (واللفظ للبخارى) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : سمعتُ هشامَ بنَ حكيمٍ يقرأ سورة الفرقانِ فى حياةِ رسول الله ﷺ ، فاستمعتُ لقراءتهِ فإذا هو يقرأها على حروفٍ كثيرةٍ ، لم يقرئها رسول الله ﷺ ، فكسدتُ أساوره فى الصلاة ، فانتظرتُهُ حتى سلم ، ثم لبنتُهُ بردائه أو بردائى ، فقلت : من أقرأك هذه السورة ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ . قلت له : كذبت ، فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأنى هذه السورة التى سمعتك تقرأها ، فانطلقتُ أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله إني سمعتُ هذا يقرأ بسورة الفرقانِ على حروفٍ لم تقرأنيها ، وأنت أقرأنى سورة الفرقانِ . فقال رسول الله ﷺ : أرسلهُ يا عمرُ : أقرأ يا هشامُ ، فقرأ هذه القراءة التى سمعتهُ يقرأها . قال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرفٍ ، فاقرأوا ما تيسر منه » .

(٣) وروى مسلمٌ بسنده عن أبي بن كعب قال : « كنتُ فى المسجدِ ، فدخل رجلٌ يصلى ، فقرأ قراءةً أنكرتها عليه ، ثم دخل آخرُ ، فقرأ قراءةً سوق قراءةً صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إن هذا قرأ قراءةً أنكرتها عليه ، ودخل آخرُ فقرأ سوى قراءة صاحبه . فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ ، فحسنَ النبى صلى الله عليه وسلم شأنهما ، فسقط فى نفسى من التكذيبِ ولا إذ كنتُ فى الجاهلية . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد

غشيني ضرب في صدري ، ففضت عرقاً ، وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فرقاً فقال لي :
يا أباي ، أرسل إلي أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه : أن هون على أمتي ،
فرد إلي الثانية : أقرأه على حرفين ، فرددت إليه : أن هون على أمتي ، فرد إلي
الثالثة : أقرأه على سبعة أحرف ، ولك بكل ردة ردتها مسألة تسألنيها . فقلت :
« اللهم اغفر لأمتي اللهم اغفر لأمتي . وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم
حتى إبراهيم صلى الله عليه وسلم » . ١ . ١ . ١ .

واعلم أن معنى قول أبي بن كعب رضي الله عنه « فسقط في نفسي من التكذيب
الح » أن الشيطان ألقى إليه من وساوس التكذيب ما شوش عليه حاله ، حين رأى
النبي ﷺ قد حسن القراءتين وصوبهما على ما بينهما من اختلاف ، وكاننا في سورة
واحدة هي سورة النحل على ما رواه الطبري . وكان الذي مرر بخاطره وقتئذ أن هذا
الاختلاف في القراءة ينافي أنه من عند الله . لكنه كان خاطراً من الخواطر الردية
التي لا تنال من نفس صاحبها منالاً ، ولا تنفعها عن عقيدة ، ولا يكون لها أثر باقي
ولا عمل دائم .

ومن رحمة الله بعباده أنه لا يؤخذهم بهواجس النفوس وخلجات الضمائر العابرة .
ولكن يؤاخذهم بما كسبت قلوبهم ، حين يفتح الإنسان للشبهة صدره ، وبوجه إليها
اختياره وكسبه ، ثم يعقد عليها فؤاده وقلبه .

قال القرطبي « فكان هذا الخاطر (يشير إلى ما سقط في نفس أبي) من قبيل
ما قال فيه النبي ﷺ حين سأله : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم
به . قال : أوقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذلك صريح الإيمان » . رواه
مسلم ١ . ١ .

ومن هذا تعلم أن ما خطر لسيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه ، لا يمس مقامه

ولا يصادم إيمانه ، مادام قد دفعه بإرشاد رسول الله ﷺ سريعا كما في الحديث الشريف .

وأى إنسان يستطيع أن يحمى نفسه خواطرَ سوء المونجاء ، ورياحِ المواجهس الشنماء ؟ إنما الواجب على المؤمن أن يحارب تلك الخواطر الرديئة بأسلحة العلم وتعاليم الشريعة ، ولا يستسلم لها ولا يسترسل معها . وعلينا أن نتعاون في هذا الميدان كما فعل الرسول ﷺ بأبي إذ ضَرَبَ في صدره ، ليصرفه بشدة عن الاشتغال بهذا الخطر ، وليلفته بقوة إلى ما قصه عليه علاجاً لشبهته ، من أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، تهويناً على أمته وتيسيراً لها . ولقد نجح الرسول ﷺ في هذا العلاج أيّما نجاح حتى قال أباي نفسه : « فَفَضْتُ عَرَقًا ، وَكَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرَقًا » .

ذلك ما نراه مُخْلِصًا في هذا المقام الذي زلت فيه بعض الأقدام ، وللعامة الشيخ محمد عبد الله دراز كلامٌ جَيِّدٌ في مثل هذا الموضوع من كتابه المختار ، فارجع إليه إن أردت التوسُّع ومزيد البيان .

أضف إلى ما ذكرنا أن خصومة أبي بن كعب في أمر اختلاف القراءة على هذا النحو ، إنما كانت من قبل أن يعلم أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فهو وقتئذٍ كان معذوراً ، بدليل أنه لما علم بذلك ، واطمأنت إليه نفسه ، عمل بما علم ، وكان مرجعاً منهما من مراجع القرآن على اختلاف رواياته ، وكان من رُواة هذا العلم للناس كما تلاحظه في الحديثين المسندين إليه بعد .

(٤) روى مسلم بسنده عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ كانَ عِنْدَ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ . قَالَ : « فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ . فَقَالَ : أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ ؛ وَإِنْ أُمِّي لَا تُطِيقُ

ذلك . ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين فقال : أسأل الله مغافاته ومغفرته ؛ وإن أمتي لا تطيق ذلك . ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله مغافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك . ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف . فأبى أحرف قرءوا عليه فقد أصابوا « ١٥ » .

(وأضأة بنى غفار) بفتح الهزة في أضأة وبكسر الغين في غفار : مُسْتَنْقَعُ الْمَاءِ كَالْعَدِيرِ ؛ وَكَانَ بِمَوْضِعٍ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ يَنْسَبُ إِلَى بَنِي غَفَارٍ ، لِأَنَّهُمْ نَزَلُوا عِنْدَهُ . (٥) وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ أَيْضًا قَالَ : لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ عِنْدَ أَحْجَارِ الْمِرْوَةِ قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَجِبْرِيلَ : إِنِّي بَعَثْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ ؛ فِيهِمُ الشَّيْخُ الْفَاقِي ، وَالْعَجُوزُ الْكَبِيرَةُ ، وَالْغُلَامُ . قَالَ : « فَمَرُّهُمْ فَلْيَقْرَءُوا الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ » قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَفِي لَفْظٍ : « فَعَنْ قَرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا فَهُوَ كَمَا قَرَأَ » ؛ وَفِي لَفْظٍ حَذِيفَةٍ « قُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُرْسِلْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ فِيهِمُ الرَّجُلُ ، وَالْمَرْأَةُ ، وَالْجَارِيَةُ ؛ وَالشَّيْخُ الْفَاقِي الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا قَطُّ قَالَ : « إِنْ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ » .

(٦) أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي قَيْسٍ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا قَرَأَ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ ، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : إِنَّمَا هِيَ كَذَا وَكَذَا ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : « إِنْ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ ، فَأَيُّ ذَلِكَ قَرَأْتُمْ أَصَابْتُمْ ، فَلَا تُتَمَارَوْا » ١٥ .

قال في القاموس : ماراه مُماراة ومِراء ، وأمرى فيه وتمازى : شك . والمربة بالسكسر والضم : الشك والجدل . ١٥ .

(٧) روى الحاكم وابن حبان بسندهما عن ابن مسعود قال : « أقرأني رسول الله ﷺ سورة من آل حم ، فرحْتُ إلى المسجد ، فقلتُ لرجلٍ : اقرأها . فإذا هو يقرؤها حروفاً ما أقرؤها . . . فقال : أقرأنيها رسول الله ﷺ فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ فأخبرناه فتغير وجهه وقال : « إنما أهلك من قبلكم الاختلاف » ثمَّ أَسْرَّ إلى عليٍّ شيئاً . فقال عليٌّ : إنَّ رسول الله ﷺ يأمرُكم أن يقرأ كلُّ رجلٍ منكم كما علَّم . قال : فانطلقنا وكلُّ رجلٍ يقرأ حروفاً لا يقرؤها صاحبه » اهـ .

(٨) وأخرج البخاريُّ عن عبد الله بن مسعود أيضاً أنه سَمِعَ رجلاً يقرأ آيةَ سمع النبي ﷺ يقرأ خلافها . قال : فأخذتُ بيده فانطلقتُ به إلى النبي ﷺ فقال : « كلا كما يحسن ، فاقرأ » قال شعبةُ أحد رواة هذا الحديث : أكبرُ علمي أن النبي ﷺ قال : « فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكوا » .

(٩) روى الطبريُّ والطبرانيُّ عن زيد بن أرقم قال : جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال : أقرأني ابنُ مسعودٍ سورةً أقرأنيها زيد بن ثابتٍ ، وأقرأنيها أبيُّ ابن كعبٍ فاختلفتُ قراءتهم ، فقراءةُ أيَّهم أخذتُ ؟ فسكتَ رسول الله ﷺ وعلىَّ إلى جنبه ، فقال عليٌّ : « ليقرأ كلُّ إنسانٍ منكم كما علَّم ، فإنه حسنٌ جميلٌ » .

(١٠) وأخرج ابن جرير الطبري عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن أنزلَ على سبعةِ أحرفٍ ، فاقرءوا ولا حرجَ ولكن لا تختصموا ذكرَ رحمةٍ بعذابٍ ، ولا ذكرَ عذابٍ برحمةٍ » .

٢ — شواهد بارزة في هذه الأحاديث الواردة

إن الناظر في هذه الأحاديث الشريفة وما مثلها ، يستطيع أن يقيم منها شواهد بارزة ، تكون منارات هدى ، ومصادر إشعاع ونور ، ترشده إلى ما عسى أن يكون هو الحق والصواب في بيان معنى الأحرف السبعة ، كما يستطيع أن يأخذ منها موازين ومقاييس يحاكم إليها كل ما شجر من هذا الخلاف البعيد ، في هذا الموضوع الدقيق .

(الشاهد الأول) أن الحكمة في نزول القرآن على الأحرف السبعة هي التيسير على الأمة الإسلامية كلها ، خصوصاً الأمة العربية التي شرفت بالقرآن ، فإنها كانت قبائل كثيرة ، وكان بينها اختلاف في اللهجات ونبرات الأصوات ، وطريقة الأداء وشهرة بعض الألفاظ في بعض المدلولات على رغم أنها كانت تجمعها العروبة ، ويوحد بينها اللسان العربي العام . فلو أخذت كلها بقراءة القرآن على حرف واحد ، لشق ذلك عليها كما يشق على القاهري منا أن يتكلم بلمجة الأسيوطي مثلاً ، وإن جمع بيننا اللسان المصري العام ، وألفت بيننا الوطنية المصرية في القطر الواحد . وهذا الشاهد نجده مائلاً بوضوح بين الأحاديث السالفة في قوله ﷺ في كل مرة من مرات الاستزادة « فرددت إليه أن هوّن على أمتي » وقوله : « أسأل الله معافاته ومففرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك » ومن أنه ﷺ لقي جبريل فقال : « يا جبريل إني أرسلت إلى أمة أمّية فيهم الرجل والمرأة ، والغلام والجاربة ، والشيخ الفاني الذي لم يقرأ كتاباً قط » الخ .

قال المحقق ابن الجزري : « وأما سبب وروده على سبعة أحرف فالتخفيف على هذه الأمة ، وإرادة اليسر بها ، والتهوين عليها شرفاً لها ، وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها ، وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق ، حيث أتاه جبريل فقال :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمَّاكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ ، فَقَالَ ﷺ : أَسْأَلُ اللَّهَ مَعَاذَهُ وَمَعُونَتَهُ فَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَطِيقُ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَزَلْ يَرُدُّ الْمَسْأَلَةَ حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ »
 ثُمَّ قَالَ : « وَكَانَتْ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنْ سَبْعَةِ أَبْوَابٍ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ ، وَأَنَّ الْكِتَابَ قَبْلَهُ كَانَ يَنْزِلُ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانُوا يَمْعَثُونَ إِلَى قَوْمِهِمُ الْخَاصِينَ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بُعِثَ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ أَحْمَرِمْ وَأَسْوَدِمْ ، عَرَبِيَهُمْ وَعَجَمِيَهُمْ ، وَكَانَ الْعَرَبُ الَّذِي نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِقَّتِهِمْ .
 لُغَاتِهِمْ مُخْتَلِفَةٌ وَأَلْسِنَتُهُمْ شَتَّى ، وَبَعَسَ عَلَى أَحَدِهِمُ الْإِنْتِقَالَ مِنْ لُغَةٍ إِلَى غَيْرِهَا ، أَوْ مِنْ حَرْفٍ إِلَى آخَرٍ . بَلْ قَدْ يَكُونُ بَعْضُهُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَلَوْ بِالْتَّعْلِيمِ وَالْعِلَاجِ ، لَا سِوَا الشَّيْخِ ، وَالْمُرَاةِ ، وَمَنْ لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ ﷺ ، فَلَوْ كَلَّفُوا الْعَدُولَ عَنْ أَلْسِنَتِهِمْ ، وَالْإِنْتِقَالَ عَنْ أَلْسِنَتِهِمْ ، لَسَكَانَ مِنَ التَّكْلِيفِ بِمَا لَا يَسْتَطَاعُ ، وَمَا عَسَى أَنْ يَتَّكِلَ الْمَتَّكِلُ وَتَنَابَى الطَّبَاعُ » ١٥١ .

فوائد أخرى لاختلاف القراءة وتمدد الحروف

كلُّ مَا مرَّ عَلَيْكَ فِي الشَّاهِدِ الْأَوَّلِ تَقْرِيرٌ لِحُكْمَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَفَائِدَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فَوَائِدِ اخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ وَتَمَدُّدِ الْحُرُوفِ الَّتِي نَزَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَهِيَ أِبْرَزُ الْفَوَائِدِ وَأَشْهَرُهَا وَأَقْرَبُهَا إِلَى الذَّهْنِ . وَنَحْيَطُكَ عَلَمًا هُنَا بِأَنَّ لِهَذَا الْإِخْتِلَافَ وَالتَّمَدُّدَ فَوَائِدَ أُخْرَى :
مِنْهَا جَمْعُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْجَدِيدَةِ عَلَى لِسَانٍ وَاحِدٍ يُوَحِّدُ بَيْنَهَا ، وَهُوَ لِسَانُ قُرَيْشٍ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ، وَالَّذِي انْتَضَمَ كَثِيرًا مِنْ مَخْتَارَاتِ أَلْسِنَةِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَخْتَلِفُ إِلَى مَكَّةَ فِي مَوْسَمِ الْحَجِّ وَأَسْوَاقِ الْعَرَبِ الْمَشْهُورَةِ .
 فَكَانَ الْقُرَشِيُّونَ يَسْتَمْلِحُونَ مَا شَاءُوا ، وَبِصُطْفُونِ مَارَاقٍ لَهُمْ مِنْ أَلْفَاظِ الْوُفُودِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَادِمَةِ إِلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَحَدَّبَ ثُمَّ يَصْقِلُونَهُ وَيَهْذِبُونَهُ وَيَدْخُلُونَهُ

في دائرة لغتهم المرنّة ، التي أذعن جميع العرب لها بالزعامة ، وعقدوا لها راية الإمامة . وعلى هذه السياسة الرشيدة نزل القرآن على سبعة أحرف بصطفي ما شاء من لغات القبائل العربية ، على نمط سياسة القرشيين بل أوفق . ومن هنا صحّ أن يقال : إنه نزل بلغة قريش ، لأن لغات العرب جمعاء تمثلت في لسان القرشيين بهذا المعنى . وكانت هذه حكمة إلهية سامية ؛ فإن وحدة اللسان العام من أهمّ العوامل في وحدة الأمة ، خصوصاً أول عهد بالتوثب والنهوض .

ومنها بيان حكم من الأحكام ، كقوله سبحانه : « وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ » قرأ سعد بن أبي وقاص « وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ مِنْ أُمِّ » بزيادة لفظ « من أم » فتبين بها أن المراد بالإخوة في هذا الحكم الإخوة للأم دون الأشقاء ومن كانوا لأب ، وهذا أمر مجمع عليه .

ومثل ذلك قوله سبحانه في كفارة اليمين : « فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » وجاء في قراءة : « أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » بزيادة لفظ « مؤمنة » فتبين بها اشتراط الإيمان في الرقيق الذي يعتق كفارة يمين . وهذا يؤيد مذهب الشافعي ومن نحا نحوه في وجوب توافر ذلك الشرط .

ومنها الجمع بين حكمين مختلفين بمجموع القراءتين ، كقوله تعالى : « فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْحَيْضِ . وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ » قرئ بالتخفيف والتشديد في حرف الطاء من كلمة « يطهرن » ولا ريب أن صيغة التشديد تفيد وجوب المبالغة في طهر النساء من الحيض ؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . أما قراءة التخفيف فلا

تفيد هذه المبالغة . ومجموع القراءتين يحكم بأمرين : أحدهما أن الحائض لا يقربها زوجها حتى يحصل أصل الطهر . وذلك بانقطاع الحيض . وثانيهما أنها لا يقربها زوجها أيضاً إلا إن بالفت في الطهر وذلك بالاغتسال ، فلا بد من الطهرين كليهما في جواز قربان النساء . وهو مذهب الشافعي ومن وافقه أيضاً .

ومنها الدلالة على حكمين شرعيين ولكن في حالين مختلفين : كقوله تعالى في بيان الوضوء « فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ » قرئ بنصب لفظ « أرجلكم » وبجرها . فالنصب يفيد طلب غسلها ؛ لأن العطف حينئذ يكون على لفظ « وجوهكم » المنصوب ، وهو مفسول . والجر يفيد طلب مسحها ؛ لأن العطف حينئذ يكون على لفظ « رؤوسكم » المجرور ، وهو ممسوح . وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن المسح يكون للابس الخف وأن الغسل يجب على من لم يلبس الخف .

ومنها دفع توهم ما ليس مراداً كقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » وقرئ « فامضوا إلى ذكر الله » . فالقراءة الأولى يتوهم منها وجوب السرعة في المشي إلى صلاة الجمعة ، ولكن القراءة الثانية رفعت هذا التوهم لأن المضي ليس من مدلوله السرعة .

ومنها بيان لفظ مبهم على البعض نحو قوله تعالى : « وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » وقرئ « كالصوف المنفوش » فبينت القراءة الثانية أن العهن هو الصوف . ومنها تجلية عقيدة ضل فيها بعض الناس : نحو قوله تعالى في وصف الجنة وأهلها : « وَإِذَا رَأَيْتَ نِمْ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً » جاءت القراءة بضم النيم

وسكون اللام في لفظ (وملكاً كبيراً) وجاءت قراءة أخرى بفتح الميم وكسر اللام في هذا اللفظ نفسه ، فزفت هذه القراءة الثانية نقاب الخفاء عن وجه الحق في عقيدة رؤية المؤمنين لله تعالى في الآخرة ، [لأنه سبحانه هو الملك وحده في تلك الدار « لِمَنْ أَمْلَكُ الْيَوْمَ اللَّهُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » .

والخلاصة : أن تنوع القراءات ، يقوم مقام تعدد الآيات . وذلك ضرب من ضروب البلاغة ، يبتدى من جمال هذا الإيجاز ، وينتهي إلى كمال الإيجاز .

أضف إلى ذلك ما في تنوع القراءات من البراهين الساطعة ، والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله ، وعلى صدق من جاء به وهو رسول الله ﷺ ، فإن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء وتضاد ، ولا إلى تهافت وتخاذل ، بل القرآن كله على تنوع قراءاته ، يصدق بعضه بعضاً ، ويبين بعضه بعضاً ، ويشهد بعضه لبعض ، على نمط واحد في علو الأسلوب والتعبير ، وهدف واحد من سمو الهداية والتعليم . وذلك - من غير شك - يفيد تعدد الإعجاز بتعدد القراءات والحروف .

ومعنى هذا أن القرآن يُعَجِّزُ إذا قرئ بهذه القراءة ، ويمجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثانية ، ويمجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثالثة ، وهلم جرا . ومن هنا تتعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه والحروف !

ولا ريب أن ذلك أدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أعظم في اشتمال القرآن على مناحج في الإعجاز وفي البيان ، على كل حرف ووجه ، وبكل لهجة ولسان . « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

(الشاهد الثاني) أن مرات استزادة الرسول للتيسير على أمته ، كانت ستاً غير الحرف الذي أقرأه أمين الوحي عليه أول مرة فتلك سبعة كاملة بمنطوقها ومعناها ،

تأمل حديث ابن عباس السابق وقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيه : « أقرأني جبريلُ على حرف ، فراجفته ، فلم أزل أستزيدُه ويزيدُنِي حتى بلغَ سبعةَ أحرف » وكذلك جاء في حديث لأبي بكرٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « فنظرتُ إلى ميكائيل فسكتَ فعملتُ أنه قد انتهتِ العدةُ » ، يضاف إلى ذلك المراجعاتُ الثابتةُ في الأحاديثِ الأخرى ، وإن كانت لم تبلغ ستاً صراحةً ، غير أن الحديث جاء بلفظ السبعة ، فهلم من مجموع تلك الروايات ، أن المراد بلفظ سبعة حقيقة العدد المعروف في الآحاد بين الستة والثمانية .

(الشاهد الثالث) أن من قرأ حرفاً من هذه الحروف ، فقد أصاب شاكلةً للصواب أي كان ذلك الحرف ، كما يدلُّ عليه فيما مضى قوله صلى الله عليه وسلم : (فأَيُّما حرف قرءوا عليه فقدُ أصابوا) وقوله صلى الله عليه وسلم لكل من المختلفين في القراءة (أصبت) وقوله صلى الله عليه وسلم لهما في رواية ابن مسعود : (كلا كما بحسن) وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عمرو بن العاص : (فأَيُّ ذلك قرأتُمُ أصبتمُ) . وعدم موافقته صلى الله عليه وسلم لعمر ، وأبي ، وابن مسعود ، وعمرو بن العاص ، على معارضة مخالفهم بالطرق الآتية في الأحاديث السالفة . ودفعه في صدر أبي حين استصعب عليه أن يقرَّ هذا الاختلاف في القراءة . ولا ريب أن ذلك كله فيه معنى التمهيد البالغ عن منع أي أحد من القراءة بأي حرف من الأحرف السبعة النازلة .

(الشاهد الرابع) : أن القراءات كلها على اختلافها كلام الله ، لا مدخل لبشر فيها . بل كلها نازلةٌ من عنده تعالى ، مأخوذةٌ بالتلقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . يدلُّ على ذلك أن الأحاديث الماضية تفيد أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يرجعون فيما يقرءون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأخذون عنه ويتلقون منه كل حرف يقرءون عليه ، انظر قوله صلى الله عليه وسلم في قراءة كل من المختلفين : (هكذا أنزلت) وقول المخالف لصاحبه : « أقرأنيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم » .

ثم أضف إلى ذلك أنه لو صح لأحد أن يغير ما شاء من القرآن بمرادفه أو غير مرادفه ، لبطلت قرآنية القرآن وأنه كلام الله ، ولذهب الإعجاز ولما تحقق قوله سبحانه وتعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . ثم إن التبديل والتغيير مردود من أساسه بقوله سبحانه في سورة يونس : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَمْتُ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ . قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ » ، قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

فإذا كان أفضل الخلق محمد ﷺ قد تخرج من تبديل القرآن بهذا الأسلوب ، فكيف يسوغ لأحد مهما كان أمره أن يبدل فيه ويغير ، بمرادف أو غير مرادف ؟ « سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » .

(الشاهد الخامس) أنه لا يجوز منع أحد من القراءة بأي حرف من تلك الأحرف السبعة النازلة . يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « فَلَا تُمَارُوا فِيهِ » ، فإن المرء فيه كفر . وعدم موافقته لعمر ، وأبي ، وابن مسعود ، وعمر بن العاص ، على معارضة مخالفتهم بالطرق الآنفه ، في الأحاديث السالفة . ويدل على ذلك أيضاً دفعه في صدر أبي حين استصعب عليه أن يقرأ هذا الاختلاف في القراءة . ولا ريب أن ذلك كله فيه معنى النهي البالغ عن منع أي أحد من القراءة بأي حرف من الأحرف السبعة النازلة .

(الشاهد السادس) أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا متحمسين في الدفاع عن القرآن ، مستبسلين في المحافظة على التنزيل ، متيقظين لكل من يحدث فيه حداً ولو كان عن طريق الأداء واختلاف اللهجات ، مبالغين في هذه اليقظة حتى ليأخذون

في هذا الباب بالظنّة ، ويناغرون عن القرآن بكل عناية وهمية . وحسبك استدلالاً على ذلك ما فعل عمر بصاحبه هشام بن حكيم ، على حين أن هشاماً كان في واقع الأمر على صواب فيما يقرأ ، وأنه قال لعمر تسوية لقراءته : أقرأنيها رسول الله ﷺ لكن عمر لم يقنع ، بل لبّيه وساقه إلى الحاكمة ، ولم يتركه حتى قضى رسول الله ﷺ لهشام بأنه أصاب . قل مثل ذلك فيما فعل أبي بن كعب بصاحبه ، وما كان من ابن مسعود وعمر بن العاص وصاحبيهما . والأحاديث بين يديك عن كعب ، فارجع إليها إن أردت .

(الشاهد السابع) أنه لا يجوز أن نجعل اختلاف القراءات معرّكة جدالٍ ونزاعٍ وشقاق ، ولا مناراً ترددٍ وتشكيكٍ وتكذيبٍ ، ولا سلاحاً عصبيّةً وتنطعٍ وجود . على حين أن نزول القرآن على سبعة أحرف إنما كانت حكمته من الله التيسير والتخفيف والرحمة والتهوين على الأمة ، فما يكون لنا أن نجعل من هذا اليسر عسراً ، ومن هذه الرحمة نقمة ؟ . يرشد إلى ذلك قوله ﷺ فيما سبق « فَلَا تُمَارُوا فِيهِ فَإِنَّ الرِّاءَ فِيهِ كُفْرٌ » . وكذلك تغير وجهه الشريف عند اختلافهم مع قوله : « إِنَّمَا أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِكُمُ الْاِخْتِلَافُ » وضربه في صدر أبي بن كعب حين جال بخاطره حديثُ السوء في هذا الموضوع الجليل .

(الشاهد الثامن) أن المراد بالأحرف في الأحاديث السابقة وجوهٌ في الألفاظ وحدها لا محالة . بدليل أن الخلاف الذي صورته لنا الروايات المذكورة كان دائراً حول قراءة الألفاظ لا تفسير المعاني ، مثل قول عمر : « إِذَا هُوَ يَقْرُوهَا عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يَفْرِتْ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » ثم حكم الرسول أن يقرأ كل منهما ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « هَكَذَا أُنْزِلَتْ » . وقوله : « أَيُّ ذَلِكَ قَرَأْتُمْ قَدْ أَصَبْتُمْ » ونحو ذلك ولا ريب أن القراءة أداء الألفاظ ، لا شرح المعاني .

٣ — معنى نزول القرآن على سبعة أحرف

يهننا بعد الذى أسلفنا إليك أن نبين لك معنى الجملة الشريفة : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » فإليك :

أما لفظ القرآن فقد أشبعناه كلاماً فى المبحث الأول . وأما الإنزال فقد استوفيناه تحقيقاً فى المبحث الثالث . وأما السبعة فقد علمت فى الشاهد الثانى من الشواهد الماضية أن المراد بها حقيقة وهى العدد المعروف فى الآحاد بين الستة والثمانية . وأما الأحرف فجمع حرف ، والحرف يطلق على معان كثيرة ، أتى عليها صاحب القاموس ؛ إذ يقول ما نصه : « الحرف من كل شئ طرفه ، وشفيره ، وحده ، ومن الجبل أعلاه الحد ، وواحد حروف التهجى ، والناقة الضامرة أو المهزولة أو العظيمة ، ومسيل الماء ، وآرام سودّ ببلاد سليم . وعند النحاة ما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل . » وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ أى وجه واحد ، وهو أن يعبد على السراء لا على الضراء ، أو على شك ، أو على غير طمأنينة من أمره ، أى لا يدخل فى الدين متمكناً . « ونزل القرآن على سبعة أحرف » : سبع لغات من لغات العرب . وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبعة أوجه وإن جاء على سبعة أو عشرة أو أكثر ، ولكن معناه أن هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن ، وهى بتصرف قليل . وهذه الإطلاقات الكثيرة تدل على أن لفظ الحرف من قبيل المشترك اللفظى ، والمشارك اللفظى يراد به أحد معانيه التى تعينها القرائن وتناسب المقام .

وأنسب للمعنى بالمقام هنا فى إطلاقات لفظ الحرف أنه الوجه بالمعنى الذى ستنقصه عليك ، لا بالمعنى الذى ذهب إليه صاحب القاموس وغيره من أنه اللغة أو غيرها . فسيأتيك تفنيد هذه الآراء بعد .

ثم إن كلمة (عَلَى) في قوله صلى الله عليه وسلم : « أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ » تشير إلى أن المسألة على هذا الشرط من التوسعة والتيسير ، أى أنزل القرآن موسماً فيه على القارىء أن يقرأه على سبعة أوجه ، يقرأ بأى حرف أراد منها على البدل من صاحبه ، كأنه قال : أنزل على هذا الشرط وعلى هذه التوسعة .

وليس المراد أن كل كلمة من القرآن تقرأ على سبعة أوجه ؛ إذ لقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ » بحذف لفظ (عَلَى) . بل المراد ما علمت من أن هذا القرآن أنزل على هذا الشرط وهذه التوسعة ، بحيث لا تتجاوز وجوه الاختلاف سبعة أوجه ، مهما كثر ذلك التعدد والتنوع في أداء اللفظ الواحد ، ومهما تعددت القراءات وطرقها في الكلمة الواحدة . فكلية « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » التى ورد أنها تقرأ بطرق تبلغ السبعة أو العشرة ، وكلية « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » التى ورد أنها تقرأ باثنتين وعشرين قراءة ، وكلية « أَفٍ » التى أوصل الرماني لغاتها إلى سبع وثلاثين لغة ، وكل أولئك وأشباه أولئك ، لا يخرج التباين فيه على كثرته عن وجوه سبعة .

٤ - الوجوه السبعة في المذهب المختار

بقى علينا أن نقاسل : ما هي تلك الوجوه السبعة التي لا تخرج القراءات عنها مهما كثرت وتنوعت في الكلمة الواحدة ؟ .

هنا يحتدم الجدال والخلاف ، ويكثر القيل والقال .

والذي نختاره - بنور الله وتوفيقه - من بين تلك المذاهب والآراء هو ما ذهب إليه الإمام أبو الفضل الرازي في اللوائح إذ يقول :

الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف :

(الأول) : اختلاف الأسماء من أفراد ، وثنائية ، وجمع ، وتذكير ، وتأنيث .

(الثاني) : اختلاف تصريف الأفعال من ماضي : ومضارع ، وأمر .

(الثالث) : اختلاف وجوه الإعراب .

(الرابع) : الاختلاف بالنقص والزيادة .

(الخامس) : الاختلاف بالتقديم والتأخير .

(السادس) : الاختلاف بالإبدال .

(السابع) : اختلاف اللغات « يريد اللهجات » كالفتح والإمالة والترقيق

والتفخيم ، والإظهار والإدغام ، ونحو ذلك اهـ ، غير أن النقل كما ترى لم يشفع بتمثيل فيما عثرنا .

ويمكن التمثيل للوجه الأول منه وهو اختلاف الأسماء . بقوله سبحانه :

« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » قرئ هكذا : « لِأَمَانَاتِهِمْ » جمعاً وقرئ « لِأَمَانَتِهِمْ » بالإفراد .

ويمكن التمثيل للوجه الثاني وهو اختلاف تصريف الأفعال بقوله سبحانه :
 « فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » قرئ هكذا بنصب لفظ « ربنا » على أنه منادى
 وبلفظ « باعد » فعل أمر ، وبعبارة أنسب بالمقام « فعل دعاء » . وقرئ هكذا : « رَبَّنَا
 بَعِدْ » برفع « رب » على أنه مبتدأ وبلفظ « بعد » فعلاً ماضياً مضعف العين جملته خبر .
 ويمكن التمثيل للوجه الثالث ، وهو اختلاف وجوه الإعراب ، بقوله سبحانه :
 « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » قرئ بفتح الراء وضمة ، فافتح على أن « لا »
 نافية ، فالفعل مجزوم بعدها ، والفتحة الملحوظة في الراء هي فتحة إدغام المثلين . أما
 الضم فعلى أن « لا » نافية ، فالفعل مرفوع بعدها .

ومثل هذا المثال ، قوله سبحانه : « ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ » قرئ برفع لفظ « المجيد »
 وجره . فالرفع على أنه نعت لكلمة « ذو » ، والجر على أنه نعت لكلمة « العرش » .
 فلا فرق في هذا الوجه بين أن يكون اختلاف وجوه الإعراب في اسم أو فعل كما رأيت .
 ويمكن التمثيل للوجه الرابع : وهو الاختلاف بالنقص والزيادة . بقوله سبحانه :
 « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » قرئ بهذا اللفظ . وقرئ أيضاً « وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى »
 بنقص كلمة « ما خلق » .

ويمكن التمثيل للوجه الخامس - وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير - بقوله سبحانه :
 « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ » وقرئ « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .
 ويمكن التمثيل للوجه السادس - وهو الاختلاف بالإبدال - بقوله سبحانه :
 « وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا » بالزاي وقرئ « نُنْشِزُهَا » بالراء ، وكذلك
 قوله سبحانه « وَطَلَحَ مَمْدُودٌ » بالحاء ، وقرئ « وَطَلَعَ » بالعين . فلا فرق في هذا
 الوجه أيضاً بين الاسم والفعل .

ويمكن التمثيل للوجه السابع - وهو اختلاف اللهجات - بقوله سبحانه : « وَهَلْ
 أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى » تقرأ بالفتح والإمالة في « آتى » ولفظ « موسى » فلا فرق في هذا

الوجه أيضاً بين الاسم والفعل. والحرف مثلها نحو «بلى قَادِرِينَ» قرئ بالفتح والإمالة في لفظ «بلى».

هـ — لماذا اخترنا هذا المذهب

وإنما اخترنا هذا المذهب لأربعة أمور :

(أحدها) : أنه هو الذى تؤيده الأدلة فى الأحاديث العشرة الماضية وما شابهها .

(ثانيها) : أنه هو الراجح فى تلك الموازين التى أقنأها شواهد بارزة من تلك

الأحاديث الواردة . فارجع النظر إليها ، ولا داعى لإعادتها . أما للمذاهب الأخرى فنرى أن التوفيق أخطأها فى رعاية تلك الأدلة أو بعضها ، وستطيش بين يديك فى موازين هذه الشواهد قليلاً أو كثيراً .

(ثالثها) : أن هذا المذهب يعتمد على الاستقراء التام لاختلاف القراءات وما ترجع

إليه من الوجوه السبعة ، بخلاف غيره فإن استقرأه ناقص أو فى حكم الناقص . فكلمة

« أ ف » التى أوصلها الرماني إلى سبع وثلاثين لغة يمكن رد لغاتها جميعاً إلى هذه الوجوه السبعة ولا يخرج عنها . وكذلك الاختلاف فى اللهجات . وهو اختلاف شكليّ - يردّ

إليها ولا يخرج عنها . بخلاف الآراء الأخرى فإنه يتعذر أو يتعسر الرجوع بالقراءات

كلها إليها . وليس من صواب الرأى أن يحصر النبو ﷺ الأحرف التى نزل عليها

القرآن فى سبعة ثم نترك نحن طرقات القراءات المروية عنه دون أن نردّها إلى السبعة ؛

لأن ذلك يلزمه أحد خطرين : فإما أن تكون تلك الطرق المقروء بها غير نازلة ، وإما

أن يكون هنا حرف نازل وراء السبعة الأحرف التى نزل عليها القرآن ، ويكون الحصر

فى كلام الرسول ﷺ غير صحيح . وكلا هذين خطأ عظيم وإثم كبير .

(رابعها) أن هذا الرأى لا يلزمه محذور من المحذورات الآتية التى يستهدف لها

الأقوال الأخرى ، وستزجها إليك قريباً ، فاصبر وما صبرك إلا بالله .

الذين قالوا بهذا المذهب

ولا يميزن عن باقي أن هذا المذهب قد اختاره في جلته فحول من العلماء ، وقاربه كل القرب مذهب الإمام ابن قتيبة ، والمحقق ابن الجزري ، والقاضي ابن الطيب كما يأتي :

ولا فرق بين آرائهم وبين هذا الرأي إلا اختلاف في طرق التتبع والاستقصاء ، والتعبير والأداء . وسيظهر لك أن الرازي كان أهدى منهم سبيلاً ، وأكثر توفيقاً حتى لقد ذهب العلامة ابن حجر إلى أن مذهب الرازي هو مذهب ابن قتيبة بعد تنقيحه وتهذيبه ، فقال ما نصه : « وقد أخذ (أى الرازي) كلام ابن قتيبة ونقحه » اهـ .

وقد اختار هذا المذهب أيضاً من المتأخرين بعض أعلام المحققين ، كالعلامة المرحوم الشيخ الخضرى الدمياطى والعلامة المرحوم الشيخ محمد بن حنيت المطيعى . لكن منهم من تغاضى عن الفروق الدقيقة التى بين الرازي ومذاهب أولئك الثلاثة الذين تشاركت آراؤهم فى الجملة ، ومنهم من صرح بالاتحاد بين هذه المذاهب جميعاً وما شابهها ، واعتبر الخلاف بينها لفظياً فحسب .

لهذا نرى أن نسوق إليك فى هذا المقام تلك المذاهب الثلاثة أيضاً ، جمعاً بين المكشبات من ناحية ، وتمهيداً لتحقيق الفرق بينها وبين مذهب الرازي من ناحية أخرى ، وزيادةً فى تنوير المذهب المختار وغيره من ناحية ثالثة .

أما ابن قتيبة فيقول :

إن المراد بالأحرف السبعة ، الأوجه التى يقع بها التغاير :

(فأولها) ما تتغير حركته ، ولا يزول معناه ولا صورته ، مثل « ولا يُضَارَّ

كاتبٌ » بفتح الراء وضمها .

- (وثانيها) ما يتغير بالفعل مثل « بَعَدَ وَبَاعِدَ » بلفظ الطلب والماضى .
 (وثالثها) ما يتغير باللفظ مثل « نُنَشِرُهَا وَنُنَشِرُهَا » بالراء المهملة والزاي المعجمة .
 (ورابعها) ما يتغير بإبدال حرف قريب الحرج مثل « طَلَعَ مَنْضُودٍ وَطَلَعَ مَنْضُودٍ » .
 (وخامسها) ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .
 (وسادسها) ما يتغير بالزيادة والنقصان مثل : « وَمَا خَلَقَ آدَمَ كَرًّا وَالْأُنثَى وَالْأَذْكَرَ وَالْأُنثَى » بنقص لفظ « مَا خَلَقَ » .
 (وسابعها) ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى مثل : « كَالْمُهِنِ الْمَنْفُوشِ . وَكَالْشُوفِ الْمَنْفُوشِ » .

وأما ابن الجزرى فيقول :

- قد تنبعت صحيح القراءات وشاذها وضعيفها ومنكرها ، فإذا هي يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه لا يخرج عنها .
- ١ - وذلك إما فى الحركات بلا تغير فى المعنى والصورة نحو « البُخْل » بأربعة أوجه « وَيَحْسَبَ » بوجهين .
 - ٢ - أو بتغير فى المعنى فقط نحو « فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » . برفع لفظ آدم ونصب لفظ كلمات ، وبالعكس .
 - ٣ - وإما فى الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو « تَبَلَّوْا وَتَنَلَّوْا » .
 - ٤ - وعكس ذلك نحو « بَصْطَةً وَبَسْطَةً » ونحو « الصَّرَاطُ وَالسَّرَاطُ » .
 - ٥ - أو بتغيرها نحو « فَأَمَضُوا ، فَأَسَعَوْا » .

٦ - وإما في التقديم والتأخير نحو « فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » بفتح ياء المضارعة مع بناء الفعل للفاعل في إحدى الكلمتين ، وبضمها مع بناء الفعل للمفعول في الكلمة الأخرى .

٧ - أو في الزيادة والنقصان نحو « أوصى ، ووصى » .

فهذه سبعة لا يخرج الاختلاف عنها .

وأما القاضي ابن الطيب فيقول فيما يحكيه القرطبي عنه :

تدبرّت وجوه الاختلافات في القراءة فوجدتها سبعة :

١ - منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته . مثل « هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، وَأَطْهَرُ » أى يأسكان الراء وضمها « وَيَضِيقُ صَدْرِي ، وَيَضِيقُ صَدْرِي » أى يأسكان القاف وضمها .

٢ - ومنها ما لا تتغير صورته ، ويتغير معناه بالإعراب مثل « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ، وَبَاعِدْ » أى بصيغة الماضي والطلب .

٣ - ومنها ما تبقى صورته ، ويتغير معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله « نُنْشِرُهَا ، وَنُنْشِرُهَا » أى بالراء وبالزاي .

٤ - ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه ، مثل « كَالْمُهْنِ الْمُنْفُوشِ ، وَكَالْصُوفِ الْمُنْفُوشِ » .

٥ - ومنها ما تتغير صورته ومعناه مثل : « وَطَلَحَ مَنْضُودٍ وَطَلَعَ مَنْضُودٍ » .

٦ - ومنها التقديم والتأخير مثل : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .

٧ - ومنها الزيادة والنقصان نحو : « لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْعَةً . وَلَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْعَةً أَنْتَى » أى بزيادة لفظ أنتى .

٦ - النسبة بين هذه المذاهب

ومذهب الرازي

ويذهب بعض الجهابذة إلى القول بالاتحاد بين هذه المذاهب الثلاثة ومذهب الرازي ، بل بينها جميعاً وبين ما يشابهها ، ويجعل الخلاف بينها كلها لفظياً لا حقيقياً . وذلك تسكُّفٌ بعيْدٌ فيما أرى ، لأننا نلاحظ وجهاً كاملاً في كلام الرازي ، لم يَنُوءَ به واحدٌ من أولئك الثلاثة . فهو فضلاً عن أنه أدمج وجوههم السبعة في وجوه ستة بطريقته الدقيقة ، نجده قد عقد الوجه السابع لاختلاف اللهجات ، كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم ونحو ذلك .

على حين أننا ما رأينا واحداً من أولئك الأعلام الثلاثة عرض لهذا النوع من الاختلاف . بل وجدنا في كلامهم ما جعلهم يهملون هذا الوجه عن قصد وعمد .

فهذا ابن قتيبة يقول :

« وأما نحو اختلاف الإظهار والإدغام . والروم والإشمام ، والتخفيف والتسهيل ونحو ذلك ، فهذا ليس من الاختلاف الذي يقنوع في اللفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات المتنوعة في أذائه ، لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً » ١٥ .

ولكني أرى أن هذا العذر الذي قدَّمه ابن قتيبة لإهمال هذا الوجه ، لا يسوِّغ ذلك الإهمال . فإن المسألة ليست مسألة أسماء وعناوين يترتب عليها أن اختلاف اللهجات في اللفظ الواحد تخرجه عن أن يكون واحداً أو لا تخرجه ، بل المسألة مسألة رعاية أمر واقع تختلف به القراءات فعلاً ويمكن أن يكون مثار النزاع السابق الذي دبَّ بين الصحابة في اختلاف القراءات ، كما يكون أيضاً مثاراً للنزاع في كل عصر ومصر بين القراء ، إذا لم يملوا أن الجميع من عداد الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن . وذلك لأن تحريف القرآن

يحرم بما يَمَسُّ صورته وطريق أدائه وكيفية لهجته ، كما يحرم بما يَمَسُّ جوهره وتغيير حروفه وكلاته وحركاته وترتيبه .

أمر آخر : هو أن التيسير على الأمة - وفي الحكمة البارزة في نزول القرآن على سبعة أحرف - لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا بحسبان هذا الوجه الذي نوّه به الرازي ؛ وهو اختلاف اللهجات . بل هذا قد يكون أولى بالحسبان وأحرى بالرعاية في باب التخفيف والتيسير ؛ لأنه قد يسهل على المرء أن ينطق بكلمة من غير لفته في جوهرها ، ولا يسهل عليه أن ينطق بكلمة من غير لفته نفسها بلهجة غير لهجته ، وطريقة في الأداء غير طريقتة . ذلك لأن الترقيق والتفخيم ، والهمز والتسهيل ، والإظهار والإدغام ، والفتح والإمالة ونحوها ، ما هي إلا أمورٌ دقيقة ، وكيفياتٌ مُـكْتَنَفَةٌ بشيء من الغموض والعسر في للنطق على من لم يتعودها ولم ينشأ عليها .

واختلاف القبائل العربية فيما مضى ، كان يدور على اللهجات في كثير من الحالات وكذلك اختلاف الشعوب الإسلامية وأقاليم الشعب الواحد منها الآن ، يدور في كثير من الحالات أيضاً على اختلاف اللهجات .

وإذن فتخفيف الله على الأمة بنزول القرآن على سبعة أحرف ، لا يتحقق إلا بملاحظة الاختلاف في هذه اللهجات . حتى إن بعض العلماء جعل الوجوه السبعة منحصرة في اللهجات لا غير ، كما يأتي .

قال الإمام ابن قتيبة نفسه في كتاب المشكل مانصه : - « فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه ﷺ أن يُقرَأَ كل أمة (الله يريد بالأمة القبيلة) بلغتهم ، وما جرت به عادتهم ، فالهذلي يقرأ « عَتَّى حَيْن » يريد (حَتَّى حِينَ) هكذا يلفظ بها ويستعملها (أى قلب الحاء عينا في النطق) . والأسدي يقرأ « يَعْلَمُونَ ، وَنِعْلَمُ ، وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ ، أَلَمْ يَعْنَهُ » بكسر حروف المضارعة في ذلك كله ، والتميمي يهمز ، والقرشي لا يهمز . والآخر يقرأ « قِيلَ لَهُمْ ، وَغِيضَ الْمَاء » بإشمام الضم مع الكسر

و « بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » بإشمام الكسر مع الضم . و « مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا » بإشمام الضم مع الإدغام .

ثم قال ابن قتيبة أيضاً : « ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لفته وما جرى عليه اعتياده ، طفلاً وياقناً وكملاً ، لاشتد ذلك عليه ، وعظمت الحنة فيه ، ولا يمكن إلا بعد رياضة للنفس طويلاً ، وتذليل للسان ، وقطع للعادة . فأراد الله برحمته ولطفه ، أن يجعل لهم مُتَسَمّاً في اللغات ، ومُتَصَرِّفاً في الحركات ، كتيسيره عليهم في الدين » ١٥ .

فأنت تراه قد اعتبر اللهجات وطرق الأداء صراحةً في هذه الكلمات .

وكذلك نجد العلامة ابن الجزرى ، يعترف بهذا الاختلاف في اللهجات ، ويقول ما نصه :- وهذا يقرأ « عَلَيْهِمْ ، وَفِيهِمْ » بضم الهاء ، والآخر يقرأ « عَلَيْهِمْ ، وَمِنْهُمْ » بالصلة . وهذا يقرأ « قَدْ أَفْلَحَ ، وَقُلْ أَوْحَى » وإذا خلوا إلى شياطينهم » بالنقل ، والآخر يقرأ « مُوسَى ، وَعِيسَى » بالإمالة . وغيره يُلَطِّفُ . وهذا يقرأ « خبيراً بصيراً » بترقيق الراء ، والآخر يقرأ « الصَّلَاة ، وَالطَّلَاق » بالتفخيم ، إلى غير ذلك » ١٥ .

ولكن من العجب العاجب أن هذين الإمامين الجليلين ، اللذين اعترفا صراحة باختلاف اللهجات وطرق الأداء على هذا الوجه ، فانهما أن ينظماه في سلك الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن تيسيراً على الأمة . والعصمة لله وحده .

فالأحق والأدق ما ذهب إليه الرازى ! .

ولعل هذه الدقة ، وهذا الشمول الذى وُفق إليه الرازى في الوجوه السبعة هو التنقيح الذى نوه به ابن حجر ، إذ قال : « وقد أخذ (أى الرازى) كلام ابن قتيبة ونقحه » . وليس معناه الاتحاد بينهما ، لما علمت من وضوح الفرق ؛ وأن كلام الرازى أعم من كلام أولئك الثلاثة عموماً مطلقاً .

٧ - دفع الاعتراضات الواردة على هذا المذهب

اعترض على هذا المذهب وما قاربه من مذهب ابن قتيبة وابن الجزري وابن الطيب بجملة اعتراضات تقدّمها إليك ، ثم نقنّدُها بين يديك ، فيما يأتي :

« الاعتراض الأول » يقولون : إن هذا القول مع اختلاف قائله في بيانه ، لم يذكر واحد منهم دليلاً إلا أنه تنبّع وجوه الاختلاف في القراءة ، فوجدوا لا تخرج عن سبعة . وهذا لا ينهض دليلاً لأيّ واحدٍ منهم على أن المراد بالأحرف السبعة الأوجه التي تختلف فيها القراءة .

ونجيب أولاً : بأن هذا المذهب الذي اخترناه لم يختلف ولم يتردّد في بيانه . ثانياً : أنا أيدّناهُ بعدة أدلّة لا بدليل واحد . ثالثاً : أنا لا نسلم كون تنبّع وجوه الاختلاف في القراءة لا يصلح دليلاً لبيان الأحرف السبعة بهذه الوجوه السبعة . كيف؟ والاستقراء التام دليلٌ من جملة الأدلّة التي يحتملها المنطق القديم والمنطق الحديث ، مادام مستوفياً لشروطه الثلاثة التي أولها أن تكون القضية الاستقرائية متضمنة حكماً حقيقياً ، وثانيها أن تكون كلية حقيقية أي موضوعها كلياً حقيقياً صادقاً على ما وجد من أفرادها فيما مضى ، وما هو موجود في الحال ، وما يمكن أن يوجد في المستقبل . وثالثها أن يكون الوصول إلى القضية الاستقرائية بواسطة الملاحظة والتجربة .

ولا ريب أن الوجوه السبعة التي ذكرها أبو الفضل الرازي تحقق في استقراءاتها الشروط الثلاثة ، لأن الرازي لاحظ كل وجوه الاختلاف فوجدوها لا تخرج عن هذه السبعة ، ثم أصدر بعد هذا الاستقراء التام حكماً حقيقياً بأنه لا معنى لهذه الأحرف السبعة في الحديث الشريف سوى تلك الأوجه السبعة . وهو حكمٌ يقوم على قضيةٍ كليةٍ سالبة كما ترى .

« الاعتراض الثاني » يقولون : إن طريق تثبيح أبي الفضل الرازي ، وابن قتيبة ، وابن الجزري ، وابن الطيب ، يخالف بعضها بعضاً . وهذا يدل على أنه يمكن الزيادة على سبعة وجوه .

ونجيب : بأن مجرد الاختلاف في طرق استقراء هؤلاء الأئمة لا يلزم منه إمكان الزيادة على سبعة في مذهب كل منهم . إنما يلزم ذلك من كان استقراؤه ناقصاً دون من كان استقراؤه تاماً . وقد أثبتنا أمامك أن استقراء الرازي تامٌ مستوفٍ لجميع شروط الإنتاج . ولا يضيره أن يسلك في طريقة استقرائه سبيلاً لم يسلكها مخالفوه ، فلكل إنسان أن يختار في استقرائه ما شاء من الطرق التي يراها أصوب وأقرب ، مادام ملتزماً لشرائط إنتاجه . وإذا كان غيره قد وقع في نقص من تثبيحه واستقصائه ، فلا يضير ذلك مذهب الرازي القائم على الاستقراء التام في قليل ولا كثير . « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

« الاعتراض الثالث » يقولون : إنك قد علمت أن الزيادة إلى سبعة أحرف كان الغرض منها الرخصة ، وأكثر الأئمة يومئذ أمي لا يكتب ولا يعرف الرسم ، وإنما كانوا يعرفون الحروف ومحارجها فحسب ، والرخصة ليست ظاهرة في قراءة الفعل المبني للمجهول أو المعلوم ، أو في إبدال حركة بأخرى ؛ أو حرف بآخر ، أو تقديم وتأخير ، فإن القراءة بأحدها لا توجب مشقة ، يسأل النبي صلى الله عليه وسلم المعاقاة منها ويقول : « إِنْ الْأُمَّةُ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ » ، وبطلب التيسير على الأمة بإبدال حرف أو تغيير فعل من المضى إلى الأمر ، أو من البناء للمعلوم إلى البناء للمجهول ، هذا لاتفيده الروايات السابقة ولا تدل عليه .

ونجيب : بأننا لا نسلم خفاء الرخصة في قراءة الفعل المبني للمجهول أو المعلوم أو في إبدال حركة بأخرى ، أو حرف بآخر ، أو تقديم وتأخير . كيف ؟ والرخصة في ذلك ظاهرة أيضاً . بل هي ظاهرة فيما كان دونها وهو اختلاف اللهجات مع بقاء الكلمة ، والحرف ،

والحركة، والترتيب بين الكلمات والحروف. وهذا نشأه نحن ونحس في تيسر أو نصير
بعض صفات الحروف على بعض الناس في النطق، دون صفات أخرى. فالبعض يسهل
عليه التفتيح دون التريق، أو الفتحة دون الإمالة، أو الإظهار دون الإدغام، والبعض
يصعب عليه ذلك ويسهل عكسه. فكيف إذا تغيرت الكلمات أو الحروف أو الحركات
أو الترتيب.

« الاعتراض الرابع » يقولون : إنه لا يتصور وجود أوجه الخلاف في القراءات
المذكورة في كلمة واحدة، حتى يكون ذلك تيسيراً وتخفيفاً كما تقدم. وإن أرادوا أن
ذلك متفرق في القرآن جميعه كالمقائل باللغات السبع المتفرقة في القرآن لم يكن ثمة رخصة
ولا اختلاف بين الصحابة.

ونجيب : بأن هذا الاعتراض مبني من أساسه على غفلة عن حقيقة هذا المذهب
المختار وأشباهه، لأنه عبارة عن وجود سبعة إليها ترجع جميع الاختلافات في القراءة
دون أن تلتزم هذه الوجوه السبعة في الكلمة الواحدة، ودون أن يقال : إنها موزعة
أشتاتاً على أبعاض القرآن. وإذا فالرخصة متحققة، بل لا تتحقق على الوجه الأكمل
إلا بهذا القول. وماذا عسى أن يبقى من التيسير والتخفيف وقد جمعت هذه الوجوه
كل اختلاف في القراءات متواتراها وصحيحها وضعيفها وشاذها بكل طريق من
طرق الاختلاف حتى ولو كان في اللهجات، ولو وصلت لغات الكلمة إلى سبع وثلاثين،
كما أسلفنا في كلمة « أف » حكاية عن الرمانى.

« الاعتراض الخامس » يقولون : إن الرخصة قد وقعت، وأكثرهم يومئذ لا يكتب
ولا يعرف الرسم، وإنما كانوا يعرفون الحروف ومخارجها.

وأجيب باحتمال أن يكون الانحصار المذكور وقع اتفاقاً، وإنما أطلع عليه
بالاستقراء.

والأقعد من هذا في الجواب أن يقال : إن الانحصار المذكور عُرف بطريق الاستقراء التام ، وهو دليل من الأدلة القاطعة كما تقدم الكلام عليه جواباً عن اعتراض سابق . وكون الرخصة وقعت وأكثرهم أميوز ، لا يقدح في بيان الحروف السبعة المذكورة ، لأن الحاجة لم تكن ماسة إلى تعدد معنى الأحرف السبعة بهذا الوصف العنواي الذي اعتبرت به تلك الوجوه سبعة ، ففسهم أن يعلموا أن وجوه الاختلاف بينهم سبعة وجوه ، ولا يضيرهم ألا يستطيعوا العنونة عنها بما نعتون نحن ، ماداموا يعرفون السبعة تطبيقاً في جميع مفردات القرآن ، وما داموا يعولون في القراءة على تلقيهم عن رسول الله ﷺ الذي يؤمنون بأنه لا يقادر في إبلاغ القرآن وجهاً من وجوه السبعة . ونظير ذلك أنهم كانوا لا يعرفون تلك العناوين والأسماء والقوانين التي تتصل بالإعراب والبناء ، ولكنهم كانوا يعرفون أكثر منا كيف ينطقون نطقاً صحيحاً فصيحاً منطقاً عليه ما عرفنا نحن بعد من تلك الأسماء والقواعد المتصلة بالإعراب والبناء .

٨ — بقاء الأحرف السبعة في المصاحف

ننتقل بك إلى نقطة أخرى : هل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم لها وجود في المصاحف العثمانية .

ذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أن جميع هذه الأحرف موجودة بالمصاحف العثمانية .

واحتجوا بأنه لا يجوز للأمة أن تهمل نقل شيء منها ، وأن الصعابة أجمعوا على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر ، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك . ومعنى هذا أن الصحف التي كانت عند أبي بكر جمعت الأحرف السبعة ، ونقلت منها المصاحف العثمانية بالأحرف السبعة كذلك .

وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط ، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل متضمنة لها .

وذهب ابن جرير الطبري ومن لفّ لقه إلى أن المصاحف العثمانية لم تشمل إلا على حرف واحد من الحروف السبعة ، وتأثروا في هذا الرأي بمذهبهم في معنى الحروف السبعة ، وما التزموه فيه من أن هذه السبعة كانت في صدر الإسلام أيام الرسول ﷺ ، وخلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان . ثم رأت الأمة بقيادة عثمان أن تقتصر على حرف واحد من السبعة جمعاً لكلمة المسلمين فأخذت به وأهملت كل ما عداه من الأحرف الستة ، ونسخ عثمان للمصاحف بهذا الحرف الذي استبقته الأمة وحده . وسيأتي بيان هذا المذهب وما ورد عليه من توهين .

والتحقيق أن القول باشتغال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة كلها أو بعضها، يتوقف على أمرين : أحدهما تحديد المراد من الأحرف السبعة ، وثانيهما الرجوع إلى ما هو مكتوب وما نلّ بتلك المصاحف في الواقع ونفس الأمر .

ولقد أسلفنا لك ما اخترناه في تحديد المراد من الأحرف السبعة ، وأنها الأوجه التي يرجع إليها كل اختلاف في القراءات ، سواء منها ما كان صحيحاً وشاذاً ومنكراً وأنها تنحصر في سبعة على ما ذكره الرازي الذي حالفه التوفيق في الدقة والاستقراء التام .

وحن إذا رجعنا بهذه الأوجه السبعة إلى المصاحف العثمانية وما هو مخطوط بها في الواقع ونفس الأمر ، نخرج بهذه الحقيقة التي لا تقبل النقص ، ونصل إلى فصل الخطاب في هذا الباب ، وهو أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها ، ولكن على معنى أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على ما يوافق رسمه من هذه الأحرف كلاً أو بعضاً ، بحيث لم تخل المصاحف في مجموعها عن حرفٍ منها رأساً .

ولنبين ذلك في المذهب الذي اخترناه :

أما الوجه الأول منه وهو اختلاف الأسماء أفراداً وجمعاً نحو قوله سبحانه « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » المقرّوة بجمع الأمانة وإفرادها ، فقد اشتمل عليهما المصحف ؛ إذ كان الرسم العثماني فيه هكذا :

« لِأَمَنَتِهِمْ » برسم المفرد في الحروف ولكن عليها ألف صغيرة لتشير إلى قراءة الجمع وغير منقوطة ولا مشكولة .

وأما الوجه الثاني وهو اختلاف تصريف الأفعال نحو قوله سبحانه « يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ » المقرّوة بكسر الكاف وضمها في الفعل ، فقد وافقت كلتا القراءتين رسم

المصحف العثماني أيضاً، لأن هيكل الفعل واحد في الخط لا يتغير في كلتا القراءتين ،
والمصحف العثماني لم يكن معجماً ولا مشكولاً .

وأما الوجه الثالث وهو اختلاف وجوه الإعراب كقراءة « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ »
بفتح الراء وضمها ، فإن الرسم يحتملها كالوجه السابق ، وهو واضح .

وأما الوجه الرابع وهو الاختلاف بالنقص والزيادة ، فنه ما يوافق الرسم في
بعض المصاحف نحو قوله سبحانه في سورة التوبة : « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ » وقرئ « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا » بزيادة لفظ « مِنْ » . وهما قراءتان متواترتان
وقد وافقت كلتاها رسم المصحف ، بيد أن ذات الزيادة توافق رسم المصحف المكي لأن
لفظ « مِنْ » ثابتة فيه . أما حذفها فإنه يوافق رسم غير المصحف المكي حيث لم تثبت
فيه ، أى في غير المصحف المكي . ومن هذا الوجه ما لا يوافق رسم المصحف بحال من
الأحوال نحو قوله سبحانه : « وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا » وقرأ
ابن عباس هكذا « يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا » بزيادة كلمة « صَالِحَةٍ » فإن هذه
الكلمة لم تثبت في مصحف من المصاحف العثمانية ، نهى مخالفة لخط المصحف ، وذلك
لأن هذه القراءة وما شاكلها منسوخة بالعرضة الأخيرة أى عرض القرآن من النبي
صلى الله عليه وسلم على جبريل آخر حياته الشريفة . وبدل على هذا النسخ إجماع الأمة
على ما في المصاحف فتلخص مما ذكرنا أن بعض هذا الوجه الرابع اشتملت عليه المصاحف ،
وبعضه لم تشتمل عليه ، لأنه نسخ .

وأما الوجه الخامس : وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير ، فهو مثل سابقة . منه ما هو
موافق لرسم المصحف نحو قوله سبحانه في سورة التوبة : « فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا
عَلَيْهِ حَقًّا » قرئ الفعل بالبناء للفاعل في الأول ، وللمفعول في الثاني ، وقرئ بالعكس ،
وهما قراءتان متواترتان ، ولا يخالف شئ منهما رسم المصحف . ومنه ما خالف رسم المصحف

نحو قوله سبحانه « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » وقرئ « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » فإن هذه القراءة الثانية لا يحتملها رسم المصحف وإن كانت منقولة عن أبي بكر الصديق ، وطلحة بن مطرف ، وزين العابدين (رضي الله عنهم) لكنها لم تتواتر ، فهي منسوخة بالعرضة الأخيرة ، وبإجماع الصحابة على المصحف العثماني ، فلا يجوز القراءة بها بخلاف القراءة الأولى لأنها وافقت خط المصحف ، واستقرت القراءة بها دون نسخ . ومثل ذلك قوله سبحانه : « إِذْ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » وقرئ « إِذْ جَاءَ فَتَحُ اللَّهِ وَالنَّصْرُ » فالأولى هي التي وافقت الرسم . والثانية لم توافقه فهي منسوخة أيضاً لما ذكرنا .

وأما الوجه السادس : وهو الاختلاف بالإبطال ، فقد وافق بعضه رسم المصحف ، وخالفه البعض أيضاً . مثال ما وافق الرسم قوله سبحانه : « إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا » وقرئ « فَتَثَبُّوا » وهما قراءتان متواترتان . وتوافق كتابهما رسم المصحف . ومثال الثاني قراءة « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » وقراءة « وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعُفُوفِ الْمَنْفُوشِ » فإنهما مخالفتان لرسم المصحف . وذلك لنسخهما بالعرضة الأخيرة أيضاً ، واستقرار الأمر على ما وافق الرسم منه ، وهو قراءة « فَاسْمِعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » وقراءة « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » .

وأما الوجه السابع ، وهو الاختلاف بسبب تباين اللمحات فيوافق رسم المصحف موافقة تامة . لأنه اختلاف شكلي لا يترتب عليه تغيير جوهر الكلمة ، وهو ظاهر وتجد شواهد كثيرة في خط المصحف تدل على بعض هذا النوع من الاختلاف نحو « وَهَٰذَا آيَاتُ حَدِيثِ مُوسَى » فإنها رسمت هكذا بياء في الفعل بعد التاء ، وقلب ألف موسى ياء ، ومن غير شكل ولا إجماع .

٩ — الأقوال الأخرى ودفنها

وهالك ممرضاً عاماً تشهد فيه الآراء الأخرى بما لها وما عليها. رأينا من واجبتنا أن نسوقها إليك ثم نوهنها بين يديك ؛ كيلا يكون منها حجر عثرة في طريقك إلى ما اخترناه وأيدناه .

القول الأول

إن هذا الحديث مشكل لاسبيل إلى معرفة معناه المقصود . وشبهته أن لفظ « أحرف » فيه ، جمع حرف . والحرف مشترك لفظي بين معان كثيرة . والمشارك اللفظي لا يدرى أى معانيه هو المقصود ؟ .

ويدفع هذا الرأي بأننا لا نسلم ما قاله على إطلاقه من أن المشترك اللفظي لا يدرى أى معانيه هو المقصود ؟ بل المشترك اللفظي يدل على معناه المقصود متى قامت قرينة تعين ذلك المعنى ، تقول : نظرت بالعين المجردة ، وشربت من عين زبيدة ، ومعناها واضح غير مشكل ، مع أن لفظ العين فيهما مشترك لفظي ، ولكن مدلوله يتعين في المثال الأول أن يكون جارحة الإنسان الباصرة ، ومدلوله في المثال الثانى يتعين أن يكون فابعة الماء الجارية وذلك بقرينة لفظ نظرت في المعنى الأول ، ولفظ شربت في الثانى .

وعلى هذا الباب جاء لفظ « أحرف » في الحديث الشريف ، فإن سياق الروايات السابقة ، يدل على أن المراد بالحرف معنى من معانيه السابقة على التعيين وهو الوجه ، وأن الأحرف هى الأوجه التى يرجع إليها الاختلاف فى قراءة ألفاظ القرآن لا معانيه . وقد قام الدليل العقلى وهو الاستقراء التام على أن هذه الوجوه سبعة كما أسلفنا فإياك أن تنسى ، وتذكر الشاهد الثامن إن نفعت الذكرى .

القول الثاني

وإليه جنح القاضي عياض ومن تبعه : - أن لفظ السبعة في الحديث الشريف ليس مراداً به حقيقة العدد المعروف ، إنما هو كناية عن السكثرة في الآحاد ، كما أن السبعين تستعمل كناية عن السكثرة في العشرات ، وكما أن السبعائة تستعمل كناية عن السكثرة في المئات .

ويدفع هذا بما قدّمناه في الشاهد الثاني . فارجع إليه ، واحرص عليه .

القول الثالث والرابع

أن المراد بالأحرف السبعة سبع قراءات . ويدفع بأنه إذا كان المراد بهذا أن كل كلمة من كلمات القرآن تقرأ سبع قراءات ، فذلك ممنوع ، لأنه لا يوجد في القرآن كلمة تقرأ على سبعة أوجه إلا القليل . وإذا كان المراد أن غاية ما ينتهي إليه عدد القراءات في الكلمة الواحدة سبعة أحرف فهذا يصح أن يكون (قولاً رابعاً) كما قال السبكي ، ثم هو غير مسلم أيضاً ، لأن في كلمات القرآن ما يقرأ بطرق أكثر ، كما ورد أن كلمة « عَبْدَ الطَّاعُونَ » تقرأ باثنين وعشرين وجهاً . وأن كلمة « أَفٍ » فيها سبع وثلاثون لغة . وإذا كان المراد أن الاختلاف في القراءات لا يخرج عن سبعة أوجه فعلى صاحب هذا القول البيان ، فإذا بيّنها بالوجوه التي ذكرناها كان هذا القول متداخلاً معها ، فلا يستقيم اعتباره قولاً مستقلاً برأسه . وبعض أكابر العلماء حاول أن يجعله متحدداً مع القول الذي اخترناه وما أشبهه ، ولكنك قد علمت ما فيه .

القول الخامس والسادس والسابع

ما نقلناه آنفاً عن ابن قتيبة ، وعن ابن الجزرى ، وعن ابن الطيب . وقد بان لك

هناك أن في ثلاثتها قصوراً عمن أن تشمل جميع القراءات المتواترة ، وإن كانت قريبة من القول المختار . ثم بينها تداخلٌ يتعذر أو يتعسر معه اعتبارها أقوالاً مستقلةً .

القول الثامن

أن المراد بالأحرف السبعة وجوهٌ ترجع إلى كَيْفِيَّةِ النطق بالتلاوة من إدغام وإظهار ، وتفخيم وتزقيق ، وإمالة وإشباع ، ومد وقصر ، وتشديد وتخفيف وتلين .
وهو مدفوعٌ بأنه قد زاد فيما عدّه على سبعة . وإذا أجاب بأن السبعة غيرُ مبررٍ بها حقيقتها وأنها مثل في الكثرة فقد علتَ مافيهِ . ثم إن الأوجه التي ذكرها واحداً واحداً ترجع كلها إلى نوع واحد هو اختلاف اللهجات وكيفيات النطق وحدها ، فلا تشمل القراءات التي ترجع إلى اختلاف نفس الألفاظ بالإبدال أو التقديم والتأخير ، أو النقص والزيادة ، ونحو ذلك . وفي هذا القصور مافيهِ ، على أكثر مما أسلفنا في ردِّ تلك الآراء القاصرة .

القول التاسع

وهو أن المراد بالأحرف السبعة أوجه من الألفاظ المختلفة في كلمة واحدة ومعنى واحد ، وإن شئت قل : سبع لغاتٍ من لغات العرب المشهورة في كلمة واحدة ومعنى واحد ، نحو هلم ، وأقبل ، ونعال ، وعجل ، وأسرع ، وقصدى ، ونحوى .
فهذه ألفاظ سبعة معناها واحد هو طلب الإقبال ؛ وهذا القول منسوبٌ لجمهور أهل الفقه والحديث منهم سفيان ، وابن وهب ، وابن جرير الطبري ، والطحاوي . وحجتهم ما جاء في حديث أبي بكر من قوله ﷺ « كلّمَا شافِ كافٍ ما لم تحم آية عذابٍ رجعة ولا آية رجعةٍ بمذابٍ » ، نحو قولك : « نعال وأقبل وهلم ، واذهب ، وأسرع . وعجل » . وما جاء في حديث أبي بن كعب أنه كان يقرأ « كلّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ،

مَرُّوا فِيهِ ، سَعَوْا فِيهِ » وما جاء عن ابن مسعود أنه كان يقرأ « لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِرُونَا ، أَمِّهْلُونَا ، أَخِّرُونَا » .

ويدفع هذا القول بوجوه : (أحدها) أن ما ذكر في هذه الأحاديث ليس من قبيل حصر الأحرف السبعة فيها وفي نوعها وحده حتى يصح الاستدلال بها على ما ذهبوا إليه ، بل هو - كما قال ابن عبد البر - من قبيل ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها ، وأنها معانٍ متفقٌ مفهومها ، مختلفٌ مسموعها ، لا يكون في شيء منها معنى وضده .

وكيف يكون المراد حصر الأحرف السبعة ، فيما ذكره ؟ على حين أنه يرجع إلى بعض نوع واحد من أنواع الاختلاف ، وهو إبدال كلمة بأخرى أعم من أن يكون بمرادف أو غير مرادف . ولا ريب أن مذهبهم للذكور يتلخص في أنه إبدال كلمة بأخرى على شروط الترادف . وهذا بعض ذاك . فأين يذهبون بتلك الوجوه الأخرى وهي باقية إلى اليوم في القراءات المتواترة المكتوبة بين دفتي المصحف على ما بيناه في المذهب المختار . فقصر الحروف السبعة على بعض ذلك النوع وحده ، فيه ما فيه من القصور الذي أوردنا عليه ما أوردنا في الأقوال السابقة القاصرة ، بل القصور هنا أشد وأخش ، لأنه يرجع إلى بعض نوع واحد لا إلى نوع كامل ، بله أنواع متعددة ! .

(ثانيها) أن أصحاب هذا المذهب - على جلالة قدرهم ، ونباهة شأنهم - قد وضعوا أنفسهم في مأزق ضيق ، لأن ترويحهم لمذهبهم ، اضطرم إلى أن يتورطوا في أمور خطرهما عظيم ، إذ قالوا إن الباقي الآن حرف واحد من السبعة التي نزل عليها القرآن . أما الستة الأخرى فقد ذهت ولم يعد لها وجود البتة . ونسوا أو تناسوا تلك الوجوه المتنوعة القائمة في القرآن على جهة الدهر إلى اليوم . ثم حاولوا أن يؤيدوا ذلك فلم يستطيعوا

أن يثبتوا للأحرف الستة التي يقولون بضياعها نسخاً ولا رفعاً ، وأسلمهم هذا العجز إلى
وزرطة أخرى ، هي دعوى إجماع الأمة على أن تَدُبَّتْ على حرف واحد ، وأن تَرَفُضَ
القراءة بجميع ما عداها من الأحرف الستة . وأنى يكون لهم هذا الإجماع ولا دليل عليه ؟
هنالك احتالوا على إثباته بوزرطة ثالثة ، وهي القول بأن استنساخ المصاحف في زمن عثمان
رضي الله عنه كان إجماعاً من الأمة على ترك الحروف الستة والاقتصار على حرف واحد هو
الذي نسخَ عثمانُ المصاحفَ عليه ، مع أننا أثبتنا لك فيما مرَّ بقاءَ الأحرف السبعة في المصاحف
العثمانية حرفاً حرفاً ، ومثّلنا لذلك . وقصّاري ما استطاعوا أن يُسوِّغُوا به مذهبهم
وتورّطاتهم هذه ، أن الأمة على عهد عثمان رضي الله عنه قد اختلفت في قراءات القرآن
إلى حدِّ جعلهم يتنازعون ويتراوون بتكفير بعضهم بعضاً ، حتى خيفتِ الفتنة ، فرأى
الصحابة بقيادة خليفة م الحكيم عثمان رضي الله عنه أن يُعالجُوا المشكلة ، ويُطْفَنُوا
الفتنة ، بهذه الطريقة ، من جمع الناس على حرف واحد ، ونسخ المصاحف على حرف
واحد ، وإهمال كل ما عداها من الحروف والمصاحف المنسوخة عليها .

وهذا - لعمرك - استنّادٌ ما بئله ، واحتجاجٌ باطل . فقد تنازع الناس على عهد الرسول
ﷺ أيضاً في قراءات القرآن على حروف مختلفة ، كما رأيت في الروايات السابقة ، ومع
ذلك أقرهم الرسول على هذه الحروف المختلفة ، وقرّرها فيهم ، وحلّمهم على التسليم بها
في أساليب متنوّعة . وجعل ذلك هو الحلّ الوحيد لمشكلتهم ، والعلاج الناجع لنزاعهم .
وأفهمهم أن تعدّد وجوه القراءة إنما هو رحمة من الله بهم ، بل بالأمة كلها . وقرّري
صراحة وهو يسأل مولاه المزيّد من عدد الحروف أن الأمة لا تُطَبِّقُ حصرها في مَضِيْق
حرف واحد ، وقال : « وإن أمتي لا تُطَبِّقُ ذلك » إلى آخر ما عرفت . وأنت خير بأن
أمة محمد ﷺ باقية إلى يوم القيامة . وهي لا تطبق ذلك كما قرّرت رسوالمُ المعصوم الرحيم
صلوات الله وسلامه عليه . كما نشاهد نحن الآن من أن بعض الألسنة في بعض الشعوب
الإسلامية ، لا يتيسّر لها أن تحسن النطق ببعض الحروف ولا ببعض اللّهجات دون بعض

فكيف يسوغ للصحابة وهم خير القرون ، أن يُنلقوا باب الرحمة والتخفيف الذي فتحه الله لأمة الإسلام ، مخالفين في ذلك هَدَى الرسول عليه الصلاة والسلام في عمله للتخفيف بطلب تعدد الحروف ، وعلاجه للنزاع بين المختلفين بتقرير هذا التعدد للحروف ؟ ألا إن هذه نُقْرَةٌ لا يمكن سدّها ، وثُلْمَةٌ يصعب جبرها ، وإلا فكيف يوافق أصحاب رسول الله ﷺ على ضياع ستة حروف نزل عليها القرآن ، دون أن يُبَيَّنوا عليها مع أنها لم تنسخ ولم ترفع ؟ وعلى حين أن الرسول ﷺ قرّر بقوله وفعله ، أنه لا يجوز لأحد أيّا كان ، أن يمنع أحداً أيّا كان ، من القراءة بحرف من السبعة أيّا كان . فقد صَوَّب قراءة كلِّ من المختلفين ، وقال لـكُلِّ « هَكَذَا أَنْزَلَتْ » وضرب في صدر أبي بن كعب حين استصعب عليه التسليم بهذا الاختلاف في القراءة . إلى آخر ما شرحنا في الشاهدين الثالث والخامس من الشواهد الماضية .

وُقْصَارِي القول ، أفذا نَرَبَّأُ بأصحاب رسول ﷺ أن يكونوا قد وافقوا أو فكّروا ، فضلاً عن أن يتأمروا على ضياع أحرف القرآن الستة دون نسخ لها . وحاشا عثمان رضي الله عنه أن يكون قد أقدم على ذلك وترعّمه !

وكيف ينسب إليه هذا ؟ والمعروف أنه نسخ المصاحف من الصحف التي جمعت على عهد أبي بكر رضي الله عنه قبل أن يدبّ النزاع في أقطار الإسلام بسبب اختلاف حروف القراءة في القرآن . فكانت تلك الصحف محتملة للأحرف السبعة جميعاً ، وموافقة لها جميعاً ، ضرورة أنه لم يحدث وقتئذٍ من النزاع والشقاق ما يدعو إلى الاختصار على حرف واحد في رأيهم . ولم يثبت أن الصحابة تركوا من الصحف المجموعة على عهد أبي بكر حرفاً واحداً فضلاً عن ستة حروف ولو كان ذلك لنقل إلينا متواتراً ؛ لأنه مما يتوافر الدواعي على نقله تواتراً .

ثم كيف يفعل عثمان رضي الله عنه ذلك وهو الذي عرف أن علاج الرسول لمثل هذا

النوع الذى دبّ في زمانه، كان يجمع الناس وتقريرهم على الحروف السبعة، لا بمنعهم عنها كلاً ولا بعضاً.

ثم كيف يفعل عثمان ذلك، وتوافقه الأمة، ويتم الإجماع؟ ثم يكون خلاف في معنى الأحرف السبعة مع قيام هذا الإجماع؟ أى كيف تجمع الأمة على ترك ستة أحرف وإبقاء حرف واحد ثم يختلف العلماء في معنى الأحرف السبعة على أربعين قولاً، ويكادون يتفقون - رغم خلافهم هذا - على أن الأحرف السبعة باقية، مع أن الإجماع حجة عند المسلمين، وبه ينجلي ظلام الشك عن وجه اليقين ١١ .

ولنفرض جدلاً أن نزاع المسلمين في أقطار الأرض أيام خلافة عثمان رضى الله عنه، قضى عليه أن يجمع المسلمين على حرف واحد في القراءة، فلماذا لم تسمح نفسه الكريمية بإبقاء الستة الأحرف الباقية للتاريخ لا للقراءة، مع أن الضرورة تُقدّر بقدرها، وهذه الستة الأحرف لم تنسخ لا تلاوةً ولا حكماً حتى تذهب بجرّة قلم كذلك، ثم يبخل عليها بالبقاء للتاريخ وحده في أعظم مرجع، وأقدس كتاب، وهو القرآن الكريم. على حين أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، حفظوا للتاريخ آيات نسخت تلاوتها ونسخت أحكامها جميعاً. وعلى حين أنهم حفظوا اقراءات شاذة في القرآن، ثم نقلت إلينا، وكتب لها الخلود إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم. بل نقلوا إلينا أحاديث منسوخة، وتناقل العلماء أحاديث موضوعة، ونصّوا على حكم كل منها وعلى إهمال العمل بها.

ثم إن من عرف تحمس الصحابة لدينهم واستبسالهم في الدفاع عن حى القرآن يستبعد كل البعد، بل يُحيل كل الإحالة أن يكونوا قد فعلوا ذلك، أو أقل من ذلك، عاود ما قرّره في الشاهد السادس من شواهدنا الماضية، وانظر إلى موقف عمر من هشام وموقف هشام من عمر، وموقف أنى وابن مسعود وصاحبيهما وتأمل كيف أن كلاً من هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم أبى أن يتنازل عن قراءة سمعها عن رسول الله ﷺ وعلمها

إياه رسول الله ﷺ ثم أقرهم رسول الله ﷺ على استمساكهم هذا، وحلّ مشكلتهم بأن أعلمهم أن كلّاً منهم مصيب ومحسن، وأن قراءة كل منهم هكذا أنزلت، وأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وأن من كثر بحرف منها فقد كفر بها كلها، وألا يختلفوا في ذلك؛ فقد أهلك الاختلاف من كانوا قبلهم . وبهذا « قَطَعَتْ جَهِيْزَةُ قَوْلِ كُلِّ خَطِيْبٍ » .

(أمر مالك) هو أن هؤلاء الذين شاربوا ذلك المذهب ، يلتزمون أن يقولوا : إن اختلاف القراءات الحاصل اليوم ، يرجع كله إلى حرف واحد، وهكذا شاء لهم رأيهم أن يعملوا تلك السكثرة الغامرة القائمة الآن حرفاً واحداً ، على ما بينهما من اختلاف في الوجوه والأنواع وعلى رغم أن من القراءات الحاضرة ما يكون وجه الاختلاف فيه ناشئاً عن وجود ألفاظ مترادفة في كلمة واحدة ومعنى واحد ، ومنها ما هو من لغات قبائل مختلفة؛ كما نصّ على ذلك السيوطي في النوع السابع والثلاثين . ونقلنا منه شيئاً من موضع آخر من هذا البحث .

ولدينا دلائلٌ ماديّةٌ أيضاً على بقاء الأحرف السبعة جميعاً ، هو بقاء التيسير والتخفيف وتسهيل الأداء على الأمة الإسلامية الذي هو الحكمة في الأحرف السبعة .

فها نحن أولاء لا تزال نشاهد عن طريق القراءات المختلفة القائمة الآن سبيلاً سهلاً قد وسّع كافة الشعوب المسلمة، سواء منها الأمم العربية وغير العربية ، والحمد لله على دوام فضله ورحمته ، وبقاء تخفيفه وتيسيره . وغفر الله لأولئك الأعلام الذين أخطأوا إصابة الرمي ، فقد اجتهدوا والمجتهد أجر وإن أخطأ ، ونسأل الله التوفيق والسداد ، آمين .

القول العاشر

أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب ، بمعنى أن القرآن لا يخرج عن سبع لغات من لغات العرب ، وهي لغة قريش ، وهذيل ، وثقيف ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليمن ، وهي أفصح لغات العرب . قال بعضهم : هذا أصح الأقوال وأولاهها بالصواب ، وهو الذي عليه أكثر العلماء ، وصححه البيهقي ، واختاره الأبهري ، واقتصر عليه صاحب القاموس .

وقال أبو عبيد : « ليس المراد أن كل كلمة تُقرأ على سبع لغات ، بل اللغات السبع مفرقة فيه ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن وغيرهم . قال : وبعض اللغات أسمى به من بعض وأكثر تهذيباً » وقيل في عدد القبائل السبع آراء أخر .

ويدفع هذا القول على جميع آرائه بأمرين : (أحدهما) أن في القرآن الكريم ألفاظاً كثيرة من لغات قبائل أخرى غير السبعة التي عدوها .

مثل كلمة « سَامِدُونَ » في قوله تعالى : « وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ » فإنها بالجزيرية . ومثل كلمة « خَرَأَ » في قوله : « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا » فإنها بلغة أهل عُمان لأنهم يسمون العنب خمرًا (أي حقيقة لا مجازاً) . ومثل كلمة « بَعَلًا » في قوله تعالى : « أَتَدْعُونَ بَعَلًا » أي رَبًّا بلغة أَزْدِ شَنْوَةَ . ومثل كلمة « لَا يَلْتَكُم » أي لا يبتصمكم في قوله تعالى : « لَا يَلْتَكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا » فإنها بلغة بني عَبَس . ومثل كلمة « فَبَاءُوا » بمعنى استوجبوا في قوله تعالى : « فَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ » فإنها بلغة جُرْهُم . ومثل كلمة « رَفَثَ » بمعنى جماع في قوله تعالى : « فَلَا رَفَثَ » فإنها بلغة مَذْحِج . ومثل كلمة « تُسَيِّمُونَ » بمعنى ترعون في قوله تعالى : « فِيهِ تُسَيِّمُونَ » فإنها بلغة خَثْعَم ، إلى

غير ذلك . وارجع إلى النوع السابع والثلاثين من إتقان السيوطي إن أردت المزيد .

وحسبك في هذا المقام ما نقله الواسطي في كتابه الذي وضعه في القراءات العشر إذ يقول : « إن في القرآن من أربعين لغة عربية وهي : قريش ، وهذيل ، وكندانة ، وخثعم ، والخزرج ، وأشعر ، ونمير ، وقيس عيلان ، وجُرهم ، واليمن ، وأزد شبوءة ، وكندة ، وتميم ، وخيبر ، ومدائن ، وأخم ، وسعد العشيرة ، وحضر موت ، وسدوس ، والمالقة ، وأنمار ، وغسان ، ومدحجج ، وخزاعة ، وغطفان ، وسبأ ، وعمان ، وبنو حنيفة ، وعلب ، وطى ، وعامر بن صعصعة ، وأوس ، ومزينة ، وثقيف ، وجذام ، وبلي ، وعذرة ، وهوازن ، والنمير ، واليمامة » .

ولا ينبغي عن بالك أن هذه اللغات كلها تمثلت في لغة قريش باعتبار أن لغة قريش كانت المترجمة لها ، والمهيمنة عليها ، والآخذة منها ما شاء مما يحملوها ويرق في ذوقها ، ثم يأخذ الجميع عنها ، حتى صح أن يعتبر لسان قريش هو اللسان العربي العام ، وبه نزل القرآن ، على ما سبق بيانه ، فلا تغفل . والله يتولى هدانا أجمعين .

(ثانيهما) أن توجيه هذا المذهب بما قاله أبو عبيد ، يقتضي أن يكون القرآن أبعاضاً ، منه ما هو بلغة قريش ، ومنه ما هو بلغة هذيل ، وهكذا . ولا شك أن ذلك غير محقق لحكمة التيسير الملحوظة للشارع الحكيم في نزول القرآن على سبعة أحرف ، فإن هذا المذهب يستلزم أن كل شخص لا يمكنه أن يقرأ إلا البعض الذي نزل بلغته ، دون البعض الذي نزل بلغة غيره . وهذا باطل من ناحية ، ومخالف للاختلاف الذي صورته لنا الروايات السابقة بين الصحابة في القراءة من ناحية أخرى فإن المقرء فيها كان واحداً لا محالة ، كسورة الفرقان بين عمر وهشام . وسورة من آل حم بين ابن مسعود وصاحبه ، وقد صوّب الرسول ﷺ قراءة كل من المختلفين ، وكلاهما قرشي .

القول الحادى عشر

أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات قبائل مضر خاصة ، وأنها متفرقة في القرآن . وأن تلك القبائل السبع هي : قريش ، وكنانة ، وأسد ، وهذيل ، وتميم ، وضبة ، وقيس .

ونرد هذا بما رددناه سابقه ، بل هذا أدى إلى البطلان ، لأنه أخص مما قبله الذى دحضناه من جهة خصوصه ، فكيف هذا ؟ تلك ناحية . وثمة ناحية أخرى : وهى أن فى قبائل مضر شواذ ينزه عنها القرآن الكريم مثل كَشَشَ كَيْسَ ، وهى جعل كاف المؤنث شيناً ، فيقولون فى قوله تعالى : « قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » قد جعلَ رَبُّشِ تَحْتَشِ سَرِيًّا . ومثل نَمَتَمَتِ تميم الذين يجعلون السين تاء فيقولون فى الناس « النات » مع أن هذه لغات لم يُحفظ منها شيء فى القرآن الكريم .

القول الثانى عشر إلى الأربعين

أن المراد بالأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن ، سبعة أصناف فى القرآن ، وأصحاب هذه الأقوال يختلفون فى تعيين هذه الأصناف . وفى أسلوب التعبير عنها إلى آراء تكمل بها العدة أربعين قولاً .

فمنهم من يقول : إنها أمر ، ونهى ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال .

ومنهم من يقول : إنها وعد ، ووعيد ، وحلال ، وحرام ، ومواعظ ، وأمثال ، واحتجاج .

ومنهم من يقول : إنها محكم ومتشابه ، وناسخ ، ومنسوخ ، وخصوص وعموم ، وقصص .

ومنهم من يقول : إنها لفظ عام أريد به العام ، ولفظ خاص أريد به الخاص ، ولفظ عام أريد به الخاص ، ولفظ خاص أريد به العام ، ولفظ يستغنى بتزيله عن تأويله ، ولفظ لا يعلم فقهه إلا العلماء ، ولفظ لا يعلم معناه إلا الراسخون في العلم .

ومنهم من يقول : إنها إظهار الربوبية ، وإثبات الوجدانية ، وتعميم الألوهية ، والتعبد لله ، ومجانبة الإشراف ، والترغيب في الثواب ، والترهيب من العقاب .

ومنهم من يقول : إنها المطلق ، والمقيد ، والعام ، والخاص ، والنص ، والمؤول والناسخ ، والمسنوخ ، والاستثناء ، وأقسامه .

ومنهم من يقول : إنها الحذف ، والصلة ، والتقديم ، والتأخير ، والاستعارة ، والتكرار ، والسكناء ، والحقيقة ، والمجاز ، والمجمل ، والمفسر ، والظاهر ، والغريب .

ومنهم من يقول سوى ذلك كله ، غير أنها من هذا الطراز أو من طراز ماسبق في الأقوال الأخرى ، حتى أكمل بها بعضهم عدة الأقوال أربعين قولاً .

١٠ — ردود إجمالية لهذه الأقوال الأخيرة

والكل مردود ردًّا إجماليًّا بما يأتي :

(أولاً) أن سياق الأحاديث السابقة ، لا ينطبق على هذه الأقوال بحال ، فإن هذه الأصناف التي عيّنها ، لا يتأتى الاختلاف فيها بسبب القراءة . والاختلاف الذي نقلته الروايات السابقة تدلُّ تلك الروايات نفسها على أنه ما كان إلا بسبب القراءة ، فتعين أن يكون مرجعه التلفظ وكيفية النطق ، لا تلك الأصناف والأنواع التي سردوها في معرض الآراء . أنظر الشاهد الثامن من شواهدنا للماضية إن شئت .

(ثانياً) أنه لا يوجد لهم سندٌ صحيحٌ يدلُّ على حصر الأحرف السبعة التي نزل عليها

القرآن فيما بينوه . وما يكون لنا أن نقبل رأياً غير مدلل ولا مؤيد بحجة .

(ثالثاً) أن التوسعة الملحوظة للشارع الرحيم في نزول القرآن على الأحرف السبعة، لا تتحقق فيما ذكره من تلك الأصناف والأنواع.

(رابعاً) أن بعض تلك الآراء نلاحظ عليها أنها زادت على السبعة فيما ذكرته من الأصناف والأنواع. فإما أن تكون أخطاءً في العد من أول الأمر، وإما أن تكون متأثرةً بفكرة أن لفظ السبعة كنايةٌ للاحقيقة، وقد علمت فيما سبق مافيه من خطأ أيضاً راجع الشاهد الثاني من شواهدنا الآتية إن أردت.

(خامساً) أن أكثر ما ذكره في تلك الآراء والأصناف، يتداخل بعضه في بعض، وبشبه بعضه بعضاً، فمن المتعسر اعتبارها أقوالاً مستقلةً.

نقل السيوطي عن الشرف المروسي أنه قال: «هذه الوجوه أكثرها متداخلة ولا أدري مستندها، ولا عمن نقلت؟ ولا أدري لم خص كل واحد منهم هذه الأحرف السبعة بما ذكر؟ مع أنها كلها موجودة في القرآن، فلا أدري معنى التخصيص. ومنها أشياء لا أفهم معناها على الحقيقة. وأكثرها معارض لحديث عمر وهشام بن حكيم الذي في الصحيح فإنهما لم يختلفا في تفسيره ولا أحكامه، وإنما اختلفا في قراءة حروفه. وقد ظن كثير من العوام أن المراد بها القراءات السبع، وهو جهل قبيح» اهـ.

١١ - علاج الشبهات الواردة

على أصل الموضوع

أعداء الإسلام في كثرةٍ ونشاطٍ وبقظة، وبين المسلمين جهلةٌ يؤذون الإسلام والأمة بأشد ما يؤذيه أعداؤه، على حد قول القائل:

« لا يبلغُ الأعداء من جاهل ما يبلغُ الجاهل من نفسه »

وقد نرى ونسمع اتهامات وشبهات ، مرةً من هنا ، ومرةً من هناك ، فمن واجب الأمانة في أعناقنا ، أن نبذّ ظلمات هذه الشبهات والشُّم ، بما بين أيدينا من أنوار العلم وأسلحة الحجج . « وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ » .

(الشبهة الأولى) يقولون : إن أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف تثبت الاختلاف في القرآن ، مع أن القرآن نفسه يرفع الاختلاف عن نفسه ، إذ يقول : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » وذلك تناقض ، ولا ندرى أيهما يكون الصادق .

والجواب : أن الاختلاف الذي تثبته تلك الأحاديث ، غيرُ الاختلاف الذي ينفيه القرآن . وهذا كافٍ في دفع التناقض ، فكلاهما صادق . وبيان ذلك أن الأحاديث الشريفة تثبت الاختلاف بمعنى التنوع في طرق أداء القرآن والنطق بالفاظه في دائرة محدودة لا تعدو سبعة أحرف ، وبشرط التلّقي فيها كلها عن النبي ﷺ .

أما القرآن فينبغي الاختلاف بمعنى التناقض والتدافع بين معاني القرآن وتعاليمه ، مع ثبوت التنوع في وجوه التلفظ والأداء السابق .

ومعنى ذلك أن نزول القرآن على سبعة أحرف ، لا يلزم منه تناقض ولا تحاذل ولا تضاد ولا تدافع بين مدلولات القرآن ومعانيه ، وتعاليمه ومراميّه ، بعضها مع بعض . بل القرآن كله سلسلة واحدة ، متصلة الحلقات ، محكمة السور والآيات ، متآخدة المبادئ والغايات ، مهما تعددت طرق قراءته ، ومهما تنوّعت فنون أدائه .

وللمحقق ابن الجزرى كلام نفيس يتّصل بهذا الموضوع فنقل إليك شيئاً منه بقليل من التصرف ، إذ يقول : « قد تدبّرنا اختلاف القراءات ، فوجدناه لا يخلو من ثلاثة أحوال : أحدها اختلاف اللفظ لا المعنى . الثاني اختلافهما جميعاً مع جواز اجتماعهما في شيء واحد . الثالث اختلافهما جميعاً مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد ، لكن يتفقان من وجه آخر لا يقتضى التضاد .

فأما الأول فكالاختلاف في ألفاظ « الصراط » ، وعليهم ، وَيَبْزُودُهُ ، والقدس
ويحسب » ، ونحو ذلك مما يطلق عليه أنه لغات فقط . وأما الثاني فنحو لفظ « مالك
وملك » في الفاتحة ، لأن المراد في القراءتين هو الله تعالى ، لأنه مالك يوم الدين
وملكه . . وكذا ننشرها بالزاي وننشرها بالراء ، لأن المراد بهما هو العظام . وذلك
أن الله تعالى أنشرها أى أحيهاها ، وأنشرها أى رفع بعضها إلى بعض ، حتى التأممت ،
فضمّن الله المعنيين في القراءتين . وأما الثالث فنحو قوله تعالى : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا »
قرئ بالشديد والتخفيف في لفظ « كذبوا » المبني للمجهول . فأما وجه التشديد ، فالمعنى :
وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوا بهم . وأما وجه التخفيف ، فالمعنى : وتوهم المرسل إليهم
أن الرسل قد كذبوا بهم . (أى كذبوا عليهم) فيما أخبرهم به . فالظن في الأولى يقين ،
والضمائر الثلاثة المرسل . والظن في القراءة الثانية شك والضمائر الثلاثة المرسل إليهم .
ومن هذا القبيل قوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ أَنْ تَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » بفتح
اللام الأولى ورفع الأخرى في كلمة « لتزول » ، وبكسر الأولى وفتح الثانية فيها أيضاً .
فأما وجه فتح الأولى ورفع الثانية من « لتزول » فهو أن تكون كلمة « إن » مخففة من
التثنية ، أى وإن مكروهم كامل الشدة تقطع بسببه الجبال الراسيات من مواضعها . وفي
القراءة الثانية « إن » نافية أى ما كان مكروهم وإن تعاضدوا وتفاقم ليزول منه أمر محمد
ﷺ ودين الإسلام . ففي الأولى تكون الجبال حقيقة ، وفي الثانية تكون مجازاً .
ثم قال أيضاً : « فليس في شيء من القرآن تناف ولا تضاد ولا تناقض . وكل ما صح
عن النبي ﷺ من ذلك ، فقد وجب قبوله ، ولم يسع أحداً من الأمة رده ، ولزم الإيمان
به وأنه كله منزل من عند الله ، إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية ،
يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته علماً وعملاً ، ولا يجوز ترك موجب إحداها
لأجل الأخرى ظناً أن هذا تعارض » ١٨٦ .

إلى ذلك أشار عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بقوله : « لا تختلفوا في القرآن ،

ولاننازعوا فيه ، فإنه لا يختلف ولا يتساقط : ألا ترون أن شريعة الإسلام واحدة حدودها وقراءتها ، وأمر الله فيها واحد . لو كان من الحرفين حرف يأمر بشيء وينهى عنه الآخر ، كان ذلك الاختلاف . ولكنه جامع ذلك كله . ومن قرأ قراءة فلا يدعها رغبة عنها ، فإنه من كفر بحرف منه كفر به كله « ٥١ » .

(الشبهة الثانية) :

يقولون : إن هذا الاختلاف في القراءات ، يوقع في شك وريب من القرآن خصوصاً إذا لاحظنا في بعض الروايات معنى تخير الشخص أن يأتي من عنده باللفظ وما يرادفه ؛ أو باللفظ وما لا يضاده في المعنى ، كحديث أبي بكر ، وفيه « كلها شاف كاف ، ما لم تحم آية عذاب برحة ، أو آية رحمة بعذاب ، نحو قولك : نعال ، وأقبل ، وهلم ، واذهب ، وأسرع ، وعجل » . جاء بهذا اللفظ من رواية أحمد بإسناد جيد ، ومثله حديث أبي بن كعب . وأكثر من ذلك ما جاء في فضائل أبي عبيد أن عبد الله بن مسعود قرأ رجلاً : « إِنَّ شَجَرَةَ الرُّقُومِ طَعَامُ الْأَنْيَمِ » فقال الرجل : « طَعَامُ الْيَتِيمِ » فردّها عليه ، فلم يستقم بها لسانه . فقال : أنستطيع أن تقول : طعامُ الفاجر قال : نعم . قال : فافعل « ٥١ » .

والجواب : إن اختلاف القراءات لا يوقع في شك ولا ريب ما دام الكل نازلاً من عند الله . وأما هذه الروايات التي اعتمدت عليها الشبهة ؛ فلا نسلم أنه يفهم منها معنى تخير الشخص أن يأتي من تلقاء نفسه باللفظ وما يرادفه ، أو باللفظ وما لا يضاده في المعنى ، حتى يوقع ذلك في ريب من هذا التنزيل . بل قصارى ما تدل عليه هذه الروايات أن الله تعالى وسع على عباده ، خصوصاً في مبدأ عهدهم بالوحى ، أن يقرءوا القرآن بما تليق به ألسنتهم . وكان من جملة هذه التوسعة القراءة بترادفات من اللفظ الواحد للمعنى الواحد ، مع ملاحظة أن الجميع نازل من عند الله ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد ﷺ ،

وقرأه الرسول على الناس على مكث ، وسمعه منه ، ثم نسخ الله ما شاء أن ينسخ بعد ذلك ، وأبقى ما أبقى ، لحكمة سامية تستقبلك في مبحث النسخ .

يدل على أن الجميع نازل من عند الله تعالى قوله ﷺ لكل من المتنازعين المختلفين في القراءة من أصحابه : « هَكَذَا أَنْزَلْتُ » ، وقول كل من المختلفين لصاحبه : « أقرأنيها رسول الله ﷺ » ؛ وقول الله تعالى لرسوله جواباً لمن سأله تبديل القرآن : « قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْمَازِ نَفْسِي ، إِنْ أُتَيْعُ إِلَّا مَا يَوْحَىٰ إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ » . وليس بعد كلام الله ورسوله كلام . كذلك أجمعت الأمة على أنه لا مدخل لبشر في نظم هذا القرآن لا من ناحية أسلوبه ، ولا من ناحية ألفاظه ، بل ولا من ناحية قانون أدائه ، فمن يخرج على هذا الإجماع ، ويقع غير سبيل المؤمنين ، يوكِّله الله ما تولى ويصله جهنم وساءت مصيراً .

وها نحن أولاء قد رأينا القرآن في تلك الآية يمنع الرسول من محاولة ذلك منعاً باتاً مشفوعاً بالوعيد الشديد ، ومصحوباً بالعقاب الأليم . فما يكون لابن مسعود ، ولألا أكبر من ابن مسعود - بعد هذا - أن يبدل لفظاً من ألفاظ القرآن بلفظ من تلقاء نفسه . أنظر ما قررناه في الشاهدين : الرابع والسابع من هذا المبحث .

أما هذه الرواية المنسوبة إلى ابن مسعود من أنه أقرأ الرجل بكلمة « الفاجر » بدلاً من كلمة « الأنيم » في قول الله تعالى « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأُنِيمِ » فتدل على أن ابن مسعود سمع الروایتين عن رسول الله ﷺ . ولما رأى الرجل قد تعمس عليه البطق بالأولى ، أشار عليه أن يقرأ بالثانية ، وكلاهما منزل من عند الله .

وكذلك حديث أبي بكر السابقي ، لا يدل على جواز تبديل الشخص ما شاء من القرآن بما لا يضاؤه ، كازعم الواهم ، إنما ذلك الحديث وأشباهه ، من باب الأمثال التي يضربها الرسول ﷺ للحروف التي نزل عليها القرآن ؛ ليفيد أن تلك الحروف

على اختلافها ، ما هي إلا ألفاظ متوافقة مفاهيمها ، متساندة معانيها لا تتأذّل بينها ولا تهافت ، ولا تضادّ ولا تناقض ، ليس فيها معنى يخالف معنى آخر على وجه ينفيه ويناقضه ، كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضدّها . وتلك الأحاديث بهذا الوجه ، تقرير لأن جميع الحروف نازلة من عند الله « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

وهاك برهاناً آخر ذكره صاحب التبيان في مثل هذا المقام إذ يقول : « إن النبي ﷺ علم البراء بن عازب دعاء فيه هذه الكلمة « وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ » فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على رسول الله ﷺ قال : « وَرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ » فلم يوافقه النبي ﷺ على ذلك ، بل قال له : « لا . وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ » . وهكذا نهاه عليه الصلاة والسلام أن يضع لفظة رسول ، موضع لفظة نبي ، مع أن كليهما حق لا يحيل معنى ، إذ هو ﷺ رسول ونبي معاً . ثم قال : فكيف يسوغ للجهال المغفان أن يقولوا : إنه عليه الصلاة والسلام كان يميز أن يوضع في القرآن الكريم مكان عزيز حكيم ، غفور رحيم ، أو سميع عليم . وهو يمنع من ذلك في دعاء ليس قرآنًا ، والله يقول مخبراً عن نبيه ﷺ « مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي » ولا تبدل أكثر من وضع كلمة مكان أخرى « اه بتصرف قليل .

(الشبهة الثالثة) :

يقولون : إن نزول القرآن على سبعة أحرف ، ينافي ما هو مقرر من أن القرآن نزل بلفظ قريش وحدها ، ثم إنه يؤدي إلى ضياع الوحدة التي يجب أن تسود الأمة الواحدة بسبب اجتماعها على لسان واحد .

والجواب : أنه لا منافاة ، ولا ضياع للوحدة ، فإن الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن الكريم واقعة كلها في لغة قريش . ذلك أن قريشا كانوا قبل مهبط الوحي والتنزيل ،

قد داوروا بينهم لغات العرب جميعاً وتداولوها ، وأخذوا ما استملحوه من هؤلاء وهؤلاء في الأسواق العربية ومواسمها ووقائعها ، وحجها وعمرتها ثم استعملوه وأذاعوه ، بعد أن هدبوه وصقلوه . وبهذا كانت لغة قريش مجمع لغات مختارة منتقاة من بين لغات القبائل كافة . وكان هذا سبباً من أسباب انتهاء الزعامة إليهم ، واجتماع أوزاع العرب عليهم .

ومن هنا شاعت حكمة الحكيم العليم أن يطلع عليهم القرآن من هذا الألف ، وأن يطلع عليهم من هذه السماء سماء قريش ولغتها التي أعطوها مقاديرهم ، وولوا شطرها وجوههم ، فخطبهم بهذا اللسان العام لهم ، ليضمّ نشرهم ، ولينظم نثرهم . وقد تمّ له ما أراد بهذه السياسة الرشيدة التي جاءتهم بالإعجاز البياني عن طريق اللغة التي انتهت إليها أفصح اللغات ، وباللسان الذي خضعت له وتمثلت فيه كافة الألسنة العربية . *

ولو نزل القرآن بغير لغة قريش هذه لكان مثار مشاحنات وعصبيات ، ولذهب أهل كل قبيلة بلغتهم ولعلاً بعضهم على بعض ، ولما اجتمع عليه العرب أبداً . بل لو نزل القرآن بغير لغة قريش لراحت شبهتهم وافترائهم عليه أنه سحر وكهانة وما إليها ، نظراً إلى أنه قد دخل عليهم من غير بابهم فلا يستطيعون القضاء فيه ، ولا إدراك الفوارق البعيدة بينه وبين الحديث النبوى ، مما يجعلهم يذوقون الإعجاز ويلسونه ، كما تذوقوه بوضوح حين نزل بلسانهم . « إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » .

(الشبهة الرابعة) :

يقولون : إنه لا معنى للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن إلا تلك القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء .

والجواب : أن هذه شبهة تعرض كثيراً للعامة ومن في حكمهم ممن لم يأخذوا من علوم

القرآن والحديث بحظر ولا نصيب .. فإن ذلك المعنى الذي زعموه غير صحيح من وجهين :

(أحدهما) أن الأحرف التي نزل بها القرآن ، أعمُّ من تلك القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة القراء عموماً مطلقاً ، وأن هذه القراءات أخصُّ من تلك الأحرف السبعة النازلة خصوصاً مطلقاً . ذلك لأن الوجوه التي أنزل الله عليها كتابه ، تنظم كل وجه قرأ به النبي ﷺ ، وأقرأه أصحابه ، وذلك ينظم القراءات السبع المنسوبة إلى هؤلاء الأئمة السبعة القراء ، كما ينظم ما فوقها إلى العشرة ، وما بعد العشرة ، وما كان قرآناً ثم نسخ ولم يصل إلى هؤلاء القراء جميعاً ، ولهذا نصوا في المذهب المختار على أنه يشمل كل وجوه القراءات صحيحها وشاذها ومنكرها كما سبق .

(ثانيهما) : أن السبعة لم يكونوا قد خلقوا ولا وجدوا حين نطق الرسول ﷺ بهذا الحديث الشريف . ومحال أن يفرض الرسول على نفسه وعلى أصحابه ألا يقرءوا بهذه الأحرف السبعة النازلة إلا إذا علموا أن هؤلاء القراء السبعة قد اختاروا القراءة بها ، على حين أن بين المهديين بضعة قرون ! وعلى حين أن هؤلاء القراء وسواهم إنما أخذوا عن النبي ﷺ من طريق أصحابه ومن أخذ عنهم إلى أن وصلوا إليهم . فهذه الشبهة تستلزم الدور الباطل فهي باطلة .

وتستلزم أيضاً أن يبقى قول الرسول ﷺ : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ » عارياً عن الفائدة ، غير نافذ الأثر ، حتى يولد القراء السبعة المعروفون وتتخذ القراءة عنهم . وذلك باطل أيضاً يكذبه الواقع من قراءة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وقراءة أصحابه وتابعيه بالأحرف السبعة من قبل أن يولد القراء السبعة المعروفون .

قال المحقق ابن الجزرى : « فلو كان الحديث منصرفاً إلى قراءات السبعة المشهورين أو سبعة غيرهم من القراء الذين ولدوا بعد التابعين ، لَأَدَّى ذلك إلى أن يكون الخبر عارياً عن الفائدة إلى أن يولد هؤلاء السبعة ، فتؤخذ عنهم القراءة ، وأدَّى أيضاً إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا ولدوا وتعلموا اختاروا القراءة به . وهذا باطل ؟ إذ طريق أخذ القراءة أن تؤخذ عن إمام ثقة ، لفظاً عن لفظ ، إماماً عن إمام . إلى أن يتصل بالنبي ﷺ » اهـ .

المبحث السابع

في المسكى والمدنى من القرآن الكريم

ليس من غرضنا في هذا المبحث أن نستقصي بالتفصيل والتدليل آيات القرآن الكريم وسوره . وأن نحقق ما كان منها مكياً وما كان مدنياً ، فتلك محاولة كبيرة جديدة أن تفرد بالتأليف ، وقد أفردها فملاً بالتأليف جماعة ، منهم مكى والعز الدرينى .

ولكن حسبنا هنا أن نتكلم على الاصطلاحات في معنى المسكى والمدنى ، وعلى فائدة العلم بالمسكى والمدنى ، وعلى الطريق الموصلة إليه ، وعلى الضوابط التى يعرف بها ، وعلى السور المسكية والمدنية والختلف فيها ، وعلى أنواع السور المسكية والمدنية ، وعلى أوجه تتعلق بالمسكى والمدنى ، وعلى فروق أخرى بين المسكى والمدنى صيغت من بعضها مطاعن في القرآن ، وعلى دفع تلك المطاعن ونقضها .

١ - الاصطلاحات في معنى المكي والمدني

للعلماء في معنى المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات :

(الأول) أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة . ويدخل في مكة ضواحيها كالمنازل على النبي ﷺ بمكة وعَرَقات والحَدِيدِيَّة . ويدخل في المدينة ضواحيها أيضاً كالمنازل عليه في بدرٍ وأُحُد . وهذا التقسيم لوحظ فيه مكان النزول كما ترى . لكن يرد عليه أنه غير ضابط ولا حاصر ، لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما كقوله سبحانه في سورة التوبة : « لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ » الخ فإنها نزلت بِتَبُوكَ ، وقوله سبحانه في سورة الزخرف « وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا » الخ فإنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء . ولا ريب أن عدم الضبط في التقسيم يترك واسطة لا تدخل فيما يُذكر من الأقسام ، وذلك عَيْبٌ يَحِلُّ بالمقصود الأول من التقسيم ، وهو الضبط والحصر .

(الاصطلاح الثاني) أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة . وعليه يحمل قول من قال : إن ما صدر في القرآن بلفظ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » فهو مكي ؛ وما صدر فيه بلفظ « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فهو مدني ؛ لأن الكفر كان غالباً على أهل مكة فنخطبوا بآيائها للناس ، وإن كان غيرهم داخلًا فيهم . ولأن الإيمان كان غالباً على أهل المدينة ، فنخطبوا بآيائها للذين آمنوا ، وإن كان غيرهم داخلًا فيهم أيضاً . وألحق بعضهم صيغة يا بني آدم بصيغة يا أيها الناس . أخرج أبو عبيد في فضائل القرآن عن ميمون ابن مهران قال : « ما كان في القرآن يا أيها الناس ، أو يا بني آدم ، فإنه مكي ، وما كان بآيائها للذين آمنوا ، فإنه مدني » .

وهذا التقسيم لوحظ فيه المخاطبون كما ترى، لكن يرد عليه أمران: أحدهما ماورد على سابقه من أنه غير ضابط ولا حاصر، فإن في القرآن ما نزل غير مصدر بأحدهما نحو قوله سبحانه في فاتحة سورة الأحزاب: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ» الخ، ونحو قوله سبحانه في فاتحة سورة المنافقين: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ» الخ.

(ثانيهما أن هذا التقسيم غير مطرد في جميع موارد الصيغتين المذكورتين، بل إن هناك آيات مدنية صُدَّرت بصيغة «يَا أَيُّهَا النَّاسُ»، وهناك آيات مكية صُدَّرت بصيغة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا». مثال الأولى سورة النساء، فإنها مدنية وأولها «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ»، وكذلك سورة البقرة مدنية وفيها «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ». ومثال الثانية سورة الحج فإنها مكية مع أن في أواخرها «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرِزْ كَعُوا وَأَسْجُدُوا» الخ.

قال بعضهم: «هذا القول إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر، فإن سورة البقرة مدنية وفيها «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ» إلى آخر ما ذكرناه أمامك. غير أنه قال أخيراً ما نصه: «فإن أريد أن الغالب كذلك فصحيح».

أقول: ولكن صحة الكلام في ذاته لا تسوغ صحة التقسيم، فإن من شأن التقسيم السليم أن يكون ضابطاً حاصراً، وأن يكون مطرداً. وقيد الغالبية المراد، لا يحقق الضبط والحصر وإن حقق الاطراد، فيبقى التقسيم معيباً. على أنهم قالوا: المراد لا يرفع الإيراد. (الاصطلاح الثالث) وهو المشهور: أن المكي ما نزل قبل هجرته ﷺ إلى المدينة، وإن كان نزوله بغير مكة، والمدي ما نزل بعد هذه الهجرة وإن كان نزوله بمكة.

وهذا التقسيم كما ترى لوحظ فيه زمن النزول، وهو تقسيم صحيح سليم، لأنه ضابط حاصر ومطرد لا يختلف، بخلاف سابقه، ولذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم. وعليه الآية: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

الْإِسْلَامَ دِينًا « مدنية ، مع أنها نزلت يوم الجمعة بمعرفة في حجة الوداع . وكذلك آية « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » فإنها مدنية مع أنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم . وقل مثل ذلك فيما نزل بأسفاره عليه الصلاة والسلام كفاتحة سورة الأنفال وقد نزلت ببدر ، فإنها مدنية لا مكية على هذا الاصطلاح المشهور .

٢ — فائدة العلم بالمكي والمدني

من فوائد العلم بالمكي والمدني تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيات أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد ، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفاً للحكم في غيرها ، ثم عُرف أن بعضها مكي وبعضها مدني ، فإننا نحكم بأن المدني منها ناسخ للمكي نظراً إلى تأخر المدني عن المكي .

ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام ، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد . وسيتقبلك في هذا المبحث فروق بين المكي والمدني تلاحظ فيها جلال هذه الحكمة .

ومن فوائده أيضاً الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغير والتخريف . ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام حتى ليعرفون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها ، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر ؛ وما نزل بالنهار وما نزل بالليل ، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف ، وما نزل بالأرض وما نزل بالسما ، إلى غير ذلك . فلا يقل بعد هذا أن يسكتوا ويتركوا أحداً يشبهه ويعبث به ، وهم المتحمسون لحراسته وحمايته والإحاطة بكل ما يتصل به أو يحتفئ بنزوله إلى هذا الحد !

٣ - الطريق الموصلة إلى معرفة المكي والمدني

لا سبيل إلى معرفة المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك ؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ بيان للمكي والمدني . وذلك لأن المسلمين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان ، كيف وهم يشاهدون الوحي والتنزيل ، ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله عياناً . « وليس بعد العيان بيان » .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « والله الذي لا إله غيره ، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبليغه الإبل لركبته إليه » . وقال أيوب : سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال : « نزلت في سفح ذلك الجبل » وأشار إلى سلع ١ .

ولعل هذا التوجيه الذي ذكرته أولى مما ذكره القاضي أبو بكر في الانتصار ، إذ يقول ما نصه : « ولم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول ، لأنه لم يأمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ النسخ والنسوخ ، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول » ١ .

٤ - الضوابط التي يعرف بها

المكي والمدني

قد عرفنا فيما مضى أن مراد العلم بالمكي والمدني هو السماع عن طريق الصحابة والتابعين ، بيد أن هناك علامات وضوابط يعرف بها المكي والمدني . وهما ضوابط المكي :

١ - كل سورة فيها لفظ « كلا » فهي مكية . وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثاً

وثلاثين مرة ، في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن . قال الدربني رحمه الله :

« وَمَا نَزَلَتْ كَلًّا بِيَثْرَبَ فَأَعْلَمَنْ وَلَمْ تَأْتِ فِي الْقُرْآنِ فِي نِصْفِهِ الْأَعْلَى »
قال العاني : « وحكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة ، وأكثرها جبارة ، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول . وما نزل منه في اليهود لم يحتاج إلى إيرادها فيه لذاتهم وضعفهم » . هـ .

٢ - كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية .
٣ - كل سورة في أولها حروف التهجّي فهي مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع . وفي الرد خلاف .

٤ - كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى البقرة .
٥ - كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة أيضاً .
٦ - كل سورة فيها بأياها الناس وليس فيها بأياها الذين آمنوا فهي مكية ، ولكنه ورد على هذا ما تقدّم بين يديك من سورة الحج .

٧ - كل سورة من المفصل فهي مكية . أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : « نزل المفصل بمكة ، فكثنا حججاً نقرؤه ولا ينزل غيره » لكن يرد على هذا أن بعض سور المفصل مدني نزل بعد الهجرة اتفاقاً كسورة النصر ، فإنها كانت من أواخر ما نزل بعد الهجرة ، بل قيل إنها آخر ما نزل ، كما سبق في مبحث أول ما نزل وآخر ما نزل . فلا ولى أن يحمل كلام ابن مسعود هذا على السكثرة الغالبة من سور المفصل ، لا على جميع سور المفصل . والمفصل على وزان معظم : هو السورة الأخيرة من القرآن الكريم مُبتدأة من

سورة الحجرات على الأصح. وسميت بذلك لكثره الفصل فيها بين السور بعضها وبعض من أجل قصرها. وقيل : سميت بذلك لقلة المنسوخ فيها ، فقولها قول فصل : لانسخ فيه ولا تقض .

أما ضوابط المدني : فكما يأتي :

١ - كل سورة فيها الحدود والفرائض فهي مدنية .

٢ - كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد فهي مدنية .

٣ - كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ماعدا سورة العنكبوت. والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ماعدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها، فإنها مدنية. وهي التي ذكر فيها المنافقون .

٥ - السور المكية والمدنية والمختلف فيها

نقل السيوطي في الإتقان أقوالاً كثيرة في تعيين السور المكية والمدنية ، من أوقفها ما ذكره أبو الحسن الحصار في كتابه الناسخ والمنسوخ إذ يقول :

« للمدني باتفاق عشرون سورة ، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة ، وماعدا ذلك مكي باتفاق » ثم نظم في ذلك أبياتاً رقيقة جامعة ، وهو يريد بالسور العشرين المدنية بالاتفاق : سورة البقرة وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والجمعة ، والمنافقين ، والطلاق ، والتحریم ، والنصر .

ويريد بالسور الاثنتي عشرة المختلف فيها : سورة الفاتحة ، والرعد ، والرحمن ، والصف ، والتغابن ، والتطويق ، والقدر ، ولم يكن ، وإذا زلزلت ، والإخلاص ، والمعوذتين .

ويريد بالسور المكية باتفاق ما عدا ذلك وهي اثنتان وثمانون سورة . وإلى هذا القسم المكي يشير في منظومته بقوله :

« وما سوى ذاك مكيٌّ تنزُّلهُ فلا تكن من خلاف الناس في حَصْرِه
فليس كلُّ خلافٍ جاء معتبراً إلا خلافٌ له حظٌّ من النظرِ »
وقد جرى هذا البيت مجرى الأمثال عند أهل العلم .

٦- أنواع السور المكية والمدنية

قد تكون السورة كلها مكية ، وقد تكون كلها مدنية ، وقد تكون السورة مكية ما عدا آيات منها ، وقد تكون مدنية ما عدا آيات منها ، فذلك أربعة أنواع :
مثال النوع الأول سورة المدثر فإنها كلها مكية . ومثال الثاني سورة آل عمران فإنها كلها مدنية ، ومثال الثالث سورة الأعراف فإنها مكية . ما عدا آية « وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ » قاله قتادة . واستثنى غيره هذه الآية المذكورة وما بعدها من الآيات إلى قوله سبحانه : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ » وقال : إن تلك الآيات مدنية . ومثال النوع الرابع سورة الحج فإنها مدنية ما عدا أربع آيات منها ، بتبدىء بقوله سبحانه « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى » إلى قوله « عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ » .

واعلم أن وصف السورة بأنها مكية أو مدنية ، يكون تبعاً لما يغلب فيها ، أو تبعاً لفتحها ، فقد ورد أنه إذا نزلت فاتحة سورة بمكة مثلاً كتبت مكية ، ثم يزيد الله فيها ما يشاء . ولعل الأنسب بالاصطلاح المشهور في معنى المكي والمدني أن يقال : إذا نزلت فاتحة سورة قبل الهجرة كتبت مكية ، وإذا نزلت فاتحة سورة بعد الهجرة كتبت مدنية ثم يذكر المستثنى من تلك السور إن كان هناك استثناء فيقال : سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية ، أو سورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية أو نحو ذلك ، كما تراه في كثير من المصاحف عنواناً للسورة .

وقد بذل العلماء همة جبارة في استقصاء حال ما نزل من السور والآيات حتى لقد قال أبو القاسم النيسابوري في كتاب التنبية على فضل علوم القرآن مانصه : « من أشرف علوم القرآن ، علم نزوله ، وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة ، وما نزل بمكة وحكمه مدني ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي ، وما نزل بمكة في أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة في أهل مكة ، وما يشبه نزول المكّي في المدني ، وما يشبه نزول المدني في المكّي ، وما نزل بالحققة ، وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف وما نزل بالحدّية ، وما نزل ليلا ، وما نزل نهاراً ، وما نزل مشيماً ، وما نزل مفرداً ، والآيات اللدنيات في السور المكّية ، والآيات المكّيات في السور المدنيّة ، وما حل من مكة إلى المدينة ، وما حل من المدينة إلى مكة ، وما حل من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل مجلّلاً ، وما نزل مفسّراً ، وما اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : مكّي وبعضهم مدني ، فهذه خمسة وعشرون وجهاً ، من لم يعرفها ويميّز بينها لم يحلّ له أن يتكلم في كتاب الله تعالى » اهـ .

قال السيوطي بعد أن أورد هذا : وقد أشبعت الكلام على هذه الأوجه ، فمنها ما أفردته بنوع ، ومنها ما تكلمت عليه في ضمن بعض الأنواع . اهـ وجزام الله أحسن الجزاء .

وَجُوهٌ تَتَعَلَّقُ بِالْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ

نَبَهَ السيوطي عند كلامه في هذا البحث إلى أن هناك وجوهاً في المكّي والمدني - منها ما تستطيع أن تفهمه مما قصصناه عليك آنفاً . ومنها ما يشبه تنزيل المدني في السور المكّية ، في قوله تعالى في سورة النجم : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّعَمَ » قال السيوطي في توجيهه ما نصه : « فإن الفواحش كل ذنب فيه حدّ ، والكبائر كل ذنب عاقبته النار ، واللّعَم ما بين الحدّين من الذنوب ، ولم يكن بمكة حدّ ولا نحوه » اهـ . لكن فيه نظر من وجهين : (أحدهما) أن تفسير الفواحش بما ذكر غير متفق عليه ،

بل فسرها غيره بأنها الكبائر مطلقاً . وفسرها آخر بما يكبر عقابه دون تخصيص بمحد .
وفسرها السيوطي نفسه في سورة الأنعام بأنها الكبائر . (والثاني) أن بعضهم يستثنى
هذه الآية من سورة النجم المكية ، وينص على أنها مدنية .

ومنها : ما يشبه تنزيل المكي في السور المدنية ، نحو سورة « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » ،
وكقوله سبحانه في سورة الأنفال المدنية : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ
مِنْ عِنْدِكَ » الخ . وفي هذا نظر أيضاً ؛ فإن المعروف أن سورة « والعاديات » من
السور المكية كما سبق ، وأن آية « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ » الخ منصوص على أنها نزلت
بمكة ، كما نقل السيوطي نفسه عن مقاتل ، وقال : إنها مُسْتَثْنَاةٌ من سورة الأنفال المدنية .
بل نص بعضهم على أن هذه الآية مع آيتين قبلها وأربع بعدها كلها مكيات مستثنيات
من سورة الأنفال المدنية .

ومنها : ما حُجِّلَ من مكة إلى المدينة ، نحو سورة يوسف وسورة الإخلاص وسورة سبح .

ومنها : ما حُجِّلَ من المدينة إلى مكة ، نحو آية الرأ في سورة البقرة المدنية ، وصدر

سورة التوبة المدنية .

ومنها : ما حُجِّلَ إلى الحبشة نحو سورة مريم ، فقد صحَّ أن جعفر بن أبي طالب

قرأها على النجاشي .

ومنها : ما حُجِّلَ إلى الروم كقوله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران : « قُلْ

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » الآية .

وأنت خبير بأن الاصطلاح المشهور في المكي والمدني ينتظم كل ما نزل سواء أكان

بمكة والمدينة ، أم بغيرهما كالجعدة ، والطائف ، وبيت المقدس ، والحديبية ، ومِنَى ،

وعرفات ، وعُسفان ، وتَبُوك ، وبدر ، وأحُد ، وحراء ، وحراء الأسد . وتفصيل ذلك

يخرج بنا إلى حدِّ الإطالة ، فناهيك ما ذكرنا . « والليِّب تكفيه الإشارة » .

فروق أخرى بين المكي والمدني

توجد فروق أخرى بين المكي والمدني، غير ما قد مناه في ضوابطهما وهذه الفروق فيها دقة عن تلك، لتعلقها في مجموعها بأمور معنوية وبلاغية. ثم إن أعداء الإسلام قد صاغوا عن طريق بعضها شبهات سددوا سهامها إلى القرآن الكريم لذلك أفردناها بعنوان، توطئة لنقض تلك الشبهات « وَقَبْلَ الرَّمْيِ يُرَاشُ السَّهْمُ ».

ونذكر من خواص القسم المكي أنه قد كثر فيه ما يأتي :

(أولاً) أنه حمل حلة شعواء على الشرك والوثنية، وعلى الشبهات التي تدرع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية، ودخل عليهم من كل باب، وأتام بكل دليل، وحاكهم إلى الحس، وضرب لهم أبلغ الأمثال، حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة الزيفة لا تقدر أن تخلق مجتمعة أقل نوع من الذباب، بل لا يستطيع أن تدفع عن نفسها شر عادية الذباب، وقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ . إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ »

ولما عاندوا واحتجوا بما كان عليه آباؤهم، نعى عليهم أن يمتنعوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من الذلة للأحجار والأصنام، وسفه أحلامهم وأحلام آباؤهم الذين أهملوا النظر في أنفسهم وفي آيات الله في الآفاق، وقبح إليهم الجود على هذا التقليد الأعشى للآباء والأجداد « أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَسْتَقْدُونَ ». وناقشهم كذلك في عقائدهم الضالة التي نجمت عن تلك الوثنية من جُحود الإلهيات والنبوءات، وإنكار البعث والمسئولية والجزاء.

(ثانياً) أنه فتح عيونهم على مافى أنفسهم من شواهد الحق، وعلى مافى الكون من أعلام الرشد، وأنوع لهم في الأدلة وتقنن في الأساليب، وقاضاهم إلى الأوليات

والمشاهدات ، ثم قادم من وراء ذلك قيادة راشدة حكيمة ، إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته ، والإيمان بالبعث ومسئوليته ، والجزاء العادل ودقيقته ، ثم التسليم بالوحي وبكل ما جاء به الوحي من هدى الله في الإلهيات والنبوءات والسمعيات في العقائد على سواء .

(ثالثاً) أنه تحدث عن عاداتهم القبيحة ، كالقتل ، وسفك الدماء ، ووأد البنات ، واستباحة الأعراض ، وأكل مال الأيتام . فلقت أنظارهم إلى مافى ذلك من أخطار ، وما زال بهم حتى طهرهم منها ، ونجح في إبعادهم عنها .

(رابعاً) أنه شرح لهم أصول الأخلاق ، وحقوق الاجتماع ، شرحاً مجيباً كرمه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وفوضى الجهل ، وجفاء الطبع ، وقذارة القلب ، وخشونة اللفظ ، وجبب إليهم الإيمان والطاعة ، والنظام ، والعلم ، والمحبة ، والرحمة ، والإخلاص ، واحترام الغير ، وبر الوالدين ، وإكرام الجار ، وطهارة القلوب ، ونظافة الألسنة ، إلى غير ذلك .

(خامساً) أنه قصّ عليهم من أنباء الرسل وأممهم السابقة ، مافيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر ، من تقرير سُنَّته تعالى الكونية في إهلاك أهل الكفر والظلم ، وانتصار أهل الإيمان والإحسان ، مهما ظالت الأيام وامتدَّ الزمان ، ماداموا قائمين بنصرة الحق وتأييد الإيمان .

(سادساً) أنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه ، حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات ، صغيرة الشُّور . لأنهم كانوا أهل فصاحة ولسن ، صناعتهم الكلام ، واهتمامهم البيان ؛ فيناسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطناب .

كما أن قانون الحكمة العالية ، قضى بأن يسلك سبيل التدرُّج والارتقاء في تربية الأفراد ، وأن يقدم الأهم على المهم . ولا ريب أن العقائد والأخلاق والعادات ،

أهم من ضروب العبادات ودقائق المعاملات ، لأن الأولى كالأصول بالنسبة للثانية ؛ لذلك
كثُر في القسم المسمى التحدث عنها والعناية بها كما علمت في الخواص الماضية جرياً على
سنة التدرج من ناحية ، وتقديم الأهم على المهم من ناحية أخرى .
أما خواص القسم المدني ، فذكر منها أنه قد كثر فيه ما يأتي :

(أولاً) التحدث عن دقائق التشريع ، وتفاصيل الأحكام ، وأنواع القوانين المدنية
والجنائية والحربية والاجتماعية والدولية ، والحقوق الشخصية ، وسائر ضروب العبادات
والمعاملات . انظر - إن شئت - في سورة البقرة والنساء والمائدة والأنفال والقتال والفتح
والحجرات ونحوها .

(ثانياً) دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام ، ومناقشتهم
في عقائدهم الباطلة ، وبيان جنائياتهم على الحق ، وتحريفهم لكتب الله ، ومحاكمتهم
إلى العقل والتاريخ . اقرأ - إن شئت - سورة البقرة وآل عمران والمائدة والفتح
ونحوها .

(ثالثاً) سلوك الإطّباب والتطويل في آياته وسوره . وذلك لأن أهل المدينة
لم يكونوا يضايقون أهل مكة في الله كاه والألمية وطول الباع في باحات الفصاحة والبيان ؛
فينا سبهم الشرح والإيضاح ، وذلك يستمتع كثيراً من البسط والإسهاب ؛ لأن دستور
البلاغة لا يقوم إلا على رعاية مقتضيات الأحوال ، وخطاب الأغبياء بغير ما يُخاطب به
الأذكياء . « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

نقض الشبهات التي أُثيرت

حول هذا الموضوع

قلنا ونقول : إن أعداء الإسلام كثيرون ، وإنهم يتربصون به الدوائر ، وينتهزون كل فرصة ليسدّوا إليه سهام المطاعن . وإن من واجبنا أن نحْمِي العَرِيين ونقوم بواجب الدفاع في هذا الممعان ، ولن يتسنى ذلك إلا إذا تسلّحنا بجميع الأسلحة ، وفي مقدمتها دراسة تلك الشبهات التي يحرقون بخورها في مصر وغير مصر حتى إشبا بنا المتعلم ، في بعض الدروس والكتب التي يزعمون أنها أدبية . وقد شهدت مصر وقتاً ما معركةً حامية الوطيس دارت رحاها حول أمثال هذه الشبهات التي نسوقها إليك ، فافتحْهَا عَنَوَةً ، وخُذْهَا بِقُوَّة . ولا حول ولا قوة إلا بالله . وما أجل أن نردّد قول الشاعر :

« أَنَا لَا أَلُومُ الْمُسْتَبِدَّ دَ إِذَا نَعَنْتَ أَوْ تَعَدَّى
فَسَبِيلُهُ أَنَّ يَسْتَبِدَّ دَ وَشَأْنُنَا أَنْ نَسْتَعِدَّ »

الشبهة الأولى وفي طيها شبهات

يقولون : إن الباحث الناقد ، يلاحظ أن في القرآن أسلوبيين متعارضين ، لا تربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة ، وتأثر ببنيات متباينة ؛ فنرى أن القسم المكي منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة ، كما نشاهد القسم المدني منه تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة . فالقسم المكي يتفرد بالعنف والشدة ، والقسوة والحدة ، والفضب ، والسياب ، والوعيد والتهديد مثل سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » وسورة « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ » وسورة « أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُفْرُ ، ومثل « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِمٌ صَادٍ » .

والجواب : أن هذه الشبهة تتألف من شبهات أربع ، وإن شئت فقل : تتألف من مقدّمات ثلاث كواذب ، تتأدّى ، أو يريد صاحبها أن يتأدّى بها إلى نتيجة هي الأخرى كاذبة .

فأما المقدّمات الثلاث الكواذب فهي أن القسم المكي تفرد بالعنف والشدة ، وأن فيه سباباً وإقذاعاً ، وأنه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة . وأما النتيجة أو الهدف الذي يرمى إليه فهو أن القرآن مفكّكُ الأجزاء ، غير متصل الحلقات ، وأنه خاضعٌ للظروف ، متأثرٌ بالبيئة .

وغرضهم من هذا معروفٌ طبعاً ، وهو أن القرآن ليس كلام الله وليس معجزاً إنما هو كلام محمد الذي تأثر أولاً بأهل مكة فكان كلامه خشناً بعيداً عن المعارف العالية التي اكتسبها من أهل الكتاب في المدينة .

ذلك كله ما يجب أن نحمل عليه انتقاد أولئك المضللين ، فإن قرينة عداوتهم للحق

وخصوصتهم للإسلام ، ونقدمهم للقرآن ، تبعاً كلامهم عن كل تأويل حسن ، ونحمله على أسوأ فروضه .

ولذات لك على بيان هذه الشبهة من القواعد ، لتعلم إغراقها في البطلان وإغراق ذويها في الكذب والإسفاف .

(١) - فأما قولهم : إن القسم المكي قد تفرّد بالعرف والشدة فينقضه أن في القسم المدني شدة وعنفاً ، فدعوى تفرّد القسم المكي بذلك باطلة ، قال تعالى في سورة البقرة وهي مدنية : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْخِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » وقال فيها أيضاً « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ آثَرًا لِبَنَاتِهِمْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » وقال فيها أيضاً : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » .

وقال سبحانه في سورة آل عمران - وهي مدنية كذلك - « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ . كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَابُونَ وَمُخْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » .

ولمّا اشتمل القرآن الكريم بقسميه المكي والمدني على الشدة والعنف ، لأن ضرورة التربية الرشيدة ، في إصلاح الأفراد والشعوب ، وسياسة الأمم والدول ، تقضي أن يمزج المصلح في قانون هدايته ، بين الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، والشدة واللين .

ثم إن دعواهم أفراد المكي بالعنف والشدة ، يفهم منه دعوى أفراد المدني

بالذين والصفح ، ودعوى خلواً المكي من ذلك الدين والصفح. وهذا المفهوم باطل كمنطوقه
أيضاً. ودليل ذلك أن بين السور المكية آيات كريمة تفيض لبناً وصفحاً، وتقطر سماحةً
وعفواً ، بل تنادى أن تقابل السيئة بالحسنة ، كما في قوله سبحانه في سورة فصلت المكية:
« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .
وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلْقَاها إِلَّا
ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . »

وكافي قوله سبحانه من سورة الشورى المكية : « فَمَا أَوْفَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .
وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِنَّمِ وَالْفَوَاحِشِ . وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . وَالَّذِينَ
اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ وَتَمَرَّقُوا نَاهُمْ يُنْفِقُونَ .
وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ
مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
الْأُمُورِ . »

وكذلك قوله سبحانه في سورة الحجر المكية : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ
وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » : إلى آخر السورة . ومثله قول الله جلَّ قدرته في سورة
الزمر المكية : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ،
إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . »

(٢) وأما زعمهم أن في القسم المسمى سبأ، ويريدون من السبب معناه المعروف عندهم من الفجة والبذاءة، والخروج عن حدود الأدب واللياقة، فقد «كثرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا». ونحن نتحدثهم أن باتوا بمثال واحد في القرآن كله، مكية ومدنية، يكون من هذا اللون القذر الرخيص. وهل يعقل أن القرآن الذي جاء يعلم الناس أصول الآداب، يخرج هو عن أصول الآداب إلى السباب؟ كيف وقد حرم على أتباعه المسلمين أن يسبوا أعداءه المشركين؟ فقال في سورة الأنعام: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ».

نعم إن في القرآن كله لا في القسم المسمى وحده تسفيها لأحلام المتنطعين، الذين يَصْمُونَ آذَانَهُمْ، ويفمضون أعينهم عن الحق، ويهملون الحجج والبراهين، وهو في ذلك شديد عنيف، بيد أنه في شدته وعنفه، لم يخرج عن جادة الأدب، ولم يعقل عن سنن الحق، ولم يصدف عن سبيل الحكمة. بل الحكمة تقتضاه أن يشتد مع هؤلاء، لأنهم يستحقون الشدة، ومن مصلحتهم، هم، ومن الرحمة بهم، والخير لهم، أن يشتد عليهم ليزعوا عن باطلهم، وبصيحوا إلى صوت الحق والرشد، ويسيروا على هدى الدليل والحجة، على حد قول القائل:

«فقسا ليزدجروا. ومن بك حازما فليقس أحيانا على من يرحم»
أضف إلى ذلك أن هذا التفريع الحكيم تجده في السور المدنية، كما تجده في السور المكية. وإن كان في المكي أكثر من المدني، لأن أهل مكة كانوا أشد العارضة، صغاب المرائي، مسرفين في العناد والإباء، لم يتركوا بابا من الشر إلا دخلوه على الرسول وأصحابه، ولم يكفهم أن يخرج من بلده وأهله ليل، بل وجهوا إليه الأذى في مهاجره.

والشاهد على أن في السور المدنية تنويماً عنيماً أيضاً عند للناسبات قوله سبحانه
من سورة البقرة للندنية في شأن المشركين: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ
أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ
غِشَاوَةً وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» وقوله من سورة البقرة أيضاً في شأن المنافقين «وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» إلى تمام ثلاث عشرة آية مليئة
بالتوبيخ والتمغيف لتلك الحشرات الآدمية ، الذين ينفثون سموهم ، ويفسدون
الاجتمع بسلاحٍ خطير ذي حدّين هو سلاح النفاق والذبذبة . وكذلك تقرأ في هذه
السورة المدنية نفسها في شأن اليهود آيات كثيرة من هذا الطراز، تنقدّم وتنمى جرائعهم،
وتحملي عليهم حملة شعواء ، تقبيحاً لجناياتهم وجنايات آبائهم من قبلهم . مثل قوله
سبحانه: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلِ مِنَ النَّاسِ
وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » ومثل
قوله «بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ » .
ومثل قوله تعالى في شأن النصارى من سورة آل عمران : «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى
إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ
فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ
مِنْ نَاصِرِينَ » الخ . وقوله فيهم أيضاً من هذه السورة : «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ
إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَرْذَلُوا كُفْرًا أَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ » الخ .

أما السور والآيات التي اعتمدت عليها الشبهة ، فلا تدلُّ على ذلك السباب الذي زعموه ووصموا به القرآن الكريم ، لأن سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » غاية ما اشتملت عليه أنها إنذارٌ ووعدٌ لأبي لهب وامراته ، جزاء ما أساء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه ، كما يدلُّ على ذلك سبب نزولها : أخرج الإمام أحمد والشيخان والترمذى عن ابن عباس قال : لما نزلت « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى : يا بنى فهر يا بنى عدى ، لبطون قريش حتى اجتمعوا . فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدق ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد . فقال أبو لهب : تباً لك ، ألهذا جمعتمنا ؟ فنزلت .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن زيد أن امرأة أبي لهب كانت تأتي بأغصان الشوك تطرحها بالليل في طريق الرسول صلى الله عليه وسلم . وروى عن مجاهد أنها كانت تمشي بالنميمة .

فهذه الأسباب محتمة تفيد أن السورة نزلت لمقابلة أبي لهب بما يستحق من إنذاره بالهلاك والقطيعة ، وأن ماله لا ينفعه ولا كسبه ، وأنه خاسر هو وامراته ، وأن مصيرهما إلى النار وبئس القرار .

ولا ريب أن في هذا الوعيد العنيف ردعاً له ولأمثاله ، وتسلية لمن أصيب بأذى من الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وذلك هو اللائق بالعدالة الإلهية ، والتربية الحكيمة الربانية .

« ووضعُ الندى في موضعِ السيفِ بالعلَّاءِ

مضرٌ كوضعِ السيفِ في موضعِ الندى »

وأما سورة « والعصر » فليس فيها سباب ولا ما يشبه السباب . وكل ما عرضت له

أنها جعلت الناس قسمين : قسمًا غريقًا في الخسران ، وقسمًا فاز ونجا من هذا الخسران ، وهم الذين جمعوا عناصر السعادة الأربعة . اقرأ قوله سبحانه : « وَالْمَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ » فهل ترى فيها ظلال السباب والإقذاع ؟ ولكن القوم لا يستمعون ! .

وأما سورة « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ » : فبلغ ما نشير إليه ، أن المخاطبين شغلهم الدنيا عن الدين ، وأنهم الأموال عن رب الأموال ، حتى انتهت أعمارهم وهم على هذه الحال . وَغَدَا يُسْأَلُونَ عَنْ هَذَا النِّعَمِ ، وَيُعَاقِبُونَ عَلَى إِهْمَالِ شُكْرِهٖ بِعَذَابِ الْجَحِيمِ .

وأما قوله سبحانه : « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » ، فهو حكاية لما حلَّ بالأمم السابقة كشمود وعادي ، حين طعنوا في البلاد ، فأكثر وافيهما الفساد ، ليكون من هذا القصص والخبر ، عبرةً لأولئك الكفار ومُزْدَجَرٍ ، فلا يقنوا فيما وقع فيه أسلافهم ، لأنَّ سُنَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ فِي الْأُمَمِ ، وميزان عدالته قائم في كل جيل وقبيل . « أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ ، أَمْ لَكُمْ رَأْيَةٌ فِي الزُّبُرِ »

الخلاصة

والخلاصة أن القرآن كله قام على رعاية حال المخاطبين ، فتارة يشتد وتارة يلين ، تبعًا لما يقتضيه حالهم ، سواء منهم مكثيهم ومدنيهم ، بدليل أنك تجد بين ثنايا السور المسكية والمدنية ، ماهو وعد ووعيد وتسامح وتشديد ، وأخذ ورد ، وجذب وشد ، كما سبق لك في الأمثلة والشواهد الكثيرة . وإذا لوحظ أن أهل مكة كثر خطابهم بالشدَّة والعنف ، فذلك لما مرَدُّوا عليه من أذى الرسول وأصحابه والكيد لهم حتى أخرجوهم من أوطانهم . ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا إليهم الأذى في مهاجرهم .

وكان القرآن في حملته عليهم وعلى أمثالهم بالقول ، بعيداً عن كل معاني السباب والإقذاع، مقدرعاً بالحكمة والأدب الكامل في الإرشاد والاقناع، حاثاً على الصبر والعفو والإحسان ، حتى ليخاطب الله رسوله في سورة الأنعام المكية بقوله : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا وَاحْتِئَتْ أَتَانَهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ . وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَابَهُ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » .

إظاهرة مسكنة

على أننا نلاحظ في آفاق الآيات والسور المكية، ظاهرة باهرة، تسكت كل معانيد ، وتفحم كل مكابر في هذا الموضوع . وهي أن القسم المكي خلا خلوّاً تاماً من تشريع القتال والجهاد والمحاشنة، كما خلت أيامه في مكة على طولها من مقاتلة القوم بمثل ما يأتون من التنكيل والمصاولة ؛ فلم يُسمع للمسلمين فيها صلصلة لسيف ، ولا قعقة ل سلاح ، ولا زحف على عدو . إنما هو الصبر والعفو والحجامة والمحاشنة، بالرغم من إيغال الأعداء في أذاهم ، ولجأهم في عُتُوهم وأسأهم، سباً وطمناً، وقتلاً ونهباً، ومقاطعة ومهاترة، ومصاولة ومكابرة .

(٣) - وأما زعمهم أن القسم المكي يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة فهو مردود عليهم ، باطل من كل باب دخوله ، وعلى أي وجه أرادوه ؛ لأنهم إن أرادوا بذلك ماتوهوه من انفرادة بالشدة والعنف ، أو السباب والإقذاع ، فقد علمت مبلغ

ما فيه من كذب وافتراء وجهالة بما جاء في القرآن من ترغيب وترهيب ، في شطريه المسمى والمدنى على السواء .

وإن أرادوا بامحطاطه الإشارة إلى قصر آياته ، أو إلى خلوه من التشريعات التفصيلية العملية فهذا لا يبدل على الامحطاط ، بل قصر الآيات والخلو من تفاصيل التشريع لها وجه آخر يظهر عند الكلام عليهما في الشبهات الآتية :

وإن أرادوا بما ذكروا أن أهل مكة كانوا منحطين في الفصاحة والبيان والذكاء والألمعية ، فتلك ثلاثة الأتافي ، لأن التاريخ شاهد عدل بأن قريشا كانت في مركز الزعامة من جميع قبائل العرب ، يصدر عن رأيها ، ويرجعون إلى حكمها ، وبأخذون عنها ، ويركبون ظهور الإبل إليها ، وينزلون على قولها فيما يعلو وينزل من منظوم ومنثور ، ويدعون لها بالسبق في مضمار الفصاحة والبلاغة ، والذكاء والألمعية ، والشرف والنبيل . وكان لها هذا الامتياز من قبل الإسلام . ثم دام لها وزاد عليها في الإسلام . واعترف لها به أهل المدينة وغيرهم من عرب وأعجم . ١

ثم إن وصف القسم المسمى بميزات الأوساط المنحطة ، تهمة جريئة وطعنة طائشة ، وأكذوبة مكشوفة ، ما رضيها لأنفسهم أعداء الإسلام في فجر دعوته من مشركين وأهل كتاب ، وعرب وعجم ، وأميين ومتقنين ، على حين أن أولئك العرب كانوا على أميتهم أعرف الناس بامحطاط الكلام ورُقيّه ، وعلوّه ونزوله . كما كانوا أحرص الناس على إخراج محمد ، ودحض حجته ، ونقض دينه ، والقضاء على الإسلام في مهده . ولكن سجيّتهم لم تسمح بهذا الهراء الذي يهزّف به الملاحدة في القسم المسمى من القرآن . بل نعلم بجانب هذا أن القرآن كان له سلطان على نفوسهم إلى حدّ خارق مدّهم ، يقودهم بقوة إلى الإسلام ، ويدفع المعاند منهم إذا استمع إليه أن يسجد لبلاغته ، ويهتزّ لفصاحته ، وأن يأخذ نفسه بالتشاغل عنه مخافة أن يؤمن عن طريق تأثره بسماعه !

وأما زعمهم انقطاع الصلة بين القسم المسمى والمدنى والتعارض بين أسلوبيهما ، فهو زعمٌ ساقطٌ مبنيٌّ على الاعتبارات الخاطئة الماضية التي أثبتنا بطلانها . ثم هو دعوى حاجفة ، يكذبها الواقع ، ويُفَنِّدُها الذوق البلاغيُّ المنصف . وأدُلُّ دليل على ذلك ، أن أساطين البلاغة من أعداء الإسلام في مكة نفسها أيام نزول القرآن لم يستطيعوا أن يتهموا أساليب التنزيل بمثل هذا الاتهام ولا كذباً ، لأنهم كانوا أعقل من ملاحظة اليوم ، يرون أن هذا الاتهام يكون كذباً مكشوفاً وافتراءً مفصوحاً . بل هذا وحيدهم الوليد بن المغيرة يقول للملأ من قريش : « والله لقد سمعتُ من محمدٍ آثاقاً كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنِّ ، إن له الحلاوة ، وإن عليه لطلاوةً ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يُعلى » .

ولما قالت قريش عندئذ : صَبَأً والله الوليد ، واحتالوا عليه أن يطعن في القرآن ، لم يجد حيلة إلا أن يقول : « إن هذا إلا سِحْرٌ يُؤثر » . ولم يستطع أن يرمى القرآن بالتهافت والتخاذل ، وانقطاع الصلة بين أجزائه وانحطاط شيء من أساليبه ، على نحو ما يُرجف أولئك الخِرَاصون . « وَاللَّهُ أَكْلَمُ بِمَا يُكَيِّتُونَ » .

٤ - وإذا بطل هذا وماسبقه ، بطل ما زعموه من تأثير القرآن بالوسط والبيئة ، وما رتبوه عليه من أنه كلام محمد لا كلام رب العزة . ثم إنها اتهامات سخيفة لا تستحق الرد ، مادام إعجاز القرآن قائماً ، يتحدَّى كل جيل وقبيل ، ويُفحِم كل معارض ومكابِر . ولم يبعث إعجاز القرآن مجالاً آخر عسى أن يكون قريباً .

ولولا أن الشبيبة الحاضرة من أنصاف المتعلمين وأشباههم ، ينخدعون بمثل هذه الترهات ، ما أنعَبْنَا أنفسنا في علاجها ولا أنعَبْنَاكَ ، فاصبر معنا على دفع هذا المضاب ، والله يتولى هدايتنا وهداكَ .

الشبهة الثانية

يقولون : إن قصر السور والآيات المكية مع طول السور والآيات المدنية ، يدل على انقطاع الصلة بين القسم المكي والقسم المدني ، ويدل على أن القسم المكي يمتاز بمميزات الأوساط المنحطة ، ويدل على أن القرآن في نمطه هذا نتيجة لتأثر محمد بالوسط والبيئة ، فلما كان في مكة أمياً بين الأميين جاءت سور المكي وآياته قصيرة ، ولما وجد في المدينة بين مثقفين مستنيرين ، جاءت سور المدني وآياته طويلة ، وغرضهم من إلقاء هذه الشبهة التشكيك في أن القرآن من عند الله « يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ ، وَيَأْتِيَ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيمَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ »

وننقض شبهتهم هذه بما يأتي :

أولاً - أن في القسم المكي سوراً طويلة مثل سورة الأنعام ، وفي القسم المدني سوراً قصيرة مثل سورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » فكلامهم لا يسلم على عمومته .

ثانياً - إذا أرادوا الكثرة الغالبة لا الكلية الشاملة فهذا نسله لهم ، بيد أنه لا يدل على ما افتروه ورتبوه عليه ، لأن قصر معظم السور للمكية وآياتها ، وطول معظم السور المدنية وآياتها ، لا يقطع الصلة بين قسمي القرآن : مكيه ومدنيه ، ولا بين سور القرآن وآياته جميعاً . بل الصلة كما يحسنها كل صاحب ذوق في البلاغة ، بحكمة وشائعة بين كافة أجزاء التنزيل . وقد تفنن العلماء وأشبعوا الحديث عن هذه المناسبات في غضون تفسيرهم لكتاب الله . وتقدم تقرير هذا التماسك البارع في صفحة ٨١

على أنك تلاحظ آيات مكية منبثة بين آيات سور مدنية ، وتلاحظ آيات مدنية منبثة بين آيات سور مكية . وبرغم ذلك لا يكاد أحد يحس التفاوت أو التفكك

والانقطاع ، بل يروعك ما بين الجميع من جلال الوحدة ، وكال الاتصال وجمال التناسق والانسجام ، مما يجعل القرآن كله على طوله ، سلسلة واحدة محكمة متصلة الحلقات ، أو عقداً رائعاً أخذاً منتظم الحبات ، أو قانوناً رصيناً مترابط المبادئ والنفائات .

ثالثاً - أن قصر السور والآيات المكية ، لا يدل على مازعوه من امتياز القسم المكي بمميزات الأوساط المنحطة ، بل القصر مظهر الإيجاز ، والإيجاز مظهر رُقِّ الخطاب ، وآية فهمه وذكائه ، بحيث يكفيه من الكلام موجزه ، ومن الخطاب أقصره . أما من كان دونه ذكاء وفهماً ، فلا سبيل إلى إفادته إلا بالإسهاب والبسط ، إن لم يكن بالمساواة والتوسط .

ولهذا المعنى جاء قسم القرآن المكي قصيراً موجزاً في معظمه ، وجاء قسم المدني طويلاً مسهباً في أكثره . ويرجع ذلك إلى ما أشرنا إليه قبلاً من أن القرشيين في مكة كانوا في الذوابة من قبائل العرب ، ذكاء وألمعية وفصاحة وبلاغة ، وشرفاً وشجاعة فلا بدع أن يخاطبهم القرآن بالقصير من سوره وآياته ، رعاية لحق قانون البلاغة والبيان ، في خطاب الذكي النابه ، بغير ما يخاطب به من كان دونه . ولا يقدح في مزايا المكيين هذه أنهم كانوا أميين لم يستفروا بثقافة المدنيين ، فلثقافة والاستنارة ميدان ، ولذكاء والتمهر في البيان ميدان ، وأهل المدينة لم يكونوا على استنارتهم ليبلغوا شأن قرش في تلك الخصائص والمزايا ، وكان منهم أهل كتاب درجوا على ألا يستفيدوا إلا بالتطويل ، ولا يقتنعوا إلا ببسط الكلام .

ومن هنا تعرف مبلغ ما في هذه الشبهة من زيف وكذب فيما رتبوه على هذا من أن القرآن كان نتيجة لتأثر محمد بنحطاط أهل مكة في القسم المكي ، وباستنارة أهل المدينة في القسم المدني ، حتى جاء قرآنه قصيراً في الأول ، طويلاً في الثاني .

رابعاً - أن القرآن قد تحدّى الناس جميعاً مكّيبهم ومدنيهم وعريهم وعجميهم ، أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة من تلك السور القصيرة ، فمجزوا أجمعين ، وأسلم المنصفون منهم لله رب العالمين . فلو كان القصر أثراً للانحطاط كما يقول أولئك المرجفون ، لكان في مقدور المتعاز غير المنحط أن يأتي بمثل ذلك المنحط ، بل بأرق منه « سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » .

وإذا أراد أولئك المتقولون ، أن يملأوا القصر والطول بأن المكى لم يتعرض لتفاصيل التشريع بخلاف المدني ، فإليك هذه الشبهة وتمحيصها فيما يليك .

الشبهة الثالثة

يقولون : إن القسم المكى خلا من التشريع والأحكام ، بينما القسم المدني مشحون بتفاصيل التشريع والأحكام . وذلك يدل على أن القرآن من وضع محمد وتأليفه تبعاً لتأثره بالوسط الذى يعيش فيه ، فهو حين كان بمكة بين الأُميين جاء قرآنه المكى إخالياً من العلوم والمعارف العالية ، ولما حل بالمدينة بين أهل الكتاب المثقفين جاء قرآنه المدني مليئاً بتلك العلوم والمعارف العالية .

وننقض هذه الشبهة : (أولاً) - بأن القسم المكى لم يخلُ جملةً من التشريع والأحكام ، بل عرض لها وجاء عليها ، ولكن بطريقة إجمالية ، فإن مقاصد الدين خمسة : (١) الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره (٢) وحفظ النفس (٣) وحفظ العقل (٤) وحفظ النسل (٥) وحفظ المال . وقد تحدّث القسم المكى عنها إجمالاً . اقرأ إن شئت قوله تعالى من سورة الأنعام المكية « قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » إلى تمام ثلاث آيات بعدها ، جمعت الوصايا العشر لهذه المقاصد الخمسة . ولا يخفى عليك أن آيات العقائد فى القسم المكى ظاهرة واضحة ، وكثيرة شائعة ،

ليست من موضوع الاشتباه ، ولا يختلف اثنان في أنها أكثر من مثيلاتها في السور المدنية بأضعاف الأضعاف .

(ثانياً) - أن كثرة التفاصيل في تشريع الأحكام بالمدينة ، ليس نتيجة لما زعموه . إنما هو أمر لابد منه في سياسة الأمم ، وتربية الشعوب ، وهداية الخلق . ذلك أن الطفرة حليفة الخلية والفشل ، والتدرج حليف التوفيق والنجاح ، وتقديم الأهم على المهم واجب في نظر الحكمة . لهذا بدأ الله عبادته في مكة بما هو أهم : بدأهم بإصلاح القلوب وتطهيرها من الشرك والوثنية وتقويمها بمقائد الإيمان الصحيح والتوحيد الواضح ، حتى إذا استقاموا على هذا المبدأ القويم ، وشعروا بمسئولية البعث والجزاء ، وتقررت فيهم هذه المقائد الراشدة ، فطمهم عن أقبح العادات وأرذل الأخلاق ، وقادهم إلى أصول الآداب وفضائل العادات ، ثم كفهم ما لا بد منه من أمهات العبادات . وهذا ما كان في مكة . ولما امرنوا على ذلك ، وتهيات نفوسهم للترقى والكمال ، بتطاول الأيام والسنين ، وكانوا وقتئذ قد هاجروا إلى المدينة ، جاءهم بتفاصيل التشريع والأحكام ، وأتم عليهم نعمته ببيان دقائق الدين وقوانين الإسلام .

ونظير ذلك ما تواضع عليه الناس قديماً وحديثاً في سياسة التعليم ، من أنهم يلقنون البادئين في مراحل التعليم الأولى أخف المسائل وأجزأها ؛ فيما يشبه قصار السور ، ويختصر القصص ، حتى إذا تقدمت بهم السن وعظم الاستعداد ، تلاطم بحر التعليم وزاد ، على حد قولهم : « الإمداد على قدر الاستعداد » .

أما ما زعموه من أن ذلك كان نتيجة لاختلاط محمد بأهل المدينة المسفنين ؛ فيفقه أن القرآن جاء يصلح عقائد أهل الكتاب وأخطأهم في التشريع وفي التحليل والتحرير ، وفي الأخبار والتواريخ ، فكيف يأخذ المصيب من المخطيء ؟ وهل

بِسْمِ اللَّهِ الْحَيُّ حَيَاتِهِ مِنْ مَيِّتٍ لِمَقْرَأَ إِنْ شئتَ قوله تعالى: « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » الخ . وقوله جل ذِكْرُهُ : « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ؟ » الخ وقوله عز اسمه : « كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ » الخ وهذه الآيات من سورة آل عمران . وقوله تعالت قدرته من سورة المائدة « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ » الخ .

(ثالثاً) أن ما زعموه لو كان صحيحاً ، لظهر أن أهل الكتاب المدينين فيمن معهم من عرب أهل المدينة ، وفيمن حولهم من أهل مكة وآفاق الجزيرة ، ولكانوا هم الآخر ياء بهذه النبوة والرسالة ، ولسبق محمداً إليها كثير غيره من فصحاء العرب وتجار قريش الذين كانوا يختلطون بأهل الكتاب في المدينة والشام أليماً اختلاط .

(رابعاً) أن القرآن تحدى الكافة من مكين ومدينين ، بل من جن وإنس ، فهلاً كان أساتذته أولئك يستطيعون أن يجاروه ولو في مقدار سورة قصيرة واحدة يا لها فرية ! ثم يا لها صفاقة ! .

« هَذَا كَلَامٌ لَهُ خَبِيءٌ مَعْنَاهُ : لَيْسَتْ لَنَا عُقُولُ »

الشبهة الرابعة

يقولون : إن القرآن أقسم كثيراً بالضحى والليل ، والتين والزيتون وطور سينين ، وكثير من الخلوقات . ولاريب أن القسم بالأشياء الحسية ، يدل على تأثر القرآن بالبيئة في مكة ، لأن القوم فيها كانوا أميين ، لا تعدو مداركهم حدود الحسيات . أما بعد الهجرة وانصال محمد بأهل المدينة ، وهم قوم مثقفون مستنبرون ،

فقد تأثر القرآن بهذا الوسط الراقى الجديد ، وخلا من تلك الأيمان الحسية الدالة على البساطة والسذاجة .

وهذه الشبهة مدفوعة « أولاً » : بما قد متنا من أن أهل مكة كانوا أرقى ذوقاً ، وأعلى كعباً ، وأعظم ذكاء ، من أهل المدينة ، وأن الخطاب معهم كان ملحوظاً فيه اشتماله على أسرار وخصائص لا يدركها إلا المتفوقون والمتمهرون في صناعة البيان . فلا يستقيم إذن ما زعموه من أن مدارك أهل مكة كانت لا تمدو حدود الحسيات . والتاريخ خير شاهد ، وأعدل حاكم بامتياز العرب في مكة عن سائر القبائل على عهد نزول القرآن .

(ثانياً أن القسم بالأمور الحسية في القرآن كالضحى والليل ، ليس منشؤه انحطاط القوم كما يزعمون ، إنما منشؤه رعاية مقتضى الحل فيما سبق القسم لأجله ، وذلك أن القرآن كان بصدد علاج أخش العقائد فيهم ، وهي عقيدة الشرك . ولا سبيل إلى استئصال هذه العقيدة ، وإقامة صرح التوحيد على أنقاضها ، إلا بلفت عقولهم إلى مافى السكون من شئون الله وخلق الله ، وإلا بفتح عيونهم على طائفة كبيرة من نعم الخلق المحيطة بهم ، ليصلوا من وراء ذلك إلى أن يؤمنوا بالله وحده ، مادام هو الخالق وحده ، لأنه لا يستحق العبادة عقلاً ، إلا من كان له أثر الخلق في العالم فعلاً . « أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » ؟ .

فعرض بعض المخلوقات على أنظار الجاحدين بالتوحيد ، بعد إقرارهم أن ليس لها خالق إلا الله ، إلزام لهم بطرح الشرك ، وتوحيد الخالق . وهذا مطلق نبيل ، أجاد القرآن في أساليب عرض نعم الله عليهم من أجله ، وكان في إجادته هذه موفقاً على الغاية ، واصللاً إلى قمة الإعجاب كمادته ، متفنناً في ذكر النعم ، متنوعاً في سردها وبيانها . فمرة يتحدث عن خلق السماء ، ومرة عن خلق الأرض ، وثالثة عن أنفسهم ، ورابعة عن أنواع الحيوان والنبات والجناد وهم جراً . وتارة يختار القرآن في عرضه طريقة السرد والشرح ،

وتارة يختار طريقة الحلف والقسم ، لأن في الحلف والقسم معنى العظمة التي أودعها الله في هذه النعم دالة على توحيده وعظمته ، حتى صرح أن يدور القسم عليها ، وأن يحجى الحلف بها .

ومن هنا أقسم الله بما أقسم من الأمور الحسية والمعنوية ، فالأمور الحسية كما ذكرنا ، والمعنوية مثل القرآن الكريم في قوله سبحانه : « وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ليزبهم إلى مدى إنعامه عليهم بتلك الأقسام كلها ، حسيها ومعنويها ، فيردعوا عن شركهم بتلك الآلهة المزيفة التي لا تملك ضراً ولا نفعاً ، وليس لها أي شأن في هذا الخلق . على حد قوله سبحانه في سورة الأحقاف : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ اتَّقُوا نِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ، وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » .

وأنت خير بأن المصاب بداء الشرك لا سبيل إلى إنقاذه منه إلا بمثل هذه الطريقة المثلى ، التي سلكها القرآن بعرض دلائل التوحيد من آيات الله في الآفاق على أنظار المشركين ، وهذا سبيل متعين في خطاب كل مشرك ولو كان واحد الفلاسفة ، ووحيد العباقرة ، وأستاذ المتفكرين والمستنيرين . فحلف القرآن بأمثال هاتيك المخلوقات والحسيات ، ليس دالاً على سذاجة المخاطبين والمخطاطهم ، وليس بالتأني سبيلاً إلى الطعن في القرآن بأنه كلام محمد المتأثر بالمحاطات البيئية المسكية كما يرجفون : « إِنْ هَذَا إِلَّا آخِثَاقٌ » . (ثالثاً) أن في مضامين تلك الأقسام بالحسيات أسراراً تنأى بها عن السذاجة والبساطة وتشهد ببراعة المخاطبين بها وتفوقهم في الفهم والذكاء والفصاحة والبيان .

ذلك أن القسم بها كما قلنا ، إشارة إلى الأسرار العظيمة التي وضعها الله في تلك الأمور التي أقسم بها . حتى صحَّ أن يكون مقسماً بها . وتلك الأسرار لا يذكرها إلا اللبيب ، لأنها غير مشروحة ولا مفسرة في القرآن الكريم ، فلا يفهمها إلا من كمل عقله ، وسلم ذوقه . ولنشرح لك بعض الأسرار ، ليتبين الحال ، ولا يبق للشبهة مجال .

(المثال الأول) أقسم الله سبحانه بالضحى والليل في قوله : « وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * » وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * » وسبب نزول هذه الآيات : أن النبي ﷺ فتر عنه الوحي مرة لا ينزل بقرآن ، فرماه أعداؤه بأن ربه ودعه وقلاه ، أى تركه وأبغضه ، فنزلات هذه الآيات مصدرة بهذا القسم ، مشيرة إلى أن ما كان من سطوع الوحي على قلبه ﷺ بمنزلة الضحى ، تقوى به الحياة ، وتنمى به الناميات ، وما عرض بعد ذلك من فترة الوحي فهو بمنزلة الليل إذا سجد ، لتسترخ فيه القوى وتستعد في النفوس لما يستقبلها من العمل . ومن المعلوم أن النبي ﷺ لاقى من الوحي شدة أول أمره حتى جاء إلى خديجة رضى الله عنها ترجف بوادره ، كما هو معروف في حديث الصحاحين . فكانت فترة الوحي لتثبيتته عليه الصلاة والسلام ، وتقوية نفسه على احتمال ما يتوالى عليه منه حتى تتم به حكمة الله في إرساله إلى الخلق . ولهذا قال له : « وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * » أى إن كررة الوحي ثانياً سيكمل بها الدين ، وتتم بها نعمة الله على أهله ، وأين بداية الوحي من نهايته ؟ وأين إجمال الدين الذي جاء في قوله « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » الخ من تفصيل العقائد والأحكام الذي جاء في مثاني القرآن ؟ ثم زاد الأمر تأكيداً بقوله « وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * » .

فمن هذا نعلم أن الحلف بالضحى والليل في هذا المقام ، ليس مجرد تذكير

بآياته ونعمه فحسب . بل هو أيضاً إقامة دليل على أن تنزل الوحي أشبه بضخوة النهار ، وأن فترة الوحي أشبه بهدأة الليل ، فإذا كانوا يتقبلون الضحى والليل بالرضا والتسليم ، لما فيهما من نفع الإنسان بالسعى والحركة والحياة بالنهار والنوم والاستجمام بالليل ، يجب أن يتقبلوا أيضاً ما يجري على محمد ﷺ من نزول الوحي وفترته للمعنى الذى سلف .

(المثال الثانى) أقسم الله سبحانه بالتين والزيتون فى قوله جل ذكره : «والتين والزيتون وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم» قال العلامة المرجوم الشيخ محمد عبده عند تفسيره لهذه السورة مانصه :

وقد يرجح أهما (أى التين والزيتون) النوعان من الشجر ، ولكن لا لفوائدهما كما ذكرنا ، بل لما يذكّران به من الحوادث العظيمة التى لها الآثار الباقية فى أحوال البشر . قال صاحب هذا القول : إن الله تعالى أراد أن يذكّرنا بأربعة فصول من كتاب الإنسان الطويل ، فإنه كان يستظلّ فى تلك الجنة التى كان فيها بورق التين ، وعندما بدت له ولزوجته سواتهما طافعا يخصفان عليهما من ورق التين . (والزيتون) إشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذريته ، وذلك أنه بعد أن فسد البشر وأهلك من أهلك منه بالطوفان ، ونجى نوح فى سفينته ، واستقرت السفينة ، نظر نوح إلى ما حوله ، فرأى المياه لا تزال تغطي وجه الأرض فأرسل بعض الطيور لعله يأتى إليه بخبر انكشاف الماء عن بعض الأرض فخاب ولم يأت بخبر ، فأرسل طيراً آخر فرجع إليه يحمل ورقة من شجر الزيتون ، فاستبشر وسرّ ، وعرف أن غضب الله قد سكن ، وقد أذن للأرض أن تنمو ، ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشرية العظيمة فى الأرض التى أمحى عمرائها ، فمبعّر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون . والإقسام هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثة وهى من أكبر ما يذكّر من الحوادث .

(وطور سينين) إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية ، وظهور نور التوحيد فى العالم ،

بعد ما تدنست جوارب الأرض بالوثنية، وقد استمر الأنبياء بعد موسى يدعون قومهم إلى التمسك بتلك الشريعة إلى أن كان آخرهم عيسى عليه السلام جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع . ثم طال الأمد على قومه فأصابهم ما أصاب من قبلهم من الاختلاف في الدين، وحجب نوره بالبدع ، وإخطاء معناه بالتأويل ، وإحداث ما ليس منه بسبيل ، فن الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ، ويفصل بين ما سبق من أطوار الإنسانية وبين ما يلحق ، وهو عهد ظهور النور المحمدي من مكة المكرمة . وإليه أشار بذكر البلد الأمين . وعلى هذا القول الذي فصلنا بيانه ، يقناسب القسم والمقسم عليه . اهـ
ما أردنا نقله .

الشبهة الخامسة

يقولون : إن القسم المكي من القرآن قد اشتمل على لغو من الكلام في كثير من فواتح السور مثل « ألم وكهيمص » . وذلك يبطل دعوى للسدين أن القرآن بيان للناس وهدي ، وأنه كلام الله . وأي بيان وأي هدى في قوله (ألم) وقوله (كهيمص) ؟ بل هذه الأحرف وأمثالها في غاية البعد عن الهدي ، بدليل أنه لم يهتد أحد منهم ولا الراسخون في العلم لإدراك معناها ؛ فالخطاب بها كالخطاب بالمهمل ، وإنما هذه الألفاظ من وضع كتبة محمد من اليهود تنبيهاً على انقطاع كلام واستئناف آخر ، وممنها (أو عز إلى محمد) أو (أمرني محمد) يشيرون بذلك إلى براءتهم من الإيمان بما يأمرهم بكتابتها . وقريب من هذا قول بعضهم : إن الحروف العربية غير المفهومة المفتحة بها أوائل بعض السور ، إما أن يكون قصد منها التعمية أو التحويل أو إظهار القرآن في حظه مميّز تخيف ، أو هي رمز للتمييز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً .

وننقض هذه الشبهة بأمور : (أولها) أنه لم يكن للرسول ﷺ كُتُبَةٌ من اليهود أبداً . وها هو التاريخ حاكم عدل لا يرحم ولا يحابي ، فليسالوه إن كانوا صادقين . (ثانيا) أنه لا دليل لهم أيضاً على أن فواتح هذه السور تستعمل في تلك المعاني التي زعموها وهي (أَوْعَزَ إِلَى مُحَمَّد) أو (أَمَرَنِي مُحَمَّد) ، لا عند اليهود ولا عند غيرهم في أية لغة من لغات البشر . (ثالثها) أن اليهود لم يعرف عنهم الطعن في القرآن بمثل هذا . ولو كان هذا مطمئناً عندهم لكانوا أول الناس جهراً به ، وتوجيهها له ، لأنهم كانوا أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، يَتَمَنَوْنَ أن يحدوا في القرآن مغمزاً من أى نوع يكون ، ليهدموا به دعوة الإسلام . كيف وهم يكفرون به حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ؟ (رابعها) أن اشتمال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى لا يناق وصف القرآن بأنه بيان للناس وهدى ورحمة ، فإن هذه الأوصاف يكفي في تحققها ثبوتها للقرآن باعتبار جملته ومجموعه لا باعتبار تفصيله وعمومه الشامل لكل لفظ فيه . ولا ريب أن السكثرة الغامرة في القرآن كلها بيان للتعاليم الإلهية وهداية للخلق إلى الحق ، ورحمة للعالم من وراء تقرير أصول السعادة في الدنيا والآخرة .

وهذا الجواب مبنى على أحد رأيين للعلماء في فواتح تلك السور ، وهو أن المعنى المقصود غير معلوم لنا ، بل هو من الأسرار التي استأثر الله بعلمها ، ولم يطلع عليها أحد من خلقه . وذلك لحكمة من حكمه تعالى السامية وهي ابتلاؤه سبحانه ، وتمحيصه لعباده ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، وصادق الإيمان من المنافق ، بعد أن أقام لهم أعلام بيانه ، ودلائل هدايته ، وشواهد رحمته ، في غير تلك الفواتح من كتابه ، بين آيات وسور كثيرة ، لا تشبه تلك الفواتح في جانبها إلا قطرة من بحر ، أو غيضاً من فيض .

فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذه القوالب حق من عند ربهم ، ولو لم يفهموا معناها ، ولم يدركوا مغزاها ، ثقةً منهم بأنها صادرةٌ من لدن حكيمٍ عليم ، عمّت حكيمته ما خفي وما ظهر من معاني كتابه ، ووسع علمه كل شيء عرفه الخلق أو لم يعرفوه من أسرار تنزيله . « وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » .

« وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زِينَةٌ فَيَسْتَمِعُونَ مَا نَشَأُ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » .

ونظير ذلك أن يكون لك أصدقاء تريد أن تعرفهم أو تعرف منهم مدى صداقتهم لك ، فتبتليهم بأموار يزلُّ عندها الزيفون ، ويظهر الصادقون .

على حد قول القائل : -

وعلى حدِّ المثل القائل : « إِنْ أَخَاكَ مِنْ وَاسَاكَ » .

أَبْلُ الرَّجَالِ إِذَا أَرَدَتْ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّمْنَ فِعَالَهُمْ وَتَقَقَّدَ
فَإِذَا ظَفَرَتْ بِذِي اللَّبَانَةِ وَالتَّقَى فِيمَا يَدَيْنِ قَرِيرٍ عَيْنٍ فَاشْدُدْ

ونظير ذلك أيضاً أن تكون أستاذاً معلماً ، وتريد أن تقف على مدى انتباه

تلاميذك ، ومبلغ تفهم فيك وفي علمك ، بعد أن زودتهم منك بدراسات واسعة وتعاليم واضحة فإنك تختبرهم في بعض الأوقات بكلمات فيها شيء من الإلغاز والخفاء ، ليظهر الذكي من الغبي ، والواق بك الواقك ، من المتشكك فيك المتردد في علمك وفضلك .

فأما الواقك فيك فيعرف أن تلك الألغاز والمعميات ، صدرت عن علم منك بها وإن لم يعلم هو تفسيرها ، ويعرف أن لك حكمة في إيرادها على هذه الصورة من الخلقاء ، وهي الاختبار والابتلاء . وأما المتشكك فيك فيقول : ماذا أراد بهذا ؟ وكيف ساغ له أن يورده ؟ وما مبلغ العلم الذي فيه ؟ ثم ينسى تلك المعارف الواسعة الواضحة التي زودته بها من قبل ذلك ، وكلها من أعلام العلم وآيات الفضل .

ولا يفوتك في هذا المقام أن تعرف أن ابتلاء الله لعباده ليس المراد منه أن يعلم سبحانه ما كان جاهلاً منهم « حاشاه حاشاه » فقد وسع كل شيء علماً . إنما المقصود منه إظهار مكنونات الخلق ، وإقامة الحجج عليهم من أنفسهم ، فلا يتهمون الله في عدله وجزائه ، إذا جعل من الناس أهلاً لثوابه وآخرين لعقابه . « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

(الرأى الثانى فى فواتح السور) أن لما معنى مقصوداً معلوماً . قالوا : لأن القرآن كتاب هداية ، والهداية لا تتحقق إلا بفهم المعنى ، خصوصاً أننا أمرنا بتدبر القرآن والاستنباط منه ، وهذا لا يكون إلا إذا فهم المعنى أيضاً .

غير أن أصحاب هذا الرأى تشعبت أقوالهم فى بيان هذا المعنى المقصود بفواتح تلك السور ، فذهب بعضهم إلى أن فاتحة كل سورة اسم للسورة التى افتتحت بها ، واستدلوا بآثار تفيد ذلك ، منها ما روى عن النبى ﷺ أنه قال « يَسْ قَلْبُ الْقُرْآنِ » وقوله « مَنْ قَرَأَ السَّجْدَةَ حَفِظَ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ » . ومنها اشتهاى بعض السور بالقسمية بها . ثم إن ورودها فى فواتح سور مختلفة بلفظ واحد ، ينافى كونها أسماء للسور . بل شأنها فى ذلك شأن الأعلام المشتركة اشتراكاً لفظياً كلفظ محمد المسيح به أشخاص كثيرون . فيضم إلى اسم كل منهم ما يميز مسماه عن غيره فيقال : محمد المصرى ومحمد الشامى مثلاً . وكذلك فواتح السور يقال فيها : « آلم البقرة وآلم آل عمران وحَمَّ السجدة » ولم جرا .

وبعضهم ذهب إلى أنها أسماء للحروف المجائية التى وضعت بإزائها . وهؤلاء منهم من قال : إن المقصود من ذلك هو إفهام الخطاطبين أن الذى سيقلى عليهم من الكلام الذى عجزوا عن معارضته والإتيان بمثله ، إنما تركب من مثل هذه الحروف التى فى الفواتح ، وهى معروفة لهم ، بتخاطبون بما يدور عليها ولا يخرج عنها .

ومنهم من قال : إن المقصود منها هو الدلالة على انتهاء سورة والشروع في أخرى .
ومنهم من قال : إن المقصود منها القسم بها لإظهار شرفها وفضلها ؛ إذ هي مبنى كتبه
المنزلة . ومنهم من قال : إن المقصود منها بيان نبوة محمد ﷺ من ناحية أنه ينطق
بأسماء الحروف مع أنه أُمِّيُّ لم يقرأ ولم يكتب ، والمعروف أن النطق بأسماء الحروف من
شأن القارئ وحده ، لا سبيل للأُمِّيِّ إلى معرفتها ولا النطق بها ، فإتيانه بها وترديده
لها ، دليلٌ ماديٌّ أمامهم على أنه لا يأتي بهذا القرآن من تلقاء نفسه ، إنما يتلقاه من لدن
حكيمٍ عليم .

ومنهم من قال : إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم . وذلك أن قرع السمع
في أول الكلام بما يعي النفوس فهمه أو بالأمر الغريب ، دافعٌ لها أن تصفى وتتيقظ وتتأمل
وتزداد إقبالا : فهي كوسائل التشويق التي تُعرض في مقدمة الدرس على منهج التربية
الحديثة في التعليم .

ومنهم من قال : إن المقصود منها سياسة النفوس المعرضة عن القرآن واستدراجها
إلى الاستماع إليه . والمعروف أن أعداء الإسلام في صدر الدعوة كان يقول بعضهم لبعض :
« لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ » . فلما أنزلت السور المبدوءة
بحروف الهجاء ، وقرع أسماعهم ما لم يألفوا ، التفقوا ، وإذا هم أمام آيات بينات استهوت
قلوبهم ، واستمالت عقولهم ، فأمن من أراد الله هدايته ، وشارف الإيمان من شاء الله
تأخير ، وقامت الحجة في وجه الظفاة المكابرين ، وأخذت عليهم الطرق فلا عذر لهم
في الدنيا ولا يوم الدين .

وقال العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى في تفسيره لسورة آل عمران

« إعلم أن القرآن كتاب سماوى . والكتب السماوية تُصرح تارة وترمزُ أخرى . والرمز والإشارة من المقاصد السامية والمعاني والمغازى الشريفة . وقديماً كان ذلك في أهل الديانات ؛ ألم تر إلى اليهود الذين كانوا منتشرين في المدينة وفي بلاد الشرق أيام النبوة كيف كانوا يصطلحون فيما بينهم على أعداد الجمل المعروفة اليوم في الحروف العربية ؟ فيجعلون الألف بواحد ، والباء باثنين ، والجيم بثلاثة ، والدال بأربعة ، وهكذا ماريّن على الحروف الأبجدية ، إلى الياء بعشرة والكاف بعشرين ، وهكذا إلى القاف بمائة والراء بمائتين ، وهكذا إلى الغين بألف ، كما سترأ في هذا المقام .

كذلك ترى أن النصارى في إسكندرية ومصر وبلاد الروم وفي سوريا ، قد اتخذوا الحروف رموزاً دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن . وكانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية في مصر . وكانوا يرمزون بلفظ « إكسيس » لهذه الجملة : « يسوع المسيح بن الله المخلص » فالألف من إكسيس هى الحرف الأول من لفظ « إيسوس » يسوع . والكاف منها هى الحرف الأول من « كرسقوس » المسيح . والسين منها هى حرف الشاء التى تبدل منها فى النطق فى لفظ « ثيو » الله . والياء منها تدل على « ايوث » ابن . والسين الثانية منها تشير إلى « ثوتير » المخلص . ومجموع هذه الكلمات : يسوع المسيح بن الله المخلص . ولفظ « إكسيس » اتفق أنه يدل على معنى سمكة ، فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمزاً لإلههم .

فانظر كيف انتقلوا من الأسماء إلى الرمز بالحرف ، ومن الرمز بالحرف إلى الرمز بحيوان دلّت عليه الحروف . قال الخبر الإنجليزى صموئيل مونتج : إنه كان يوجد كثيراً فى قبور رومة صور أسماك صغيرة مصنوعة من الخشب والعظم . وكان كل مسيحي يحمل سمكة إشارة للتعارف فيما بينهم ١٥ .

فإذا كان ذلك من طبائع الأمم التى أحاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها ونزل

القرآن لجميع الناس من عرب وعجم، كان لابد أن يكون على منهج يلدّه الأمم ويكون فيه ما بالقون . وتستجد أنه لا نسبة بين الرموز التي في أوائل السور ، وبين الجمل عند اليهود ورموز النصرى ، إلا كالنسبة بين علم الرجل العاقل والصبي ، أو بين علم العلماء وعلم العامة . وبهذا تبين لك أن اليهود والنصرى كان لهم رموز ، وكانت رموز اليهود هي حروف الجمل .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله ﷺ وهو يقرأ سورة البقرة : « أَلَمْ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَبَّ فِيهِ » ثم أتى أخوه حتى بن أخطب وكعب بن الأشرف ، فسألوه عن « أَلَمْ » وقالوا : نشدك الله الذى لا إله إلا هو أحق أنها أتتك من السماء ؟ فقال النبي ﷺ : نعم . كَذَلِكَ نَزَلَتْ . فقال حتى : إن كنت صادقاً إني لأعلم أجل هذه الأمة من السنين . ثم قالوا : كيف ندخل في دين رجل دلّت هذه الحروف بحساب الجمل على أن منتهى أجل أمته إحدى وسبعون سنة ، فضحك النبي ﷺ . فقال حتى : فهل غير هذا ؟ فقال : نعم « أَلَمْص » . فقال حتى : هذا أكثر من الأول ، هذا مائة وإحدى وستون سنة فهل غير هذا ؟ قال : نعم « آَر » فقال حتى : هذا أكثر من الأولى والثانية ، فنحن نشهد إن كنت صادقاً ما ملكت أمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سنة . فهل غير هذا ؟ فقال : نعم « أَمَر » . قال حتى : فنحن نشهد أنا من الذين لا يؤمنون ، ولا ندرى بأى أقوالك نأخذ . فقال أبو ياسر : أما أنا فأشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة ولم يبينوا أنها كم تكون ؟ فإن كان محمد صادقاً فيما يقول إني لأراه سيجمع له هذا كله . فقام اليهود وقالوا اشتبه علينا أمرك كله فلا ندرى بأقليل نأخذ أم بالكثير ؟

فبهذا تعرف أيها الذكى أن الجمل كانت للعارف عند اليهود ، وهو نوع من

الرموز الحرفية ، فكانت هذه الحروف لا بد من نزولها في القرآن ليأخذ الناس في فهمها كل عذهب ويتصرف الفكر فيها .

ولاقتصر لك مما قرأته على ثلاث طرائق فيما ترمز إليه هذه الحروف :

(الطريقة الأولى) أن تكون هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : الألف آلاء الله ، واللام لطفه ، والميم ملكه . وعنه أن « آر ، وحَم ، ون » مجموعها الرحمن . وعنه أن « آلم » معناه أنا الله أعلم ، ونحو ذلك في سائر الفواتح . وعنه أن الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد أى القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام . أقول : إنما أراد ابن عباس بذلك أن تكون الحروف مذكرة بالله عز وجل في أكثر الأحوال ، وذكر الله أجل شيء . ويرجع الأمر إلى أنها أسماء مرموز لها بالحروف كما تقدم عن الأمم السالفة من النصارى في إسكندرية ورومة . ولكن لا بد أن يكون هناك ما هو أعلى وأجل .

(الطريقة الثانية) أن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق النبي ﷺ . وهذا مما ترضاه النفوس . ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا من تعلم القراءة . وهذا النبي الأمي ﷺ قد نطق بها . والذي في أول السور أربعة عشر حرفاً منها ، وهي كلها ثمانية وعشرون حرفاً إن لم تعد الألف حرفاً برأسه ، فالأربعة عشر نصفها . وقد جاءت في تسع وعشرين سورة وهي عدد الحروف الهجائية إذا عدت فيها الألف . وقد جاءت من الحروف المهموسة العشرة وهي : « فحثة شخص سكت » بنصفها ، وهي الحاء والهاء والصاد والسين والكاف .

ومعلوم أن الحروف إما مهموسة - أى بضعف الاعتماد عليها - وهي ما تقدم ، وإما مجهورة وهي ثمانية عشر ، نصفها - وهو تسعة - ذكرت في فواتح السور ، ويجمعها « لن يقطع أمر » -

والحروف الشديدة ثمانية وهي « أجِدْتُ طبقَكَ » أربعة منها في الفواتح وهي « أَقْطَكَ » .

والحروف الرخوة عشرون وهي الباقية ، نصفها عشرة وهي في هذه الفواتح . يجمعها « حَسَّ عَلَى نَصْرِهِ » .

والحروف للطبقة أربعة : الصاد والضاد والطاء والغطاء . وفي الفواتح نصفها : الصاد والطاء .

وبقية الحروف - وهي أربعة وعشرون حرفاً - تسمى منفتحة ، نصفها وهو اثنا عشر في الفواتح المذكورة .

فانظر كيف أتى في هذه الفواتح بنصف الحروف الهجائية ، إن لم تعدّ الألف ، وجعلها في تسع وعشرين سورة عدد الحروف وفيها الألف ؟ وكيف أتى بنصف المهموسة ونصف المجهورة ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المطبقة ونصف المنفتحة ؟ . . .

ولقد ذكرت لك قُلًّا من كُثْرٍ مما ذكره العلماء في هذا المقام ، ولا أطيل عليك خيفة السَّامة والملل ، وكفاك ما أُمليته عليك في هذه الطريقة الثانية لتعرف كيف أتى بهذه الأوصاف ؟ وكيف وضعت الحروف على هذا النظام ؟ .

وإني موقن أن المتعلم لو طلب منه أن يأتي بهذه الحروف منصفة على هذا الوجه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فإنه إن راعى نصف الحروف المطبقة فكيف يراعى الحروف الشديدة ؟ وكيف يراعى نصف المجهورة في نفس العدد ؟ .

إن ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة ﷺ . فائدة هذا الوجه أهم من الوجه الأول ؛ فالأول فائدته تذكير الإنسان بأسماء الله تعالى . وأما الوجه الثاني ففيه إيجاز للعقول وحيرة . فيقال : كيف تنصّف الحروف الهجائية وتنصّف أنواعها من مهموسة

وشديدة النخ . وهذه الأنواع لم يدرسها أحد في العالم أيام النبوة . ثم لما ظهرت تلك الدراسات وافقت تلك الحروف بأنصافها !

‘ إن ذلك ليعطى العقول مثلاً من الغرابة الدالة على أن هذا لا يقدر عليه المتعلمون فإذاً هو من الوحي . وهذا الوجه على قوّته يفضل ما بعده .

(الطريقة الثالثة) أن الله تعالى خلق العالم منظماً محكماً ، متناسقاً متناسباً . والكتاب السماوى إذا جاء مطابقاً لنظامه ، موافقاً لإبداعه ، سائراً على منهاجه ، دلّ ذلك على أنه من عنده . وإذا جاء الكتاب السماوى مخالفاً لنهجه ، منافراً لفعله ، منحرفاً عن سنته كان ذلك الكتاب مصطنعاً مفتعلاً منقولاً مكذوباً ؛ « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

والعالم المشاهد ، فيه عدد الثمانية والعشرين . وذلك فيما يأتى :

(١) مفاصل اليدين فى كل يد أربعة عشر .

(٢) خرزات عمود ظهر الإنسان منها أربع عشرة فى أسفل الصلب ، وأربع عشرة فى أعلاه .

(٣) خرزات العمود التى فى أصلاب الحيوانات التامة الخلقة كالبقرة والجمال والحمار والسباع وسائر الحيوانات التى تلد أولادها ، منها أربع عشرة فى مؤخر الصلب وأربع عشرة فى مؤخر البدن .

(٤) عدد الريشات التى فى أجنحة الطير المعتمدة عليها فى الطيران أربع عشرة ريشة ظاهرة فى كل جناح .

(٥) عدد الخرزات التى فى أذنان الحيوانات الطويلة الأذنان كالبقرة والسباع .

(٦) عمود صلب الحيوانات الطويلة الخلقة ، كالسمك والحيتان وبعض الحشرات .

(٧) عدد الحروف التى فى لغة العرب التى هى آتم اللغات ، ثمان وعشرون حرفاً .

منها أربعة عشر يدغم فيها لام التعريف ، وهى : ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن . وأربعة عشر لا تدغم اللام فيها ، وهى . أ ب ج ح خ ع غ ف ق ك م ه وى .

(٨) والحروف التى تخط بالقلم قسمان . منها أربعة عشر معلمة بالنقط وهى : ب ت ث ج خ ذ ز ش ض ظ غ ف ق ن ، وأربعة عشر غير معلمة وهى : ا ح درس ص ط ع ك و ه ل م لا . وهذا الحرف هو الألف التى هى من حروف العلة . أما الأولى فهى الممزة . فهذه أربعة عشر حرفاً . وبقيت الياء ، وهى تنقط فى وسط الكلمة ولا تنقط فى آخرها . فأصبحت الحروف المعلقة أربعة عشر ، وغير المعلقة أربع عشر ، والحرف التاسع والعشرون معلم وغير معلم ، لتكون القسمة عادلة . والفضل فى هذا العدل للحكيم الذى وضع حروف الهجاء العربية ، فإنه كان حكماً ، والحكيم هو الذى يقشبه بالله بقدر الطاقة البشرية . وهذا جعل ثمانية وعشرين حرفاً مقسمة قسمين ، كل منها أربعة عشر كما فى مفاصل اليدين وفقرات بعض الحيوانات .

(٩) منازل القمر ثمان وعشرون منزلة فى البروج الشمالية أربع عشرة وفى الجنوبية أربع عشرة . فهذا يفيد أن الموجودات التى عددها ثمانية وعشرون تكون قسمين كل منهما أربعة عشر . فهكذا هنا فى القرآن جاءت الحروف العربية مقسمة قسمين ، قسم منهما أربعة عشر منطوق به فى أوائل السور ، وقسم منهما أربعة عشر غير منطوق به فى أوائلها . وكأنه تعالى يقول : «أى عبادى إن منازل القمر ثمان وعشرون وهى قسمان ، ومفاصل السكف ثمانية وعشرون وهى قسمان ، وهكذا . والحروف التى تدغم فى حرف التعريف ، وهى معلمة كل منها أربعة عشر . وضدها أربعة عشر فلتعلموا أن هذا القرآن هو تنزيل منى ، لأننى نظمت حروفه على هذا النمط الذى اخترته فى صنع المنازل والأجسام الإنسانية والأجسام الحيوانية ونظام الحروف الهجائية ، فمن أين لبشر كحمد أو غيره

أن ينظم هذا النظام ، ويجعل هذه الأعداد موافقة للنظام الذى وضعته ، والسنن الذى رسمته ، والنهج الذى سلكته ؟ إن القرآن تنزيل منى وقد وضعت هذه الحروف فى أوائل السور لتستخرجوا منها ذلك ، فتعلموا أنى ماخلقت السموات والأرض وما بينهما باطلا ، بل جملت النظام فى العالم وفى الوحي متناصبا . وهذا الكتاب سيبقى إلى آخر الزمان ، ولغته ستبقى معه إلى آخر الأجيال . إن اللغات متغيرة ، وليس فى العالم لغة تبقى غير متغيرة إلا التى حافظ عليها دين . وهل غير اللغة العربية حافظ عليها دين ؟ ! » .

هذا - ولا يخفى عليك أن ذاك الرأى الثانى فى فواتح السور أبلغ فى نقض الشبهة من الرأى الأول ؛ لأنه يبنى ما زعموه من أساس الاتهام ، وهو أنه ليس لهذه الفواتح معنى مفهوم ، ويقرر أن معانيها مفهومة على ما تبين فى تلك الوجوه السابقة . وإذا كان بعض الناس لا يفهم تلك المعانى ، فليس ذلك عيباً فى القرآن إنما هو عيب فى استعداد بعض أفراد الإنسان . وكتاب الله خوطب به الخواص كما خوطب به العوام ، فلا بدع أن يكون فيه ألفاظ لا يفهمها إلا الخاصة دون العامة .

وعلى كلا هذين الرأيين يتضح لك أن اشتغال القرآن على هذه الألفاظ ، ليس من قبيل اشتغاله على لغو الكلام ، أو إظهار القرآن بمظهر عميق مخيف ، ولا يفهم منه أنها رموز للمصاحف ألحقها مرور الزمن بالقرآن ، إلى غير ذلك من الهذيان . بل ثبوت هذه الفواتح لا يقدح فى كون القرآن من عند الله ، سواء أفادت معنى ظاهراً أم لم تفد على ما بيناه من حكمة الله البالغة فى إيرادها . والله هو الحكيم العظيم .

الشبهة السادسة

يقولون : إن القرآن في قسمه المكي قد خلا من الأدلة والبراهين ، بخلاف قسمه المدني فإنه مليء بالأدلة ، مدعّم بالحجة ، وهذا برهان جديد على تأثر القرآن بالوسط الذي كان فيه محمد !

وننقض شبهتهم (أولاً) بما أسلفنا من أن القرآن لو كان نتيجة تأثر محمد بالوسط الذي يعيش فيه ، لكان الوسط أولى بتوجيه هذا المظعن عليه ، وليكن أعرف بهذا النقض فيه ، فيظفر عليه ويدخل إلى إبطال دعوته من هذا الباب الواسع ، لا سيما أن الرسول في مكة والمدينة كان له أعداء ألداء ، ليس لعداوتهم دواء .

(ثانياً) أنه لو صحّ هذا لبطلت نبوّته ، ولصح أن تكون النبوة لهم باعتبار أنهم مصدرها ، وأنهم أساندته فيها . وهذا النقض يقال في ردّ شبهاتهم الماضية الساقطة ، التي تدل على فساد فطرتهم ، وعلى مقدار تبجّجهم وتجنّبهم على الحقيقة والتاريخ والاستخفاف بمقول الناس .

(ثالثاً) أن كذبهم في هذه الشبهة صريحٌ مكشوف ، لأن القسم المكي حافل بأقوى الأدلة ، وأعظم الحجج ، على عقيدة الإسلام في الإلهيات ، والنبوّات ، والسمعيات . استمع إليه في سورة « المؤمنون » المكية وهو يرفع قواعد التوحيد ، ويزلزل بنيان الشرك إذ يقول : « مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَمَّا بَلَغْهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ » وإذ يقول في سورة الأنبياء المكية : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

آلِهَةٍ. قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ. هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ .

وأنت إلى في سورة العنكبوت المسكية وهو يدل على نبوة محمد ﷺ إذ يقول : « وَمَا كُنْتُمْ تَقُولُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ ، إِذَنْ لَا تَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ . وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ . إِنْ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » . وتدبر حجة التي أقامها لتقرير اقتداره على البعث بعد الموت في قوله سبحانه من سورة ق المسكية : « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا . كَذَلِكَ الْخُرُوجُ » وقوله فيها أيضا : « أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » .

وانظر إليه يقيم الدليل العقلي على البعث والجزاء في سورة المؤمنون المسكية إذ يقول : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ » وفي سورة السجدة إذ يقول : « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ؟ لَا يَسْتَوُونَ . أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا » الخ . وفي سورة الجاثية المسكية إذ يقول : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » .

وتأمل مناقشته ونقضه بالحجة أوهام المشركين في احتجاجهم لأباطيلهم بالمشيئة الإلهية إذ يقول في سورة الأنعام المسكية : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ

مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ . كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا . قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ
 إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ . قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
 أَجْمَعِينَ » . إلى غير ذلك من أدلة ساطعة ، وبراهين بارعة ، لا تكاد تخلو منها سورة
 من السور المكية . ولكن القوم استحبوا العمى على الهدى ، فاستمروا بهذا الكذب
 والافتراء . نسأل الله أن يكفيننا شر الفتنة ، وأن يشبثنا على الحق ، فإن قلوب الخلق
 بيديه ، والأمـر كله منه وإليه . « مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ . وَمَنْ يَشَأِ يُجْمِلْهُ عَلَى
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

المبحث الثامن مطلوب

(في جمع القرآن وتاريخه ، والرد على ما يثار حوله
 من شبه ونماذج من الروايات الواردة في ذلك)

كلمة جمع القرآن تطلق تارة ويراد منها حفظه واستظهاره في الصدور . وتطلق تارة
 أخرى ويراد منها كتابته كله حروفاً وكلماتٍ وآياتٍ وسوراً . وهذا جمع في الصحائف
 والسطور ، وذلك جمع في القلوب والصدور . ثم إن جمعه بمعنى كتابته حدث في الصدر
 الأول ثلاث مرات : الأولى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، والثانية في خلافة
 أبي بكر ، والثالثة على عهد عثمان ، وفي هذه المرة الأخيرة وحدها نسخت المصاحف
 وأرسلت إلى الآفاق . وقد أثبت في هذا الموضوع شبه باردة لا مناص لنا من أن
 نكشف عنها اللثام ، ثم نعرضها لحرارة الحقائق العلمية الصحيحة ، حتى تذوب وتتمايع ،

أو تذهب وتنبخر « فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ . كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ . »

جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور

نزل القرآن على النبي ﷺ ، فكانت همته باذی ذی بدء منصرفة إلى أن يحفظه ويستظهره ، ثم يقرأه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه ، ضرورة أنه نبي أمي بعثه الله في الأميين . « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَقُولُوا عَلَيْنِهِمُ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » اهـ من سورة الجمعة . ومن شأن الأمي أن يعول على حافظته فيما يهيمه أمره ، ويعنيه استحضاره وجمعه . خصوصاً إذا أوتي من قوة الحفظ والاستظهار ، ما ييسره هذا الجمع والاستحضار . وكذلك كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن وهي متمتعة بخصائص العروبة الكاملة ، التي منها سرعة الحفظ ، وسيلان الأذهان ، حتى كانت قلوبهم أناجيلهم ، وعقولهم سجلات أنسابهم وأيامهم ، وحواظهم دواوين أشعارهم ومفاخرهم . ثم جاء القرآن فبهزم بقوة بيانه ، وأخذ عليهم مشاعرهم بسطوة سلطانه ، واستأثر بكریم مواهبهم في لفظه ومعناه ، فخلعوا عليه حياتهم حين علموا أنه روح الحياة ! .

أما النبي ﷺ فبلغ من حرصه على استظهار القرآن وحفظه ؛ أنه كان يحرك لسانه به في أشد حالات حرجه وشدة ، وهو يمانى ما يمانيه من الوحى وسطوته ، وجبريل في هبوطه عليه بقوة . يفعل الرسول كل ذلك استعجالاً لحفظه وجمعه في قلبه ، خوفاً أن تفوته كلمة ، أو يفلت منه حرف . وما زال ﷺ كذلك حتى طمأنه ربه بأن وعده أن يجمعه له في صدره ، وأن يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه ، فقال له في سورة القيامة « لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانُكَ لَتَتَجَلَّيَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » وقال له في سورة طه « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ

إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ». ومن هنا كان ﷺ جامع القرآن في قلبه الشريف، وسيد الحفاظ في عصره النيف. ومرجع المسلمين في كل ما يعنيه من أمر القرآن وعلوم القرآن. وكان ﷺ يقرؤه على الناس على مكث كما أمره موله، وكان يحكي به الليل ويزين الصلاة. وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة، وعارضه إياه في العام الأخير مرتين. قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: « إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي ».

وأما الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كان كتاب الله في الحل الأول من عنايتهم. يتنافسون في استظهاره وحفظه. ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه. ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه. وربما كانت قرة عين السيدة منهم أن يكون مهرها في زواجها سورة من القرآن يعلمها إياها زوجها. وكانوا يهجرون لذة النوم وراحة المجهود، إيثاراً للذة القيام به في الليل، والتلاوة له في الأسحار، والصلاة به والناس نيام، حتى لقد كان الذي يمر بيوت الصحابة في غسق الدجى، يسمع فيها دويًا كدوي النحل بالقرآن وكان الرسول ﷺ يذكر فيهم روح هذه العناية بالتنزيل، يبلغهم ما أنزل إليه من ربه. ويبعث إلى من كان بعيد الدار منهم من يعلمهم ويقرئهم، كما بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته، يعلمانهم الإسلام، ويقرئانهم القرآن، وكما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتحفيظ والإقراء.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجةً بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفصوا أصواتهم لئلا يتغالطوا ».

ومن هنا كان حفظ القرآن في حياة الرسول ﷺ جمًّا غفيراً ، منهم الأربعة
 الخلفاء ، وطلحة ، وسعد ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وأبو هريرة ،
 وابن عمر ، وابن عباس ، وعمر بن العاص ، وابنه عبد الله ، ومعاوية ، وابن الزبير ،
 وعبد الله بن السائب ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، وهؤلاء كلهم من المهاجرين ،
 رضوان الله عليهم أجمعين . وحفظ القرآن من الأنصار في حياته صلى الله عليه وسلم أبي
 ابن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وجمع بن حارثة ، وأنس
 ابن مالك ، وأبو زيد الذي سئل عنه أنس فقال إنه أحد عمومي (رضي الله عنهم أجمعين) .
 وقيل إن بعض هؤلاء إنما أكمل حفظه للقرآن بعد وفاة النبي ﷺ . وأيا ما تكن الحال ،
 فإن الذين حفظوا القرآن من الصحابة كانوا كثيرين ، حتى كان عدد القتلى منهم بيئر
 معونة ويوم اليمامة أربعين ومائة . قال القرطبي « قد قتل يوم اليمامة سبعون من
 القراء . وقتل في عهد رسول الله ﷺ بيئر معونة مثل هذا العدد » .

قال المحقق ابن الجزري : « ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور
 لا على خط المصاحف والكتب . وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة ، ففي
 الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال : « إِنْ رَبِّي قَالَ لِي قُمْ فِي
 قَرَيْشٍ فَأَنْذِرْهُمْ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَيُّ رَبٍّ إِذْنٌ يَثْلُغُوا رَأْسِي حَتَّى يَدْعُوهُ خَبْرَةٌ . فَقَالَ :
 إِنِّي مَبْتَلِيكَ وَمَبْتَلِي بِكَ ، وَمَنْزِلٌ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَفْسُدُ الْمَاءُ ، تَقْرُوهُ نَائِمًا وَيَقْظَانِ ،
 فَابْعَثْ جُنْدًا أَبْعَثْ مِنْهُمْ ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ . وَأَنْفَقْ يَنْفَقْ عَلَيْكَ »
 فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تفسل بالماء ، بل يقرأ في كل
 حال كما جاء في صفة أمته « أناجيلهم صدورهم » وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين
 لا يحفظونه إلا في الكتب ، ولا يقرءونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب » . ١٠ هـ
 ما أردنا نقله .

ولا يشكن عليك في هذا المقام ما جاء في صحيح البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : « مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة ، أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد . قال : « ونحن ورثناه » وأبو زيد هذا اسمه قيس بن السكن كما رواه أبو داود بإسناد على شرط الشيخين . وإنما قلنا لا يشكن عليك هذا الحديث ، لأن الحصر الذى تلحقه فيه حصر نسبي ، وليس حصرأ حقيقياً حتى ينفي أن يكون غير هؤلاء الأربعة قد جمعه على عهد رسول الله ﷺ .

والدليل على أن هذا الحصر إضافي لا حقيقي هو ما رواه البخارى عن أنس نفسه أيضاً وقد سأله قتادة عن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أربعة كلهم من الأنصار : أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » اهـ . فانت ترى أن أنساً في هذه الرواية ذكر من الأربعة أبى بن كعب بدلاً من أبى الدرداء في الرواية السابقة . وهو صادق في كلتا الروايتين لأنه ليس بمقول أن يكذب نفسه ، فتعين أنه يريد من الحصر الذى أورده الحصر الإضافي ، بأن يقال إن أنساً رضى الله عنه تعلق غرضه في وقت ما بأن يذكر الثلاثة ، ويذكر معهم أبى بن كعب دون أبى الدرداء ، حاصراً للجمع فيهم ، ثم علق غرضه في وقت آخر بأن يذكر الثلاثة ويذكر معهم أبى الدرداء دون أبى بن كعب .

وهذا التوجيه وإن كان بعيداً ، إلا أنه يطمئن المصير إليه جمعاً بين هاتين الروايتين ، وبينهما وبين روايات أخرى ذكرت غير هؤلاء . ومن هنا قال الماوردى : لا يلزم من قول أنس رضى الله عنه « لم يجمعه غيرهم » أن يكون الواقع كذلك في نفس الأمر ، لأنه لا يمكن الإحاطة بذلك ، مع كثرة الصحابة وتفرقهم في البلاد ، ولا يتم له ذلك إلا إذ كان قد لقي كل واحد منهم ، وأخبر عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي ﷺ . وهذا في غاية البعد في العادة . وكيف يكون الواقع ما ذكر ، وقد جاء في صحيح البخارى أيضاً من طريق حفص بن عمر أن النبي ﷺ يقول : « خذوا

القرآن عن أربعة : عن عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب « والأربعة المذكورون منهم اثنان من المهاجرين وهما الأولان ، واثنان من الأنصار وهما الأخيران . اهـ . ولعل مراد الماوردي بهذا نفى الحصر الحقيقي وتوجيه الحصر الإضافي ، على نحو ما بيننا مستدلين بحديث أنس نفسه كما رأيت ، وبالروايات الأخرى التي حكى بعضهم فيها التواتر ، وهي تصرح بأسماء أخرى غير أسماء هؤلاء الأربعة المذكورين في رواية أنس هذه . من تلك الروايات ما أخرجه النسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر أنه قال : « جَمَعْتُ الْقُرْآنَ فَقَرَأْتُ بِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لَهُ : اقْرَأْهُ فِي شَهْرٍ . . . » إلى آخر الحديث . » ومنها ما أخرجه ابن أبي داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي قال : « جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمْسَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ، وَأَبِيُّ بْنُ كَعْبٍ ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ ، وَأَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ » .

وذهب بعضهم إلى أن الجمع في حديث أنس المذكور مراد به الكتابة لا الحفظ . وبعضهم ذهب إلى أن المراد به الجمع بوجوه القراءات كلها ، أو تلقياً ومشافهةً عن الرسول ﷺ ، أو الجمع شيئاً فشيئاً حتى تكامل نزوله .

وللإمام أبي بكر الباقلاني أجوبة ثمانية يحاول بها دفع إشكال هذا الحديث . لكن ابن حجر ضاعفها ، وغيره فندها . والخطب سهل على كل حال ، وفيما ذكرناه كفاية للخروج من هذا الإشكال .

غير أنه لا يفوتني أن أقضي لك على هذا الإشكال بكلمة أمجنتني عن المازري إذ يقول ما نصّه : « وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ، ولا متمسك لهم فيه فإننا لا نسلم حمله على ظاهره : سلمناه . ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر كذلك ؟ سلمناه لكن لا يلزم من كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله ألا يكون حفظ مجموعهم

الجم الغفير . وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى ، وقال القرطبي : « قد قتل يوم اليمامة سبعون ، وقتل في عهد النبي ﷺ بئثر معونة مثل هذا العدد . قال : وإنما خصّ أنس الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم دون غيرهم ، أو لتكونهم كانوا في ذهنه دون غيرهم » اهـ .

ثم إن ما ذكرناه في هذا المقام لا يتجاوز دائرة الصحابة الذين جمعت صدورهم كتاب الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فقد أتم حفظ القرآن آلاف مؤلفة من الصحابة ، واشتهر بإقراء القرآن من بينهم سبعة : عثمان ، وعلى ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعري . كلهم جمعوا التنزيل بين حنايا صدورهم ، وأقرءوه لكثير غيرهم . جازاهم الله أحسن الجزاء . آمين .

ولعلك أيها القارئ الكريم لا تستكثر منا هذا المجهود الطويل في حديث أنس السابق ، فإن بعض الملاحدة قد اتخذ منه مثاراً للطعن في تواتر القرآن . ومن وظيفتنا أن نرد المطاعن ونفهم الطاعن . فأردنا أن نشبع الكلام في هذا الموضوع عند هذه المناسبة أداءً للواجب من ناحية ، ولتستغنى عن إيراده في الشهاد الآتية من ناحية أخرى . « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ . إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم

قلنا : إن مهمة الرسول وأصحابه كانت منصرفةً أول الأمر ، إلى جمع القرآن في القلوب بحفظه واستظهاره ضرورة أنه نبي أمي^١ بعثه الله في الأميين . أضف إلى ذلك أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم في ذلك العهد . ومن هنا كان التعويل على الحفظ في الصدور ، يفوق التعويل على الحفظ بين السطور . على عادة العرب أيامئذ من جعل صفحات صدورهم وقلوبهم ، دواوين لأشعارهم وأنسابهم ومفاخرهم وأيامهم .

ولكن القرآن حظي بأوفى نصيب من عناية النبي ﷺ وأصحابه ، فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره ، عن عنايتهم بكتابته ونقشه ؛ ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها في عصرهم .

فها هو ذا رسول الله ﷺ ، قد اتخذ كُتَّابًا للوحي ، كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته ، مبالغة في تسجيله وتقييده . وزيادة في التوثق والضبط والاحتياط في كتاب الله تعالى ، حتى تُظاَهر الكتابةُ الحفظ ويُعاضِدَ النقشُ اللفظ .

وكان هؤلاء الكُتَّاب من خيرة الصحابة ، فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، ومعاوية ، وأبان بن سعيد ، وخالد بن الوليد ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وثابت بن قيس ، وغيرهم . وكان صلى الله عليه وسلم يدهم على موضع المكتوب من سورتهم . ويكتبونه فيما يسهل عليهم من العُسْب^(١) والأَخَاف^(٢) ،

(١) العسب بضم العين والسين - جمع عسيب - وهو جريد النخل ، كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف المريض .

(٢) الأخاف - بكسر اللام - جمع خلفه يفتح اللام وسكون الخاء وهي الحجارة الرقيقة . وقال الخطابي : صفائح الحجارة .

والرقاع^(١)، وقطع الأديم^(٢) وعظم الأكتاف والأضلاع . ثم يوضع المکتوب في بيت رسول الله ﷺ . وهكذا انقضى العهد النبوی السعيد والقرآن مجموع على هذا النمط ، بيمد أنه لم يكتب في صحف ولا في مصاحف . بل كتب منشوراً كما سمعت بين الرقاع والعظام ونحوها مما ذكرنا .

روى عن ابن عباس أنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض مَنْ يكتب ، فقال : « ضَمُّوا هَذِهِ السُّورَةَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُذَكَّرُ فِيهِ كَذَّاءً وَكَذَّاءً » . وعن زيد بن ثابت قال : « كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نُوَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرَّقَاعِ » .

وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام ، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول : « ضَمُّوا كَذَّاءً فِي مَوْضِعٍ كَذَّاءً » . ولا ريب أن جبريل كان لا يبصر في ذلك إلا عن أمر الله عز وجل .

أما الصحابة - رضوان الله عليهم - فقد كان منهم من يكتبون القرآن ، ولكن فيما تيسر لهم من قرطاس أو كتف أو عظم أو نحو ذلك ، بالتقدير الذي يبلغ الواحد عن رسول الله ﷺ . ولم يلتزموا توالي السور وترتيبها ، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ، ثم خرج في سرية مثلاً فنزلت في وقت غيابه سورة ، فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، ثم يستدرك ما كان قد فاتته في غيابه ، فيجمعه ويتتبعه على حسب ما يسهل له ، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك . وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب

(١) الرقاع : جمع رقعة ، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد .

(٢) الأديم : الجلد .

جريا على عادة العرب في حفظ أساليبها ، واستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة .
صفوة المقال :

وصفة المقال أن القرآن كان مكتوبا كله على عهد الرسول ﷺ ، وكانت كتابته ملحوظا فيها أن تشمل الأحرف السبعة التي نزل عليها ، غير أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة ، وبعض ما هو ثابت بخبر الواحد ، وربما كتبه غير مرتب ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعا في صحف ولا مصاحف عامة .

لماذا لم يجمع القرآن أيامئذ في صحف ولا مصاحف ؟

وإنما لم يجمع القرآن في صحف ولا مصاحف لاعتبارات كثيرة :

أولها أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر حتى كتبه في صحف . ولا مثل ما وجد على عهد عثمان حتى نسخته في مصاحف . فالمسلمون وقتئذ بخير ، والقراء كثيرون ، والإسلام لم يسبحر عمرانه بعد ، والفطنة مأمونة ، والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة ، وأدوات الكتابة غير ميسورة ، وعناية الرسول باستظهار القرآن تفوق الوصف وتوفى على الغاية ، حتى في طريقة أدائه على حروفه السبعة التي نزل عليها .

وثانيها : أن النبي ﷺ كان يصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات .

ثالثها : أن القرآن لم ينزل مرة واحدة ، بل نزل منجما في مدى عشرين سنة أو أكثر .

رابعها : أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله ، فقد علمت أن نزوله ، كان

على حسب الأسباب ، أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات .

وأنت خبير بأن القرآن لو جمع في صحف أو مصاحف والحال على ما شرحنا

لكان عزيمة لتغيير الضحف أو المصاحف كما وقع نسخ ، أو حدث سبب . مع أن الظروف لا تساعد ، وأدوات الكتابة ليست ميسورة ، والتمويل كان على الحفظ قبل كل شيء . ولكن لما استقر الأمر بختام التنزيل و وفاة الرسول ﷺ ، وأمن النسخ ، وتقرر الترتيب ، ووجدت من الدواعي ما يقتضي نسخه في صحف أو مصاحف ، وفق الله الخلفاء الراشدين فقاموا بهذا الواجب حفظاً للقرآن ، وحياطة لأصل التشريع الأول ، مصداقاً لقوله سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه

ألفت الخلافة قيادها إلى أبي بكر رضي الله عنه بعد غروب شمس النبوة ، وواجهت أبا بكر في خلافته هذه أحداث شديدة ومشاكل صعبة . منها موقعة الجمامة سنة ١٢ انتهى عشرة للهجرة . وفيها دارت رحى الحرب بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب وكانت معركة حامية الوطيس ، استشهد فيها كثير من قراء الصحابة وحافظتهم للقرآن ، انتهى عددهم إلى السبعين ، وأنهى بعضهم إلى خمسمائة ، من أجلهم سالم مولى أبي حذيفة . ولقد هال ذلك المسلمين ، وعز الأمر على عمر ، فدخل على أبي بكر وأخبره الخبر واقترح عليه أن يجمع القرآن ، خشية الضياع بموت الحفاظ وقتل القراء . فتردد أبو بكر أول الأمر لأنه كان وقفاً عند حدود ما كان عليه الرسول ﷺ يخاف أن يجرم التعديل إلى التبديل ، أو يسوقه لإنشاء الاختراع ، إلى الوقوع في مهاوى الخروخ والابتداع .

ولكنه بعد مشاورته بينه وبين عمر تجلّى له وجه المصلحة ، فاقنع بضواب النكرة وشرح الله لما صدره وعلم أن ذلك الجمع الذي يشير به عمر ما هو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ الكتاب الشريف ، والحفاظة عليه من الضياع والتعريف ، وأنه ليس من محذورات الأمور الخارجة ، ولا من البدع

والإضافات الفاسقة . بل هو مُسْتَمَدٌّ من القواعد التي وضعها الرسول بقشريع كتابة القرآن ، واتخاذ كُتَّاب للوحي ، وجمع ما كتبوه عنده حتى مات صلوات الله وسلامه عليه . قال الإمام أبو عبد الله المحاسبي في كتاب فهم السنن ما نصّه : « كتابة القرآن ليست بمجدنة ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابتها ، ولكنه كان مُفَرِّقاً في الرقاع ، والأكتاف ، والعُصْب ، فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً ، وكان ذلك بمنزلة أوراقٍ وُجِدَتْ في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها القرآن منتشراً ، فجمعها جامع وربطها بخيط ، حتى لا يضيع منها شيء » اهـ .

تنفيذ أبي بكر للفكرة :

اهتم أبو بكر بتحقيق هذه الرغبة ، ورأى بنور الله أن يندب لتحقيقها رجلاً من خيرة رجالات الصحابة هو زيد بن ثابت رضي الله عنه ، لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في جمع القرآن ، ما لم يجتمع في غيره من الرجال ، إذ كان من حُفَاط القرآن ، ومن كتاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد العُرُضَةَ الأخيرة للقرآن في ختام حياته صلى الله عليه وسلم . وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله ، وشدة ورعه ، وعظم أمانته ، وكمال خلقه ، واستقامة دينه . فاستشار أبو بكر عمر في هذا فوافقه . وجاء زيد فعرض أبو بكر عليه الفكرة ورغب إليه أن يقوم بتنفيذها ، فردّد زيد أول الأمر ، ولكن أبا بكر ما زال به يعالج شكوكه ، ويبين له وجه المصلحة ، حتى اطمأن واقنع بصواب ما ندب إليه ، وشرع يجمع ، وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة يشرفون عليه ، ويعاونونه في هذا المشروع الجليل ، حتى تمّ لهم ما أرادوا « وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » .

وفي ذلك يروى البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال :

« أُرْسِلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلِ أَهْلِ الْيَمَامَةِ (أي عقب استشهد القراء السبعين

في واقعة اليمامة) فإذا عمرُ بنُ الخطابِ عنده . قال أبو بكرٍ رضي الله عنه : « إن عمرُ أتاني فقال : إنَّ القتلَ قد استعجرُ » (أى اشتدَّ) يومَ اليمامة بقرء القرآن ، وإني أخشى أن يستعجرَ القتلُ بالقراء بالمواطن فيذهب كثيرٌ من القرآن وإني أرى أن تأمرَ بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف نفعلُ ما لم يفعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هذا والله خيرٌ ، فلم يزل عمرُ يراجعني حتى شرحَ الله صدرِي لذلك ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمرُ . قال زيد : قال أبو بكر : إنَّكَ رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا تهملُ ، وقد كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبعُ القرآنَ فاجمه . فوالله لو كلفوني نقلَ جبلٍ من الجبال ، ما كان أثقلَ عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن ! قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو والله خيرٌ فلم يزل أبو بكرٍ يراجعني ، حتى شرحَ الله صدرِي للأذي شرحَ له صدرُ أبي بكرٍ وعمر . فتتبعْتُ القرآنَ أجمعه من العُسبِ والخفافِ وصدورِ الرِّجالِ ، حتى وجدتُ آخرَ سورةِ التوبةِ معَ أبي خزيمةَ الأنصاريِّ لم أَجدْها معَ أحدٍ غيرِهِ « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ » حتى خاتمةِ براءة . فكانتُ الصحفُ عندَ أبي بكرٍ حتى توفاهُ الله ، ثم عندَ عمرَ حَيَاتِهِ ، ثم عندَ حفصةَ بنتِ عمر « اه .

فهذا الحديث - كما ترى - يدلُّ على مبلغِ اهتمام كبار الصحابة بالمحافظة على القرآن وعلى مبلغِ ثقة أبي بكرٍ وعمرَ بزيد بن ثابت ، وعلى جدارة زيد بهذه الثقة لتوافر تلك المناقب التي ذكرها فيه أبو بكر . ويؤيد ورعَه ودينه وأمانته قوله : « فوالله لو كلفوني نقلَ جبلٍ من الجبال ، ما كان أثقلَ عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن » ويشهد بوفرة عقله تردده وتوقفه أول الأمر ومناقشته لأبي بكرٍ حتى راجعه أبو بكر وأقنعه بوجه الصواب . وينطق بدقة تحريره قوله : « فَتَتَّبَعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسْبِ وَالْخَفَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ » اه . رضي الله عنه وأرضاه ، ورضي عنهم وعنا أجمعين .

دُستور أبي بكر في كتابة الصحف :

وانتهج زيد في القرآن طريقة دقيقة مُحكمة وضمها له أبو بكر وعمر ، فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبت بالغ وحذر دقيق ، وتحريات شاملة ، فلم يكتف بما حفظ في قلبه ، ولا بما كتب بيده ، ولا بما سمع بأذنه . بل جعل يقتبّع ويستقصي آخذاً على نفسه أن يعتمد في جمعه على مصدرين اثنين : أحدهما ما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثاني : ما كان محفوظاً في صدور الرجال . وبإيعاز من مبالغته في الحيلة والحذر أنه لم يقبل شيئاً من المکتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدي رسول الله ﷺ .

يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال : « قَدِمَ عمر ، فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به ، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعُصَب ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان » .

ويدل عليه ما أخرجه أبو داود أيضاً ، ولكن من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ، ولزيد : « اقمدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه » ١ هـ وهو حديث رجاله ثقات وإن كان منقطعاً . قال ابن حجر : « المراد بالشاهدين : الحفظ والكتابة » .

وقال السخاوي في جمال القراء ما يفيد أن المراد بهما رجلان عدلان إذ يقول ما نصه : « المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المکتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ » . ولم يعتمد زيد على الحفظ وحده ، ولذلك قال في الحديث الذي رواه البخاري سابقاً ، إنه لم يجد آخر سورة براءة إلا مع أبي خزيمة . أي لم يجد لها مکتوبة إلا مع أبي خزيمة الأنصاري ، مع أن زيدا كان يحفظها ، وكان كثير من الصعابة يحفظونها . ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة ، زيادة في التوثيق ، ومبالغة في الاحتياط . وعلى هذا

الدستور الرشيد ثم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير . وكان ذلك متقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف ، ولعمر في الاقتراح ، ولزيد في التنفيذ ، وللصحابة في المعاونة والإقرار .

قال علي كرم الله وجهه : « أعظمُ الناسِ في المصاحفِ أجراً أبو بكر ، رحمةُ الله على أبي بكر ، هو أولُ من جمعَ كتابَ الله » أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن .

وقد قوبلت تلك الصحف التي جمعها زيد بما تستحق من عناية فائقة ، فحفظها أبو بكر عنده . ثم حفظها عمر بعده . ثم حفظها أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة عمر . حتى طلبها منها خليفة المسلمين عثمان رضى الله عنه ، حيث اعتمد عليها في استنساخ مصاحف القرآن . ثم ردها إليها كما باتيك بياؤه إن شاء الله .

مزايا هذه الصحف :

وامتازت هذه الصحف أولاً بأنها جمعت القرآن على أدق وجوه البحث والتحرى ، وأسلم أصول التثبت العلمى ، كما سبق شرحه لك في الدستور السابق .
ثانياً : أنه اقتصر فيها على ما لم تُنسخ تلاوته .

ثالثاً : أنها ظفرت بإجماع الأمة عليها ، وتواتر ما فيها . ولا يطعن في ذلك التواتر مأمراً عليك من أن آخر سورة براءة لم يوجد إلا عند أبي خزيمة ، فإن المراد أنه لم يوجد مكتوباً إلا عنده ، وذلك لا ينافي أنه وجد محفوظاً عند كثرة غامرة من الصحابة بلغت حد التواتر ، وقد قلنا غير مرة : إن المعول عليه وقمتد كان هو الحفظ والاستظهار . وإنما اعتمد على الكتابة كمصدر من المصادر ، زيادة في الاحتياط ؛ ومبالغة في الدقة والحذر . ولا يعزبن عن بالك أن هذا الجمع كان شاملاً للأحرف

السبعة التي نزل بها القرآن تيسيراً على الأمة الإسلامية كما كانت الأحرف السبعة في الرقاع كذلك .

ملاحظة :

جمع القرآن في مصحف أو مصحف على ذلك الخط الآنف بزياده السابقة التي ذكرناها بين يديك ، لم يعرف لأحد قبل أبي بكر رضى الله عنه . وذلك لا ينافي أن الصحابة كانت لهم صحف أو مصاحف كتبوا فيها القرآن من قبل . لكنها لم تنظر بما غفرت به الصحف المجموعة على عهد أبي بكر ، من دقة البحث والتحرى ، ومن الاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته ، ومن بلوغها حد التواتر ، ومن إجماع الأمة عليها ، ومن شمولها للأحرف السبعة كما تقدم . وإذن لا يضيرنا في هذا البحث أن يقال إن علياً رضى الله عنه أول من جمع القرآن بعد رسول الله ﷺ ، ولا يعكروا صفوة موضوعنا أن يستدلوا على ذلك بما نقله السيوطى عن ابن الفرس من حديث محمد بن سيرين عن عكرمة قال : « لما كان بسدة خلافة أبي بكر ، قعد على بن أبي طالب في بيته ، فقيل لأبي بكر : قد كره بيعتك . فأرسل إليه ، فقال : أكرهت بيعتى ؟ فقال : رأيت كتاب الله يزداد فيه ، فحدثت نفسى ألا ألبس ردائى إلا لصلاة حتى أجمعه . قال له أبو بكر : فإنك نعم ما رأيت ! . قال محمد : فقلت لعكرمة : ألقوه كما أنزل الأول فالأول ؟ قال : لو اجتمعت الإنس والجن على أن يؤلقوه هذا التأليف ما استطاعوا . ! » اهـ وأخرج ابن أשתه من وجه آخر عن ابن سيرين هذا الأثر ، وفيه أنه كتب في مصحفه الناسخ والنسوخ ، وأن ابن سيرين قال : فطلبت ذلك الكتاب ، وكتبت فيه إلى المدينة ، فلم أقدر عليه . اهـ .

نقول إن هذا الرواية وأشباهها لا تضير بحثنا ، ولا تعكروا صفوة موضوعنا ، فقصاراها

أنها تثبت أن علياً أو بعض الصحابة كان قد كتب القرآن في مصحف . لكنها لا تعطي هذا المصحف تلك الصفة الإجماعية ، ولا تخلع عليه تلك المزايا التي للمصحف أو المصحف المجموع في عهد أبي بكر . بل هي مصاحف فردية ، ليست لها تلك الثقة ولا هذه المزايا . وإذا كانت قد سبقت في الوجود وتقدم بها الزمان فإن جمع أبي بكر هو الأول من نوعه على كل حال . وقد اعترف على بن أبي طالب نفسه بهذه الحقيقة في الحديث الذي أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن آنفاً إذ قال : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب الله » .
فهذا اعتراف صريح من أبي الحسن بالأولية لجمع أبي بكر على النحو الآنف رضوان الله عليهم أجمعين .

جمع القرآن على عهد عثمان رضي الله عنه

انسمت الفتوحات في زمن عثمان ، واستبحر العمران ، وتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار ، ونبتت ناشئة جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن . وطال عهد الناس بالرسول والوحي والتنزيل . وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام ، يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة ، فأهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب ، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود ، وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري . فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة ، بطريقة فتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن ، أشبه بما كان بين الصحابة قبل أن يعلموا أن القرآن نزل على سبعة أحرف بل كان هذا الشقاق أشد ؛ لبعد عهد هؤلاء بالنبوة ، وعدم وجود الرسول بينهم ، يطمثون إلى حكمه ، ويصدرون جميعاً عن رأيه . واستفحل الداء حتى كفر بعضهم بمضاً ، وكادت تكون فتنة في الأرض وفساد كبير . ولم يفت هذا الطغيان عند حد ،

يل كاد يلفح بناره جميع البلاد الإسلامية حتى الحجاز والمدينة ، وأصاب الصغار والكبار على سواء .

أخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق أبي قلابة أنه قال : « لما كانت خلافة عثمان ، جعل المعلمُ يعلمُ قراءةَ الرجل ، والمعلمُ يعلمُ قراءةَ الرجل ، فجعل العلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، حتى كفر بعضهم بعضاً ، فبلغ ذلك عثمان ، فخطب فقال : « أنتم عندي تختلفون ، فمن نأى عني من الأمصار أشدَّ اختلافاً » .

وصدق عثمان ، فقد كانت الأمصار النائية أشدَّ اختلافاً ونزاعاً من المدينة والحجاز . وكان الذين يسمعون اختلاف القراءات من تلك الأمصار إذا جمعهم الجامع ، أو التقوا على جهاد أعدائهم ، يعجبون من ذلك . وكانوا يمعنون في التعجب والإنكار ، كلما سمعوا زيادة في اختلاف طرق أداء القرآن . وتآدى بهم التعجب إلى الشك والمداواة ، ثم إلى التائيم والملاحاة . وتيقظت الفتنة التي كادت تطيح فيها الرؤوس ، وتسفك الدماء ، وتوقد المسلمين إلى مثل اختلاف اليهود والنصارى في كتابهم . كما قال حذيفة لعثمان في الحديث الآتي قريباً .

أضف إلى ذلك أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار ، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها ، حتى يتجأوا إليها فيما يختلفون . إنما كان كل صحابي في إقليم ، يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي نزل عليها القرآن . ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف والشقاق البعيد .

لهذه الأسباب والأحداث ، رأى عثمان يشاقب رأيه ، وصادق نظره ، أن يتدارك الخرق قبل أن يتسع على الرافق ، وأن يستأصل الداء ، قبل أن يعزَّ الدواء ، فجمع أعلام

الصحابة وذوى البصر منهم، وأجال الرأى بينه وبينهم فى علاج هذه الفتنة ، ووضع حدًا لذلك الاختلاف ، وحسم مادة هذا النزاع . فأجمعوا أمرهم على استئناس مصاحف يرسل منها إلى الأمصار، وأن يؤمر الناس بإحراق كل ما عداها، وألا يعتمدوا سواها. وبذلك يرأب الصدع ، ويجبر الكسر ، وتعتبر تلك للمصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادى فى ظلام هذا الاختلاف ، ومصباحهم السكشاف فى ليل تلك الفتنة ، وحكمهم العدل فى ذاك النزاع والمراء ، وشفاهم الناجع من مصيبة ذلك الداء .

تنفيذ عثمان لقرار الجمع :

وشرع عثمان فى تنفيذ هذا القرار الحكيم ، حول أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة ، فعهد فى نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ ، وهم زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام . وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من قريش .

وأرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر ، فبعثت إليه بالمصحف التى عندها ، وهى المصحف التى جمع القرآن فيها على عهد أبى بكر رضى الله عنه . وأخذت لجنة الأربعة هؤلاء فى نسخها ، وجاء فى بعض الروايات أن الذين ندبوا لنسخ المصاحف كانوا اثنى عشر رجلاً . وما كانوا يكتبون شيئاً إلا بعد أن يعرض على الصحابة ، ويقرؤوا أن رسول الله ﷺ قرأ على هذا النحو الذى نجد الآن فى المصاحف .

دستور عثمان فى كتابة المصاحف :

ومما تواضع عليه هؤلاء الصحابة أنهم كانوا لا يكتبون فى هذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قرآن ، وعلّموا أنه قد استقرّ فى العرصة الأخيرة ، وما أيقنوا صحته عن النبى ﷺ مما لم ينسخ . وتركوا ما سوى ذلك نحو قراءة « فامضوا إلى ذكر الله » بدل كلمة « فاسموا » ونحو « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا »

بزيادة كلمة «صالحة» ، إلى غير ذلك . وإنما كتبوا مصاحف متعددة ، لأن عثمان رضى الله عنه قصد إرسال ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين ، وهى الأخرى متعددة ، وكتبوها متفاوتة في إثبات وحذف وبدل وغيرها ، لأنه رضى الله عنه قصد اشتغالها على الأحرف السبعة . وجعلوها خالية من النقط والشكل ، تحقيقاً لهذا الاحتمال أيضاً . فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه عند تجردها من النقط والشكل نحو « فَتَبَيَّنُوا » من قوله تعالى « إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا » فإنها تصلح أن تقرأ « فَتَذَبَّتُوا » عند خلوها من النقط والشكل وهى قراءة أخرى ، وكذلك كلمة « نَشِرُهَا » من قوله تعالى « وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا » فإن تجردها من النقط والشكل كما ترى يجعلها صالحة عندهم أن يقرءوها « نُنْشِرُهَا » بالزاي ، وهى قراءة ولادة أيضاً ، وكذلك كلمة « أَفٍ » التى ورد أنها تقرأ بسبعة وثلاثين وجهاً .

أما الكلمات التى لا تدل على أكثر من قراءة عند خلوها من النقط والشكل مع أنها واردة بقراءة أخرى أيضاً ، فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة ، وفي بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية ، كقراءة « وَصَّى » بالتضعيف و (أَوْصَى) بالهمز ، وهما قراءتان في قوله سبحانه : « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ » وكذلك قراءة « تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ » وقراءة « مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » بزيادة لفظ « مِنْ » في قوله تعالى في سورة التوبة : « لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » وهما قراءتان أيضاً .

وصفة القول : أن اللفظ الذى لا يختلف فيه وجوه القراءات ، كانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة . أما الذى يختلف فيه وجوه القراءات ، فإن كان لا يمكن رسمه في الخط محتملاً لتلك الوجوه كلها ، فإنهم يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه في مصحف ، ثم يكتبونه برسم آخر يوافق بعض الوجوه الأخرى في مصحف آخر . وكانوا يتعاشون أن

يكتبوه بالرسمين في مصحف واحد خشية أن يقوم أن اللفظ نزل مكرراً بالوجهين في قراءة واحدة ، وليس كذلك . بل هما قراءتان نزل اللفظ في إحداها بوجه واحد ، وفي الثانية بوجه آخر من غير تكرار في واحدةٍ منهما .

وكذلك كانوا يتحاشون أن يكتبوا هذا اللفظ في مصحف واحد برسمين : أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية ، لئلا يقوم أن الثاني تصحيح للأول . أضف إلى ذلك أن كتابة أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية دون العكس تحكّم ، أو ترجيحٌ بلامرّجّح وذلك نحو كلمة (وَصَى) بالتضعيف و (أَوْصَى) بالهمز كما سبق .

أما اللفظ الذي تختلف فيه القراءات ، ويدلّ عليه الرسم بصورة واحدة تحتل هذا الاختلاف ويساعدهم عليه ترك الإعجام والشكل نحو « فَتَبَيَّنُوا » « وَنُشِرْهُمَا » كما سلف بيانه ، فتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين ، شبهة بدلالة المشترك اللفظي على كلا المعنيين المعقولين . والذي دعا الصحابة إلى انتهاج هذه الخطة في رسم المصاحف وكتابتها أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميع وجوه قراءاته ، وبكافة حروفه التي نزل عليها ، فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها ، حتى لا يقال : إنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته ، أو منعوا أحداً من القراءة بأيّ حرف شاء على حين أنها كلها منقولة نقلاً متواتراً عن النبي صلى الله عليه وسلم . ورسول الله ﷺ يقول : « فَأَيُّ ذَلِكَ قَرَأْتُمْ أَصَبْتُمْ فَلَا تَمَارَوْا » وكان من الدستور الذي وضعه عثمان رضي الله عنه لم من هذا الجمع أيضاً أنه قال لهؤلاء القرشيين « إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ ابْنِ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَارْتَبِعُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ » ففعلوا حتى إذا نسخوا المصاحف في المصاحف رد عثمان المصحف إلى حفصة ؛ وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحزق .

وفي ذلك يروى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه ، أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفرغ حذيفة اختلافهم فى القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلى إلينى بالصحف ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها إليك . فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، فنسخوها فى المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا . حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا . وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق » ١ .

تمحيق عثمان للمصاحف والصحف المخالفة :

بعد أن أتم عثمان نسخ المصاحف بالصورة السابقة ، عمل على إرسالها وإتقاها إلى الأقطار ، وأمر أن يحرق كل ما عداها بما يخالفها ، سواء كانت صحفاً أم مصاحف . وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية ، وليحمل المسلمين على الجادة فى كتاب الله من ناحية أخرى ، فلا يأخذوا إلا بتلك المصاحف التى توافر فيها من الزايا ما لم يتوافر فى غيرها .

وهذه الزايا هى :

(١) الاقتصار على ما ثبت بالتواتر ، دون ما كانت روايته آحاداً .

(٢) وإهمال ما نسخت تلاوته ولم يستقر فى العرضة الأخيرة .

(٣) وترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن. بخلاف صحف أبي بكر رضى الله عنه فقد كانت مرتبة الآيات دون السور .

(٤) وكتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن ، على ما مرَّ بك من عدم إعجمها وشكلها ، ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد .

(٥) وتجريدها من كل ما ليس قرآنًا كالذى كان يكتبه بعض الصحابة فى مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنى ، أو بياناً للناسخ ومنسوخ ، أو نحو ذلك .

وقد استجاب الصحابة لعثمان ، فحرقوا مصاحفهم ، واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية . حتى عبد الله بن مسعود الذى نقل عنه أنه أنكر أولاً مصاحف عثمان ، وأنه أبى أن يحرق مصحفه ، رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة ، حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية ، واجتماع الأمة عليها ، وتوحيد الكلمة بها .

وبعدئذٍ طهر الجوُّ الإسلامى من أوبئة الشقاق والنزاع ، وأصبح مصحف ابن مسعود ومصحف أبى بن كعب ، ومصحف عائشة ، ومصحف على ، ومصحف سالم مولى أبى حذيفة . أصبحت كلها وأمثالها فى خير كان ، مفسولة بالماء أو محروقة بالنيران . « وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا »

ورضى الله عن عثمان ، فقد أَرْضَى بذلك العمل الجليل ربه ، وحافظ على القرآن ، وجمع كلمة الأمة ، وأغلق باب الفتنة ، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعد اليوم .

ولن يقدح فى عمله هذا أنه أحرق المصاحف والمصحف المخالفة للمصاحف العثمانية ، فقد علمت وجهة نظره فى ذلك . على أنه لم يفعل ما فعل من هذا الأمر الجلل ، إلا بعد أن استشار الصحابة ، واكتسب موافقتهم ، بل وظفر بمعاونتهم وتأيدهم وشكرهم .

روى أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة قال : « سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : يا ممشر الناس : اتقوا الله وإياكم وَالْفُلُوكَ في عثمان ، وقولكم : حَرَأَقُ مصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأٍ منا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . »
وعن عمر بن سعيد قال : قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : « لو كُنْتُ الْوَالِيَّ وَقَتَ عُثْمَانَ ، لَفَعَلْتُ فِي الْمَصَاحِفِ مِثْلَ الَّذِي فَعَلَ عُثْمَانُ » رضى الله عن الجميع ، وجزاهم أحسن الجزاء على هذا الصنيع .

فذلكة :

تستطيع مما سبق أن تفرق بين مرّات جمع القرآن في عهوده الثلاثة : عهد النبي ﷺ وعهد أبي بكر ، وعهد عثمان (رضى الله عنهما) فالجمع في عهد النبي ﷺ كان عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضعها في مكانها الخاص من سورها ، ولكن مع بَعَثَةِ الكتابة وتفرّقها بين عُسْبٍ وعظام ، وحجارة ورقاع ، ونحو ذلك حسبما تيسّر أدوات الكتابة ، وكان الغرض من هذا الجمع زيادة التوثيق للقرآن ، وإن كان التعويل أيامئذ كان على الحفظ والاستظهار .

أما الجمع في عهد أبي بكر رضى الله عنه فقد كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته في صحف مرتّب الآيات أيضاً ، مقتصرأ فيه على ما لم تُنسخ تلاوته مستوثقاً له بالتواتر والإجماع . وكان الغرض منه تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة مجموعاً مرتباً ، خشية ذهاب شيء منه بموت حملته وحفظاً له .

وأما الجمع في عهد عثمان رضى الله عنه فقد كان عبارة عن نقل ما في تلك الصحف في مصحف واحد لإمام ، واستنساخ مصاحف منه ترسل إلى الآفاق الإسلامية ملاحظاً فيها تلك المزاي السالف ذكرها مع ترتيب سور وآياته جميعاً . وكان الغرض منه إطفاء الفتنة

التي اشتعلت بين المسلمين حين اختلفوا في قراءة القرآن ، وجمع شملهم وتوحيد كلمتهم ،
والمحافظة على كتاب الله من التغير والتبديل . « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

الرد على ما يثار حول جمع القرآن من شبه

كان القرآن ولا يزال هدفاً لأعداء الإسلام ، يُسدّدون إليه سهام المطاعن ، ويتخذون
من علومه مشاراً للشبهات يلقّونها زوراً وكذباً ، ويروجونها ظلاماً وعدواناً . من ذلك
ما نقصه عليك في موضوعنا هذا مشفوعاً بالتفنيد فيما يأتي :

الشبهة الأولى وهي تعتمد على سبع شبه

يقولون : إن في طريقة كتابة القرآن وجمعه ، دليلاً على أنه قد سقط منه شيء وأنه
ليس اليوم بأيدينا على ما زعم محمد أنه أنزل عليه . واعتمدوا في هذه الشبهة على المزاعم
الآتية :

(أولاً) أن محمداً قال : رحم الله فلاناً لقد أذكّرني كذا وكذا آية . كنت
أُسْقِطُهُنَّ ، ويرى أنسيتهنَّ . فهذا الحديث فيه اعتراف من النبي نفسه بأنه أسقط عمداً
بعض آيات القرآن أو أنسيها .

(ثانياً) أن ما جاء في سورة الأعلى « سَنَقُرُّكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » يدل
بطريق الاستثناء الواقع فيه على أن محمداً قد أسقط عمداً أو أنسى آيات لم يتفق له من
يذكره إياها :

(ثالثاً) أن الصحابة حذفوا من القرآن كل ما رأوا المصلحة في حذفه ، فمن ذلك

آية اللقمة أسقطها على بن أبي طالب بقة ، وكان يضرب من يقرؤها . وهذا مما شئمت عائشة به عليه فقالت : إنه يجلد على القرآن ، وينهى عنه ، وقد بدله وحرّفه .

(رابعاً) أن أبي بن كعب حذف من القرآن ما كان يرويه ولا نجده اليوم في المصحف وهو : « اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَعِينُكَ وَنَسْتَهْدِيكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ وَنُؤْمِنُ بِكَ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ وَنُفْنِي عَلَيْكَ أَلْخَيْرَ كُلَّهُ . نَشْكُرُكَ وَلَا نَكْفُرُكَ ، وَنَحْمَلُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ . اللَّهُمَّ إِنَّاكَ نَعْبُدُكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ . نَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخَافُ عَذَابَكَ ، إِنَّ عَذَابَكَ الْجِدِّ بِالْكَفَّارِ مُلْحَقٌ »

(خامساً) أن كثيراً من آياته لم يكن لها قيد سوى تحفظ الصحابة ، وكان بعضهم قد قتلوا في معازي محمد وجروب خلفائه الأولين ، وذهب معهم ما كانوا يتخطفونه من قبل أن يؤعز أبو بكر إلى زيد بن ثابت بجمعه ، فلذلك لم يستطع زيد أن يجمع سوى ما كان يتحفظه الأحياء .

(سادساً) أن ما كان مكتوباً منه على العظام وغيرها ، فإنه كان مكتوباً عليها بلا نظام ولا ضبط ، وقد ضاع بعضها . وهذا ما حدا العلماء إلى الزعم أن فيه آيات نسخت حرفاً لا حكماً . وهو من غريب اللزاعم . وحقيقة الأمر فيها أنها سقطت بقة بضيايع العظم الذي كانت مكتوبة عليه ، ولم يبق منها سوى المعنى محفوظاً في صدورهم .

(سابعاً) لما قام الحجاج بنصرة بنى أمية لم يبق مصحفاً إلا جمعه وأسقط منه أشياء كثيرة قد نزلت فيهم ، وزاد فيه أشياء ليست منه ، وكتب ستة مصاحف جديدة بتأليف ما أراده ووجه بها إلى مصر والشام ومكة والمدينة والبصرة والكوفة

وهى القرآن المتداول اليوم. وَعَمَدَ إِلَى المصاحف المتقدمة، فلم يبق منها نسخة إلا أغلَى لها
اخللًا وطرحها فيه حتى تقطعت . وإنما رام بما فعله أن يتزلف إلى بنى أمية ،
فلم يُبْقِ في القرآن ما يسوءهم .

نقض هذه المزاعم الباطلة

ملخص هذه الشبهة أن القرآن الذى بأيدينا ناقص، سقط منه ماسقط، بدليل المزاعم
السبعة التى سنقنها أمامك . وإذن فلنمحص بين يديك هذه المزاعم ، لفأتى بنيان هذه
الشبهة من القواعد .

(١) أما احتجاجهم الأول - وهو الحديث الذى أوردوه - فإنه لا ينهض حجة لهم
فما زعموا من الشك في الأصل الذى قامت عليه كتابة القرآن وجمعه . بل الأصل سليم
قويم وهو وجود هذه الآيات مكتوبة في الوثائق التى استكتبها الرسول ، ووجودها
محفوظة في صدور أصحابه الذين تلقوها عنه ، والذين بلغ عددهم مبلغ التواتر ، وأجمعوا
جميعاً على صحته . كما عُرِف ذلك في دستور جمع القرآن .

إنما قصارى هذا الخبر أنه يدل على أن قراءة ذلك الرجل ذكّرت النبي ﷺ إياها ،
وكان قد أنسيها أو أسقطها (أى نسياناً) .

وهذا النوع من النسيان لا يزغزع الثقة بالرسول ، ولا يشكك في دقة جمع القرآن
ونسخته ، فإن الرسول ﷺ كان قد حفظ هذه الآيات من قبل أن يحفظها ذلك الرجل ،
ثم استكتبها كتاب الوحي ، وبلغها الناس فحفظوها عنه ، ومنهم رجل الرواية عبّاد بن
بشار رضى الله عنه على ما روى .

وليس في ذلك الخبر الذى ذكره رائحة أن هذه الآيات لم تكن بالحفوظات التى
كتبها كتاب الوحي ، وليس فيه ما يدل على أن أصحاب الرسول كانوا قد نسوها جميعاً ،
حتى يُحَاف عليها وعلى أمثالها الضياع ، ويُحشَى عليها السقوط عند الجمع واستنساخ المصحف الإمام ،

كما يفترى أولئك الخرافصون. بل الرواية نفسها تثبت صراحة أن في الصحابة من كان يقرؤها وسمعهما الرسول منه .

ثم إن دستور جمع القرآن - وقد مر آنفاً - يؤيد أنهم لم يكتبوا في المصحف إلا مآظهم الحفظ والكتابة والإجماع على قرآنيته : ومنه هذه الآيات التي يدور عليها الكلام هنا من غير ما شك .

ولا يفوتك في هذا المقام أمران : (أحدهما) أن كلمة « أَسْقَطْنَهُ » في بعض روايات هذا الحديث ، معناها أَسْقَطْنَهُ نسياناً ، كما تدل على ذلك كلمة « أُنْسِيَهُنَّ » في الرواية الأخرى . . ومحال أن يراد بها الإسقاط عمداً ، لأن الرسول ﷺ لا ينبغي له ولا يعقل منه أن يبدل شيئاً في القرآن بزيادة أو نقص من تلقاء نفسه، وإلا لكان خائناً أعظم الخيانة . والخائن لا يمكن أن يكون رسولاً .

هذا هو حكم العقل المجرد من الهوى، وهو أيضاً حكم النقل في كتاب الله؛ إذ يقول سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ، وإذ يقول جل ذكره : « قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدَلَهُ مِنْ تِلْكَاءِ نَفْسِي . إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ » .

(الأمر الثاني) أن روايات هذا الخبر لا تفيد أن هذه الآيات التي سمعها الرسول من عباد بن بشر قد آتحت من ذهنه الشريف جملة غاية ما تفيده أنها كانت غائبة عنه ثم ذكرها وحضرت في ذهنه بقراءة عباد. وغيبية الشيء عن الذهن أو غفلة الذهن عن الشيء، غير محوه منه. بدليل أن الحافظ منا لأى نص من النصوص يغيب عنه هذا النص إذا اشتغل ذهنه بغيره، وهو يوقن في ذلك الوقت بأنه مخزون في حافظته بحيث إذا دعا إليه داع استعرضه واستحضره ثم قرأه . أما النسيان التام المرادف لانتفاء الشيء من الحافظة، فإن الدليل قام على استحالة على النبي ﷺ فيما يحل بوظيفة الرسالة والتبليغ . وإذا عرض له نسيان فإنه سحابة صيف لا تجيء إلا لتزول. ولا ريب أن نسيان الرسول هنا كان بعد

أن أدّى وظيفته وبلغ الناس وحفظوا عنه . فهو نسيان لم يخل بالرسالة والتبليغ .. قال
البدر العيني في باب نسيان القرآن من شرحه لصحيح البخارى مانصه :

وقال الجمهور : « جاز النسيان عليه (أى على النبي ﷺ) فيما ليس طريقه البلاغ
والتعليم ، بشرط ألا يُقرَّ عليه ، بل لابد أن يذكره . وأما غيره فلا يجوز قبل التبليغ ،
وأما نسيان ما بلغه كما في هذا الحديث فهو جائز بلا خلاف » اهـ .

هذا . ولقد كنت في الطبعة الأولى تابعت بعض السكاكين هنا في اتهام هذه الرواية
بالدس والوضع ، ولكن تبين لى بعد إعادة النظر ، وتنبيه بعض ذوى الفطن ، أن الخبر
صحيح رواه الشيخان ؛ ففي صحيح البخارى عن هشام عن عروة عن عائشة رضى الله عنها
قالت « سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَقْرَأُ فِي الْمَسْجِدِ . فَقَالَ : يَرْحُمُهُ اللَّهُ .
لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً مِنْ سُورَةِ كَذَا » . زاد في رواية أخرى : « وقال : أَسْقَطْتُهُنَّ
مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا » .

وفي صحيح مسلم عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ
مِنَ اللَّيْلِ ، فقال : « يَرْحَمُهُ اللَّهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً كُنْتُ أَسْقَطْتُهَا مِنْ سُورَةِ
كَذَا وَكَذَا »

وقال النووي في كتابه التبيان في آداب حملة القرآن مانصه : « وثبت في الصحيحين
أيضاً عن عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقرأ ، فقال : « رحمه الله .
لقد أذكرك آية كنت أسقطتها » . وفي رواية في الصحيح « كنت أنسيها » اهـ .
سبحان ربى ! « لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » .

(٢) وأما احتجاجهم الثانى وهو الاستثناء الذى فى قوله سبحانه « سَنُقَرِّئُكَ فَلَا
تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » فلا يدل على ما زعموا ، لأنه استثناء صورى لا حقيقى . والحكمة
فيه أن يعلن الله عباده أن عدم نسيانه ﷺ الذى وعده الله إياه فى قوله : « فَلَا تَنْسَى »
إنما هو محض فضل من الله وإحسان ، ولو شاء سبحانه أن ينسيه لأنساه . وفى ذلك

الاستثناء الصوريّ فاندتان : إحداهما ترجع إلى النبي ﷺ حيث يشعر دائماً أنه مغمورٌ بنعمة الله وعنايته، مادام متذكراً للقرآن لا ينساه والثانية تعود على أمته حيث يعلمون أن نبيهم ﷺ فيما خصه الله به من العطايا والخصائص لم يخرج عن دائرة العبودية ، فلا يفتنون فيه كما فتن النصارى في المسيح بن مريم .

والدليل على أن هذا الاستثناء صوريّ لا حقيقي أمران : (أحدهما) ما جاء في سبب النزول وهو أن النبي ﷺ كان يتعب نفسه بكثرة قراءة القرآن حتى وقت نزول الوحي ، مخافة أن ينساه ، ويُفقد منه ، فاقترض رحمة الله بحبيبه أن يطمئنه من هذه الناحية ، وأن يريحه من هذا العناء ، فنزلت هذه الآية . كما نزلت آية « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُ قُرْآنِهِ » وآية « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً » .

(ثانيهما) أن قوله « إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » يعلق وقوع النسيان على مشيئة الله إياه . والمشية لم تقع بدليل ما مرّ بك من نحو قوله : « إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُ قُرْآنِهِ » . وإذا فالنسيان لم يقع ، للعلم بأن عدم حصول المعلق عليه يستلزم عدم حصول المعلق ، فالذي عنده ذوق لأساليب اللغة ، ونظر في وجوه الأدلة ، يتردّد في أن الآية وعدّ من الله أكيد ، بأن الرسول يقرئه الله فلا ينسى ، وعداً منه على وجه التأييد ، من غير استثناء حقيقي لوقت من الأوقات . وإلا لما كانت الآية مطمئنة له عليه الصلاة والسلام ، ولما كان نزولها أشبه بالعبث وانفو الكلام .

قال العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده عند تفسيره للاستثناء في هذه الآية ما نصه : « ولما كان الوعد على وجه التأييد والقرين ، ربما يوم أن قدرة الله لا تسع غيره ، وأن ذلك خارج عن إرادته جلّ شأنه ، جاء بالاستثناء في قوله « إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » ، فإنه إذا أراد أن ينسيك شيئاً لم يعجزه ذلك ، فالقصد هو نفي النسيان رأساً . وقالوا : إن ذلك

كما يقول الرجل لصاحبه « أنت سهيبي فيما أملك إلا ماشاء الله » لا يقصد استثناء شيء، وهو من استعمال القلة في معنى النفي. وعلى ذلك جاء الاستثناء في قوله تعالى في سورة هود « وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوذٌ » أي غير مقطوع. فالاستثناء في مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأييد والتخليد بكرم من الله وسعة جود، لا بتحقيم عليه وإيجاب، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب، لم يمنعه من ذلك مانع.

وما ورد من أنه ﷺ نسي شيئاً كان يذكره، فذلك إن صح، فهو في غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التي أمر بتبليغها. وكل ما يقال غير ذلك، فهو من مدخلات الملحدين، التي جازت على عقول المغفلين، فلو ثابروا بها ما طهره الله، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة ﷺ، ويؤمن بكتاب الله أن يطلق بشيء من ذلك « اهـ ».

ذلك رأى في معنى الاستثناء، وثمة وجه آخر فيه، وهو أنه استثناء حقيقي، غير أن المراد به منسوخ التلاوة دون غيره، ويكون معنى الآية أن الله تعالى يقرئ نبيه فلا ينسيه إلا ما شاءه وهو ما نسخت تلاوته لحكمة من الحكم التي بينها العلماء في مبحث النسخ. والدليل على هذا قوله سبحانه في سورة البقرة: « مَا نُنْسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسخُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا » قال العلامة أبو السعود في تفسيره: « قرئ » « مَا نُنْسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسخُهَا » « قرئ » « مَا نُنْسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسخُهَا » والمعنى أن كل آية نذهب بها على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معاً، إلى بدل أو إلى غير بدل « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا » أي نوع آخر هو خير للعباد بحسب الحال في النوع والثواب من الذاهبة. وقرئ « بقلب الهمزة ألفاً (أو مثلاً) أي فيما ذكر من النفع والثواب » اهـ ما أردنا نقله. وأبما يمكن معنى الاستثناء في آية « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » فإنه لا يفهم منه أن الرسول صلى الله عليه وسلم نسي حرفاً واحداً مما أمر بتلاوته وتبليغه للخلق،

وإبقاء التشريع على قراءته وقرآنيته من غير نسخ . وذلك على أن المراد من النسيان الخو التام من الذاكرة . أما إن أريد به غيبة الذهن عنه فقد سبق القول فيه قريباً . ولا تحسبن أن دواعي سهو الرسول ونسيانه تنال من مقامه ، فإنها دواع شريفة على حد ما قيل :

« يا سائلي عن رسول الله كيف سها ؟ والسهو من كل قلب غافل لاهي
سها عن كل شيء سره ، فسها عما سوى الله ، فالتعظيم لله

(٣ و ٤) وأما احتجاجهم الثالث والرابع بأن الصحابة قد حذفوا من القرآن عند جمعه ما زأوا المصلحة في حذفه ، ومنه آية المتعة وصيغة التنوين ، فهو احتجاج باطل قائم على إهمال النصوص الصحيحة المتضاربة على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن ، وكانوا أيقظ الخلق في حراسة القرآن ، ولهذا لم يعتبروا من القرآن إلا ما ثبت بالتواتر ، وردوا كل ما لم يثبت تواتره لأنه غير قطعي وبأبي عليهم دينهم وعقلهم أن يقولوا بقرآنية ما ليس بقطعي . وقد سبق لك ما وضعوه من الدساتير المحكمة الرشيدة في كتابة الصحف على عهد أبي بكر ، وكتابة المصاحف على عهد عثمان . فارجع إليها إن شئت لتعرف مدى إمعان هؤلاء المبطلين في التجني والضلال .

وإذا كان هؤلاء الطاعنون يريدون أن يلزموا الصحابة ويعيبوهم بهذه الحيلة البالغة لكتاب الله ، حتى أسقطوا ما لم يتواتر ، وما لم يكن في العرصة الأخيرة ، وما نسخت تلاوته وكان يقرؤه من لم يبلغه النسخ ، تقول : إذا كانوا يريدون أن يلزموا الصحابة والقرآن بذلك ، فالأولى لهم أن يلزموا أنفسهم وأن يواروا سواتهم . لأن المسلمين كانوا ولا يزالون أكرم على أنفسهم من أن يقولوا في كتاب الله بغير علم ، وأن ينسبوا إلى الله ما لم تقم عليه حجة قاطعة ، وأن يسلكوا بالقرآن مسلك الكتب المحرفة والأنجيل المبدلة .

وإننا نذكر هؤلاء بتلك الكلمة التي يردّدونها هم ، وهى : « من كان بيته من زجاج فلا يرجح الناس بالحجارة » .

وكلمة الفصل فى هذا الموضوع : أن آية اللقمة التى يزعمون ، وصيغة القنوت التى يحكون ، لم تثبت قرآنيتهما حتى يكونا فى عداد القرآن ، وإن ادعوا قرآنيتهما فعليهم البيان : « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

قال صاحب الانقصار ما نصّه : « إن كلام القنوت المروى أن أبى بن كعب أثبتّه فى مصحفه ، لم تقم الحجّة بأنه قرآن منزل ، بل هو ضربٌ من الدعاء ، وأنه لو كان قرآنًا لنقل إلينا نقل القرآن ، وحصل العلم بصحته » ثم قال « ويمكن أن يكون منه كلام كان قرآنًا منزلاً ثم نُسخ وأبيح الدعاء به وخلط بما ليس بقرآن . ولم يصحّ ذلك عنه ، إنما روى عنه أنه أثبتّه فى مصحفه ، وقد أثبت فى مصحفه ما ليس بقرآن من دعاء أو تأويل » اهـ . وهذا الدعاء هو القنوت الذى أخذ به السادة الحنفية . وبعضهم ذكر أن أبا رضى الله عنه كتبه فى مصحفه ، وسماه سورة الخلع والحفد ، لورود مادّة هاتين الكلمتين فيه ، وقد عرفت توجيه ذلك .

والخلاصة أن بعض الصحابة الذين كانوا يكتبون القرآن لأنفسهم فى مصحف أو مصاحف خاصّة بهم ربما كتبوا فيها ما ليس بقرآن ، مما يكون تأويلاً لبعض ما غمض عليهم من معانى القرآن ، أو مما يكون دعاء يجرى مجرى أدعية القرآن فى أنه يصح الإتيان به فى الصلاة عند القنوت ، أو نحو ذلك ، وهم يعلمون أن ذلك كله ليس بقرآن . ولكن ندرة أدوات الكتابة ، وكونهم يكتبون القرآن لأنفسهم وحدهم دون غيرهم ، هوّن عليهم ذلك ؛ لأنهم آمنوا على أنفسهم اللبس واشتباه القرآن بغيره . فظنّ بعض قصار النظر أن كل ما كتبوه فيها إنما كتبوه على أنه قرآن ، مع أن الحقيقة ليست كذلك إنما هى ما علمت . أضف إلى ذلك أن النبى ﷺ أتى عليه حين من الدهر نهى

عن كتابة غير القرآن إذ يقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه مسلم : « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمَحْهُ » وذلك كله مخافة اللبس والخلط والاشتباه في القرآن الكريم .

(٥) وأما احتجاجهم الخامس بأن كثيراً من آيات القرآن لم يكن لها قيد سوى تحفظ الصحابة ، وقد قُتل بعضهم وذهب معهم ما كانوا يتحفظونه ، فلا يُسلم لهم ؛ لأن نفس ما كان يتحفظه الشهداء من القراء ، كان يتحفظه كثير غيرهم أيضاً من الأحياء الذين لم يُستشهدوا ولم يموتوا ، بدليل قول عمر : « وَأَخْشَى أَنْ يَمُوتَ الْقُرَاءُ مِنْ سَائِرِ الْمَوَاطِنِ » ومعنى هذا أن القراء لم يموتوا كلهم . إنما المسألة مسألة خشية وخوف . ومعلوم أن أبا بكر كان من الحفاظ ، وكذلك عمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وغيرهم ، وهؤلاء عاشوا حتى جمع القرآن في الصحف ، وعاش منهم من عاش حتى نسخ في المصاحف وحينئذ فكتابة زيد ما كتبه ، هي كتابة لكل القرآن ، لم تفلت منه كلمة ولا حرف .

وكان القرآن كله مكتوباً كما سبق شرحه وبيانه ، حتى إن الصحابة في جمعه كانوا يستوثقون له بأن يعتمدوا على الحفظ والكتابة معاً ، دون الاكتفاء بأحدهما وكانوا فيما يعتمدون عليه من الكتابة يتأكدون من أنه كتب بين يدي النبي ﷺ ويطلبون على ذلك شاهدين ، كما سلف إيضاحه .

(٦) وأما احتجاجهم السادس بأن ما كان مكتوباً من القرآن على العظام ونحوها كان غير منظم ولا مضبوط الخ ؛ فينقضه ما أثبتناه آنفاً في جمع القرآن ، من أن ترتيب آياته كان توقيفياً ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرشد كُتَّاب الوحي أن يضعوا آية كذا في مكان كذا من سورة كذا . وكان يُقرؤها أصعابه كذلك ، ويحفظها الجميع ، ويكتبها من شاء منهم لنفسه على هذا النحو ، حتى صار ترتيب القرآن وضبط آياته معروفاً مستفيضاً بين الصحابة حفظاً وكتابة . ووجدوا ما كتب عند الرسول من القرآن ،

مرتب الآيات كذلك في كل رقعة أو عظمة ، وإن كانت العظام والرقاع منشرة وكثيرة مُبَعَثَةٌ . على أننا قرّرنا غير مرة أن التعويل كان على الحفظ والتلقي قبل كل شيء ، ولم يكن التعويل على المكتوب وحده ، فلا جرم كان في الحفظ والكتابة معاً ، ضمان للنظام والترتيب ، والضبط والحصر .

وأما قولهم في هذا الاحتجاج : « وقد ضاع بعضها » فيظن أنهم استندوا في ذلك إلى ما ورد من أنه فقدت آية من آخر سورة براءة ، فلم يجدوها إلا عند خزينة بن ثابت فظن هؤلاء أن هذا اعتراف منا بضياع شيء من مكتوب القرآن . وليس الأمر كما فهموا ، بل المعنى أن الصحابة لم يجدوا تلك الآية مكتوبة إلا عند خزينة بخلاف غيرها من الآيات ، فقد كانت مكتوبة عند عدّة من الصحابة ، ومع ذلك فقد كان الصحابة يقرءونها ويحفظونها ويعرفونها بدليل قولهم : فقدت آية . وإلا فما أدرام أنها فقدت من الكتابة لو لم يحفظوها ؟

وأما قولهم في هذا الاحتجاج أيضاً : إن ضياع ذلك البعض دعا الصحابة إلى دعوى النسخ وهو ممن غريب المزاعم ، فهو قولٌ أثيمٌ أرادوا به الطعن على النسخ وإنكاره ، وسيأتيك الكلام على النسخ وحكمته ودفع الشبه عنه في مبحث خاص إن شاء الله .

(٧) وأما احتجاجهم السابع بما نسبوه إلى الحجاج ، فهي نسبة كاذبة ، لا برهان لهم بها ، ولا دليل عليها . وهاهو التاريخ ، فليأتوا لنا منه بسلطان مبين على أن الحجاج جمع المصاحف ، فضلاً عن أنه نقص منها أو زاد فيها . ولو أنه فعل ذلك لنقل إلينا متواتراً ، لأن هذا مما تتوافر الدواعي على نقله وتواتره ! وكيف يفعل ذلك ، والأمة كلها تُقرؤه ، وأئمة الدين الموجودون في عهده كالحسن البصري يسكتون ولا ينكرون ، ولا يدافعون ولا يستقتلون ؟ « إن هذا إلا اختلاق » .

ثم إن الحجاج كان عاملاً من العمال على بعض أنظار الإسلام ، فأنى له أن يجمع
المصاحف ويحرقها فيما عدا ولايته التي هو عامل عليها ؟
وإذا فرضنا أن الحجاج كان له من القوة والشوكة ما أسكت به كل الأمة في زمانه
على هذا الخرق الواسع في الإسلام والقرآن ، فما الذي أسكت المسلمين بعد انقضاء عهد
الحجاج ؟ وإذا كان الحجاج قد استطاع التحكم في المصاحف ، والتلاعب فيها بالزيادة
والنقص ، فكيف استطاع أن يتحكم في قلوب الحفاظ وهم آلاف مؤلفة في ذلك العهد ،
حتى يمحوا منها ما شاء ويثبت ما أراد ؟ ..

هذه دعاوى ساقطة ، تحمل أدلة سقوطها في ألقاها ، وتدلُّ على جرأة القوم وإغراقهم
في الجهل والضلال . « وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » . نسأل الله السلامة بمنه وكرمه .
آمين .

الشبهة الثانية

يقولون : إن القرآن كما حصل فيه نقص عند الجمع ، حصلت فيه زيادة . والدليل على ذلك إنكار ابن مسعود أن المعوذتين من القرآن ، وأن في القرآن ما هو من كلام أبي بكر وكلام عمر .

وننقض هذه الشبهة (أولاً) : بأن ابن مسعود لم يصح عنه هذا النقل الذي تمسكتم به من إنكاره كون المعوذتين من القرآن . والمسألة مذكورة في كثير من كتب التفسير وعلوم القرآن مع تحصيلها والجواب عليها .

وخلاصة ما قالوه : أن المسلمين أجمعوا على وجوب تواتر القرآن . وبشكل على هذا ما نقل من إنكار ابن مسعود قرآنية الفاتحة والمعوذتين . بل روى أنه حك من مصحفه المعوذتين ، زعما منه أنها ليستا من القرآن .

وقد أجابوا عن ذلك بمنع صحة النقل ، قال النووي في شرح المذهب مانعه : « أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، وأن من جحد شيئاً منها كفر . وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » ١ . وقال ابن حزم في كتاب القدح الملعى : (هذا كذب على ابن مسعود وموضوع) . بل صح عن ابن مسعود نفسه قراءة عاصم ، وفيها المعوذتان والفاتحة . وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر « أنه صلى الله عليه وسلم قرأهما في الصلاة » . زاد ابن حبان من وجه آخر عن عقبة بن عامر أيضاً : « فإن استطعت ألا تفوتك قراءتهما في صلاة فافعل » ، وأخرج أحمد من طريق أبي العلاء بن الشَّخِير عن رجل من الصحابة أن النبي ﷺ قرأنا المعوذتين وقال له : إذا أنت صليت فاقرأ بهما . وإسناده صحيح .

(ثانياً) يحتمل أن إنكار ابن مسعود لقرآنية المعوذتين والفاتحة على فرض صحته ،

كان قبل علمه بذلك ، فلما تبين له قرآنيتهما بعد ، تم التواتر ، وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان في مقدمة من آمن بأنهما من القرآن .

قال بعضهم: «يَحْتَمِلُ أَنْ ابْنَ مَسْعُودٍ لَمْ يَسْمَعْ الْمُعَوِّذَيْنِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ تَتَوَاتَرَ عِنْدَهُ ، فَتَوَقَّفَ فِي أَمْرِهَا . وَإِنَّمَا لَمْ يَنْكَرْ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ بِصَدَدِ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ ، وَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ التَّمَثُّبُ فِي هَذَا الْأَمْرِ » اهـ . ولعل هذا الجواب هو الذي تستريح إليه النفس ، لأن قراءة عاصم عن ابن مسعود ثبت فيها للمعوذتان والفاطحة وهي صحيحة ، ونقلها عن ابن مسعود صحيح ، وكذلك إنكار ابن مسعود للمعوذتين جاء من طريق صححه ابن حجر . إذًا فليحمل هذا الإنكار على أولى حالات ابن مسعود ، جمعاً بين الروایتين .

وما يقال في نقل إنكاره قرآنية المعوذتين يقال في نقل إنكاره قرآنية الفاتحة بل نقل إنكاره قرآنية الفاتحة ، أدخل في البطلان ، وأعرق في الضلال ، باعتبار أن الفاتحة أم القرآن وأنها السبع المثاني التي تُتَنَّى وتُكْرَرُ في كل ركعة من ركعات الصلاة ، على لسان كل مسلم ومسلمة . فخش لا بن مسعود أن يكون قد خفي عليه قرآنيتهما ، فضلاً عن إنكاره قرآنيتهما . وقصارى ما نقل عنه أنه لم تكتبها في مصحفه ، وهذا لا يدل على الإنكار . قال ابن قتيبة مانصه : « وأما إسقاطه الفاتحة من مصحفه ، فليس لظنه أنها ليست من القرآن - معاذ الله - ، ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والذيان ، والزيادة والنقصان » اهـ ومعنى هذا أن عدم كتابة ابن مسعود للفاتحة في مصحفه كان سببه وضوح أنها من القرآن ، وعدم الخوف عليها من الشك والتسيان والزيادة والنقصان .

(ثالثاً) أننا إن سلمنا أن ابن مسعود أنكر للمعوذتين وأنكر الفاتحة بل أنكر القرآن كله ، فإن إنكاره هذا لا يضرنا في شيء ، لأن هذا الإنكار لا ينقض تواتر القرآن ، ولا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر . ولم يقل أحد في الدنيا :

إن من شرط التواتر والعلم اليقيني المبني عليه ألا يخالف فيه مخالف . وإلا لأمكن هدم كل تواتر ، وإبطال كل علم قام عليه ، بمجرد أن يخالف فيه مخالف ، ولو لم يكن في العير ولا في النفي . قال ابن قتيبة في مشكل القرآن : - « ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن . لأنه رأى النبي ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه ، ولا نقول إنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار » ١ .

(رابعاً) أن ما زعموه من أن آية « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » الخ من كلام أبي بكر فهو زعمٌ باطل ، لا يستند إلى دليل ولا شبه دليل . وقد جاء في الروايات الصحيحة أنها نزلت في واقعة أحد ، لعتاب أصحاب رسول الله ﷺ على ما صدر منهم ، وأنها ليست من كلام أبي بكر . وذلك أنه لما أصيب المسلمون في غزوة أحد بما أصيبوا به ، وكسرت رباعية^(١) النبي صلى الله عليه وسلم ، وشج^(٢) وجهه الشريف ، وجحشت^(٣) ركبته ، وشاع بين المقاتلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل . هنالك قال بعض المسلمين : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبيٍ فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان . وبعضهم جلسوا وألقوا بأيديهم . وقال أناس من المنافقين : إن كان محمد قد قتل ، فالحقوا بدينكم الأول فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك : إن كان محمد قتل ، فإن رب محمد لم يقتل . وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه . ثم قال : اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء ، (يعني المسلمين) وأبرأ إليك مما قال هؤلاء (يعني المنافقين) ، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل رضي الله عنه .

وروى أن أول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك ، فقد ورد أنه قال :

(١) الرباعية : هي السن التي بين الناب والثنية . (٢) شجّ الوجه : جرحه .

(٣) جحش الركبة : خدشها .

عرفت عينيه تحت المغفر تزهران ، فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين : أبشروا !
 هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأنحاز إليه ثلاثون من أصحابه رضى الله عنهم
 يتنافحون عنه . ثم لام النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على الفرار . فقالوا : يا رسول الله
 فدينناك بأبائنا وأبنائنا . أنا الخبير أنك قتلت ، فرُعِبَتْ قلوبنا ، فولينا مدبرين ، فأنزل
 الله تعالى هذه الآية : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ
 أَوْ قُتِلَ انْخَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ وَمَنْ يَنْفَلِتْ عَلَى عَقَبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا » الخ
 من سورة آل عمران .

والظاهر أن هؤلاء الطاعنين بزيادة هذه الآية وأنها من كلام أبي بكر ، يعتمدون
 فيها طعنوا على ما كان من عمر يوم وفاة رسول الله ﷺ ، ومن ردّ أبي بكر عليه بهذه
 الآية ، فزعموا أنها من كلام أبي بكر ، وما هي من كلام أبي بكر . إنما هي من كلام
 رب العزة ، أنزلها قبل وفاة الرسول ﷺ بيضع سنين ، والمسلمون جميعاً - ومنهم أبو بكر
 وعمر - يحفظونها ويعرفونها . غير أن منهم من ذهل عنها كعمر ، لهول الحادث وشدة
 الصدمة ، وتصدّع قلبه بموت رسول الرحمة وهاذى الأمة ﷺ .

وكان من آثار ذلك أن عمر رضى الله عنه غفل عن هذه الآية يوم توفى رسول الله
 صلى الله عليه وسلم فقام يومئذ وقال : « إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله
 ﷺ توفى . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات . ولكنه ذهب إلى ربه ، كما
 ذهب موسى بن عمران . فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل : مات .
 والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كارجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم ،
 زعموا أن رسوله الله ﷺ مات .

هنالك نهض أبو بكر ينقذ الموقف فقال : على رسلك يا عمر ، أنصت ، فحمد الله
 وأثنى عليه . ثم قال : أيها الناس : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان

يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا هذه الآية : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » إلى آخرها . قال الراوى : فوالله ، لكانَّ الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يؤمُّذ ، فأخذها الناس من أبي بكر . وقال عمر : ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، ففقرت^(١) حتى وقعت على الأرض ، ما تحملنى رجلاى وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات « ا هـ .

وهذه الآية - كما ترى - لا يشم منها رائحة أنها من كلام أبى بكر ، بلى هى تحمل فى طيها أدلة كونها من كلام الله ، وأن الصعابة يعلمون أنها من كلام الله ، نزلت قبل أن ينزل بهم هذا الخطب الفادح بيضع سنين . ولكن ما الحيلة فيمن أعمام الهوى والتعصب ؟ « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .
(خامساً) : أن ما ادَّعوه من أن آية « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » من كلام عمر ، مردود أيضاً بمثل ما رددنا به زعمهم السابق فى آية « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ » الخ . بل زعمهم هذا أظهر فى البطلان ، لأن الثابت عن عمر أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم « لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى » فنزلت « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » فى سورة البقرة . وهناك فرق بين كلمة عمر فى تمثيه الذى هو سبب النزول ، وبين كلمة القرآن الفازلة بذلك السبب ، فأنت ترى أن الآية جاء فيها الفعل بصيغة الأمر ولم يقرن بلفظ « لو » . أما تمنى عمر لجاء الفعل فيه بصيغة الماضى وقرن بلفظ « لو » . وتحقيق القرآن أمنية أو أمنيات لعمر ، لا يدل على أن ما نزل تحقيقاً لهذه التمنيات يعتبر من كلام عمر . بل البعد بينهما شاسع ، والبون بعيد .

(١) قال فى المختار : « والعقر بفتح الحين : أن تسلم الرجل قوائمه فلا يستطيع أن يقاتل من الفرق والدهش . وبابه طرب . ومنه قول عمر رضى الله عنه : ففقرت حتى خررت إلى الأرض » ا هـ .

الشبهة الثالثة

يزعم بعض غلاة الشيعة أن عثمان ومن قبله أبو بكر وعمر أيضاً حرّفوا القرآن، وأسقطوا كثيراً من آياته وسوره. ورووا عن هشام بن سالم من أبي عبد الله: أن القرآن الذي جاء به جبريل إلى محمد ﷺ كان سبعة عشر ألف آية^(١). وروى محمد بن نصر عنه أنه قال: كان في سورة «لم يكن» اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم. وروى محمد ابن جهم الهلالي وغيره عن أبي عبد الله أن لفظ «أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ» في سورة النحل ليس كلام الله، بل هو محرف عن موضعه، وحقيقة المنزل «أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّتِكُمْ». ومنهم من قال: إن للقرآن كانت فيه سورة تسمى سورة الولاية وأنها أسقطت بتمامها، وأن أكثر سورة الأحزاب سقط؛ إذ أنها كانت مثل سورة الأنعام، فأسقطوا منها فضائل أهل البيت. وكذلك ادعوا أن الصحابة أسقطوا لفظ «وَبَلَّغَ» من قبل «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» وأسقطوا لفظ «عَنْ وَلَايَةِ عَلِيٍّ» من بعد «وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ» وأسقطوا لفظ «بَعَثَ بَنِي طَالِبٍ» من بعد «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ» وأسقطوا لفظ «آلِ مُحَمَّدٍ» من بعد «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا» إلى غير ذلك. فالقرآن الذي بأيدي المسلمين اليوم شبرقاً وغرباً، أشدّ تحريفاً عند هؤلاء الشيعة من التوراة والإنجيل، وأضعف تأليفاً منها وأجمع للأباطيل! «فَاتْلَهُمْ اللَّهُ أُنَّى يُؤْفَكُونَ؟».

وننقض هذه الشبهة بما يأتي :-

(أولاً) أنها اتهامات مجردة عن السند والدليل، وكانت لا تستحق الذكر لولا

(١) مع العلم بأن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ومثنا آية وكسور كما يأتي.

أن ردّها بعض الملاحدة ، وربما يندع بها بعض المفتونين . ويكفى في بطلانها أنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يقيموا عليها برهاناً ولا شبه برهان .

« والدعاوى مالم يُقيموا عليها بَيِّنَاتٍ ، أبنائوها أذعِياء »

ولكن هكذا شاءت حماقتهم وسفاهتهم ! « وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » .

(ثانياً) أن بعض علماء الشيعة أنفسهم تبرا من هذا السخف ، ولم يُطبق أن يكون منسوباً إليهم وهو منهم ، فعزاه إلى بعض من الشيعة جمع بهم التفكير وغاب عنهم الصواب قال الطبرسي^(١) في جمع البيان مانصه : « أما الزيادة فيه - أى القرآن - فجمع على بطلانها . وأما النقصان فقد روى عن قوم من أصحابنا وقوم من الحشوية . والصحيح خلافه . وهو الذى نصره المرتضى ، واستوفى الكلام فيه غاية الاسقيفاء » . ١٠١ .

وقال الطبرسي أيضاً في جمع البيان مانصه : « أما الزيادة فى القرآن فجمع على بطلانها ، وأما النقصان فهو أشد استحالة . ثم قال : إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة ، وأشعار العرب المسطورة ، فإن العناية اشتدّت ، والدواعى توفّرت على نقله وحراسته ، وبلغت إلى حد لم يبلغه شيء فيما ذكرناه ، لأن القرآن مفخرة النبوة ، ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا فى حفظه وحمايته الغاية ، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أن يكون ممّيراً أو منقوصاً ، مع العناية الصادقة والضبط الشديد ؟ » ١٠١ .

(ثالثاً) أن التواتر قد قام ، والإجماع قد انعقد ، على أن الوجود بين دفّتي المصحف كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تغيير ولا تبديل . والتواتر طريق

(١) الطبرسي من رؤساء الشيعة ، وكتابه جمع البيان هو المرجع عندهم .

واضحة من طرق العلم . والإجماع سبيل قويم من سبيل الحق . « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » .

(رابعاً) أن الإمام عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه - وهو الذي يزعمون أنهم يناصرونه ويتشيعون له بهذه الهذيان - صَحَّ النقل عنه بتجبيذ جميع القرآن ، على عهد أبي بكر ثم عهد عثمان . ولعلك لم تنس أنه قال في جمع أبي بكر ما نصه : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب الله » . وكذلك قال في جمع عثمان ما نصه : « يا معشر الناس اتقوا الله ، وإياكم والغلو في عثمان ، وقولكم : حَرَّاقُ مصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقوله : « لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذى فعل عثمان » وبهذا قطع الإمام السنة أولئك المفترين ، وردّ كيدهم في نحورهم مخذولين . فإين يذهبون ؟ « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » ؟ .

« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

(خامساً) : أن الخلافة قد انتهت إلى عليّ كرم الله وجهه بعد أبي بكر وعمر وعثمان ، فإذا منعه أن يجهر وقتئذ بالحق في القرآن ، وأن يصحح للناس ما أخطأ فيه أسلافه على هذا الزعم والبهتان ؟ مع أنه الإمام المعصوم في عقيدة أولئك المبطلين ، ومع أنه كان من سادات حفظة القرآن ، ومن أشجع خلق الله في نصرة الدين والإسلام . ولقد صار الأمر بعده إلى ابنه الحسن رضى الله عنه ، فإذا منعه الآخر من انتهاز هذه الفرصة كي يظهر حقيقة كتاب الله للأمة . هذه مزاعم لا يقولها إلا مجنون ، ولا يصدق بها إلا مافون !!

وعق هذا

الشبهة الرابعة

يقولون : ورد أن عبد الله بن مسعود قال : « يا معشر المسلمين . أُعزّل عن نسخ المصاحف ، ويتولّاه رجلٌ - والله - لقد أسلّمتُ وإنه لفي صلب رجلٍ كافر ؟ » هـ . قالوا : وهو يعنى بهذا الرجل زيد بن ثابت ، ويريد بذلك الكلام الطعن على جمع القرآن . وهذا يدلُّ بالتالى على أن القرآن الموجود بين أيدينا ليس موضع ثقة ، ولم يبلغ حدّ التواتر .

وننقض شبهتهم هذه . (أولاً) بأن كلام ابن مسعود هذا - إذا صحّ - لا يدل على الطعن فى جمع القرآن ، إنما يدل على أنه كان يرى فى نفسه أنه هو الأولى أن يسند إليه هذا الجمع ، لأنه كان يثق بنفسه أكثر من ثقته بزيد فى هذا الباب . وذلك لا ينافى أنه كان يرى فى زيد أهلية وكفاية للنهوض بما أسند إليه ، وإن كان هو فى نظر نفسه أكفأ وأجدر . غير أن المسألة تقديرية ولا ريب أن تقدير أى بكر وعمر وعثمان لزيد أصدق من تقدير ابن مسعود له . كيف وقد عرفت فيما سبق مجموعة المؤهلات والمزايا التى توافرت فيه ، حتى جعلته الجدير بتنفيذ هذه الغاية السامية . أضف إلى ذلك أن عثمان ضمَّ إليه ثلاثة ، ثم كان هو وجمهور الصحابة مُشرفين عليهم مراقبين لهم ، وناهيك فى عثمان أنه كان من حفاظ ومعلمى القرآن !

وخلاصة هذا الجواب أن اعتراض ابن مسعود - على فرض صحّته - كان منصباً على طريقة تأليف لجنة الجمع ، لا على صحة نفس الجمع . مع أن كلمة ابن مسعود السالفة لا تدل على أكثر من أنه كان يَكْبُرُ زيداً بزمن طويل ، إذ كان عبد الله مسلماً وزيد لا يزال صغيراً مستتراً فى صلب أبيه . وليس هذا بطعن فى زيد ، فكم ترك الأول للآخر . ولو كان الأمر بالسن لا ختل كثير من نظام الكون . ثم إن كلمة

ابن مسعود ربما يفهم منها الطعن في زيد من ناحية أن أباه كان كافراً ، ولكن هذا ليس بطعن ، فكثير من أكابر الصحابة كانوا في مبدأ أمرهم كفاراً ، وخرجوا من أصلاب آباء كافرين . والله تعالى يقول : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » ويقول : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » .

(ثانياً) : أننا إذا سلمنا صحة ما نقل عن ابن مسعود ، وسلمنا أنه أراد الطعن في صحة جمع القرآن ، لا نسلم أنه دام على هذا الطعن والإنكار ، بدليل ما صح عنه أنه رجع إلى ما في مصحف عثمان ، وحرق مصحفه في آخره الأمر ، حين تبين له أن هذا هو الحق ، وبدليل ما صح عنه من قراءة عاصم عن زُرعة ، وقد تقدم .

(ثالثاً) أن كلام ابن مسعود هذا - على تسليم صحته وأنه أراد به الطعن في صحة الجمع ، وأنه دام عليه ولم يرجع عنه - لا نسلم أنه بدل على إبطال تواتر القرآن فإن التواتر كما أسلفنا يكفي في القطع بصحة مرويه أن ينقل عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب بشرطه ، وليس من شروطه ألا يخالف فيه مخالف حتى يقدح في تواتر القرآن أن يخالف فيه ابن مسعود أو غير ابن مسعود ، ما دام جم غفير من الصحابة قد أقروا جمع القرآن على هذا النحو في عهد أبي بكر مرة ، وفي عهد عثمان مرة أخرى .

الشبهة الخامسة

يقولون : كيف يكون القرآن متواتراً . مع ما يروى عن زيد بن ثابت أنه قال في الجمع على عهد أبي بكر ما نصه : « فقامت فتتبع القرآن أجمه من الرقاع والأكتاف والعصب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره ، وهما « لقد جاءكم رسول » إلى آخر السورة .

ثم كيف يكون القرآن متواتراً ، مع ما يروى أيضاً عن زيد بن ثابت أنه قال في الجمع على عهد عثمان ما نصه : « فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها ، لم أجدها مع أحدٍ إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » ؟

والجواب على هذه الشبهة (أولاً) أن كلام زيد بن ثابت هذا ، لا يبطل التواتر . وبيان ذلك أن الآيتين ختام سورة التوبة ، لم تثبت قرآنيتهما بقول أبي خزيمة وحده . بل ثبتت بأخبار كثيرة غامرة من الصحابة عن حفظهم في صدورهم ، وإن لم يكونوا كتبوه في أوراقهم . ومعنى قول زيد : « حتى وجدت من سورة التوبة آيتين لم أجدهما عند غيره » أنه لم يجد الآيتين اللتين هما ختام سورة التوبة مكتوبتين عند أحد إلا عند أبي خزيمة ، فالذي انفرد به أبو خزيمة هو كتابتهما لا حفظهما ، وليس الكتابة شرطاً في التواتر ، بل المشروط فيه أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ولو لم يكتبه واحد منهم ، فكتابة أبي خزيمة الأنصاري كانت توثيقاً واحتياطاً فوق ما يطلبه التواتر وبقتضيه ، فكيف نقدح في التواتر بانفراده بها ؟

(ثانياً) يقال مثل ذلك فيما روى عن زيد في آية سورة الأحزاب : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » فإن معناه أن زيدا لم يجدها مكتوبة عند أحد إلا عند خزيمة بن ثابت الأنصاري . ويدل على أن هذا هو المعنى الذي أراده زيد بعبارة تلك ، قول زيد نفسه فقدت آية من سورة الأحزاب الخ ، فإن تعبيره بلفظ « فقدت » يشمر بأنه كان يحفظ هذه الآية ، وأنها كانت معروفة له ، غير أنه قد كتبها ، فلم يجده إلا مع خزيمة ، وإلا فمن الذي أنبا زيدا أنه فقد آية ؟

(ثالثاً) أن كلام زيد فيما مضى من ختام سورة التوبة وآية الأحزاب ، لا يدل على

عدم تواترها ، حتى على فرض أنه يريد انفراد أى خزيمة وخزيمة بذكرها من حفظهما .
غاية ما يدل عليه كلامه ، أنها انفراداً بذكرها ابتداء ، ثم تذكر الصحابة ما ذكره ،
وكان هؤلاء الصحابة جميعاً يؤمن تواطؤهم على الكذب ، فدونت تلك الآيات في الصحف
وللصحف ، بعد قيام هذا التواتر فيها .

الشبهة السادسة

يقولون : كانت الآيات تكتب على الحجارة وسعف النخل والعظام خوفاً عليها
من الضياع ، وبقي جانب كبير منها محفوظاً في صدور الرجال . وقد نشأ عن ذلك عدة
مشاكل يعتبرها الباحثون فيه كافية لإثبات كون القرآن الحالى لا يحتوى جميع الآيات
التي نطق بها محمد ، وبعضها يختلف في القراءة واللفظ والمعنى . ويقولون بعبارة أخرى
لأنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالى حاوياً لجميع ما أنزل ، إذ من المؤكد أنه ذهب
منه جانب ليس بقليل ، وأنسى منه جانب آخر ، قال ابن عمر : « لا يقول أحدكم
قد أخذت القرآن كله . قد ذهب منه كثير . ولكن ليقل : قد أخذت ما ظهر منه » .
فهذا يثبت أن القرآن الحالى لا يتضمن جميع ما كان مسطوراً في اللوح المحفوظ . ولا هو
طبق ما نطقت به شفتا محمد ، سيما أن في آيات عديدة منه اختلافات مدهشة ، ولا يعلم
نصها الصحيح أحد » اهـ .

وننقض هذه الشبهة بما يأتي :

(أولاً) أن كتابة القرآن على الحجارة والسهف والعظام ، وبقاء جانب كبير منه
م محفوظاً في صدور الرجال ، لا يلزم منه مشكلة واحدة فضلاً عن عدة مشاكل ، إنما
هو وهم من الأوهام تخيلوه نخلوه ، وبدليل أنهم لم يذكروا سندهم فيما ذهبوا إليه من
هذا الشطط .

(ثانياً) أن الحجارة وسعف النخل والعظام التي كُتِبَ عليها بعض آيات القرآن لم تكن بحيث يمكن أن يتخيل أولئك الطاعنون أو يخيلوا إلى الناس أنها لا تصلح للكتابة عليها، بل كانت العرب لبداتها ولبعدها عن وسائل الحضارة وال عمران، تصطفى من أنواع الحجارة الموفرة عندها نوعاً رقيقاً يكون كالصحيفة يصلح للكتابة وللبقاء، أشبه بما نراه اليوم من الكتابة الجميلة المنقوشة على صفحات مصنوعة مما نسميه (الجبس). وكذلك سعف النخل يكشطون الخوص عنه، ويكتبون في الجزء العريض منه بعد أن يصفوه ويهدبوه فيكون أشبه بالصحيفة. وقل مثل هذا في العظام، بدليل أن الروايات الواردة في ذلك نصت على نوع خاص منه وهو عظام الأكتاف، وذلك لأنها عريضة رقيقة ومصقولة صالحة للكتابة عليها بسهولة.

(ثالثاً): أن استنتاجهم من هذا كون القرآن الخالي لا يحتوي جميع الآيات التي نطق بها محمد، استنتاجٌ معكوس، وفهمٌ منكوس، لأن كتابة القرآن وحفظه في آن واحد في صدور آلاف مؤلفة من الخلق، أدعى إلى بقاء ذلك القرآن، وأدلى على أنه لم تفلت منه كلمة ولا حرف. كيف وأحد الأمرين من الكتابة والحفظ كافٍ في هذه الثقة؟ فما بالك إذا كان القرآن كله مكتوباً بخطوط أشخاص كثيرين، ومحفوظاً في صدور جماعات كثيرين!

(رابعاً) قولهم: «وبعضها يختلف في القراءة واللفظ والمعنى» إن أرادوا به الطعن في تعدد القراءات واختلاف وجوه الأداء، فقد سبق في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف ما يكفيك في الرد عليهم، وسيأتيك في مبحث القراءات ما يزيدك تنوراً في هذا الموضوع، وإن أرادوا به شيئاً آخر فليهم البيان. وحسبك أن تعرف أن اختلاف حروف القرآن أمر تقتضيه الحكمة، ويوجبه عموم الدعوة الإسلامية. خصوصاً لمن شافهم الرسول عليه الصلاة والسلام، وهم على اختلاف قبلاتهم، وتنوع

لهجاتهم ، وتباين وجوه نطقهم ، عربٌ تؤلف بينهم العروبة الواحدة ، ويجمعهم اللسان العربي العام . فأى عيب على القرآن إذا اختلفت حروف أدائه ، وكيفيات النطق بكلماته ، ليسع القبائل العربية جميعاً ، وليتسنى لها تلاوة ألفاظه ، وتفهم معانيه ؟ ولئلا يقول أحد منها : لوجاء القرآن بلغتنا لكان لنا معه شأن ، ولأتينا بمثله ، وعارضنا بلاغته ! « **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** »

(خامساً) : قولهم إنه من المستحيل أن يكون القرآن الخالي حاوياً لجميع ما أنزل إلخ ، كلام مجرد من السند والحجة ، لا يستحق الرد ، فإن استندوا فيه إلى ماسبق فقد استندوا إلى أوهم من بيت العنكبوت ، وقد عرفت وجوه الوهن التي فيه . وإن استندوا إلى ما ذكروه بعدما نسبوه لابن عمر ، فقد زادوا الطين بلة ؛ لأن هذه النسبة إلى ابن عمر نسبة خاطئة كاذبة ، وعلى فرض صحتها فهي موقوفة وليست برفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى فرض رفعها فهي معارضة للأدلة القاطعة المتوافرة في تواتر القرآن وسلامته من التغير والزيادة والنقصان ، ومعارض القاطع ساقط مهما كانت قيمة سنده في خبر الواحد .

(سادساً) : أن نهايتهم التي ختموا بها هذه الشبهة أقبح من بدايتهم ، لأنهم رتبوها على تلك الأكاذيب والمهاترات ، ثم زادوا فيها اتهاماً جديداً مجرداً من السند والحجة أيضاً ، وهو أن في آيات عديدة من القرآن اختلافات مدهشة ، ولا يعلم نصها الصحيح أحد ، وهكذا خرجوا من اتهام إلى اتهام ، واحتجوا بكذب على كذب ، وهانت عليهم كرامتهم وعقولهم ، فقالوا ماشاء لهم الهوى والتعصب إلى هذا الحد وأنت خير بأن القرآن الخالي وصل إلينا محفوظاً من كل عيب كما نطق به الرسول ﷺ وكما خطه الله تعالى بقلمه في لوحه . « **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَمِيدٍ حَمِيدٍ** » .

أما زعمهم أن فيه اختلافات مدهشة ، فقد علمت في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف مدى اختلاف وجوه القراءات وحكمته ، وأنه لا يؤدي إلى تناخل وتناقض حتى يكون مدهشاً .

وأما نصوص القرآن الصحيحة فقد علمها وحفظها جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الأمة . من لدن رسول الله ﷺ إلى اليوم .
قادة هؤلاء الجبهة الدجالين أنه لا يعلم نصوص القرآن الصحيحة أحد ، ادعاء منضوح ، وكذب مكشوف .

قال صاحب مُسَلَّم الثبوت - وهو من أشهر الكتب في أصول الفقه الإسلامي - :
« ما نُقِلَ آحاداً فليس بقرآن قطعاً ، ولم يُعرف في هذا خلافٌ لواحد من أهل المذاهب .
والدليل على ذلك أن القرآن مما توافر الدواعي على نقله لتضمينه التجدد ، ولأنه أصل الأحكام باعتبار المعنى واللفظ جميعاً ، ولذلك علم جهد الصحابة في حفظه بالتواتر القاطع ، وكل ما توافر الدواعي على نقله ينقل متواتراً عادة ، فوجوده ملزوم التواتر عند الكل عادة ، فإذا انتفى اللازم وهو التواتر انتفى الملزوم قطعاً . والمنقول آحاداً ليس متواتراً فليس قرآنًا » اهـ بتصرف قليل .

خط منيع من خطوط الدفاع عن الكتاب والسنة

أو الدواعي والعوامل التي توافرت في الصحابة حتى استظهروا القرآن

والحديث النبوي وتثبتوا فيهما

إن الناظر في الشبهات السالفة وأمثالها ، يبدو له في وضوح أن القوم يحاولون الطعن في القرآن عن طريق النيل من الصحابة ، فطوراً يقولون : إن الصحابة حين جمع القرآن لم يكونوا يستظهرونه ، وإن الذين استظهروه منهم ماتوا قبل جمعه واستشهدوا ، وطوراً يقولون : إن الصحابة لم يقتضوا في جمع القرآن ، بل حطبوا فيه بليل ، وزادوا فيه ونقصوا منه ماشاءوا .

وقد كثرت هجمات أعداء الإسلام من هذه الناحية كثرة فاحشة، بحيث إذا لمستقصينا شبهاتهم كلها ضاق بنا نطاق هذا التأليف، وخرجنا جملةً من الجو العلمي الهادي اللذيذ، إلى ميدان صاحب بالقييل والقال، والصيال والجدال، والدفاع والنضال.

وكذلك كثرت هجمات أعداء الإسلام على السنة النبوية من ناحية الصحابة أيضاً، فتارةً يستكثرون عليهم أن يكونوا قد حفظوا الحديث الشريف وهو موسوعات كبيرة، وتارةً يتهمونهم بالخيانة والتزيُّد وعدم الثبُت والتحرُّى، وبينون على ذلك مفتريات ما أنزل الله بها من سلطان.

يريدون بهذه الاتهامات الجريئة للصحابة، أن يزغزغوا ثقة الناس بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، حتى يفتنوا المسلمين عن دينهم، وحتى يقيموا الحواجز والعوائير في طريق غير المسلمين، مخافة أن يحتذ بهم الإسلام إليه بحاسنه الأخاذة، وقوته المحولة، وتعاليمه الوضاعة.

وبرغم أن شبهات القوم كلها متشابهة، وطرق دفعها هي الأخرى متشابهة، فإن واجب الخيلة والحذر يقتضينا بعد ما تقدّم أن نقيم خطأ منيعاً من خطوط الدفاع عن الكتاب والسنة، وأن نؤلّف هذا الخط من جبهتين قويتين، الجبهة الأولى تطاول السماء بتجلية الدواعي والعوامل التي توافرت في أصحاب رسول الله ﷺ حتى جعلت منهم كثرة غامرة يحفظون القرآن والحديث، وينقلونها نقلاً متواتراً مستفيضاً. والجبهة الثانية تفاخر الجوزاء بنظم الدواعي والعوامل التي توافرت فيهم رضوان الله عليهم، حتى جعلتهم يقشبتون أبلغ ثبُت وأدقّ القرآن وجمع القرآن وكل ما يتصل بالقرآن، وفي الحديث الشريف وكل ما يتصل بالحديث الشريف.

وإني أستمح الله فتوحاً وتوفيقاً في هذه المحاولة الجميلة «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَبَيِّنَةٍ مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَإِنْ آتَى اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

١ - الجبهة الأولى

أو الدواعي والعوامل في حفظ الصحابة للكتاب والسنة
ونقلهم لها

ولنبدا بشرح العوامل والدواعي التي سرت للصحابة حفظ الكتاب والسنة ونقلها،
حتى لا يستبعد ذلك عليهم أحد ، ولا يظعن في الكتاب والسنة عن هذا الطريق أحد :

العامل الأول

أنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة؛ ولا يحذقون الخط والكتابة، اللهم إلا نَزَرَ
يسيراً لا يُصاغ منهم حكم على المجموع . وترجع هذه الأمية السائدة فيهم إلى غلبة البداوة
عليهم، وبعدهم عن أسباب المدنية والحضارة ، وعدم اتصالهم اتصالاً علمياً وثيقاً بالأمم
المتحضرة في العالم لذلك الحين : أمة الفرس في الشرق ، وأمة الروم في الغرب. ومعلوم
أن الكتابة والقراءة وأحباء الأمية في أية أمة ، رهينٌ بخروجها من عهد السذاجة
والبساطة ، إلى عهد المدنية والحضارة .

ثم إن هذه الأمية تجعل المرء منهم لا يعول إلا على حافظته وذاكرته فيما يهيمه حفظه
وذاكره . ومن هنا كان تعويل الصحابة على حوافظهم بقدها في الإحاطة بكتاب الله
وسنن رسول الله ﷺ ، لأن الحفظ هو السبيل الوحيدة أو الشبيهة بالوحيدة إلى إحاطتهم بهما.
ولو كانت الكتابة شائعة فيهم ، لا اعتمدوا على النقش بين السطور ، بدلا من الحفظ
في الصدور .

نعم . عمل الرسول على كتابة القرآن ، وكان له كُتَّابٌ يكتبون الوحي كما سبق ، وكان بعض الصحابة يكتبون القرآن لأنفسهم كذلك ، غير أن هؤلاء وهؤلاء كانوا فئة قليلة بجانب الجُمِّ الغفير من سواد الأمة الكثير . ولعلك لم تنس أن كتابة القرآن في عهد الرسول كان الغرض منها زيادة التوثق والاحتياط للقرآن الكريم ، بتقييده وتسجيله بالنقش ، فوق تقييده وتسجيله بالحفظ .

أما السنة النبوية فقد نهى النبي ﷺ أصحابه عن كتابتها أول الأمر مخافة اللبس بالقرآن ، إذ قال عليه الصلاة والسلام : « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُحْهُ ، وَحَدِّثُوا عَنِّي فَلَا حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري .

نعم . خشى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختلط القرآن بالسنة ، إذا هم كتبوا السنة كما كانوا يكتبون القرآن ، أو أن تتوزع جهودهم وهي لا تحمل أن يكتبوا جميع السنة وجميع القرآن فقصرهم على الأهم أولاً وهو القرآن . خصوصاً إذا لاحظنا أن أدوات الكتابة كانت نادرة لديهم إلى حد بعيد ، حتى كانوا يكتبون في اللخاف والسعف والعظام كما علمت .

فرحة بهم من ناحية ، وأخذاً لهم بتقديم الأهم على المهم من ناحية ثانية ، وحفظاً للقرآن أن يشبه بالسنة إذا هم كتبوا السنة بجانب القرآن نظراً إلى عزّة الورق وندرة أدوات الكتابة ، رعاية لهذه الغايات الثلاث نهى الرسول عن كتابة السنة .

أما إذ أمن اللبس ، ولم يُخش الاختلاط ، وكان الأمر سهلاً على الشخص ، فلا عليه أن يكتب الحديث الشريف ، كما يكتب القرآن الكريم . وعلى ذلك تُحمل الأحاديث الواردة في الإذن بكتابة السنة آخر الأمر ، والواردة في الإذن لبعض الأشخاص

كعب الله بن عمرو (رضى الله عنه) : ولهذا الموضوع مبحث خاص به فاطلبه إن شئت في علوم الحديث .

وأياً ما تكن كتابة القرآن والسنة النبوية ، فإن التعويل قبل كل شيء كان على الحفظ والاستظهار ، ولا يزال التعويل حتى الآن على التلقّي من صدور الرجال ، ثقة عن ثقة ، وإماماً عن إمام ، إلى النبي ﷺ .
غير أن الرجل الأُمّي والأمة الأُمّية يكونان أسبق من غيرها إلى الحفظ ، للمعنى الذي أسلفناه لك .

العامل الثاني

أن الصحابة كانوا أمة يُضرب بها المثل في الذكاء والألمعية ، وقوة الحافظة وصفاء الطبع ، وسيلان الذهن وحدة الخاطر ! وفي التاريخ العربي شواهد على ذلك يطول بنا تفصيلها ، ولعلها على بالٍ منك . حتى لقد كان الرجل منهم ربما يحفظ ما يسمعه لأول مرة مهما كثر وطال ، وربما كان من لغة غير لغته ، ولسانٍ سوى لسانه ، وحسبك أن تعرف أن رءوسهم كانت دواوين شعرهم ، وأن صدورهم كانت سجلّ أنسابهم ، وأن قلوبهم كانت كتاب وقائعهم وأيامهم ! كل أولئك كانت خصائص كامنة فيهم وفي سائر الأمة العربية من قبل الإسلام ، ثم جاء الإسلام فأرّهف فيهم هذه القوى والمواهب ، وزادهم من تلك المزايا والخصائص بما أفاد طبعهم من صقل ، ونفوسهم من طهر ، وعقولهم من سُمو ، خصوصاً إذا كانوا يسمعون لأصدق الحديث وهو كتاب الله ، ولخير الهدى وهو هدى محمد ﷺ .

العامل الثالث

بساطة هذه الأمة العربية ، واقتصارها في حياتها على ضروريات الحياة من غير ميل إلى الترف ، ولا إنفاق جهد أو وقت في الكماليات. فقد كان حسب الواحد منهم لقيمات يؤمن صلبه ، وكان يكفيه من معيشته ما يذكره شاعرهم في قوله : -
 « وَمَا الْعِيشُ إِلَّا نَوْمَةٌ وَتَبَطُّحٌ وَتَمَرٌّ عَلَى رَأْسِ النَّخِيلِ وَمَاءٌ »
 ومثلك يعلم أن هذه الحياة المادئة الوداعة ، وتلك العيشة الراضية القاصدة ، تُوفر الوقت والجهد ، وترضى الإنسان بالموجود ، ولا تشغل البال بالمفقود. ولهذا أثره العظيم في صفاء الفكرة وقوة الحافظة وسيلان الأذهان ، خصوصاً أذهان الصحابة في اتجاهاها إلى حفظ القرآن وحديث النبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك على حد قول القائل : -
 « ... فصادفَ قلباً خالياً فتمكَّنَا » .

العامل الرابع

حبُّهم الصادقُ لله ولرسوله ، حباً ملك مشاعرهم ، واحتلَّ مكان العقيدة فيهم . وأنت تعرف من دراسة علم النفس ، أن الحبَّ إذا صدق وتمسك ، حمل الحبَّ حملاً على ترسيم آثار محبوبه والتلذُّذ بحديثه ، والتنادُّر بأخباره ، ووعى كل ما يصدر عنه ويبدُر منه . ومن هنا كان حب الصحابة لله ورسوله ، من أقوى العوامل على حفظهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . على حدِّ قول القائل :

« لَمَّا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرِكَ تَشَغَّلَهَا عَنْ الشَّرَابِ وَتُلْهِمَهَا عَنِ الزَّادِ »
 لَمَّا بَوَجَّهَكَ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادٍ

إِذَا شَكَّتْ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ وَاعَدَهَا رُوحَ الْقُدُومِ فَتَحِيًّا عِنْدَ مِيعَادِهِ .
 أما حبُّ الصحابة العميق لله تعالى ، فلا يحتاج إلى شرح وبيان ، ولا إلى إقامة
 دليل وبرهان ، فهم خير القرون بنصِّ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «خير القُرُونِ
 قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَكُونُ مِنْهُمْ» ، وهم الذين بذلوا نفوسهم ونفائسهم رخيصةً في سبيل رضاه ،
 وهم الذين باعوا الدنيا بما فيها يبتغون فضلاً من الله ، وهم الذين تحلوا هداية الإسلام
 إلى الشرق والغرب ، وأتوا بالمعجب المُجِيب في نِجَاح الدعوة الإسلامية بالحضر والبدو ،
 وكانوا أحرىء بامتداح الله إياهم غير مرة في القرآن ، وبثناء الرسول صلى الله عليه وسلم
 عليهم في أحاديث عظيمة الشأن !

وأما مظاهر حُبِّهم للرسول صلى الله عليه وسلم فما حكاه التاريخ الصادق عنهم من
 أنه ما كان أحدٌ يحبُّ أحداً مثل ما كان يحبُّ أصحاب محمدٍ محمداً . دَمُ الرجل منهم
 رخيص في سبيل أن يُقَدِّى رسول الله ﷺ من شوكة يشاكها في أسفل قدمه . وماء
 وضوئه يبتدرونه في اليوم الشديد البرد يتبرَّكون به ، وأب الواحد منهم وأبناءؤه من الدُّ
 أعدائه ماداموا يمادون محمداً ، وحديث محمد موضع التنافس من رجالهم ونسائهم ، حتى
 إذا أعيى الواحد منهم طَلَابُهُ ، تناوب هو وزميل له الاختلاف إلى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ، على أن يقوم أحدهما بعمل الآخر عند ذهابه ، ويقوم الآخر برواية ما سمعه
 وعرفه من الرسول بعد إيباه (١) .

وهذه وافدة النساء تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم «يارسول الله غَلَبْنَا عَلَيْكَ
 الرِّجَالُ ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ تَعْلَمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ» إلى غير ذلك
 من شواهد ومظاهر ، تدلُّ على مبلغ هذا الحب السامى الشريف ، ويرحم الله القائل :-

(١) انظر باب التناوب في طلب العلم من صحيح البخارى .

« أَسْرَتْ قُرَيْشٌ مُسْلِمًا فِي غَزْوَةٍ فَمَضَى بِلَا وَجَلٍ إِلَى السِّيَافِ
سَأَلُوهُ : هَلْ يُرْضِيكَ أَنْتَ سَالِمٌ وَلَكَ النَّبِيُّ فِدَى مِنَ الْإِتْلَافِ
فَأَجَابَ : كَلَّا . لَا سَلِمْتُ مِنَ الرَّدَى وَيُصَابَ أَنْفُ مُحَمَّدٍ بِرُعَافٍ

ولقد كان من مظاهر هذا الحب - كما رأيت تسابُّهم إلى كتاب الله يأخذونه عنه ويحفظونه منه . ثم إلى سُنَّته الغراء يحيطون بأقوالها وأفعالها وأحوالها وتقريراتها . بل كانوا يتفنتون في البحث عن هَدْيِهِ وخبره ، والوقوف على صفته وشكله ، كما تجد ذلك واضعاً من سؤال الحسن والحسين عن حِلْيَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أُجِيبَا به من تَجَلُّيَةِ تلك الصور الحمديَّة الرائعة ، ورسمها بريشة المصوِّر الماهر ، والصَّنَاعِ القادر ، على يد أبيها علي بن أبي طالب ، وخالها هذ بن أبي هالة ، رضى الله عنهم أجمعين ^(١) .

العامل الخامس

بلاغة القرآن الكريم إلى حدِّ فاق كل بيان ، وأخرس كل لسان ، وأسكت كل معارض ومكابر ، وهدم كل مجادل ومهاجر ، حتى قام ولا يزال يقوم في فم الدنيا معجزة من الله لحبيبه ، وآية من الحق لتأييد رسوله . وبعد كلام الله في إعجازه وبلاغته ، كلامُ محمد ﷺ في إشرافه ودبياجته وبراعته ، وجزالة ألفاظه وُسُموِّ معانيه وهدايته . فقد كان ﷺ أفصح الناس وأبلغ الناس ، وكان العرب إلى جانب ذلك مأخوذين بكل فصيح بليغ ، متنافسين في حفظ أجود المنظوم والمنثور . فمن هنا هبوا هبة واحدة يحفظون القرآن ، ويفهمون القرآن ، ويعملون بالقرآن ، وينامون ويستيقظون على القرآن . وكذلك

(١) انظر في ذلك ما يرويه محمد أبو عيسى الترمذى متفرقاً في كتاب الشمايل من

طريق سفيان بن وكيع ، رضى الله عنهم .

السنة النبوية كانت عنايتهم بحفظها والعمل بها تلى عنايتهم بالقرآن الكريم ينفقونها ويقبأونها كما سمعت .

والكلام في أسرار بلاغة القرآن ووجوه إعجازه، وفي بلاغة كلام النبوة وامتيازه، وفي تنافس العرب في ميدان البيان، كل ذلك مما لا يحتاج إلى شرح ولا تبيان، فهذا كتاب الله ينطق علينا بالحق، ويتحدّى بإعجازه كافة الخلق. وهذا بحر النبوة يفيض بالدراري واللالى، ويزخر بالهدايات البالغة والحكم الغوالي. وهذا تاريخ الأدب العربي يسجل لأولئك العرب فوقهم في صناعة الكلام، وسبقهم في حلبة الفصاحة كافة الأنام، وامتيازهم في تذوق أسرار البلاغة خصوصاً بلاغة القرآن ١١ .

العامل السادس

الترغيب في الإقبال على الكتاب والسنة علماً وعملًا، وحفظاً وفهماً، وتعلماً ونشراً وكذلك الترهيب من الإعراض عنهما، والإهمال لهما .

نقرأ في القرآن الكريم قوله سبحانه : « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ، لِيُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ جُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ » . فتأمل كيف قدّم تلاوة القرآن على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؟ ونقرأ قوله جلّ ذكره : « كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » . فانظر كيف حتّ بهذا الأسلوب البارع على تدبر القرآن والتذكر والاتعاظ به ؟ ونقرأ قوله عزّ اسمه : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » . فتدبر كيف يكون وعيد من كتم القرآن وهدى القرآن ؟

ثم نقرأ في السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحقتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . رواه مسلم وأبو داود وغيرهما .

ونقرأ في صحيح البخارى ومسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

ونقرأ لأبي داود والترمذى وابن ماجه قوله ﷺ : « عرضت على ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيتها رجل ثم نسيها » .

أليس ذلك وأمثال ذلك - وهو كثير - يحفز الهمم ويحرك العزائم ، إلى حفظ القرآن واستظهاره والمداومة على تلاوته ، مخافة الوقوع في وعيد نسيانه وهو وعيد كما سمعت شديد ؟ .

أما السنة النبوية فقد جاء في شأنها عن الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » وقوله سبحانه : « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » . وقوله : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا » . وقوله : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

وجاء ترغيباً في السنة النبوية من الحديث الشريف قوله ﷺ : « نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنْهُ حَدِيثًا ، فَأَدَاهُ كَمَا سَمِعَهُ ، قَرَّبَ مُبْلَغٌ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » وهو حديث متواتر ، وقوله صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع : « ألا : فليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مِنْ سَمِعَهُ » رواه الشيخان . وجاء ترهيباً من

الإعراض عن السنة ، قوله صلى الله عليه وسلم : « من رغب عن سُنَّتِي فليس مني » .
رواه مسلم وقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا هل عسى رجلٌ يبلغه الحديث عني وهو
مُتَكَبِّرٌ عَلَى أُرَيْكَتِهِ ، فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ،
وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه . وإن ما حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم
كما حرّمه الله » أخرجه أبو داود والترمذي . زاد أبو داود في أوله : « ألا إني أوتيتُ
الكتابَ ومثله معه » . فأنت ترى في أمثال هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ،
ما يحفزهم المؤمن الضعيف إلى الإقبال على روائع النبوة بستها ، وبدائع النبي صلى الله
عليه وسلم يستظهرها ، فكيف أنت والصحابة الذين كانوا لا يضارعون طولَ باع
ولا علوَّ همة في هذا الميدان ١١ .

العامل السابع

منزلة الكتاب والسنة من الدين ، فالكتاب هو أصل التشريع الأول والدستور
الجامع لخير الدين والآخرة ، والقانون المنظم لعلاقة الإنسان بالله وعلاقته بالجمتمع
الذي يعيش فيه . ثم السنة هي الأصل الثاني للتشريع ، وهي شارحة للقرآن الكريم ،
مفصلة لجملة ، مقيدة لمطلقه ، مخصصة لعاممه ، مبينة لمبهمه ، مظهرية لأسراره كما قال
سبحانه : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ » . ومن هنا يقول يحيى بن كثير : « السنة قاضية على الكتاب ، وليس
الكتاب قاضياً على السنة » يريد بهذه الكلمة ما وضّحه السيوطي بقوله : « والأصل
أن معنى احتياج القرآن إلى السنة أنها مبينة له ، ومفصلة لجملاته ، لأن لو جازته
كنوزاً تحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها فيبرزها ، وذلك هو المنزل عليه ﷺ

وهو معنى كون السنة قاضية على الكتاب، وليس القرآن مبيناً للسنة، ولا قاضياً عليها، لأنها بيّنة بنفسها، إذ لم نصل إلى حدّ القرآن في الإعجاز والإيجاز، لأنها شرح له، وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشرح « ١٥ .

ولا ريب أن الصحابة كانوا أعرف الناس بمنزلة الكتاب والسنة، فلا غرو أن كانوا أحرص على حفظهما وتحفظهما والعمل بهما .

العامل الثامن

ارتباط كثير من كلام الله ورسوله بوقائع وحوادث وأسئلة، من شأنها أن تثير الاهتمام . وتنبه الأذهان، وتلفت الأنظار إلى قضاء الله ورسوله فيها، وحديثهما عنها وإجابتهما عليها، وبذلك يتمكن الوحي الإلهي والكلام النبوي في النفوس فضلَ تمكن، وينتفش في الأذهان على مرّ الزمان .

تجول مرّة في رياض القرآن الكريم، تجده يساير الحوادث والطوارئ في تجددها ووقوعها، فتارة يجيب السائلين على أسئلتهم بمثل قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» وتارة يفصل في مشكلة قامت، ويقضى على فتنة طفت، بمثل قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ، لَا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم» إلى قوله: «أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم» وهن ست عشرة آية من سورة النور تزلزل في حادث من أروع الحوادث، هو اتهام أم المؤمنين السيدة الجليلة عائشة زوج رسول الله ﷺ . وبنت الصديق أبي بكر (رضي الله عنها وعن أبيها) . وفي هذه الآيات دروس اجتماعية قرئت ولا تزال تقرأ على الناس إلى يوم الساعة ولا تزال تسجل براءة هذه الحصان الطاهرة من فوق سبع سموات . وتارة يلفت القرآن أنظار المسلمين إلى تصحيح

أغلاطهم التي وقفوا فيها ويرشدهم إلى شاكلة الصواب . كقوله سبحانه في سورة آل عمران « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال » إلى آيات كثيرة بعدها . وكلها نزلت في غزوة أحد تدل المسلمين على خطئهم في هذا الموقف الرهيب ، وتحذرهم أن يقفوا حينئذٍ آخر في مثل ذلك المأزق العصيب .

وعلى هذا النمط نزلت سور في القرآن وآيات تفوت العدد وتجاوز الإحصاء .

وإذا تجولت في رياض الحديث النبوي الشريف بطالعك منه العجب العاجب في هذا الباب . انظر قصة الخزومية التي سرقت وقول الرسول ﷺ لمن شفع فيها : « وايم الله لو أن بنت محمد سرقت لقطعت يدها » رواه أصحاب الكتب الستة . ثم تأمل حادث تلك المرأة الجهنية التي أقرت بزناها بين يدي رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا ، كيف أمر الرسول فكفلها وليها حتى وضعت حملها ثم أتى بها فرجئت ، ثم صلى رسول الرحمة عليها . ولما سئل صلوات الله وسلامه عليه كيف تصلى عليها وهي زانية ؟ قال : « إنها ثابتة توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتم » . وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل ؟ » رواه مسلم . وتدبر الحديث المعروف بحديث جبريل ، وفيه يسأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراطها على مرأى ومسمع من الصحابة . وقد قال لهم أخيراً : هذا جبريل أنا كم يعلمكم دينكم » . أخرجه الخمسة غير البخاري . والناظر في السنة يجدونها في كثرتها الفائرة ، تدور على مثل تلك الوقائع والحوادث والأسئلة .

وقد قرّر علماء النفس أن ارتباط المعلومات بأمر مقارنة لها في الفكر ، تجعلها أبقى على الزمن ، وأثبت في النفس ، فلا بدع أن يكون ما ذكرنا داعية من دواعي حفظ الصحابة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، على حين أنهم هم المشاهدون لتلك الوقائع والحوادث ، المشافهون بخطاب الحق ، المواجهون بكلام سيد الخلق ، في هذه المناسبات الملائمة والأسباب

القائمة ، التي تجعل نفوسهم مستشرفة لقضاء الله فيها ، متعطشة إلى حديث رسوله عنها ، فينزل الكلام على القلوب وهي مقشوفة ، كما ينزل الغيث على الأرض وهي متعطشة ، تنهل بلهف ، وتأخذه بشغف ، وتمسكه وتحرص عليه بيقظة ، وتعز به وتعتمد عن حقيقة ، وتنفع به وتنفع ، بل تهتز به وتربو وتنبت من كل زوج بهيج !! .

العامل التاسع

اقتران القرآن دائماً بالإعجاز ، واقتران بعض الأحاديث النبوية بأمور خارقة للعادة ، تروع النفس ، وتشوق الناظر ، وتهول السامع . وإنما اعتبرنا ذلك الإعجاز وخرق العادة من عوامل حفظ الصحابة ، لأن الشأن فيما يخرج على نواميس الكون وقوانينه العامة ، أن يقرر رضى حافظة من شاهده ، وأن يتركز في فؤاد كل من عاينه فرداً كان أو أمة ؛ حتى لقد يتخذ مبدأً تؤرخ بمحدوئه الأيام والسنون ، وتقاس بوجوده الأعمار والآجال .

أما القرآن الكريم فإعجازه سارٍ فيه سريان الماء في العود الأخضر ، لا تسكاد تخلو سورة ولا آية منه . وأعرف الناس بوجوه إعجازه ، وأعظمهم ذوقاً لأسرار بلاغته ، هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم يصدرون في هذه المعرفة وهذا الذوق عن فطرتهم العربية الصافية ، وسليقتهم السليمة السامية ، وتمهرهم في فنون البيان وصناعة اللسان . ومن هذا كان القرآن حياتهم الصحيحة ، به يقومون ويقعدون ، وينامون ويستيقظون ، ويمشون ويتعاملون ، ويلتذون ويتعبدون . وهذا هو معنى كونه روحاً في قول الله سبحانه : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » وليست هناك طائفة في التاريخ تمثل فيها القرآن روحاً ، كما تمثل في هذه الطبقة العليا الكريمة طبقة الصحابة الذين وهبوه حياتهم فوهبهم الحياة ، وطبعهم طبعة جديدة حتى صاروا

أشبه بالملائكة ، وهكذا سواهم الله بكتابه خلقاً آخر « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » ١١ .

وأما السنة النبوية ، فقد اقترن بعضها بمعجزات خارقة ، وأمامك أحاديث المعجزات وهي كثيرة فيها المعجب والمطرب . غير أنا نربأ بك أن تكون فيها كحاطب ليل ، على حين أن بين أيدينا في الصحيح منها الجم الغفير والعدد الكثير ، « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

وهاك نموذجاً واحداً رواه البخارى ومسلم عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى عليه وسلم قال يوم خيبر : « لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ، يَحْبُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ ، وَيَحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُنْ (أَى يَخُوضُونَ) لَيْلَتِهِمْ ، أَيُّهُمْ يَعْطَاهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَاوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يَعْطَاهَا . فَقَالَ : أَيْنَ عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ يَشْتَكِي مَرَضًا بَعِينِيهِ . قَالَ : فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ . فَأَتَى بِهِ ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعِينِيهِ ، وَدَعَا لَهُ ، فَبَرِيءُ حَتَّى كَانَ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ . فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ ، فَقَالَ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقَاتِلْهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟ قَالَ : انْفِذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ ، وَاللَّهُ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ خُمْرِ النَّعَمِ » .

وهذه الوصية من الرسول ﷺ لعل في هذا المقام ، جذيرة وحدها أن تقطع السنة أولئك الأفاكين الذين يزعمون أن الإسلام قام على السيف والقوة ، واعتمد على البطش والقسوة ، ولم ينتشر بالدليل والحجة ولم يحىء بالسلام والرحمة . « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » ! .

العامل العاشر

حكمة الله ورسوله في التربية والتعليم ، وحسن سياستهما في الدعوة والإشاد ، مما جعل الكتاب والسنة يقرّران في الأذهان ، ويسهلان على الصحابة في الحفظ والاستظهار .

أما القرآن الكريم ، فحسبك أن تعرف من حكمة الله به في التربية والتعليم ، أنه أنزله على الأمة الإسلامية باللغة الحبيبة إلى نفوسهم ، وبالأسلوب الخلاب والنظم المعجز الآخذ بقلوبهم ، وأنه تدرّج بهم في نزوله ، فلم ينزل جملة واحدة يرهمهم به ويمجزون عنه ، بل أنزله منجّماً في مدى عشرين أو بضع وعشرين سنة ، ثم ربطه بالحوادث والأسباب الخاصة في كثير من سوره وآياته ، ودعمه بالدليل والحجة ، وخاطب به العقول والضمائر ، وناط به مصلحتهم وخيرهم وسعادتهم ، وصدر في ذلك كله عن رحمة واسعة بهم ، يكادون يلمسونها باليد ويرونها بالعين ! « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُظَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ » .

وأما السنة النبوية ، فقد ضربت الرقم القياسي في باب هذه السياسة التعليمية الراشدة ، حتى إذا كان علماء التربية في العصور الحديثة ، قد عدّوا من الحكمة في التعليم والتربية الاستعانة بوسائل الإيضاح ، وألوان التشويق ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم النبي الأمي ، كان من قبل أربعة عشر قرناً ، ومن قبل أن يؤلف علم التربية وعلم النفس ، كان هو المعلم الأول في رعاية تلك الوسائل الموضحة ، وهاتيك المشوقات الرائعة ، حتى تفتحت قلوب سامعيه للهداية ، وامتلات صدور أصحابه بتعاليمه ، كأنما كتبت فيها كتاباً بالكلمة والحرف .

ذلك لأنه ﷺ كان أفصح الناس لساناً ، وأوضحهم بياناً وأجودهم إلقاءً ، ينتقى عيون الكلام وهو الذى أوتى جوامع الكلم ، ويفتح الكلام ويختتمه بأشداقهِ ويفصله تفصيلاً يُراعى فيه المقام والأفهام ، ولا يسرد الحديث سرداً يزرى برؤفقه أو يذهب بشئ منه ، بل يتكلم كلاماً لوعده العادُّ لأحصاء . وكان يعيد الكلمة ثلاثاً أو أكثر من ثلاث عند الحاجة ، كيما تحفظ عنه ، كما جاء فى صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » قالها ثلاثاً . وكما جاء فى حديث البخارى ومسلم أنه ﷺ قال : « أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِكَبِيرِ الْكِبَائِرِ (ثلاثاً) قلنا : بلى يا رسول الله قال : الإِشْرَافُ بِاللَّهِ ، وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وشهادةُ الزور . وكان مُتَكِنًا لِمَجْلِسٍ - فَاذْهَبَ يَكْرِرها حتى قلنا لَيْتَهُ سَكَتَ » .

ومن هديه ﷺ أنه كان إذا خطب احرَّت عيناه ، وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : صَبَحَكُمْ وَمَسَّكُمْ . ويقول : بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ (وَيَقْرَأُ مِيزَانَ أَصْبَغِيهِ السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَى) ويقول : «أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُخْدَنَاتُهَا وَكُلُّ مُخْدَنَةٍ بَدْعَةٌ ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ . نِمِ يَقُولُ : أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ . مَنْ تَرَكَ مَا لَا فَلَاحَ لَهُ ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا ^(١) فَإِلَى وَعَلَى » رواه مسلم .

ومن وسائل إيضاحه ﷺ أنه كان يضرب لهم الأمثال الرائعة التى تُجَلِّى لهم المعانى ، كأنها العروسُ بارعة ليلة الزفاف ، أو الشمسُ ساطعةٌ ليس دونها سحاب . تأمل قوله وهو يضرب المثل فى ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخطر إهمالهما ، ثم قل لى بربك : هل يبارح ذا كرتك هذا التمثيل البديع ؟

(١) الضياع يفتح الضاد : يستعمل مصدرًا لضاع ، ويستعمل اسمًا بمعنى العيال أو الضائعين منهم . قال فى القاموس : « وَالضَّيَاعُ أَيْضًا الْعِيَالُ ، أَوْ ضَيْعُهُمْ » اهـ ولا يخفى أن المعنى المصدرى غير مُرادٍ هنا .

يروى البخارى عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال : مثل القائم في حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا في سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها . وكان الذي في أسفلها إذا استنقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً . وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً .

ومن وسائل إيضاحه ﷺ أسئلته التي كان يلقيها على أصحابه ، فيوظ بها انتباههم ، ويرد فربسها شعورهم ، حتى يستقبلوا هديه بنفوس عطاش ، وقلوب ظماء ، فيستقر فيها أثبت استقرار ، ويطلق بها علوق الروح بالأجسام .

وإليك مثلاً واحداً : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسوله الله ﷺ قال : « أتدرون من الفليس ؟ قالوا : الفليس فينا من لا درهم له ولا دينار ولا متاع . فقال : إن الفليس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن قُبِيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » رواه مسلم .

ومن المجائب في وسائل إيضاحه عليه الصلاة والسلام أنه كان يستعين برسم يديه الكريمتين على توضيح المعاني وتقريبها إلى الأذهان ، مع أنه النبي الأمي الذي لم يقرأ كتاباً ، ولم يجلس إلى أستاذ ، ولم يذهب إلى مدرسة ، ولم يدرس الرسم ولا الهندسة .

نقرأ في صحيح البخارى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربّعاً ، وخط وسطه خطاً ، وخطاً خطوطاً إلى جنب الخط (أى الذى فى الوسط) ، وخطاً خطاً خارجاً . فقال : أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا الإنسان (يريد الخط الذى فى الوسط) وهذا الأجل مُحِيط به (يريد الخط الربيع)

وَهَذِهِ الْأَعْرَاضُ تَنْهَشُهُ (يشير إلى الخطوط التي حوله) إِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا
وهَذَا الْأَمَلُ (يعنى الخط الخارج).

ومن سياسته الحكيمة في التعليم والتربية ، أنه كان يتهز فرصة الخطأ في أفهامهم ،
فيصحح لهم الفكرة في حينها ، ويلقهم تعاليمه السامية ونفوسهم مستشرفة لها. من ذلك
ما يقصه علينا البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال : « جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى
بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَهُمْ
تَقَالُوهَا (أى رأوا قليلا) وَقَالُوا : أَيْنَ نَحْنُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ غَفَرَ لَهٗ مَا تَقَدَّمَ
مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّيَ اللَّيْلَ أَبَدًا . وَقَالَ الْآخَرُ : وَأَنَا
أَصُومُ الدَّهْرَ أَبَدًا . وَقَالَ الْآخَرُ : وَأَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا . فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ : أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا !! أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ
لِلَّهِ ، وَأَتَقَاكُمْ لِلَّهِ ، وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ
عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » .

وكان من وسائل إيضاحه تمثيله صلى الله عليه وسلم بالعمل . يصلى ويقول : « صَلُّوا
كَأَنِّي أَتِمُّونِي أَصْلِي » ويحج ويقول : « خُذُوا عَنِّي مِمَّا سَكَّكُمْ » ويشير بأصبعيه السبابة
والوسطى ويقول : « بَعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ » كما تقدّم في رواية مسلم .

العامل الحادي عشر

الترغيب والترهيب اللذان يفيض بهما بحر الكتاب والسنة . ولا ريب أن غريزة حب الإنسان لنفسه تدفعه إلى أن يحقق لها كل خير، وأن يحميها من كل شر، سواء ما كان فيها من عاجل وما كان من آجل، ومن هنا تحرص النفوس الموقوفة على وعى هداية القرآن وهدى الرسول ، وتعمل جاهدة على أن تحفظ منهما ما وسعها الإمكان .

أما النفوس الضالة الخدولة ، فإنها مصروفة عن هذه السعادة بصوارف الهوى والشهوة ، أو محجوبة عن هذا المقام بحجاب التعصب والجود على الفتنة ، أو مرتطمة بظلام الجهل في أحوال الضلال والنكال .

ولسنا بحاجة أن نلتبس شواهد الترغيب والترهيب من الكتاب والسنة ، فمددنا فيماض بأوفى ما عرف العلم من ضروب الترغيب والترهيب ، وفنون الوعد والوعيد ، وأساليب التبشير والإنذار على وجوه مختلفة ، واعتبارات متنوعة ، في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق على سواء .

وهاك نموذجا من ترغيبات القرآن وترهيباته على سبيل التذكير ، والذي تتركز تنفع المؤمنين . -

يقول تبارك اسمه في سورة واحدة هي سورة السجدة « وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ، بَلْ هُمْ بِلِئَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُبْجُرْمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا . وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا؟ لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُدْخِلَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأُولَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ .

فانظر بعين بصيرتك في أساليب هذه الترغيبات، وفنون تلك الترهيبات، التي احتوتها هذه الآيات ، والقرآن مليء بكله من هذه الأنوار على هذا الفرار .

ولا تحسبن السنة النبوية إلا بحراً متلاطم الأمواج في هذا الباب. وهالك نموذجاً بل نماذج منها تدلك على مدى ما تتأثر به النفوس البشرية عند ما يمرُّ بها الوعد والوعيد ، وما يتركه هذا التأثير من ثبات الأوامر والنواهي واستقرارها في الذهن ، وانتفاشها في صحيفة الفكر ، ثم اندفاع الإنسان من ورائها إلى العمل والاتباع .

هاهو صلى الله عليه وسلم يبشِّرُ واصل رحمه بسعة الرزق والبركة في العمر فيقول : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُدْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » أخرجه البخاري والترمذي .

وها هو ﷺ يتحدث بالوعد لمن جعل الآخرة همه ، وبالوعيد لمن جعل الدنيا همه

فيقول: « مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ . وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قَدَّرَ لَهُ » رواه الترمذی .

وها هو صلى الله عليه وسلم يحرّض المؤمنين على القتال ويحثهم على الدفاع والنضال ، فيقول : « تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي ، وَإِيمَانًا بِي ، وَتَصَدِيقًا بِرِسَالِي ، فَهُوَ عَلَى ضَامِنٍ أَنْ أَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ؛ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كَلِمٍ ؛ لَوْ نُفِئَ لَوْ نَ دَمٍ ، وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْكٍ . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا أَبَدًا . وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحِلُّهُمْ ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً فَيَتَّبِعُونِي وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْزَوْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْتَلَ ، ثُمَّ أَغْزَوْ فَأَقْتَلَ » أخرجه الثلاثة والنسائي .

فأنت ترى في هذه الكلمات النبوية قوة هائلة محولة ؛ تجعلها ماثلة في الأذهان ، كما تجعل النفوس رخيصة هيبة في سبيل الدفاع عن الدين والأوطان . حتى لقد كان الرجل يستمع إلى هذه المرغبات والمشوّقات وهو يأكل ، فما يصبر حتى يتم طعامه ، بل يرمى بما في يده ، ويقوم فيجاهد متشوقاً إلى الموت ، متلهفاً على أن يستشهد في سبيل الله . كذلك أخرج مالك عن يحيى بن سعيد : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَغِبَ فِي الْجِهَادِ وَذَكَرَ الْجَنَّةَ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَا كُلَّ تَمْرَاتٍ ، فَقَالَ : إِنِّي لِحَرِيصٌ عَلَى الدُّنْيَا إِنْ جَلَسْتُ حَتَّى أَفْرَغَ مِنْهَا ، فَرَمَى مَا فِي يَدِهِ ، وَحَمَلَ بِسَيْفِهِ ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ » .

العامل الثاني عشر

اهتداء الصحابة رضوان الله عليهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، يحلّون ما فيهما من حلال ، ويحرمون ما فيهما من حرام ، ويتبعون ما جاء فيهما من نصح ورشد ، ويتمهدون ظواهرهم وبواطنهم بالتربية والآداب الإسلامية ، دستورهم القرآن ، وإمامهم الرسول عليه الصلاة والسلام .

وما من شك أن العمل بالعلم يقرّره في النفس أبلغ تقرير ، وينقشه في صحيفة الفكر أثبت نقش ، على نحو ما هو معروف في فن التربية وعلم النفس ، من أن التطبيق يؤيد المعارف ، والأمثلة تقيد القواعد ، ولا تطبيق أبلغ من العمل ، ولا مثال أمثل من الاتباع ، خصوصاً المعارف الدينية ، فإنها تزكو بتنفيذها ، وتزيد باتباعها . قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » أي هداية ونوراً تفرقون به بين الحق والباطل ، وبين الرشد والغى كما جاء في بعض وجوه التفاسير . وذلك أن المجاهدة تؤدي إلى المشاهدة ، والعناية بطهارة القلوب وتركية النفوس تفجر الحكمة في قلب العبد . قال الغزالي رحمه الله : « أما الكتب والتعليم فلا تنفي بذلك (أي بالحكمة تتفجر في القلب) بل الحكمة الخارجة عن الحضر والعد ، إنما تتفتح بالمجاهدة ومراقبة الأعمال الظاهرة والباطنة ، والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة ، مع حضور القلب بصافي الفكرة ، والانتطاع إلى الله عز وجل عما سواه ، فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف ؟ فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة . وكم من مقتصر على المهم في التعليم ، ومتوفر على العمل ومراقبة القلب ، فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوى الأبواب . ولذلك قال ﷺ : « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَمِلَ وَرَبُّهُ اللَّهُ عِلْمٌ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ » (١) .

(١) قال الحافظ العراقي في هذا الحديث : رواه أبو نعيم في الحلية لكن بسند ضعيف .

العامل الثالث عشر

وجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم ، يُحَفِّظُهُم من الكتاب والسنة ما لم يحفظوه ، ويعلمهم ما جهلوه ، ويحييهم إذا سألوه ، ويربهم شاكلة الصواب فيما أخطأوه ، ويفقههم على حقيقة الأمر إذا تشككوه ، في صبر وأناة وسعة صدر وكرم نفس وطيب قلب . ولا ريب أن هذا عامل مهم يسر لهم الحفظ ويهون عليهم الاستظهار ، ضرورة أنه ﷺ مرجع واضح ، ومنهل عذب ، لا سيما إذا لاحظنا أنه ﷺ كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ، ولا غليظ ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عياب ، وأن من جالسه أو قاضيه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بمسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء . مجلسه مجلس علم وحياء وأمانة وصبر ، يُدْرَس فيه القرآن ، وتذاع فيه السنة ، وبعقب منه أريج الهداية .

عوامل خاصة بالقرآن الكريم .

تلك العوامل التي ذكرناها عوامل مشتركة بين الكتاب والسنة ، طَوَّعَتْ للصحابة حفظهما واستظهارهما ، والإحاطة بهما وحذقهما .

بيد أن هناك عوامل خاصة توافرت في حفظ الصحابة للقرآن دون السنة .

أولها : أن الله تعالى تحدَّى بالقرآن أمة العرب ، بل كافة الخلق فقال سبحانه :

« فَلْيَأْنُوا بِحَدِيثِ مَثَلِهِ » ولما عجزوا قال : « فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ » ولما

عجزوا أيضاً قال : « فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ » ولما عجزوا الثالثة سجَّل عليهم

هزيمتهم وأعلن فَلَج القرآن بالإعجاز في هذا الميدان ، إذ قال عزُّ اسمه : « قُلْ لِّتَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

هذا التحدى الذى امتاز به القرآن ؛ فتح عيون الناس جميعاً ، ولقهم بقوة إليه ، لا فرق بين أوليائه وأعدائه . أما أوليائه ومُتَّبِعُوهُ ؛ فقرءوه من هذه الناحية ، ليُفْهِمُوا به أعداءهم ، ويؤيِّدُوا بإعجازهم دينهم ونبيهم . وأما أعداؤه ومُخَالِفُوهُ ، فاقفوا أثره وتنبهوه ، أَمَلًا فى أن يجدوا فيه مَغْمَرًا ، يأخذوا عليه مَطْعَنًا . فلا جرم كان هذا التحدى من الدواعى التى توافرت على نقل القرآن وتواتره وجريانه على كل لسان !

ثانيها : عنايته ﷺ بكتابة القرآن فيما تيسر من أدوات الكتابة ، إذ اتخذ كُتَّابًا للوحي من أصحابه . وأقرَّ كل من يكتب القرآن لنفسه فى الوقت الذى نهى فيه عن كتابة السنة فى الحديث الذى أسلفناه من رواية مسلم « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمِحْهُ » .

وغنى عن البيان ، أن الكتابة من عوامل تيسير الحفظ والاستظهار .

ثالثها : تشريع قراءة القرآن فى الصلاة ، فرضاً كانت أو نفلاً ، مرةً أو جهراً ، ليليةً أو نهاريةً ؛ حتى صلاة الجنائزة . ومثل الصلاة فى ذلك خطبة الجمعة . وتلك وسيلة فعالة ؛ جعلت الصحابة يقرءونه ويسمعونه ؛ ثم جعلتهم عن هذا الطريق يتحفظونه ويستظهرونه ، لا فرق بين رجل وامرأة ، وصغير وكبير ؛ وغنى وفقير ، على قدر ما سمح به استعداد كل منهم .

رابعها : الترغيب فى تلاوة القرآن ولو فى غير صلاة ومن غير وضوء . اقرأ إن شئت قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ، لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ .
إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ . »

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ
الْكِرَامِ الْبَرَةِ . وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ يَنْتَعِمُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ »
رواه البخاري ومسلم . ويقول ﷺ : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ
وَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ
النَّهَارِ » رواه الشيخان أيضاً .

ويقول ﷺ : « مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَهُ حَسَنَةٌ ، وَالْحَسَنَةُ
بِعَشْرٍ أَمْثَلُهَا . لَا أَقُولُ : أَلَمْ حَرْفٌ . وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ ؛ وَلامٌ حَرْفٌ ؛ وَمِيمٌ
حَرْفٌ » رواه الترمذي وقال : حسن صحيح .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « يُقَالُ لِقَارِي الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْقُ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ
تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا ؟ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا » رواه أبو داود والترمذي
والنسائي . ويقول صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ »
رواه البخاري .

فهو يعقل أن أصحاب محمد ﷺ الذين سمعوا ذلك وأمثال ذلك ؛ يتوانون لحظة
عن قراءة القرآن ؟ ثم ألا تكون تلك التلاوة سبيلاً إلى أن يحذقوه ويحرزوه ؟ .

خامسها عناية الرسول صلى الله عليه وسلم بتعليم القرآن وإذاعته ونشره ، إذ كان
يفرّقه على الناس على مكث كما أمره الله . وكان يسميهم إياه في الخطبة والصلاة ، وفي
الدروس والعظات ؛ وفي الدعوة والإرشاد ، وفي الفتوى والقضاء ؛ وكان يرغب في تعليمه
ونشره كما سمعت . وكان يرسل بعثات القراء إلى كل بلد يعلمون أهله كتاب الله ، كما
أرسل مُصَعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته ﷺ إليها ، وكما أرسل

مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ الْفَتْحِ لِلْإِقْرَاءِ . قَالَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ : كَانَ الرَّجُلُ إِذَا هَاجَرَ دَفَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى رَجُلٍ مِّنَّا يَعْلَمُهُ الْقُرْآنَ .

سَادِسُهَا : الْقَدَاسَةُ الَّتِي أَمْتَارُ بِهَا كِتَابَ اللَّهِ عَنْ كُلِّ مَاسَوَاهٍ ، حَيْثُ اجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْمَزَايَا مَا قِصَصْنَا عَلَيْكَ وَمَا لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ . كُنُسَبْتُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَكُحْرَمَةُ قِرَاءَتِهِ عَلَى الْجَنْبِ وَالْحَائِضِ وَالنَّفْسَاءِ ، وَكُحْرَمَةُ مَسِّ مَصْحَفِهِ وَحَمْلِهِ عَلَى أَوْلَئِكَ جَمِيعًا وَهَلَى الْمَحْدَثِ حَدَثًا أَصْفَرُ أَيْضًا ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْقَدَاسَةُ تَلَفَتْ الْأَنْظَارَ إِلَيْهِ ، وَتَخَلَّعَ هُمُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ عَلَيْهِ ، فَيُحْيِطُونَ بِهِ عِلْمًا ، وَيَخْضَعُونَ لِعَالَمِيهِ عَمَلًا . وَذَلِكَ مَا حَدَا الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ عَصْرِ وَمَعْرِ أَنْ يُعْنَوْا بِحِفْظِ كِتَابِ اللَّهِ حَتَّى عَصَرْنَا الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ ، فَمَا بِالْآنِ بِعَصْرِ الصَّحَابَةِ وَهُوَ عَصَرُ الْعِلْمِ وَالنُّورِ ، وَالتَّقْوَى وَالْهُدَايَةِ ، وَالنُّشْرِ وَالِدَّعْوَةِ ؟ !

أَمَّا بَعْدُ :

فَهَذِهِ بَضْعَةُ عَشْرٍ عَامِلَاتٍ تَوَافَرَتْ فِي أَصْحَابِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى حَفِظُوا الْكِتَابَ وَالسَّنَةَ ، وَقَدْ جَعَلْنَاهَا لَكَ هَذَا الْجَمْعَ ، مُعْتَقِدِينَ أَنَّ مِنْ وَرَائِهَا عَوَامِلَ شَخْصِيَّةٍ تَوَافَرَتْ فِي بَعْضِ الْقُرَّاءِ وَبَعْضِ الْمُحَدِّثِينَ مِنْهُمْ دُونَ بَعْضٍ . وَالسَّبِيلُ إِلَى تِلْكَ الْعَوَامِلِ الشَّخْصِيَّةِ دَرَاةٌ تَرَاوَجُ أَوْلَئِكَ الْقُرَّاءَ وَالْمُتَصَدِّقِينَ لِرَوَايَةِ الْحَدِيثِ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَارْجِعْ إِلَيْهَا إِنْ شِئْتَ ، وَاحْرَصْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا لَكَ ، وَصُغْ مِنْهَا أَسْلَحَةً عِلْمِيَّةً مُرْهَفَةً تُشْهِرُهَا فِي وَجْهِ أَوْلَئِكَ الْخَوَنَةِ الَّذِينَ يَخْوَضُونَ فِي الصَّحَابَةِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَطْعَنُونَ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ عَنْ طَرِيقِ الطَّعْنِ فِيهِمْ بَعْدَ الْحِفْظِ وَالضَّبْطِ .

وَنَحْنُ نَتَحَدَّى أُمَّمَ الْعَالَمِ بِهَذِهِ الدَّوَاعِي الَّتِي تَوَافَرَتْ فِي الصَّحَابَةِ حَتَّى نَقْلُوا الْكِتَابَ وَالسَّنَةَ ، وَتَوَاتَرَ عَنْهُمْ ذَلِكَ خُصُوصًا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ .

« أَوْلَئِكَ آبَائِي فَجَنِّ بِمَثَلِهِمْ إِذَا جَمَعْتَنَا بِأَجْرٍ الْجَامِعُ ! »

غُفِرَ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ ، وَصَبَّ عَلَيْهِمْ شَايِبُ جُودِهِ وَإِحْسَانِهِ . آمِينَ .

ب - الجبهة الثانية

أو عوامل تثبت الصحابة في الكتاب والسنة

الآن وقد فرغنا من عوامل حفظ الصحابة للكتاب والسنة ، نعرض على عوامل تثبتهم - رضوان الله عليهم - فيهما . فنذكر أن الناظر في تاريخ الصحابة ، يروعه ما يعرفه عنهم في تثبتهم ، أكثر مما يروعه عنهم في حفظهم ؛ لأن التثبت فضيلة ترجع إلى الأمانة الكاملة والعقل الناضج من ناحية ، ثم هو في الصحابة بلغ القمة من ناحية أخرى ، إذ كان تثبتاً بالغاً ، وحذراً دقيقاً ، وحيطة نادرة ، وتحرياً عميقاً لكتاب الله تعالى وهدى رسوله ﷺ في كل ما يتصل بهما عن قرب أو بعد .

ولهذا التثبت النادر في دقته واستقصائه ، بواعث ودواع ، أو أسباب وعوامل ، يحمل بنا أن نقدّمها إليك ، كأسلحة ماضية تنافح بهل عن الكتاب والسنة ، وعن الصحابة في أدائهم للكتاب والسنة .

العامل الأول

أن الله تعالى أمر في محكم كتابه بالتثبت والتحري ، وحذر من الطيش والتسرّع ، في الأنباء والأخبار ، بل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، فقال سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . »

وكذلك نهى الله عن اتباع ما لا دليل عليه إلا أن نسمع الأذن ، أو ترى العين ، أو يعتد القلب عن برهان ، فقال عز من قائل : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . »

وقد عاب القرآن على من يأخذون بالظن فيما لا يكفي فيه الظن ، فقال الله جلَّ شأنه : « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » إلى غير ذلك من أدلة كثيرة في الكتاب والسنة تأمر بالنظر ، وكان الصحابة هم المخاطبين بهذه التعاليم والمشافهين بها ، فلا ريب أن تكون تلك الآداب الإسلامية من أهمِّ العوامل في تثبتهم وحذرهم خصوصاً فيما يتصل بكتاب ربهم وسنة نبيهم . وبعيد كل البعد ، بل محال كل الاستحالة ، أن يكونوا قد أهملوا هذا النصيح السامى ، وهم خير طبقة أُخرجت للناس .

العامل الثانى

ما سمعوه من الترهيب الشديد، ومن التهديد والوعيد، لمن يكذب على الله أو يفترى على رسوله ومصطفاه . قال الله سبحانه : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ؟ » فانظر كيف سلك الله من افترى الكذب عليه في سلك من قال أوحى إلىَّ ولم يوح إليه شىء . ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله ؟ ثم انظر كيف قلَّاهما في الذِّكر وصدده في الوعيد ، ونعته أول من نعت بالإغراق في الظلم .

وقال سبحانه : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ » وقال سبحانه : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ؟ » .

ونقرأ في السنة النبوية أنه ﷺ قال : « من كذب على متعمداً فليقبوا مقعده من النار » . وهو حديث مشهور ، بل متواتر ، ورد أنه قد رواه اثنان وستون صحابياً منهم العشرة المبشرون بالجنة ، ولا يعرف حديث اجتمع عليه العشرة المبشرون بالجنة إلا

هذا ، ولا حديث يروى عن أكثر من ستين صحابياً إلا هذا .

ولقد سمع الصحابة هذه الترهيبات وأمثالها . وما أمثالها في القرآن والسنة بقليل ، بل لقد سمع الأصحاب نهى رسول الله ﷺ عما دون الكذب وما كان أقل من التزيد ، إذ حذرهم رواية الضمء والمدخولين فقال : سيكون في آخر أمتي أناسٌ يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم . رواه مسلم . بل حذرهم ﷺ رواية المجبولين فقال : « إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتى القوم فيحدثهم الكذب ، فيتفرقون فيقول الرجل منهم : « سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أعرف اسمه يحدث كذا وكذا » رواه مسلم .

فهل يستبيح عاقل منصف لنفسه أن يقول : إن الصحابة الذين سمعوا هذه النصائح وتلك الزواجر عن التزيد والافتراء يقدمون على كذب في القرآن والسنة ، أو يقصرون في التثبت والتحري والاحتياط في نقل الذكر الحكيم ، والمهدى النبوى الكريم ؟ .

العامل الثالث

أن الإسلام أمرهم بالصدق ونهاهم عن الكذب إطلاقاً ، فقال سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » وأنت خير بأن هذا الخطاب بهذه الصيغة في هذا المقام مع تقديم الأمر بالتقوى ، فيه إشارة إلى أن الصدق المأمور به من مقتضيات الإيمان ومن دعائم التقوى ، ويفهم من هذا أن من كذب وافتري ، فسبيله سبيل من كفر وطغى . كما صرح سبحانه بذلك في قوله : « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ » .

ويقول النبي ﷺ: «عليكم بالصدق فإنه مع البرِّ وهما في الجنة. وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار» رواه ابن ماجه .

وعن صفوان بن سليم رضى الله عنه قال: قلنا يا رسول الله: أياكون المؤمنُ جباناً قال: «نعم». قلنا: أياكونُ بخيلاً؟ قال: «نعم». قلنا: أياكونُ كذاباً؟ قال: «لا» أخرجه مالك ، فانظر إلى الحديث الأول كيف جعل الصدق هادياً إلى البرِّ وإلى الجنة، وجعل الكذب هادياً إلى الفجور وإلى النار. ثم انظر إلى الحديث الثانى كيف اعتبر الكذب أخش من الجبن والبخل ، وأخرجه فى هذه الصورة الشنيعة التى لا تجتمع هى والإيمان فى نفس واحدة أبداً !

وستقتضى العجب حين تعلم أن الرسول ﷺ بالغ فى تقييد الكذب حتى فى توافه الأشياء ومحقرات الأمور ! استمع إليه ﷺ وهو ينهى عن الكذب فى المزاح بهذه الطريقة الرادعة فيقول : « ويلٌ للذى يحدثُ ليضحكُ منه القومُ فيكذب ، ويلٌ له ، ويلٌ له » رواه أبو داود والترمذى . ثم استمع إليه ﷺ وهو يتوعد من يكذب فى منامه ويقول : « من كذب فى حلمٍ كف يومَ القيامةِ أن يعقدَ بينَ شعيرَتين ، وليسَ يعاقدَ بينهما أبداً » .

قل لى ربك: هل تلك الطبقة الأولى الممتازة التى سمعت ذلك وأضعاف ذلك بأذنانها من فم رسولها والتى اعتنقت الإيمان بعد البحث والنظر ، واعتقدته طريقاً إلى سعادتها وعزّها، والتى باعت أنفسها وأموالها لله بأن لها الجنة فى نعيمها وخلودها. نقول: هل تلك الطبقة الكريمة ترضى بعد ذلك كله أن تترك رأسها وتنكص على أعقابها؟ فكذب على الله ورسوله، أو لا تتحرى الصدق فى كتاب الله وسنة رسوله ! ذلك شطاطٌ بعيد لا يجوز إلا على عقول الغفلين !

العامل الرابع

أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا مُفَرِّمِينَ بالتفقه والتعلم ، مولعين بالبحث والتنقيب ، مشغوفين بكلام الله وكلام رسول الله ، يقدون المجالس لمدارسة القرآن وفهمه ، ويركبون ظهور المطايا لطلب العلم وأخذه . وكانت عناية الرسول بتعليمهم القرآن تفوق كل عناية ، يقرؤه عليهم ، ويخطبهم به ، ويزين إمامته لهم بقراءته في صلاته ، وفي دروسه وعظاته . وكان فوق ذلك يحب أن يسمعه منهم كما يحب أن يقرأه عليهم . روى البخارى ومسلم أن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأ على القرآن . قلت : يا رسول الله . أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمع من غیری . فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية : « فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً » قال : حَسْبُكَ الْآنَ . فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان .

وكذلك كان الصحابة ، همهم أن يقرءوا القرآن ويستمعوه . روى الشيخان عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف أصوات رفقة الأشعرين بالليل حين يدخلون ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالهـار » .

وروى الداريمى وغيره بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول لأبى موسى الأشعرى : ذكرنا ربنا فيقرأ عنده القرآن . قال النوى : وقد مات جماعات من الصالحين بسبب قراءة من سألوه القراءة .

وقد سبق في عوامل حفظ الصحابة للسنة مدى عنايتهم بالإقبال عليها والاهتمام ببقاء

رسول الله ﷺ للتعلم منه والأخذ عنه . وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال :
 حَدَّثَنِي عَشْرَةٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا : كُنَّا نَدْرُسُ الْعِلْمَ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ
 إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « تَعَلَّمُوا مَا سَنْتُمْ أَنْ تَعَلَّمُوا ، فَإِنْ يَأْجُرْكُمْ اللَّهُ
 حَتَّى تَعْمَلُوا » . رواه الدارمي موقوفاً على معاذ بسند صحيح . وكلمة العلم في هذا الحديث
 شاملة لعلم الكتاب وعلم السنة .

أليس هذا الولوع بالكتاب والسنة من دواعي تثبتهم فيها ، كما هو من دواعي
 حفظهم لها ، لأن اشتهار الشيء وذيوعه ، ولين الألسنة به ، يجعله من الوضوح والظهور ،
 بحيث لا يشوبه لبس ، ولا يخالطه زيف ، ولا يُقبل فيه دخیل .

العامل الخامس

يسر الوسائل لدى الصحابة إلى أن يقتبوا ، وسهولة الوصول عليهم إلى أن يفتوا على
 جليلة الأمر ، فيما استغلق عليهم معرفته من الكتاب والسنة . وذلك لمعاصرتهم رسول الله
 ﷺ يتصلون به في حياته ، فيشفى صدورهم من الريبة والشك ، ويريح قلوبهم بما يُشعُّ
 عليهم من أنوار العلم وحقائق اليقين .

أما بعد غروب شمس النبوة ، وانتقاله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه . فقد كان
 من السهل عليهم أيضاً أن يتصلوا بمن سمعوا بأذانهم من رسول الله ﷺ ، والسماعون
 يومئذ عدد كثير وجم غفير ، يساكنونهم في بلدهم ، ويخالسونهم في نواديهم ، فإن شك
 أحدهم في آية من كتاب الله ، أو خبر عن رسول الله أمكنه التثبت من عشرات سواء ،
 دون عنت ولا عسر !

العامل السادس

شجاعة الأصحاب شجاعة فطرية ، وصراحتهم صراحة طبيعية ، نشأوا عليهما منذُ حداثتهم ، وطبعوا عليهما بفطرتهم وبيئتهم ، كأمة متبدية لا تعرف خذل الحضارة الملوثة ، ولا تألف نفاق المدنية المذبذبة . ثم جاء الإسلام فعزيز فيهم هذا الخلق الفاضل ، وزادهم منه ، وبني حضارته الصحيحة ومدنيته الطاهرة عليه ، بمثل ، ما سمعت في أصدق الحديث وخير الهدى . حتى لقد كان الرجل منهم يقف في وسط الجمهور يردُّ على أمير المؤمنين وهو يلقي خطاب عرشه ردًّا قويًّا صريحًا خشنًا . بل كانت المرأة تقف في بهرة المسجد الجامع فتقاطع خليفة المسلمين وهو يخطب ، وتعارض رأيه برأيها ، وتقرع حجته بحجتها فيما تعتقد أنه أخطأ فيه شاكلة الصواب ، وأمير المؤمنين في الحالين يفتبط بهاتيك الصراحة ويسرُّ بتلك الشجاعة ، ويعلن اغتباطه بموقف ذلك العربي الخشن الذي ردَّ عليه ، كما يعلن رجوعه عن رأيه إلى رأى هذه السيدة التي حاجته بين يديه ، وما أمر عمر ببيعيد عنكم ، ولا مجهول لكم ، لا عند ولايته الخلافة وهو قائم يلقي خطاب عرشه ، ولا عند ما وقف على منبره ينهى عن التغالى في مهور النساء !! .

فهل يرضى العقل والمنطق أن تُجرح هذه الأمة الصريحة القوية وتتهم بالكذب أو بالسكوت على الكذب في كلام الله ، وفي سنة رسول الله ؟ ! .

ثم ألا يحملهم هذا الخلق الشرقي فيهم على كمال التثبت ودقة التحرى في كتاب الله وسنة رسول الله ؟ « لَقَدْ أَصْفَرَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ » ١ .

العامل السابع

تكافل الصحابة تكافلاً اجتماعياً فرضه الإسلام عليهم ، فجعل عيونهم مفتحة لكل من يكذب على الله ، أو يفترى على رسول الله ، أو يخوض في الشريعة بغير علم ، أو يفترى في الدين بغير حجة .

أجل : لقد كان كل واحد منهم يعتقد أنه عضو في جسم الأمة ، عليه أن يتعاون هو والمجموع في المحافظة على الملة ، ويعتقد أنه لينة في بقاء الجماعة ، عليه أن يعمل على سلامتها من الدغل والزغل ، والافتراء والكذب ، خصوصاً في أصل التشريع الأول وهو القرآن وأصله الثاني وهو سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وبين يديك الكتاب والسنة ، فاقراً فيهما إن شئت أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تجدها كثيرة متآخذة ، تقرر ذاك التكافل الاجتماعي الإسلامي بين آحاد الأمة ، بما لا يدع مجالاً لفترى على الله ، ولا يترك حيلة لحاطب ليل في حديث رسول الله .

استمع إلى كلام الحق وهو يحض على دعوة الخير وفضيلة النصيح ؛ إذ يقول سبحانه وتعالى في سورة آل عمران : « وَلَتَسْكُنَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ . وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » إلى أن قال جل ذكره : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » . وهكذا قدم الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان به ، تنوياً بجلاتهما . وحثاً على التمسك بجبلهما ، وإشارة إلى أن الإيمان بالله لا يضمن ولا يكون إلا بهما .

وتدبر قول الله تعالى في سورة المائدة: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ. ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ. لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» .

ثم تأمل حكم الله على بنى الإنسان جميعاً بأنهم غريقون في الخسران ، إلا من جمع عناصر السعادة الأربعة ، وهى الإيمان ، والعمل الصالح ، والتوصية بالحق ، والتوصية بالصبر فى قوله سبحانه: «وَالْعَصْرِ: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَاقِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» .

سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، وشؤفوها بخطابه من فم رسول الله عن جبريل عن الله ، ثم سمعوا بعد ذلك من كلام رسول الله أمثال ما يأتى :-

(١) يقول ﷺ : « والذى نفسى بيده لتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكن أن يبعث الله عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يُسْتَجَابَ لكم » . رواه الترمذى بسند حسن عن حذيفة رضى الله عنه .

(٢) وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، وَالْمُنْشَطِ وَالْمُسْكِرِ ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا ، وَعَلَى أَلَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا (أى ظاهراً) ، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ بُرْهَانٌ ، وَعَلَى أَنْ تَقُولَ الْحَقَّ أَيْنَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَا نَمِرَ » رواه الشيخان .
فهل بعد هذا كله يُعْقَلُ أَنْ يَبْعَثَ الصَّحَابَةُ ، أَوْ يَقْرَأُوا مِنْ يَبْعَثُ بَكْتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ ! .

العامل الثامن

تعويدهم الصدق وترويضهم عليه عملاً ، كما أُرشدوا إليه وأدبوا به فيما سمعت علماء .
وأنت خبير بأن التربية غير التعليم ، وأن العلم غير العمل ، وأن نجاح الفرد والأمة مرهون
بمقدار ما ينهلان من رحيق التربية ، وما يَقْطِفَان من ثمرات الرياضة النفسية والقوانين
الخلقية .

أما العلم وحده فقد يكون سلاح شقاء ونذير فناء ؛ كما نرى ونسمع ، ويالهول ما نرى
وما نسمع !!

ولقد أدرك الإسلام هذه الناحية الجليلة في بناء الأمم ، فأعارها كل اهتمام وعُنْيَ
بالتنفيذ والعمل أكثر مما عُنِيَ بالعلم والكلام . ولعلك لم تنس أنه ﷺ قال لمن يدرسون
العلم في مسجد قُبَاء تلك النصيحة الذهبية الحكيمة « تَعَلَّمُوا مَا شِئْتُمْ أَنْ تَعَلَّمُوا ، فَلَنْ
يَأْجُرَ كُمْ اللَّهُ حَتَّى تَعْمَلُوا » ١ .

ولعلك لم تنس أيضاً أن الإسلام شرع عقوبة من أشنع العقوبات ، لمن اقتترف نوعاً
من الكذب وهو نوع الخوض في الأعراض ، تلك العقوبة هي حَدُّ الْقَذْفِ الذي
يقول الحق جل شأنه فيه من سورة النور : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا
بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ
هُمْ الْفَاسِقُونَ » .

فتأمل كيف عاقب هذا الفاذف الكاذب بالجلد ثمانين ، وردَّ شهادته وحكم بأنه
من الفاسقين ، بل قال : « وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أى لا فاسق سواهم ولا خارج عن
حدود الدين والأدب إلا هم !

ثم شَفَّفَ مسمعيك بما يرويه أبو داود في سننه من أن عبد الله بن عامر قال :

« جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْتِنَا وَأَنَا صَبِيٌّ صَغِيرٌ ، فَذَهَبْتُ لِلْأَلْبِ ، فَقَالَتْ أُمِّي : تَعَالَ حَتَّى أُعْطِيَكَ . فَقَالَ ﷺ . وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ ؟ قَالَتْ : تَمْرًا . فَقَالَ : أَمَّا إِنَّكَ لَوَلَمْ تَفْعَلِي أَكُتِبَتْ عَلَيْكَ كَذْبَةٌ » انصوّر في هذه التربية السامية كيف لم يسمح الرسول ﷺ لَأُمِّ أَنْ تَعِدَ طِفْلَهَا الصَّغِيرَ وَعِدًّا غَيْرَ صَادِقٍ ، بَلْ يَسْأَلُهَا : مَا الَّذِي كَانَتْ تُعْطِيهِ لَوْ جَاءَ ؟ ثُمَّ يَقْرَرُ أَنَّهَا لَوْ خَاسَتْ بِمَعْدَاهَا هَذَا لَكُتِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا كَذْبَةٌ ! وَهَكَذَا يَكْتَفِي بِذِكْرِ كَلِمَةِ « كَذْبَةٌ » فِي هَذَا الْمَقَامِ رَدْعًا لَهَا وَزَجْرًا ، وَمِنْهُ تَعْلَمُ أَنَّ لَفْظَ الْكُذْبِ كَانَ سَوَاطِ عَذَابٍ يَخِيفُ الصَّحَابَةَ رِجَالًا وَنِسَاءً . وَذَلِكَ لِمَا يَسْمَعُونَ عَنْهُ مِنْ شَفَاعَةٍ ، وَلِمَا يَعْرِفُونَ فِيهِ مِنْ بَشَاعَةٍ ! وَلَمَّا تَأَصَّلَ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ فَضِيلَةِ الصَّدَقِ وَشَرَفِ الْحَقِّ ! أَفَبَعْدَ هَذِهِ التَّربِيَةِ الْعَالِيَةِ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ الصَّحَابَةَ يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَتَذَكَّرُونَ ! أَلَا إِنَّ هَؤُلَاءَ مِنْ إِنْكَارِهِمْ لَيَعْرِفُونَ بِمَا لَا يَعْرِفُونَ ، وَيُسْرِفُونَ فِي تَجْرِيحِ الْفَضْلَاءِ وَاتِّهَامِ الْأَبْرِيَاءِ وَلَا يَسْتَحْجُونَ ، فَوَيْلَ لَهُمْ مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ! .

العامل التاسع

القدوة الصالحة ، والأُسوة الحسنة ؛ الَّتِي كَانُوا يَجِدُونَهَا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَائِلَةً كَامِلَةً ، جَذَابَةً أَخَاذَةً . وَلَا يَعْزُبَنَّ عَنْ بَالِكَ أَنَّ الْقَدَوَةَ الصَّالِحَةَ خَيْرُ عَامِلٍ مِنْ عَوَامِلِ التَّعْلِيمِ وَالتَّربِيَةِ وَالتَّأْدِيبِ وَالتَّهْذِيبِ ، خُصُوصًا بَيْنَ نَبِيِّ وَمُتَّبِعِيهِ ، وَأُسْتَاذٍ وَمُتَعَلِّمِيهِ ، وَرَبِّيسٍ وَمُرْتَدِسِيهِ ، وَرَاعٍ وَرَعِيَّتِهِ .

وَهَا نَحْنُ أَوْلَاءُ نَرَى عُلَمَاءَ النَّفْسِ وَالْاجْتِمَاعِ ، وَأَقْطَابَ التَّربِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ ، وَبُنَاةَ الْأَخْلَاقِ وَالْأُمَمِ : نَرَاهُمْ لَا يَزَالُونَ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْقَدَوَةِ الصَّالِحَةِ ، وَبُوصُوفِ الْقَدَوَةِ الصَّالِحَةِ ، وَيُبَحِّثُونَ عَنِ الْقَدَوَةِ الصَّالِحَةِ ؛ وَذَلِكَ لِمَا كَانَتْهَا مِنَ التَّأَثِيرِ وَالْإِصْلَاحِ ، وَالتَّقْوِيمِ وَالنَّجَاحِ ، فِي الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ عَلَى سَوَاءٍ . . .

ولم يعرف التاريخ ولن يعرف قدوة أسى، ولا أسوة أعلى، ولا إمامة أسنى، من محمد ﷺ، في كافة مناحي الكمال البشرى، خصوصاً خلقه الرضى، وأدبه السنّى، ولا سيما صدقه وأمانته، وتحريه ودقته .

أجل : فقد كان ﷺ مشهوراً بالصدق، معروفاً بالأمانة، حتى من قبل بعثته ورسالته، فكان إذا سار أشاروا إليه بالبنان ؛ وقالوا : هذا هو الصادق، وإذا حكم رضوا حكومته وقالوا : هذا هو الأمين !

وكانت هذه الفضائل المشرقة فيه، من بواعث إيمان المنصفين من أهل الجاهلية به . ولقد اضطرّ أن يشهد له بها أعداؤه الألداء، كما آمن بها أتباعه الأوفياء . فهذا أبو سفيان بن حرب زعيم حزب المعارضة له يُقرّ بين يدي قيصر الروم بصدق محمد وأنهم لم يحفظوا عليه كذبة واحدة قبل رسالته، ويكاد يؤمن القيصر متأثراً في جملة ما تأثر، بهذه الشهادة التي انطلق بها لسان ألدّ خصوم محمد يومئذ، ثم يقول في التعليق على كلام أبي سفيان والتنويه بصدق محمد عليه الصلاة والسلام : « ما كان (أى محمد) لِيَذَرَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ » ! والحديث طويل مشهور يرويه البخارى في صحيحه . فراجعهُ إن شئت .

وهذا قائل قرش يقول للنبي ﷺ في مَعْرِضٍ من المعارض : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به . وبسبب ذلك أنزل الله تعالى « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . » .

ومما يذكر بالإعجاب والفخر لنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم أنه عرض الإسلام على بنى عامر بن صعصعة، وذلك قبل الهجرة، وقبل أن تقوم الدين شوكة، فقال كبيرهم : أراءيت إن نحن تابعنالك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيبكون لنا الأمر من بعدك ؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم بتلك الكلمة الحكيمة الخالدة :

« الأمرُ لله يضعه حيث يشاء » ! فقال له كبيرهم أفهـدف^(١) نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرَكَ الله كان الأمرُ لغيرنا ؟ لاحاجة لنا بأمرِكَ .

وهنا تتجلى سياسة الإسلام ، وأنها سياسة صريحة مكشوفة ، ورشيدة شريفة ، لا تعرف اللف والدوران ، ولا تعتمد الكذب والتضليل ، كما تتجلى صراحةُ نبيِّ الإسلام ، وصدقُ نبيِّ الإسلام ، وشرفُ نبيِّ الإسلام ؛ عليه الصلاة والسلام !! .

نعم : لقد كان محمد ﷺ في ضيق أى ضيق ، يحتاج إلى أقل معاونة من عدو أو صديق ، وهذا حتى من العرب يستطيع أن يكتسبه ويتقوى به ولكنه عليه الصلاة والسلام ، لا يستطيع أن يعدّ فيخلف ، ولا أن يحدث فيكذب ، ولا أن يعاهد فيمدر ! يسألونه أن يكونوا الخلفاء من بعده إذا أسلموا فيقول بملء فيه « الأمرُ لله يضعه حيث يشاء » ولو أنه قال إن شاء الله مثلاً لدانوا له أجمعين ، وأصبحوا من حزبه وجنده المسلمين ! .

مرحى مرحى لسياسة الإسلام . وأخلاق نبيِّ الإسلام !! .
وإذا كانت هذه الأخلاق العليا هي منار القدوة للصحابة في رسول الله ، فكيف لا يقتبسون من هذه الأنوار ، ولا يضربون في حياتهم على هذه الأوتار ؟ فضلاً

(١) في القاموس : أهداف له الشيء عرضاً هـ .

وقال في لسان العرب ، الإهدافُ : الدنوُّ . أهداف له القومُ أى قربوا . . وكل شيء قد استقبلك استقبالا فهو مهـدف ومستهدف هـ . وقال الزمخشري في أساس البلاغة : أهداف له الشيء واستهدف : انتصب وعرض . وقال عبد الرحمن بن أبى بكر لأبيه أبى بكر رضى الله تعالى عنهما : لقد أهدافت لى يوم بدر فصغتُ عنك هـ فالفعل لازم غير متعدي . ومعنى صغتُ عنك : ملت وأعرضت . تدبر .

عن أن يقال عنهم : إنهم يكذبون أو لا يتحرون في كتاب الله وسنة رسول الله
« سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » .

العامل العاشر

سمو تربية الصحابة على فضائل الإسلام كلها ، وكمال تأديبهم بأداب هذا الدين
الحنيف وشده خوفهم من الله ، وصفاء نفوسهم إلى حد لا يتفق والكذب
خصوصاً الكذب على الله تعالى ، والتجنى على أفضل الخليفة صلوات الله
وسلامه عليه .

يقول علماء الأخلاق والمشتغلون بعلم النفس وعلوم الاجتماع : إن الكذب جنابة
قبيحة ، لا يمكن أن يصدر إلا عن نفس ساقطة لم تتأدب ، ولا يتصور أن يفشو إلا في
شعب شاذ لم يتهذب .

ونحن إذا استعرضنا تاريخ الصحابة — رضوان الله عليهم — نشاهد العجب في
عظمة تأديب الإسلام لهم ، وتربيته إياهم تربية سامية جعلتهم أشباه الملائكة يمشون
على الأرض ، لاسيما ناحية الصدق والأمانة ، والثبوت والتحرى والاحتياط . وذلك من
كثرة ماقرر القرآن فيهم لهذه الفضائل ، ومن عناية الرسول ﷺ بهم علماء وعملًا
ومراقبة ، حتى أصبحوا بنعمة من الله وفضل منطبعة قلوبهم على هذه الجلائل ، متشبعة
نفوسهم بمبادئ الشرف والنبيل ، تأبى عليهم كرامتهم أن يقاربوا الكذب أو يقارفوا
التهجم . لاسيما التهجم على مقام الكتاب العزيز ، وكلام صاحب الرسالة ﷺ .

قالت عائشة رضي الله عنها : « ما كان خلق أشد على أصحاب رسول الله ﷺ
من الكذب . ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب
فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه أحدث توبة لله عز وجل » رواه مسلم في مقدمة صحيحه .

عوامل أخرى

إذا استعرضت بعض العوامل السابقة في حفظ الصحابة للكتاب والسنة ، تجد منها عوامل صالحة أيضاً لأن تكون دواعي تثبتهم في الكتاب والسنة ، ولهذا أكتفى بالإشارة إليها دون إعادتها :

١ - فذكاء العرب وقوة حوافظهم وصفاء طبعهم إلى آخر ما ذكرنا في العامل الثاني هناك . لا شك أنه داعية من دواعي تثبتهم أيضاً ، لأن الشأن فيمن نشأ على هذه الصفات ؛ أن يكون واثقاً مما حفظ ، فلا يحتاج إلى تزبد ولا يقع في تهجم .

٢ - وحب الصحابة لله ولرسوله عامل كذلك من عوامل التثبيت ، لأن الحب الصادق لا يقنع إلا بما يثق أنه كلام حبيبه من غير لبس ولا شك ، ولا يرضى أن يفترى الكذب على حبيبه ، ولا يقبل أن يتقول عليه أو يتهم في كلامه ، خصوصاً إذا عرف أنه يكره ذلك منه . (انظر العامل الرابع من عوامل الحفظ) .

٣ - وموقف الصحابة في محراب الفصاحة والبيان ، وعلو كعبهم في نقد الكلام ، وكمال ذوقهم في إدراك إعجاز القرآن وبلاغة النبي عليه الصلاة والسلام ، كل أولئك يسر عليهم التثبيت ، ويهون عليهم أن يردوا ما ليس من كلام الله وكلام رسوله ، ضرورة أنهم يدركون الفوارق بين الأساليب الفاضلة والمفضولة ، ويزنون كلامهم بموازينهم البلاغية الصادقة . (انظر العامل الخامس من عوامل الحفظ) .

٤ - وعلم الصحابة بمنزلة الكتاب والسنة من الدين ، يجعلهم بلا شك يهتمون بالتثبيت منهما ، والحيلة لهما . (انظر العامل السابع من عوامل الحفظ) .

٥ - واقتران الكتاب بالإعجاز ، واقتران السنة ببعض المعجزات والغرائب ، ثم ارتباط كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول بالحوادث والوقائع ، كل أولئك مما يجعل

النفوس تتوثق منهما ولا تشقبه فيهما ولا تقبل التزيد والكذب عليهما . (انظر العامل الثامن والتاسع من عوامل الحفظ) .
إذا جمعت هذه العوامل وأمثالها إلى العشرة المسطورة بين يديك ، رأيت بضعة عشر عاملا من الدواعي للتوافرة ، والأدلة القائمة ، على أمانة الصحابة وتشبههم من الكتاب والسنة .

مظاهر هذا التثبت

وهكذا نقصفح تاريخ الصحابة ، ونقتفي آثارهم ، فإذا هي شواهد حق على تغافل فضيلة الصدق فيهم ، وشدة نفورهم ، ونقاء ساحتهم من الكذب وما يشبه الكذب .
هذا عمر رضي الله عنه يقول : « أَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا مَا لَمْ نَرَكُمُ أَحْسَنُكُمْ أَنْفًا ، فَإِذَا رَأَيْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا ، فَإِذَا اخْتَبَرْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا » . وهذا علي كرم الله وجهه يقول : « أَعْظَمُ اخْطَايَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اللِّسَانُ الْكَذُوبُ » . ويقول مرة أخرى : « إِذَا حَدَّثَكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَا تَأْخِزْهُ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ » .

وإن شئتم فاعجبوا من سعيد بن المسيب وهو أحد من ربّاهم الصحابة : رمدت عيناه مرة حتى بلغ الرمد خارجهما (والرمد وسخٌ أبيض من مجرى الدمع من العين) ففعل له : لو مسحت عينيك . فقال : وأين قول الطبيب : لا تمسّ عينيك فأقول : لا أفعل !؟ .

وتدبروا ما رواه مسلم بسنده عن مجاهد قال : جاء بشير العدوي إلى ابن عباس ، فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجعل ابن عباس

لَا يَأْذَنُ لَهُ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ . فقال : يا بن عباس ، مالي لا أراك تسمع لحديثي ، أهدئك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع ! فقال ابن عباس : إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول : قال رسول الله ﷺ : ابْتَدَرْتُهُ أَبْصَارُنَا ، وَأَصْغَيْنَا إِلَيْهِ بِأَذَانِنَا ، فَلَمَّا رَكِبَ النَّاسُ الصَّعْبَ وَالذَّلُولَ لَمْ نَأْخُذْ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا نَعْرِفُ .

ومن هذا الورع البالغ والحذر الدقيق، تخرج كثير من أكابر الصحابة عن الرواية والتحديث ، فلم يسمع منهم إلا النزر اليسير، مع أن لديهم من رسول الله الغمر الكثير. يُحَدِّثُ ابن الزبير - رضى الله عنه - فيقول : قلت لأبي : مالي لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان ؟ فقال : أما إنني لم أفارقه منذُ أسلمت ولكفى سمعته يقول : من « كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » رواه البخاري وأبو داود .

وإذا كان هذا مظهرًا من مظاهر حذرهم واحتياطهم للسنة النبوية ، فإذا تقدر من مظاهر حذرهم واحتياطهم لكتاب الله العزيز ؟ إني أعتقد أنك إذا رجعت إلى أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف ، تشاهد العجب العاجب من روائع هذه المظاهر .

فهذا عمر يأخذ بخناق هشام بن حكيم ويسوقه إلى النبي ﷺ وما نفع عليه إلا أنه قرأ سورة الفرقان على وجه لم يقرأه عمر ، ولم يكن يعرف عمر أنه هكذا نزل ، ولم يرسل عمر هشامًا حتى انتهى به إلى رسول الله ﷺ وأمره الرسول أن يرسله ، ثم استقرأها عليه الصلاة والسلام ، وقال في قراءة كليهما : « هَكَذَا أَنْزَلْتُ » . وقال : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ فَاقْرَءُوا مَا تيسر منه » هذا ملخص ما كان بين عمر وهشام ، ومثل ذلك وقع من أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وغيرهما مع أصحابهم، مما تعرضه عليك الروايات المبسوطة هناك في هذا الموضوع !

أضف إلى هذا تلك الدقة البالغة التي أجلناها لك في دستور أبي بكر ودستور عثمان رضي الله عنهما في جمع القرآن بالصحف والمصاحف ، وهي على مقربة منك . فارجع إليها إن شئت .

ويشبه هذين الدستوريين في جمع القرآن ، دستور أبي بكر في حماية السنة والحيفة لها والتثبت منها ، إذ جمع أصحاب رسول الله ﷺ وشاورهم في الأمر ، ثم انتهوا إلى اتباع ما يأتي : -

أن ينظروا في خبر الواحد نظرة فاحصة ، يعرضونه على كتاب الله تعالى وماتواتر أو اشتهر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن خالف شيئاً منها زيفوه وردوه ، وإن لم يخالف نظروا نظرة ثانية فيمن جاء به ، فلا يقبلون إلا ممن عرف بالعدالة والضبط والصدق والتحرى ، وإلا طالبوه بالتزكية من طريق آخر يشهد معه ويروى مارواه ، وبرغم هذا وذلك فقد التزموا التقليل من الرواية لأن الإكثار مَظَنَّة الخطأ ومشار الاشتباه .

نعم : حدام ورعهم وشدة خوفهم من الله ، أن يحصنوا حديث رسول الله بهذا الدستور الدقيق الرشيد القائم على رعاية هذه القواعد الثلاث : النظر في الخبر والنظر في المخبر ، والإقلال من الرواية .

ويرحم الله ابن الخطاب فقد أخذ بالأسس التي وضعها أبو بكر لحياطة الكتاب والسنة ، ثم بنى عليها ، وشمخ بها ، وزاد فيها ، حتى تشدد مع الأمناء المؤمنين ، وضيق الخناق على الصحابة المكثرين ، حتى روى أنه حبس ثلاثة من مشاهير الصحابة سنة كاملة ، وماتهم منهم إلا أنهم أكثروا الرواية . وإذا صحَّ هذا فهو درس قاسٍ من الفاروق لعامة الشعب في الاحتياط لأصول التشريع والتبصر والتدقيق في الرواية تحملاً وأداءً ، على حد قول الشاعر :

« إني وقتلي سُلَيْمًا ثُمَّ أَغْفِلُهُ كَالْفَوْزِ يُضْرَبُ لِمَا عَافَتِ الْبَقَرُ »

ثم جاء دور عثمان وعلى ، فخذوا حَذْوَ أَبِي بَكْرٍ وعمر ، إذ أوى الكتاب في كنفهما إلى ركن ركين وظل ظليل ، وبقيت السنة في عهدهما رفيعة العِمَاد ، قوية السُّنَاد ، حتى تلقَّاهما بنو أمية على ما تركها الخلفاء ، بيضاء مشرقة ، ليلاً كنهارها .

ولبثت السنة في العهد الأموي معتصمة بعزَّتها ومنعمتها ، حتى طلع نجم الملك العادل عمر بن عبد العزيز ، على رأس المائة الثانية فردَّدَ صدى جده عمر بن الخطاب ، في ضرورة صون السنة ووعيتها ، ولكن رأى أن يكون ذلك عن طريق الكتابة والنقش في السطور بعد أن وُعيت في العهد الماضي عن طريق الحفظ في القلوب والصدور . وبذلك انتقل الحديث النبوي إلى دور جديد سعيده ، هو دور التأليف والكتابة والتقييم ، مما كان له أبلغ الأثر في وصوله إلينا موزوناً بأدق موازين العلم والبحث الدقيق .

نتيجة ذلك

ولقد كان من نتيجة ذلك كله أن أحيط الكتاب والسنة بسياج من الفولاذ والحديد ، وأن حُفظ الدين من العبث بأصول التشريع ، وأن أخذ خلف الأمة درساً قيماً عن سلفهم الصالح في ضرورة الاستبراء للدين ، واليقظة في حراسة الكتاب والسنة ، ووجوب نقد الرواة وفحص المرويات . وبهذا أيضاً أخذ الطريق على الدس والذسائين وحيكت الشباك للدجالين والوضَّاعين ، وأصبح الدين الإسلامي منبع الحوزة محفوظ الذمار ، إلى درجة تفاخر بها شعوب العالم ؛ وأمم الأرض ، وأديان الدنيا ، مما لا يكاد يوجد مثله ولا قريب منه في تاريخ أية شريعة من الشرائع السماوية والوضعية ، منذ خلق الله السموات والأرض إلى يوم الناس هذا ! !

الموقف خطير

ولا تحسبن أيها القارئ الكريم أنني بالفت أو أسرفت ، وإن كنت قد أطلت وأكثرت ، فإن هذا البحث جليل وخطير يتصل في جلالته وخطورته بتلك الطائفة المتميزة التي اختارها الله لتلقى كتابه ، ومعاصرة رسوله ﷺ وحسن النياحة عنه في نشر هداية الإسلام ، والدفاع عن حجة الدين الحنيف .

أولئك هم حجر الزاوية في بناء هذه الأمة المسلمة ، عنهم قبل غيرهم تلقت الأمة كتاب الله ، وحذقت سنة رسول الله ، وعرفت تعاليم الإسلام ، فالفض من شأنهم والتحقير لهم ، بل النظر إليهم بالعين الجردة من الاعتبار ، لا يتفق والمركز السامى الذى تبوءوه ، ولا يوائم المهمة الكبرى التى انتدبوا لها ونهضوا بها ، كما أن الطعن فيهم والتجريح لهم ، يزلزل بناء الإسلام ، ويقوّض دعائم الشريعة ، ويشكك في صحة القرآن ، ويضيع الثقة بسنة سيد الأنام ! .

ومن أشد ما يجرح به الصحابة اتهامهم بسوء الحفظ وعدم الضبط ولمزهم بالكذب والافتراء على الله ورسوله ، ونيزهم بعدم الثبوت والتجريح في نقلهم كتاب الله وسنة رسوله إلى الأمة ! .

لذلك عني علماء الإسلام قديماً وحديثاً بالدفاع عن عرين الصحابة ، لأنه - كما رأيت - دفاع عن عرين الإسلام . ولم يكن ذلك الدفاع نزوة هوى ، ولا نبوة عصبية ، بل كان نتيجة لدراسات تحليلية ، وأبحاث تاريخية ، وتحقيقات بارعة واسعة ، أحصتهم عدداً ، ونقدتهم فرداً فرداً ، وعرضتهم على أدق موازين الرجال ، مما تباهى به الأمة الإسلامية كافة الأمام والأجيال .

وبعد هذا التحقيق والتدقيق ، خرج الصحابة رضى الله عنهم من بوتقة هذا البحث ، وإذا هم خير أمة أخرجت للناس ، وأسمى طائفة عرفها التاريخ ، وأنبل

أصحاب لنبي ظهر على وجه الأرض، وأوعى وأضبط جماعة لما استَحْفَظُوا عليه من كتاب الله وهَدَى رسول الله ﷺ .

وقد اضطرَّ أهل السنة والجماعة، أن يعلنوا رأيهم هذا كعقيدة، فقرروا أن الصحابة عدول . ولم يشذَّ عن هذا الرأي إلا المبتدعة والزنادقة قُبْحهم الله . قال أبو زرعة الرازي : « إذا رأيت الرجل ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق ، وذلك لأن الرسول حق ، والقرآن حق ، وما جاء به حق ، وإنما أدى ذلك إلينا كلُّه الصحابة . وهؤلاء (بمعنى الزنادقة) يريدون أن يَجْرَحُوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى ، وهم زنادقة ! اهـ .

شهادة عليا من الله للصحابة

وفوق ما تقدم نجد الحق سبحانه وتعالى، يمدح أصحاب محمد ﷺ غير مرة، ونرى الرسول ﷺ يُطْرِي صحابته في غير موضع . اقرأ إن شئت قوله جلَّ جلاله : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » إلى آخر سورة الفتح . ثم اقرأ إن شئت قوله عزَّ اسمه : « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ ، أُولَئِكَ أَكْبَرُ مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى » وقوله جلَّت حكمته : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » إلى قوله : « وَيُوْثَرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » في سورة الحشر . وتأمل قوله عزَّ من قائل : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » الخ ، وقوله : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » ولا ريب أن الصحابة هم المشافهون بهذا الخطاب ، فهم داخلون في مضمونه بادئ ذي بدء ، متحققون بمزاياه أول الأمر !!

شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه

وكذلك نقرأ في صحيح السنة ما يشهد بفضل الصحابة وكمال امتيازهم على الثقلين سوى النبيين والمرسلين . روى الترمذى وابن حبان في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرَضاً ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله فيوشك أن يأخذه » .

وروى البزار في مسنده رجال كلهم موثقون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النبيين والمرسلين » وجاء في صحيح البخارى ومسلم أنه ﷺ قال في شأن أصحابه : « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك مدَّ أحدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ » . وتواتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيرُ القُرُونِ قرْنِي ، مُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ... » .

فأنت ترى من هذه الشهادات العالية في الكتاب والسنة ، ما يرفع مقام الصحابة إلى الذروة ، وما لا يترك لطاعن فيهم دليلاً ولا شبه دليل .

حكمة الله في اختيار الصحابة

والواقع أن العقل المجرد من الهوى والتعصب ، يحيل على الله في حكمته ورحمته ، أن يختار لمل شريعته الختامية أمة مفعوزة أو طائفة مملوزة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ومن هنا كان توثيق هذه الطبقة الكريمة طبقة الصحابة ، يعتبر دفاعاً عن الكتاب والسنة وأصول الإسلام من ناحية ، ويعتبر إنصافاً أدبياً لمن يستحقونه من ناحية ثانية ، ويعتبر تقديرًا لحكمة الله البالغة في اختيارهم لهذه المهمة العظيمة من ناحية ثالثة . كما أن توهينهم

والنيل منهم ، يُعَدُّ غَمَزاً في هذا الاختيار الحكيم ، ولمَزاً في ذلك الاصطفاء والتكريم ، فوق ما فيه من هدم الكتاب والسنة والدين .

على أن المتصفح لتاريخ الأمة العربية وطبائعها ومميزاتها ، يرى من سلامة عنصرها ، وصفاء جوهرها ، وسمو مميزاتها ، ما يجعله يحكم مطمئناً ، بأنها صارت خير أمة أخرجت للناس ، بعد أن صهرها الإسلام . وطهرها القرآن ، ونفى خبثها سيد الأنام ، عليه الصلاة والسلام .

ولكن الإسلام قد ابتلى حديثاً بمثل أو بأشدّ مما ابتلى به قديماً ، فانطلقت السنة في هذا العصر تُرجف في كتاب الله بغير علم ، وتخوض في السنة بغير دليل ، وتطمع في الصحابة دون استحياء ، وتنال من حَفَظَةِ الشريعة بلا حِجَّة ، وتتهمهم تارة بسوء الحفظ ، وأخرى بالتزبد وعدم التثبت وقد زودناك وسأحنأك فانزل في الميدان ولا تخش عِدَاك . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » نصرنا الله بنصرة الإسلام ، وثبت منا الأقدام والأقلام ، والحمد لله في البدء وفي الختام ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحابه الأعلام ، آمين .

المبحث التاسع

في ترتيب آيات القرآن وسوره

معنى الآية :

آيات القرآن جمع آية ، والآية تطلق في لسان اللغة بإطلاقات :

أولها : المعجزة . ومنه قوله تعالى : « سَلِّ بْنِ إِسْرَءِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ »

أي معجزة واضحة .

ثانيها : العلامة . ومنه قوله تعالى : « إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ » أى علامة ملكه .

ثالثها : العبرة . ومنه قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً » أى عبرة لمن يعتبر .

رابعها : الأمر العجيب . ومنه قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً »

خامسها : الجماعة . ومنه قولهم : خرج القوم بأيهم أى بجماعتهم . والمعنى أنهم لم يدعوا وراءهم شيئاً .

سادسها : البرهان والدليل ، نحو قوله جلّ ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » والمعنى أن من براهين وجود الله واقتداره واتصافه بالكمال ، خلق عوالم السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان . تلك كلها إطلاقات لغوية ، وقد يستلزم بعضها بعضاً . ثم خُصَّت الآية في الاصطلاح بأنها طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن ، والمناسبة بين هذا المعنى الاصطلاحي والمعانى اللغوية السالفة واضحة ، لأن الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها ، ثم هى علامة على صدق من جاء بها ﷺ ، وفيها عبرة وذكري لمن أراد أن يتذكر ، وهى من الأمور العجيبة لمساكنها من السموات والإعجاز ، وفيها معنى الجماعة لأنها مؤلفة من جملة كلمات وحروف ، وفيها معنى البرهان والدليل على ما تضمنته من هداية وعلم ، وعلى قدرة الله وعلمه وحكمته ، وعلى صدق رسوله في رسالته .

طريقة معرفة الآية :

لا سبيل إلى معرفة آيات القرآن إلا بتوقيف من الشارع ، لأنه ليس للقياس والرأى مجال فيها ، إنما هو محض تعليم وإرشاد ، بدليل أن العلماء عدّوا « المص » آية ، ولم يعدّوا نظيرها وهو « المّر » آية ، وعدّوا « يس » آية ، ولم يعدّوا نظيرها وهو « طس » آية ، وعدّوا « حمّسق » آيتين ، ولم يعدّوا نظيرها وهو « كهيمص » آيتين ، بل آية واحدة ، فلو كان الأمر مبنيًا على القياس لكان حكم المثليين واحدًا فيما ذكر ، ولم يجرى هكذا مختلفًا .

ذلك مذهب الكوفيين ، لأنهم عدّوا كل فاتحة من فواتح السور التي فيها شيء من حروف الهجاء آية سوى حمّسق ، فإنهم عدّوها آيتين ، وسوى طس . ولم يعدّوا من الآيات ما فيه « ر » وهو « آر » و « المّر » ، وما كان مفرداً وهو « ق ، ص ، ن » أى لم يعدّوا شيئاً منها آية .

وغير الكوفيين لا يعتبرون شيئاً من الفواتح آية إطلاقاً . وحيث قلنا : إن المسألة توقيفية ، فلا يشتبهن عليك هذا الخلاف . لأن كلاً وقف عند حدود ما بلغه أو علمه . ولا تقولن كيف عدّوا ما هو كلمة واحدة آية ؟ لأن الوارد عن الشارع هو هذا ، كما عدت كلمة « الرحمن » في صدر سورة الرحمن آية ، وكما عدت كلمة « مدهامتان » آية ، وقوفاً عند الوارد .

أخرج البخارى وأبو داود والنسائى عن أبى سعيد بن الملعلى قال : كنت أصلى في المسجد ، فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه ، ثم أتيتهُ فقلت : يا رسول الله إني كنت أصلى . فقال : ألم يقل الله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ » . ثم قال : لأعلمنك سورةً هي أعظمُ السورِ في القرآنِ قبل أن تخرجَ من المسجدِ ثم أخذَ بيدي ، فلما أراد أن يخرجَ قلت له : ألم تقل :

لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ؟ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ « هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أَوْثَقَهُ ، هـ . فَبِذَا الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَاتِحَةَ سَبْعُ آيَاتٍ ، وَعَلَى أَنَّهَا هِيَ الْمُرَادَةُ بِالسَّبْعِ الْمَثَانِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » .

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا ، وَإِنْ سَنَامَ ، الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ ، وَفِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ : آيَةُ الْكَرْسِيِّ » هـ .

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ كَعْبٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا أَبَا الْمُنْذِرِ . أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ؟ قُلْتُ : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ » هـ .

وَأَخْرَجَ الْخَمْسَةُ إِلَّا النَّسَائِيَّ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَّتَاهُ » هـ .

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ « أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُورَةً مِنَ الثَّلَاثِينَ مِنْ آلِ حَمٍّ » قَالَ : يَعْنِي الْأَحْقَافَ ، لِأَنَّ السُّورَةَ إِذَا كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ آيَةً سَمِيَتْ الثَّلَاثِينَ .

وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَنَّ الْفَاتِحَةَ سَبْعُ آيَاتٍ ، وَسُورَةُ الْمَلِكِ ثَلَاثُونَ آيَةً » هـ .

رَأَى آخَرَ :

وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ مَعْرِفَةَ الْآيَاتِ ، مِنْهَا مَا هُوَ سَمَاعِيٌّ وَتَوْقِيفِيٌّ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ قِيَاسِيٌّ ، وَمُرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى الْفَاصِلَةِ ، وَهِيَ السَّكَّةُ الَّتِي تَكُونُ آخِرَ الْآيَةِ ، نَظِيرُهَا قَرِينَةُ السَّجْعِ فِي النَّثْرِ ، وَقَافِيَةُ الْبَيْتِ فِي الشَّعْرِ . يَقُولُونَ : فَمَا ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وقف عليه دائماً تحقّقنا أنه فاصلة ، وما وصله دائماً تحقّقنا أنه ليس فاصلة ، وما وقف عليه مرةً ووصله أخرى احتمال الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة أو لتعريف الوقف التام أو للاستراحة ، واحتمل الوصل أن يكون غير فاصلة أو فاصلة وصلها لتقدّم تعريفها ، وفي هذا مجال للقياس ، وهو ما ألحق غير المنصوص عليه بالمنصوص عليه لأمر يقتضى ذلك . ولا محذور فيه لأنه لا يؤدي إلى زيادة ولا نقصان في القرآن ، وإنما غايته تعيين محل الفصل أو الوصل .

وقد يلاحظ في الكلمة الواحدة من القرآن أمران ، يقتضى أحدهما عدّها من الفواصل ، والآخر يقتضى خلاف ذلك . مثال ذلك كلمة « عليهم » الأولى في سورة الفاتحة ، منهم من يعتبرها رأس آية ، ومنهم من لا يراها كذلك . وسبب هذا أنهم اختلفوا في البسمة أمى آية من الفاتحة أم لا ؟ مع اتفاقهم على أن عدد آيات الفاتحة سبع . فالذين ذهبوا إلى أن البسمة آية من الفاتحة جعلوا « صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » إلى آخر السورة آية واحدة . والذين ذهبوا إلى أن البسمة ليست آية منها جعلوا الآية السابعة مابعد كلمة « عَلَيْهِمْ » الأولى ، واعتبروا هذه الكلمة فاصلة لوقوعها في آخر الآية السادسة . ومن المرجحات لعدّها فاصلة تحقّق التناسب بين الآيات في المقدار ، بخلاف ما إذا لم يعتبر فاصلة فإن هذه الآية الأخيرة تطول وتزيد على ما سواها كثيراً . ومن المرجحات لعدم عدّها فاصلة أنها لا تشاكل فواصل الفاتحة ، فإنه جاء في كل واحدة منها قبل الحرف الأخير بامتداد بخلاف هذه . أضف إلى ذلك أنه لم نجىء فاصلة على هذا النمط في سورة من السور .

واعلم أنه قد تطلق الآية القرآنية ويراد بعضها أو أكثر . ولكن على ضرب من المجاز والتوسّع ، فلا تتوقّف فيه . مثال إطلاق الآية على بعضها ، قول ابن عباس : أَرْجَى آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » فإن هذه

الجملة الكريمة بعض آية باتفاق . ومثال إطلاق الآية على أكثر منها قول ابن مسعود :
 « أَحْكُمُ آيَةَ » فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .
 فإنهما آيتان باتفاق .

عدد آيات القرآن :

قال صاحب التبيان مانصه : وأما عدد آي القرآن فقد اتفق العادون على أنه ستة
 آلاف ومائتا آية وكسر ، إلا أن هذا الكسر يختلف مبلغه باختلاف أعدادهم :
 ففي عدد المدنى الأول سبع عشرة ، وبه قال نافع .

وفي عدد المدنى الأخير أربع عشرة عند شعبة ، وعشر عند أبى جعفر .
 وفي عدد المكى عشرون .

وفي عدد الكوفى ست وثلاثون . وهو مروي عن حمزة الزيات .

وفي عدد البصرى خمس ، وهو مروي عن عاصم الجحدري . وفي رواية عنه أربع ،
 وبه قال أيوب بن المتوكل البصرى ، وفي رواية عن البصريين أنهم قالوا : تسع عشرة ،
 وروى ذلك عن قتادة .

وفي عدد الشامى ست وعشرون وهو مروي عن يحيى بن الحارث الذمارى ١٨٠ .
 وقال صاحب التبيان أيضاً قبل ذلك مانصه : « عدد المكى منسوب إلى عبد الله
 ابن كثير أحد السبعة ، وهو يروى ذلك عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب .
 وعدد المدنى على ضربين : عدد المدنى الأول وعدد المدنى الأخير . فعدد المدنى
 الأول غير منسوب إلى أحد بعينه . وإنما نقله أهل الكوفة عن أهل المدينة مُرسلاً ،
 ولم يسموا فى ذلك أحداً ، وكانوا يأخذون به وإن كان لهم عدد مخصوص .
 وعدد المدنى الأخير منسوب إلى أبى جعفر بن يزيد بن القعقاع أحد العشرة ، وشعبة
 ابن نَصَّاح . وقد رواه عنهما إسماعيل بن جعفر بن أبى كثير الأنصارى بواسطة

سليمان بن جاز . وقد وهم من نسب عدد المذني الأول إلى أبي جعفر وشيبة ، وعدد المذني الأخير إلى إسماعيل بن جعفر . وكأن الذي أوقعه في ذلك ما ذكر في بعض الكتب من أن نافعاً روى عنهما عدد المذني الأول ، وأن أبا عمرو عرض العدد المذكور على أبي جعفر ، فإن رواية ذلك عنهما لا تقتضي نسبته إليهما . وأما نسبة عدد المذني الأخير إليهما فهو مما لا ريب فيه « ٥١ » . ما أردنا نقله ، تنويراً في هذا الموضوع ، الذي اضطربت فيه بعض النقول .

سبب هذا الاختلاف :

سبب هذا الاختلاف أن النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآي تعليماً لأصحابه أنها رؤوس آي ، حتى إذا علموا ذلك وصل ﷺ الآية بما بعدها طلباً لتمام المعنى ، فيظن بعض الناس أن ما وقف عليه النبي ﷺ ليس فاصلة ، فيصلها بما بعدها معتبراً أن الجميع آية واحدة ، والبعض يعتبرها آية مستقلة فلا يصلها بما بعدها . وقد علمت أن الخطأ في ذلك سهل ، لأنه لا يترتب عليه في القرآن زيادة ولا نقص .

وآيات القرآن مختلفة في الطول والقصر ، فأطول آية هي الذين في سورة البقرة التي هي أطول سورة ، وأقصر آية كلمة « يس » الواقعة في صدر سورة يس .

فوائد معرفة الآيات :

يزعم بعض الناس أنه لا فائدة من معرفة آيات القرآن . ولرد عليهم نذكر لهذه المعرفة ثلاث فوائد لا فائدة واحدة :

(الفائدة الأولى) : العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم . وفي حكمها الآية الطويلة التي تعدل بطولها تلك الثلاث القصار . ووجه ذلك أن الله تعالى أعلن التحدى بالسورة الواحدة فقال سبحانه : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ

عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ » والسورة تصدق بأقصر سورة كما تصدق بأطول سورة . وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر ، وهي ثلاث آياتٍ قصار . فنبت أن كل ثلاث آياتٍ قصار معجزة ، وفي قوتها الآية الواحدة الطويلة التي تكافئها .

(الفائدة الثانية) : حسن الوقف على رءوس الآي عند من يرى أن الوقف على الفواصل سُنَّة ، بناءً على ظاهر الحديث الذي استدلوا به فيما يرويه أبو داود عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية ، يقول « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ثم يقف . « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ثم يقف . « الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » ثم يقف .

قال صاحب التبيين في موضع آخر ما نصه : (قال بعض العلماء : وفي الاستدال به - أي بذلك الحديث - على ما ذكر نظر ، وذلك لأنه حديث غريب غير متصل الإسناد . رواه يحيى بن سعد الأموي وغيره عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة . والأصح ما رواه الليث عن ابن أبي مليكة عن يعلى بن مالك أنه سأل أم سلمة عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته فقالت : مَا لَكُمْ وَصَلَاتُهُ ؟ ثُمَّ نَعَتَتْ قِرَاءَتَهُ مُفَسَّرَةً حَرْفًا حَرْفًا . ذكر ذلك الترمذي) ١ هـ .

أقول : ويمكن الجمع بين هذين الحديثين بأن النبي ﷺ كان تارة يقف على كل فاصلة ولو لم يتم المعنى ، بياناً لرءوس الآي . وكان تارة يقف في الوقف تمام المعنى فلا يلتزم أن يقف على رءوس الآي ، لتسكون قراءته مفسرة حرفاً حرفاً . وعلى هذا يمكن أن يقال : حينما كان الناس في حاجة إلى بيان الآيات حسن الوقف على رءوس الآي ، ولو لم يتم المعنى ، وحينما كان الناس في غنى عن معرفة رءوس الآي لم يحسن الوقف إلا حيث يتم المعنى .

ويمحتمل أن كلمة «مفسرةً حرفاً حرفاً» في الحديث الآنف يراد بها الترتيل وإخراج الحروف من مخارجها ، فلا تعارض الحديث الأول .

(الفائدة الثالثة) اعتبار الآيات في الصلاة والخطبة ؛ قال السيوطي مانصه : « يترتب على معرفة الآي وعددها وفواصلها أحكام فقهية ، منها اعتبارها فيمن جهل الفاتحة ، فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات . ومنها اعتبارها في الخطبة ، فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة ، ولا يكفي شطرها إن لم تكن طويلة ، وكذا الطويلة على ما حققه الجمهور . ثم قال : ومنها اعتبارها في السورة التي تقرأ في الصلاة أو ما يقوم مقامها ، وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الصبح بالسنتين إلى المائة . ومنها اعتبارها في قراءة قيام الليل إلى آخر ما قال » اهـ ما أردنا نقله . بيد أنه نقل عن الهذلي في كامله مانصه : « اعلم أن قوماً جهلوا العدد وما فيه من الفوائد حتى قال الزعفراني : إن العدد ليس بعلم ، وإنما اشتغل به بعضهم ليرؤج به سوقه . قال : وليس كذلك فقيه من الفوائد معرفة الوقف ، ولأن الإجماع انعقد على أن الصلاة لا تصح بنصف آية . وقال جمع من العلماء : تجزئ بآية ، وآخرون بثلاث آيات ، وآخرون لا بد من سبع . والإعجاز لا يقع يدون آية . فللمد فائدة عظيمة في ذلك » اهـ غير أنا لا ندرى ما الذي أراده الهذلي على التعيين من كلامه هذا ؟ ولا عن أي مذهب يتحدث ؟ .

ترتيب آيات القرآن

انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي نراه اليوم بالمصاحف ، كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ، وأنه لا مجال للرأى والاجتهاد فيه .^١ بل كان جبريل ينزل بالآيات على الرسول صلى الله عليه وسلم ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها . ثم يقرؤها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه ،

ويأمر كتاب الوحي بكتابتها معينا لهم السورة التي تكون فيها الآية ، وموضع الآية من هذه السورة. وكان يتلوهم عليهم مرارا وتكرارا في صلاته وعظاته وفي حكمه وأحكامه. وكان يعارض به جبريل كل عام مرة ، وعارضه به في العام الأخير مرتين . كل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا في المصاحف . وكذلك كان كل من حفظ القرآن أوشبثا منه من الصحابة ، حفظه مرتب الآيات على هذا النمط . وشاع ذلك وذاع ، وملأ البقاع والأسماع ، يتدارسونه فيما بينهم ، ويقرأونه في صلاتهم ، وبأخذه بعضهم عن بعض ، ويسمعه بعضهم من بعض بالترتيب القائم الآن فليس لواحد من الصحابة والخلفاء الراشدين يد ولا تصرف في ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم . بل الجمع الذي كان على عهد أبي بكر لم يتجاوز نقل القرآن من العصب واللاخاف وغيرها في صحف ، والجمع الذي كان على عهد عثمان لم يتجاوز نقله من الصحف في مصاحف . وكلا هذين كان وفق الترتيب المحفوظ المستفيض عن النبي ﷺ عن الله تعالى . أجل : انمقد الإجماع على ذلك تاما لا ريب فيه . ومن حكى هذا الإجماع جماعة منهم الزركشي في البرهان ، وأبو جعفر في المناسبات إذ يقول ما نصه : (ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين) .

واستند هذا الإجماع إلى نصوص كثيرة منها ما سبق لك قريبا ، ومنها ما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال : كنت جالسا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال : « أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة : **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى** » إلى آخرها .

ومنها ما ثبت في السنن الصحيحة من قراءة النبي ﷺ بسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء ومن قراءته لسورة الأعراف في صلاة المغرب وسورة « **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** » وسورة الروم في صلاة الصبح ، وقراءة سورة السجدة وسورة « **هَلْ أَتَى عَلَى** »

الْإِنْسَانِ « في صبح يوم الجمعة ، وقراءته سورة الجمعة والمنافقين في صلاة الجمعة ، وقراءته سورة ق في الخطبة وسورة اقتراب وق في صلاة العيد ، كان يقرأ ذلك كله مرتب الآيات على النحو الذي في المصحف على مرأى ومسمع من الصحابة .

ومنها ما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال قلت لعثمان بن عفان : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا » نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها أو تدعها (والمعنى لماذا تكتبها ؟ أو قال لماذا تتركها مكتوبة ؟ مع أنها منسوخة) قال يابن أخى لا أغير شيئاً من مكانه .

فهذا حديث أبلغ من الصبح في أن إثبات هذه الآية في مكانها مع نسخها توقيفي لا يستطيع عثمان باعترافه أن يتصرف فيه ، لأنه لا مجال للرأى في مثله .

ومنها : ما رواه مسلم عن عمر قال : ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدرى ، وقال : « تكفيك آية الصَّيْفِ التي في آخر سورة النساء » .

فأنت ترى أنه ﷺ دلَّه على موضع تلك الآية من سورة النساء ، وهى قوله سبحانه : « يَسْتَفْتُونَكَ ؟ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » الخ .

ملاحظة :

ذكر بعضهم أن كلمات القرآن ٧٧٩٣٤ أربع وثلاثون وتسعمائة وسبعة وسبعون ألف كلمة ، وذكر بعضهم غير ذلك . قيل وسبب الاختلاف في عدد الكلمات أن الكلمة لها حقيقة ومجاز ، ولفظ ورسم ، واعتبار كل منها جائز ، وكل من العلماء اعتبر أحدها هو جائز ؛ قال السخاوى : « لا أعلم لعدد الكلمات والحروف من فائدة ، لأن ذلك إن أفاد فإنما يفيد في كتاب يمكن فيه الزيادة والنقصان . والقرآن لا يمكن فيه ذلك » اهـ ولكن

ورد من الأحاديث في اعتبار الحروف ما أخرجه الترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً: «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حَسَنَةٌ . والحسنةُ بِعَشْرٍ أمثالها ، لا قول : « أَلَمْ » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » وأخرج الطبراني عن عمر ابن الخطاب مرفوعاً « القرآنُ أَلْفُ أَلْفِ حرفٍ وسبعةٌ وعشرون أَلْفَ حرف ، فمن قرأه صابراً مُحْتَسِباً كان له بكلِّ حرفٍ زوجةٌ من الخُورِ العِينِ » . قال السيوطي بمد أن أورده: رجاله ثقات إلا شيخ الطبراني محمد بن عبيد بن آدم بن أبي إياس تسكلم فيه الذهبي ثم قال : وقد حمل ذلك (أى العدد المذكور في هذا الحديث) على مانسخ رسمه من القرآن ، إذ الموجود الآن لا يبلغ هذا العدد ، وهو يريد أن هذا الرقم الكبير الذى روى في هذا الحديث ملحوظ فيه جميع الحروف النازلة من القرآن مانسخ منها وما لم ينسخ والله تعالى أعلم .

شبهة وتفنيدها

يقولون : إن ابن أبى داود أخرج بسنده ، عن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : « أتى الحارثُ بنُ خزيمةَ بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة فقال : أشهدُ أُنّى سمعتهما من رسول الله وَوَعَيْتُهُمَا . فقال عمر : أنا أشهدُ لقد سمعتهما ثم قال : لو كانتا ثلاث آيات لجمعتهما على حدة ، فانظروا آخر سورة من القرآن فألحقوها في آخرها » يقولون : هذا الحديث يدل على أن ترتيب الآيات لم يكن في القرآن كله بتوقيف ، إنما كان عن هَوًى من الصحابة وعن تصرف منهم ولو في البعض .

ونجيب : (أولاً) بأن هذا الخبر معارض للقاطع ، وهو ما أجمعت عليه الأمة . ومعارض القاطع ساقط عن درجة الاعتبار ، فهذا خبر ساقط مردود على قائله .

(ثانياً) أنه معارض لما لا يُحصى من الأخبار الدالة على خلافه ، وقد تقدم كثير منها . بل لابن أبى داود أخرجه خبر يعارضه ، ذلك أنه أخرج أيضاً عن أبي أنهم

جمعوا القرآن ، فلما انتهوا إلى الآية التي في سورة براءة : « ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » ظنوا أن هذه آخر ما نزل ، فقال أبي : إن رسول الله ﷺ أقرأني بعدها آيتين « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ » إلى آخر السورة .

ترتيب السور

معنى السورة :

السورة في اللغة تطلق على ما ذكره صاحب القاموس بقوله : « والسورة : الْمَنْزِلَةُ » ومن القرآن معروفة ، لأنها منزلة بعد منزلة : مقطوعة عن الأخرى ، والشرف ، وما طال من البناء وحسن ، والعلامة ، وعرق من عروق الحائط » اهـ .

ويمكن تعريفها اصطلاحاً ، بأنها طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع . قالوا : وهي مأخوذة من سور المدينة . وذلك إما لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة ، وآية بجانب آية ، كالسور توضع كل آية فيه بجانب لبنة ، ويقام كل صف منه على صف .

وإما لما في السورة من معنى العلو والرفعة المعنوية الشبيهة بعلو السور ورفعته الحسية ، وإما لأنها حصن وحماية لمحمد ﷺ وما جاء به من كتاب الله القرآن ، ودين الحق الإسلام ، باعتبار أنها معجزة تحرس كل مكابر ، ويحقُّ الله بها الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون . أشبه بسور المدينة ، يُحَصِّنُهَا ويحميها غارة الأعداء ، وسطوة الأشقياء . وسور القرآن مختلفة طولاً وقصراً . فأقصر سورة فيه سورة الكوثر ، وهي ثلاث آيات قصار . وأطول سورة فيه سورة البقرة ، وهي خمس وثمانون وأوست وثمانون ومائتا آية . وأكثر آياتها من الآيات الطوال . بل فيها آية الدين التي هي أطول آية في القرآن كما سبق . وبين سورة البقرة وسورة الكوثر سور كثيرة تختلف طولاً وتوسطاً وقصراً ومرجع الطول

والقصر والتوسط وتحديد المطلع والمقطع ، إلى الله وحده ، لحكم سامية ، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها .

حكمة تسوير السور :

لتجزئة القرآن إلى سُور فوائده وحكم :

« منها : التيسير على الناس وتشويقهم إلى مدارس القرآن وتحفظه ، لأنه لو كان سبيكة واحدة لا حلقات بها لصعب عليهم حفظه وفهمه ، وأعيانهم أن يخوضوا عباب هذا البحر الخضم الذي لا يشاهدون فيه عن كثب مرافق ولا شواطئ . »

ومنها : الدلالة على موضوع الحديث ومحور الكلام ، فإن في كل سورة موضوعاً بارزاً تتحدث عنه ، كسورة البقرة ، وسورة يوسف ، وسورة النمل ، وسورة الجن .
ومنها : الإشارة إلى أن طول السورة ليس شرطاً في إعجازها ، بل هي معجزة وإن بلغت الغاية في القصر كسورة الكوثر .

قال صاحب الكشف في فوائده تفصيل القرآن وتقطيعه سُوراً كثيرة مانعه : منها (أى الفوائد) أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف ، كان أحسن وأنعم من أن يكون باباً واحداً .

ومنها : أن القارئ إذا أتم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ، ومثله المسافر إذا قطع ميلاً أو فرسخاً نفس ذلك عنه ونشط للسير ، ومن ثمّ جُزئ القرآن أجزاءً وأخماساً .

ومنها : أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها ، فيعظم عنده ما حفظه ، ومنه حديث أنس : « كَانَ الرَّجُلُ

إِذْ قَرَأَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدًّا فِينَا . وَمِنْ ثَمَّ كَانَتِ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ بِسُورَةِ أَفْضَلِ .

ومنها : أن التفصيل بحسب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض ، وبذلك تتلاحق المعاني والنظم ، إلى غير ذلك من الفوائد « ١ هـ .

أقسام السور :

قسم العلماء سور القرآن إلى أربعة أقسام ، خصّوا كلّا منها باسم معين ، وهي : الطوال ، والمئين ، والمثنى ، والمفصل . فالطوال سبع سور : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف . فهذه ستة ، واختلفوا في السابعة أي الأنفال وبراءة معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة أم هي سورة يونس ؟؟ .

والمئون : هي السور التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها .

والمثنى : هي التي تلي المئين في عدد الآيات وقال الفراء : هي السور التي آياتها أقل من مائة آية لأنها تُثنى (أى تكرر) أكثر مما تُثنى الطوال والمئون .

والمفصل : هو أواخر القرآن ، واختلفوا في تعيين أوله على اثني عشر قولاً ، ف قيل

أوله « ق » ، وقيل غير ذلك ، وصحح النووي أن أوله الحجرات . وسمى بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة ، وقيل لقلة المنسوخ منه ، ولهذا يسمى المحكم أيضاً ، كما روى البخاري عن سعيد بن جبير قال : « إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم » .

والمفصل ثلاثة أقسام : طوال ، وأوساط ، وقصار . فطواله من « أول الحجرات »

إلى سورة « البروج » . وأوساطه من سورة « الطارق » إلى سورة « لم يكن » . وقصاره

من سورة « إذا زلزلت » إلى آخر القرآن .

المذاهب في ترتيب السور :

اختلف في ترتيب السور على ثلاثة أقوال : (الأول) أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن لم يكن بتوقيف من النبي ﷺ ؛ إنما كان باجتهاد من الصحابة . وينسب هذا القول إلى جمهور العلماء ، منهم مالك والقاضي أبو بكر فيما اعتمده من قوايه . وإلى هذا المذهب يشير ابن فارس في كتاب المسائل الخمس بقوله : « جمع القرآن على ضربين : أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين ، فهذا هو الذي تولته الصحابة رضى الله عنهم . وأما الجمع الآخر وهو الآيات في السور ، فذلك شيء تولاه النبي ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه عز وجل .

وقد استدلوا على رأيهما هذا بأمرين : (أحدهما) أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن في عهد عثمان ، فلو كان هذا الترتيب توقيفياً منقولاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ما ساغ لهم أن يهملوه ويتجاوزوه ويختلفوا فيه ذلك الاختلاف الذي تصوّرناه الروايات . فهذا مصحف أبي بن كعب ، روى أنه كان مبدوءاً بالفاحة ، ثم البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، ثم الأنعام . وهذا مصحف ابن مسعود كان مبدوءاً بالبقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران الخ على اختلاف شديد . وهذا مصحف علي كان مرتباً على النزول ، فأوله « اقرأ » ثم المدثر ثم « ق » ، ثم الزمل ، ثم « تبت » ثم التكويم ، وهكذا إلى آخر المسكي والمدني .

(الدليل الثاني) : ما أخرجه ابن أشته في المصاحف من طريق إسماعيل بن عباس عن حبان بن يحيى عن أبي محمد القرشي قال : « أمرهم عثمان أن يتابعوا الطوال فجعل سورة الأنفال وسورة التوبة في السبع ، ولم يفصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم » اه ولعله يشير بهذا إلى ما رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : « قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من الثاني ، وإلى براءة وهي من

المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ووضعتوها في السبع الطوال ؟ فقال عثمان رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول : ضموا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا » . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً . وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما . ولم أكتب بينهما سطر « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ووضعتهما في السبع الطوال » ١٠١ .

ويمكن أن يناقش هذا المذهب بالأحاديث الدالة على التوقيف وستأتيك في الاحتجاج للقول الثاني . ويمكن أيضاً مناقشة دليلهم الأول باحتمال أن اختلاف من خالف من الصحابة في الترتيب ، إنما كان قبل علمهم بالتوقيف ، أو كان في خصوص ما لم يرد فيه توقيف دون ما ورد فيه . ويمكن مناقشة دليلهم الثاني بأنه خاصٌ بحمل ورودده ، وهو سورة الأنفال والتوبة ويونس ، فلا يصح أن يصاغ منه حكم عام على القرآن كله .

القول الثاني :

أن ترتيب السور كلها توقيفي بقول رسول الله ﷺ كترتيب الآيات وأنه لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر منه ﷺ . واستدل أصحاب هذا الرأي بأن الصحابة أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان ولم يخالف منهم أحد . وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف ، لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم . لكنهم لم يتمسكوا بها بل عدلوا عنها وعن ترتيبهم ، وعدلوا عن مصاحفهم وأحرقوها ، ورجعوا إلى مصحف عثمان وترتيبه جميعاً . ثم ساقوا روايات لمذهبهم كأدلة يستند إليها الإجماع .

منها ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن حذيفة الثقي قال كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف . إلى أن جاء في هذه الرواية ما نصه :

فقال لنا رسول الله ﷺ : « طرأ على حزب من القرآن فأردت ألا أخرج حتى أقضيه فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة سورة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل من « ق » حتى نختم . قالوا : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

لكن هذه الدلالة غير ظاهرة فيما نفهم ، اللهم إلا في ترتيب حزب المفصل خاصة بخلاف ما سواه .

واحتجوا المذهب أيضاً بأن السور المتجانسة في القرآن لم يلتزم فيها الترتيب والولاء ، ولو كان الأمر بالاجتهاد للوحظ مكان هذا التجانس والمائل دائماً ، لكن ذلك لم يكن ، بدليل أن سور السبحات لم ترتب على التوالي بينما هي متماثلة في افتتاح كل منها بتسبيح الله . بل فصل بين سورها بسورة « قد سمع » والممتحنة والمنافقين ، وبدليل أن (طسم الشعراء وطسم القصص) لم يتعاقبا مع تماثلهما ، بل فصل بينهما بسورة أقصر منهما وهي « طس » .

وقد أيد هذا المذهب أبو جعفر النحاس فقال : « المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ لحديث واثلة : أعطيت مكان التوراة السبع الطوال » . وكذلك انتصر أبو بكر الأنباري لهذا المذهب فقال : أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ثم فرقته في بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جواباً لمستخبر ، ويقف جبريل النبي ﷺ على موضع السورة والآيات والحروف . كله من النبي صلى الله عليه وسلم فمن قدم سورة أو آخرها أفسد نظم القرآن . »

وأخرج ابن أشتة في كتاب المصاحف من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : سمعت ربيعة يسأل لم قدمت البقرة وآل عمران وقد أنزل قبلهما بضع وثمانون

سورة بمكة، وإنما أنزلنا بالمدينة؟ فقال: قدمنا وألف القرآن على علم من ألقه به. إلى أن قال: فهذا مما يُذتهى إليه ولا يُسأل عنه اهـ.

ويمكن مناقشة هذا المذهب (أولاً): بأن الرواية التي ساقوها وأمثالها خاصة بمعالها، فلا ينسحب حكم التوقيف على الكل. ثم هي ظنية في إفادة كون الترتيب عن توقيف.

(ثانياً): أن حديث ابن عباس السابق في القول الأول صريح في أن عثمان كان قد اجتهد في ترتيب الأنفال والتوبة ويونس.

(ثالثاً): أن الإجماع الذي استندوا إليه لا يدل على توقيف في ترتيب جميع السور؛ لأنه لا يشترط أن يستند الإجماع إلى نص في ترتيب جميع السور، فحسب الصحابة أن يحملهم الاجتهاد الموفق على أن يجمعوا على ترتيب عثمان للسور ويتركوا ترتيب مصاحفهم، توحيداً لكلمة الأمة، وقطعاً لمرق النزاع والفقنة، إذا ترك كل ورأيه في هذا الترتيب.

القول الثالث:

أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبي ﷺ، وترتيب بعضها الآخر كان باجتهاد من الصحابة وقد ذهب إلى هذا الرأي فطاحل من العلماء. ولعله أمثل الآراء، لأنه وردت أحاديث تفيد ترتيب البعض كما مرّ بك من الرأي الثاني القائل بالتوقيف، وخلا البعض الآخر مما يفيد التوقيف. بل وردت آثار تصرح بأن الترتيب في البعض كان عن اجتهاد كالحديث الآنف في القول الأول الروى عن ابن عباس.

بيد أن المؤيدين لهذا المذهب اختلفوا في السور التي جاء ترتيبها عن توقيف والسور التي جاء ترتيبها عن اجتهاد. فقال القاضي أبو محمد بن عطية: «إن كثيراً من السور

قد علم ترتيبها في حياة النبي ﷺ كالسبع الطوال والحواميم والمفصل. وأما ماسوى ذلك فيمكن أن يكون فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده .

وقال أبو جعفر بن الزبير : الآثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية ، ويبقى فيها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف كقوله ﷺ « اقرءوا آلَ فرعونَ : البقرة وآلَ عمران » رواه مسلم .

وكحديث سعيد بن خالد : « قرأ رسولُ الله ﷺ بالسَّبعِ الطَّوَالِ في ركعة » رواه ابن أبي شعبة في مصنفه . وفيه « أنه عليه الصلاة وسلم كان يجمع المفصل في ركعة » وروى البخاري عن ابن مسعود أنه قال صلى الله عليه وسلم في بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « إِنَّهُمْ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ ، وَهُمْ مِنْ تِلَادِي » (١)

(١) العتاق : جمع عتيق ، وهو القديم من كل شيء ، والمراد بالعتاق هنا ما نزل أولا . والتلاد - بكسر التاء وفتحها - ضد الطارف وهو المستحدث . من المال ونحوه . والمراد بالتلاد هنا ، ما نزل أولا أيضاً . قال في المختار : وفي الحديث « هُنَّ مِنْ تِلَادِي » يعنى السور ، أى من الذى أخذته من القرآن قديما .

فذكرها تساقاً كما استقرَّ ترتيبها . وفي صحيح البخاري أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ قل هو الله أحد ، والمعوذتين .

وقال السيوطي ما نصه : الذى ينشر له الصدر ما ذهب إليه البيهقي ، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة والأنفال . ولا ينبغي أن يستدل بقراءة سور أو لا على أن ترتيبها كذلك . وحينئذ فلا يرد حديث قراءة النساء

قبل آل عمران ، لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب . ولعله فعل ذلك لبيان الجواز « ١١ » .

والأمر على كل حال سهل ، حتى لقد حاول الزركشي في البرهان أن يجعل الخلاف من أساسه لفظياً فقال : والخلاف بين الفريقين - أي القائلين بأن الترتيب عن اجتهاد ، والقائلين بأنه عن توقيف - لفظي ، لأن القائل بالثاني يقول : إنه رمز إليهم ذلك ، لهمم بأسباب نزوله ومواقع كلماته ، ولهذا قال مالك : إنما ألّفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ مع قوله بأن ترتيب السور كان باجتهاد منهم ، قال الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولي ، أو بمجرد إسناد فعلي ، بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر ، وسبقه في ذلك جعفر بن الزبير « ١١ » .

احترام هذا الترتيب :

وسواء أكان ترتيب السور توقيفياً أم اجتهادياً فإنه ينبغي احترامه ، خصوصاً في كتابة المصاحف ، لأنه عن إجماع الصحابة ، والإجماع حجة . ولأن خلافه يجرّ إلى الفتنة ، ودَرء الفتنة وسدّ ذرائع الفساد واجب .

أما ترتيب السور في التلاوة ، فليس بواجب ، إنما هو مندوب . وإليك ما قاله الإمام النووي في كتابه التبيان إذ جاء في هذا الموضوع بما نصه : « قال العلماء : الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم آل عمران ، ثم ما بعدها على الترتيب ، سواء أقرأ في الصلاة أم في غيرها ، حتى قال بعض أصحابنا : إذا قرأ في الركعة الأولى سورة « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » يقرأ في الثانية بمسند الفاتحة من البقرة .

قال بعض أصحابنا : ويستحبُّ إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التي تليها . ودليل هذا أن ترتيب المصحف إنما جُمِلَ هكذا لحكمة ، فينبغي أن يحافظ عليها إلا فيما ورد الشرع باستثنائه ، كصلاة الصبح يوم الجمعة ، يقرأ في الأولى سورة السجدة ، وفي الثانية « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ » . وصلاة العيد في الأولى « ق » ، وفي الثانية « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » . وركعتي الفجر في الأولى « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » وفي الثانية « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » . وركعات الوتر في الأولى « مَبِيعَ آمَنُ رَبِّكَ الْأَعْلَى » وفي الثانية « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » وفي الثالثة « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ .

ولو خالف المواولة فقرأ سورة لا تلي الأولى ، أو خالف الترتيب فقرأ سورة قبلها ، جاز ؛ فقد جاءت بذلك آثار كثيرة . وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الركعة الأولى من الصبح بالكهف ، وفي الثانية بيوسف .

وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف . وروى ابن أبي داود عن الحسن أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على تأليفه في المصحف . وبإسناده الصحيح عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قيل له : إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً فقال : « ذلك منكوس القلب » .

وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فممنوع منعاً مقادراً ، لأنه يذهب بعض ضروب الإعجاز ، ويُرْبِلُ حكمة ترتيب الآيات . وقد روى ابن أبي داود عن إبراهيم النخعي الإمام التابعي الجليل وعن الإمام مالك بن أنس أنهما كرها ذلك ، وأن مالكاً كان يعميه ويقول : هذا عظيم . . . وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله فحسن ، وليس هذا من الباب ، فإن ذلك قراءة متفاضلة في أيام متعددة ، على ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم ، والله أعلم . اهـ رحمه الله .

شبهتان خفيفتان :

(الشبهة الأولى) ، يقولون : كيف كان ترتيب القرآن توقيفياً مع أن مصاحف

الصحابة كانت مختلفة ؟ .

والجواب أن هذه الشبهة لا ترد على القائلين بأن ترتيب السور كلها اجتهادى أما القائلون بأن منه اجتهادياً ومنه توقيفياً ، فمن السهل الجواب عنهم بأن الاختلاف بين الصحابة وقع فى القسم الاجتهادى لا التوقيفى . وأما القائلون بأن ترتيب السور كله توقيفى ، فيمكن الجواب عنهم بأنهم اختلفوا فيما اختلفوا قبل أن يعلموا التوقيف فيه . ولما جمع عثمان القرآن على هذا الترتيب علموا ما لم يكونوا يعلمونه ، ولذلك تركوا ترتيب مصاحفهم ، وأخذوا بترتيب عثمان . ويهوّن الأمر فى اختلاف مصاحفهم أنها كانت مصاحف فردية ، لم يكونوا يكتبونها للناس إنما كانوا يكتبونها لأنفسهم ، فبدى أن الواحد منها لم يثبت فيها إلا ما وصل إليه بمجهوده الفردى ، وقد يفوته ما لم يفته سواء من تحقيق أدق أو علم أوسع . ولهذا كان يوجد بتلك المصاحف الفردية بعض آيات قد تكون منسوخة ، وربما لم يبلغ صاحب ذلك المصحف نسخها . وقد يهمل صاحب المصحف إثبات سورة لشهرتها وغناها بهذه الشهرة عن الإثبات ، كما ورد أن مصحف ابن مسعود لم تكن به الفاتحة . وقد يكتب صاحب المصحف ما يرى أنه بحاجة إليه من غير القرآن فى نفس المصحف كما تقدم ذلك فى قنوت الحنفية الذى روى أن بعض الصحابة كان قد كتبه بمصحفه وسماه سورة الخلع والحفد .

(الشبهة الثانية) يقولون : كيف يكون ترتيب القرآن توقيفياً على حين أن رواية

ابن عباس السابقة تصرح بأن عثمان لم يسمع فى شأن ترتيب الأنفال مع براءة شيئاً إنما هو اجتهاد ونظر منه ؟ .

والجواب أن هذه الشبهة لا ترد على القول بأن الترتيب اجتهادى ، ولا على القول بأن منه اجتهاديا ومنه توقيفيا . أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن اجتهاد عثمان كان فيما لم يرد فيه توقيف من الشارع .

أما القول بأن ترتيب السور كله توقيفى ، فقد أجابوا على هذه الشبهة بجوابين :
(أولهما) : أن حديث ابن عباس هذا غير صحيح لأن الترمذى - وهو راويه - قال فى تحريجه : إنه حسن غريب لا يعرف إلا من طريق يزيد الفارسى عن ابن عباس . ويزيد هذا مجهول الحال فلا يصح الاعتماد على حديثه الذى انفرد به فى ترتيب القرآن .
(ثانيهما) : أنه على فرض صحته يجوز أن جواب عثمان لابن عباس كان قبل أن يعلم بالتوقيف ثم علمه بعد ذلك . لكن يرد على هذا الجواب أن الرواية تفيد أن جواب عثمان هذا كان بعد جمع القرآن وترتيب سورة ، فكيف كان توقيفيا وعثمان هو الجامع والمرتب ولا يعلم دليل التوقيف ؟ .

المبحث العاشر

فى كتابة القرآن ورسمه ومصاحفه وما يتعلق بذلك

١ - الكتابة

معروف أن الأمة العربية كانت موسومة بالأمية مشهورة بها لا تدرى ما الكتابة ولا الخط . وجاء القرآن يتحدث عن أميتها هذه فقال : « هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَقُولُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا أفراد قليل فى قرىش ، تعلموا الخط ودرسوه قبيل الإسلام

وكان ذلك كان إرهاباً من الله وتمهيداً لمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وتقرير دين الإسلام، وتسجيل الوحي المنزل عليه بالقرآن، لأن الكتابة أدعى إلى حفظ التنزيل وضبطه، وأبعد عن ضياعه ونسيانه .

وكادت تتفق كلمة المؤرخين على أن قريشاً في مكة لم تأخذ الخط إلا عن طريق حرب بن أمية بن عبد شمس . لكنهم اختلفوا فيما أخذ عنه حرب . فرواية أبي عمرو الداني تذكر أنه تعلم الخط من عبد الله بن جدعان ، وفيها يقول زياد بن أنعم : « قلت لابن عباس : معاشر قريش هل كنتم تكتبون في الجاهلية بهذا الكتاب العربي تجمعون فيه ما اجتمع ، وتفرقون فيه ما افترق ، جاء بالالف واللام والميم ، والشكل والقطع ، وما يكتب به اليوم ؟ قال ابن عباس : نعم . قلت : فمن علمكم الكتابة ؟ قال : حرب بن أمية ، قلت : فمن علم حرب بن أمية ؟ قال : عبد الله بن جدعان ، قلت : فمن علم عبد الله بن جدعان ؟ قال : أهل الأنبار ، قلت : فمن علم أهل الأنبار ؟ قال : طاريء طراً عليهم من أهل اليمن من كندة ، قلت : فمن علم ذلك الطاريء ؟ قال : الخلدان بن الموم كان كاتب هود نبي الله عز وجل . »

أما رواية الكلبي فتقص علينا أن حرباً تعلم الكتابة من بشر بن عبد الملك ؛ وفيها يقول عوانة : « أول من كتب بخطنا هذا وهو الجزم ، مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدره ، وكذا عامر بن جذرة ، وهم من عرب طي . تعلموه من كاتب الوحي لسيدنا هود عليه السلام ، ثم علموه أهل الأنبار ، ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة وغيرها . فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم في بلاد العراق ، فتعلم حرب منه الكتابة ، ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبي سفيان فتعلم منه جماعة من أهل مكة » اهـ .

ومن هنا وجد عدد يحذق الخط والكتابة قبيل الإسلام ، ولكنهم نزر يسير بجانب تلك الكثرة الغامرة من الأميين . وفي ذلك يمتنُّ رجل من أهل دومة الجندل على قریش فيقول :

« لا تمجدوا نساء بشرٍ عليكمو فقد كان ميمون النقيية أزهررا
أناكم بخط الجزم^(١) حتى حفظتمو من المال ما قد كان شقي مبعثرا
فأجريت الأقالام عوداً وبدأة وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصرا
وأغنيتمو عن مسند الحى حمير وما زرت في الصحف أقلام حميرا
أولئك أهل مكة . أما أهل المدينة فكان بينهم أهل الكتاب من اليهود ، وقد
دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وفيها يهودى يعلم الصبيان الكتابة ، وكان فيها بضعة
عشر رجلاً يحذقون الكتابة ، منهم المنذر بن عمرو ، وأبى بن وهب ، وعمر بن سعيد
وزيد بن ثابت الذى تعلم كتابة اليهود بأمر من النبي ﷺ .

شأن الكتابة فى الإسلام :

ثم جاء الإسلام ، فخارب فيما حارب أمية العرب ، وعمل على محوها ، وطفق
يرفع من شأن الكتابة ويعلى من مقامها . وإن كنت فى شك ، فهذه أوائل آيات تزلزل
من القرآن الكريم ، يشيد الحق فيها بالقلم ، وما يعلم الله عباده بوساطة القلم ، إذ يقول
جلت جكمته : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » إلى أن قال : « وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ،
الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وهذه سورة « ن » يخالف العلى الأعلى فيها بالقلم وما يسطرون ، إذ يقول « نَّ وَالْقَلَمِ
وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . » وهذا من أروع ألوان التنبيه إلى
جلال الخط والكتابة ومزاياها .

(١) سمي بالجزم لأنه جزم - أى قطع - من الخط المسمى بالسند ، وهو خط حمير .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع أصحابه دفعاً إلى أن يتعلموا الخطَّ ويحذقوا الكتابة ، ويهيئ لهم السبل بكل ما يستطيع من وسيلة مشروعة .

حتى لقد ورد أن المسلمين في غزوة بدر أسروا ستين مشركاً فكان مما يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم في فداء الواحد منهم أن يعلم عشرة من أصحابه الكتابة والخط . وهكذا أعلن الرسول بعمله هذا أن القراءة والكتابة عديلان للحرية ، وهذا منتهى ما نصل إليه المهم في تحرير شعب أمي من رق الأمية .

وبمثل هذه الطريقة أخذت ظلمات الأمية تقبّد بأفوار الإسلام شيئاً فشيئاً ، وحل محلها العلم والكتابة والقراءة . وهذا من أدل الأدلة على أن الإسلام دين العلم والحضارة والمدنية .

النبي ﷺ يقرأ ويكتب :

حتى لقد قيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم عرف القراءة والكتابة في آخر أمره بعد أن قامت حجته . وعلت كلمته ، وعجز العرب في مقام التحدّي عن أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الذي جاء به ، وكان الحكمة في ذلك هي الإشارة إلى شرف الخط والكتابة . وأن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم في أول أمره إنما كانت حالاً وقتية اقتضاها إقامة الدليل والإعجاز واضحا على صدق محمد في نبوته ورسالته ، وأنه مبعوث الحق إلى خليفته ولو كان وقتئذ كاتباً قارئاً وهم أميون ، لراحت شبهتهم في أن ما جاء به نتيجة اطلاع ودرس ، وأثرُ نظر في الكتب وبحث .

وفي هذا المعنى يقول سبحانه :

« وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَنْ لَا رِتَابَ

الْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * .

قال العلامة الألوسي بعد تفسيره لهذه الآية ما نصه : واختلف في أنه صلى الله عليه وسلم أكان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا ؟ فقيل إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة ، واختاره البغوي في التهذيب ، وقال : إنه الأصح . وادعى بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها ، وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية ، فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتباب^(١) تعرف الكتابة حينئذ . وروى ابن أبي شعبة وغيره : « ما مات ﷺ حتى كتب وقرأ » ونقل هذا للشعبي فصدقه وقال : سمعت أقواما يقولونه وليس في الآية ما ينافيه . وروى ابن ماجه عن أنس قال : قال ﷺ : « رأيت ليلة أُسري بي مكتوبا على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر » .

ثم قال : ويشهد للكتابة أحاديث في صحيح البخاري وغيره كما ورد في صلح الحديبية : فأخذ رسول الله ﷺ الكتابَ وليس يحسنُ يكتبُ فكُتِبَ : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . الحديث .

ومن ذهب إلى ذلك أبو ذر عبد بن أحمد الهروي ، وأبو الفتح النيسابوري ، وأبو الوليد الباجي من المغاربة ، وحكاه عن السمناني . وصنف فيه كتابا ، وسبقه إليه ابن منية . ولما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدعاه ، وكتب به إلى علماء الأطراف ، فأجابوا بما يوافقه ، ومعرفة الكتاب بعد أميته صلى الله عليه وسلم لاتنافي المعجزة ، بل هي معجزة أخرى لكونها من غير تعليم .

(١) لعل مراده بهذه الكلمة ، ظهور فساد الارتباب وأنه لا قيمة له .

وقد ردَّ بعض الأجلة كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح : « إنا أمة أمية » لا نكتب ولا نحسب . وقال : كل ما ورد في الحديث من قوله « كتب » فعناه أمر بالكتابة ، كما يقال : كتب السلطان بكذا الفلان . وتقديم قوله تعالى : « مِنْ قَبْلِهِ » على قوله سبحانه : « وَلَا تَخْطُئُ » كالصريح في أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقاً . وكون القيد المتوسط راجعاً لما بعده غير مطرد . وظنَّ بعض الأجلة رجوعه إلى ما قبله وما بعده ، فقال : يفهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قادراً على التلاوة والخط بعد إنزال الكتاب ، ولو لا هذا الاعتبار ، لكان الكلام خلوّاً عن الفائدة . وأنت تعلم أنه لو سلم ما ذكره من الرجوع ، لايتم أمر الإفادة إلا إذا قيل بحجية المفهوم ، والظان بمن لا يقول بحجيته .

ثم قال الألوسي في تفنيد هذه الردود ما نصه :

« ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » ليس نصّاً في استمرار نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام . ولعل ذلك باعتبار أنه بعث عليه الصلاة والسلام وهو وأكثر من بعث إليهم وهو بين ظهرانيهم من العرب أميون ، لا يكتبون ولا يحسبون ، فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية في الأكثر بعد . وأما ما ذكر من تأويل كتب بأمر بالكتابة ، بخلاف الظاهر . وفي شرح صحيح مسلم للنووي عليه الرحمة نقلاً عن القاضي عياض ، إن قوله في الرواية التي ذكرناها : « ولا يحسن يكتب فكتب » كالنص في أنه ﷺ كتب بنفسه ، فالمدلول عنه إلى غيره مجاز لا ضرورة إليه ثم قال : « وقد طال كلام كل فرقة في هذه المسألة ، وشنعت كل فرقة على الأخرى في هذا . فالحق تعالى أعلم » اهـ .

وأقول إن التشنيع ليس من دأب العلماء ولا من أدب الباحثين . والمسألة التي نحن بصدد حلها مسألة نظرية . والحكم في أمثالها يجب أن يكون لما رجع من الأدلة لاللهوى

والشهوة . ونحن إذا استعرضنا حُجج هؤلاء وهؤلاء نلاحظ أن أدلة أميَّة ﷺ قطعية يقينية . وأن أدلة كونه كتب وخطاً بيمينه ظنية غير يقينية ، ولم يدع أحد أنها قطعية يقينية . ثم إن التعارض ظاهرٌ فيما بين هذه وتلك . غير أنه تعارض ظاهريٌّ يمكن دفعه بأن نحمل أدلة الأمية على أولى حالاته صلى الله عليه وسلم ، وأن نحمل أدلة كتابته على أخريات حالاته ؛ وذلك جمعاً بين الأدلة . ولا ريب أن الجمع بينها أهدى سبيلاً من إعمال البعض وإهمال البعض ، مادام في كلٍّ منها قوة الاستدلال ، وما دام الجمع ممكناً على أية حال . أما لو لم يمكن الجمع فلا مشاحة حينئذٍ في قبول القطعي ورد الظني ؛ لأن الأول أقوى من الثاني « وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً » .. هذا هو الميزان الصحيح ، لدفع التعارض والترجيح ، فاحكم به عند الاختلاف والاشتباه ، « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

كتابة القرآن :

بعد ما قصصنا عليكم من تلك الفضيلة التاريخية ، في الخطوط والكتابة العربية ، نلفت نظرك إلى أن كتابة القرآن ، وفيهاها بحثها في مبحث جمع القرآن (من ص ٢٣٢ إلى ص ٢٥٦) وذكرنا هناك كيف كُتب القرآن ؟ وفيم كُتب ؟ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم على عهد عثمان (رضى الله عنهما) .

ومنه تعلم أن عناية الرسول ﷺ وأصحابه بكتابة القرآن ، كانت عناية فائقة . بذلك على هذه العناية أن النبي ﷺ كان له كُتاب يكتبون الوحي ، منهم الأربعة الخلفاء ، ومعاوية ، وأبان بن سعيد ، وخالد بن الوليد ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وثابت ابن قيس ، وأرقم بن أبي ، وحنظلة بن الربيع ، وغيرهم . فكان ﷺ إذا أنزل عليه شيء يدعو أحد كتّابه هؤلاء ، وبأمره بكتابة ما نزل عليه ، ولو كان كلمة ، كما روى أنه

لما نزل عليه قوله تعالى : « لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » قال ابن أم مكتوم وعبد الله ابن جحش : يا رسول الله، إنا أعميان، فهل لنا رخصة ؟ فأُنزل الله « غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ». قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ائْتُونِي بِالْكِتَفِ وَالِدَّوَاةِ » وأمرَ زيداً أن يكتبها . فكتبها فقال زيد « كَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَى مَوْضِعِهَا عِنْدَ صَدْعِ الْكِتَفِ » . ورواية البخاري اقتضت هنا على عبد الله بن أم مكتوم وليس فيها ابن جحش .

ولعلك لم تنس حديث ابن عباس : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةٌ دَعَا بَعْضَ مَنْ يَكْتُبُ ، فَقَالَ : « ضَعُوا هَذِهِ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَذْكُرُ فِيهِ كَذَا وَكَذَا » . وقوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ » وقول أبي بكر لزيد ابن ثابت : إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ لَا نَهْمُكَ . وقد كنت تكتب الوحي لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ . أضف إلى ذلك أن الصحابة كانوا يكتبون القرآن فيما يتيسر لهم حتى في العظام والرقاع وجريد النخل ورقيق الحجارة ونحو ذلك مما يدلُّ على عظيم بلائهم في هذا الأمر الجلل ! (رضي الله عنهم أجمعين) .

ب - رسم المصحف

رسم المصحف يراد به الوضع الذي ارتضاه عثمان رضى الله عنه في كتابة كلمات القرآن وحروفه . والأصل في المكتوب أن يكون موافقاً تمام الموافقة للمنطوق ، من غير زيادة ولا نقص ، ولا تبديل ولا تغيير . لكن للمصاحف العثمانية قد أهمل فيها هذا الأصل ، فوجدت بها حروف كثيرة جاء رسمها مخالفاً لأداء النطق ، وذلك لأغراض شريفة ظهرت وتظهر لك فيما بعد .

وقد عني العلماء بالكلام على رسم القرآن وحصر تلك الكلمات التي جاء خطها على غير مقياس لفظها . وقد أفرده بعضهم بالتأليف منهم الإمام أبو عمرو الداني إذ ألف فيه كتابه المسمى « المتنع » . ومنهم العلامة أبو عباس المراكشي إذ ألف كتاباً أسماه : « عنوان الدليل في رسوم خط التنزيل » . ومنهم العلامة الشيخ محمد بن أحمد الشهير بالمتولي إذ نظم أرجوزة سماها « اللؤلؤ المنظوم في ذكر جملة من الرسوم » ثم جاء العلامة المرحوم الشيخ محمد خلف الحسيني شيخ المقاريء بالديار المصرية ، فشرح تلك المنظومة ، وذيّل الشرح بكتاب سماه « مرشد الخيران إلى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن » .

قواعد رسم المصحف :

وللمصحف العثماني قواعد في خطه ورسمه ، حصرها علماء الفن في ست قواعد ، وهي الحذف ، والزيادة ، والهمز ، والبديل ، والفصل والوصل ، وما فيه قراءتان فقرئ على أحدهما . وهالك شيئاً عنها بالإجمال ، ليكون الفرق بينها وبين مصطلح الخطوط في عصرنا على بال منك :-

(قاعدة الحذف) : خلاصتها أن الألف تحذف من إاء النداء نحو « يَأَيُّهَا النَّاسُ »

وَمِنْ هَا التَّنْبِيهِ نَحْوُ « هَأَنْتُمْ » وَمِنْ كَلِمَةِ « نَا » إِذَا وَلِيَهَا ضَمِيرُ نَحْوِ « أَنْجِينَاكُمْ » ^(١) وَمِنْ لَفْظِ الْجَلَالَةِ « اللَّهُ » ، وَمِنْ كَلِمَةِ « إِلَه » ، وَمِنْ لَفْظِي « الرَّحْمَنُ ، وَسُبْحَانَ » ، وَبَعْدَ لَامِ نَحْوِ كَلِمَةِ « خِلَافٍ » وَبَيْنَ اللَّامَيْنِ فِي نَحْوِ « السَّكَّالَةِ » وَمِنْ كُلِّ مُشْتَقٍّ نَحْوِ « رَجُلَانِ » ، وَمِنْ كُلِّ جَمْعٍ تَصْغِيرٍ لِمَذْكَرٍ أَوْ لِمَوْثَقٍ نَحْوِ « سَمَاعُونَ ، الْمَوْلَمَاتِ » ، وَمِنْ كُلِّ جَمْعٍ عَلَى وَزْنِ مَفَاعِلٍ وَشَبِيهِهِ نَحْوِ « الْمَسَاجِدِ ، وَالنَّصَارَى » ، وَمِنْ كُلِّ عَدَدٍ نَحْوِ « ثَلَاثَ » . وَمِنْ الْبَسْمَلَةِ ، وَمِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ مَنْ سَأَلَ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، (إِلَّا مَا اسْتَنْتَى مِنْ هَذَا كُلِّهِ) . وَتَحْذِفُ الْيَاءَ مِنْ كُلِّ مَنْقُوصٍ مَنْوًى رَفْعًا وَجَرًّا ، نَحْوُ « غَيْرَ بَاقٍ وَلَا عَادٍ » . وَمِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ : « أَطِيعُونَ ، اتَّقُونَ ، خَافُونَ ، أَزْهَبُونَ ، فَأَرْسَلُونَ ، وَاعْبُدُونَ » ، (إِلَّا مَا اسْتَنْتَى) .

وَتَحْذِفُ الْوَاوَ : إِذَا وَقَعَتْ مَعَ وَاوٍ أُخْرَى فِي نَحْوِ : « لَا يَسْتَوُونَ » ، فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ .

وَتَحْذِفُ اللَّامَ : إِذَا كَانَتْ مَدْغَمَةً فِي مِثْلِهَا نَحْوِ « اللَّيْلِ ، وَالَّذِي » (إِلَّا مَا اسْتَنْتَى) . وَهَنَّاكَ حَذْفٌ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ قَاعِدَةِ كَحْذِفِ الْأَلْفَ مِنْ كَلِمَةِ « مَالِكٌ » وَكَحْذِفِ الْيَاءَ مِنْ « إِبْرَاهِيمَ » ، وَكَحْذِفِ الْوَاوَ مِنْ هَذِهِ الْأَفْعَالِ الْأَرْبَعَةِ : « وَيَدْعُو الْإِنْسَانَ ، وَيَمْحُو اللَّهُ الْبَاطِلَ ، يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِ ، سَمَدْعُو الزَّبَانِيَّةَ » .

(قَاعِدَةُ الزِّيَادَةِ) . خِلَاصُهَا أَنَّ الْأَلْفَ تَزَادُ بَعْدَ الْوَاوِ فِي آخِرِ كُلِّ اسْمٍ مَجْمُوعٍ أَوْ فِي حَكْمِ الْمَجْمُوعِ ، نَحْوُ : « مُلَاقُوا رَبَّهُمْ » ، بَنُوا إِسْرَائِيلَ ، أَوَلُوا الْأَبْيَابَ . وَبَعْدَ الْهَمْزَةِ الْمَرْسُومَةِ وَاوٍ نَحْوُ « تَالَهُ تَفْتَأُ » فَإِنَّهَا تَرْسَمُ هَكَذَا : « تَالَهُ تَفْتَوُا » . وَفِي كَلِمَاتِ « مِائَةً ، وَمِائَتَيْنِ ، وَالظُّنُونِ ، وَالرَّسُولِ ، وَالسَّبِيلِ » ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَتَنْظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » . « وَأَظْمَنَا الرَّسُولَا » . « فَأَظْلُونَا السَّبِيلَا » .

(١) كل هذه الأمثلة ترسم بدون ألف هكذا : أنجينكم . الله . إله . الرحمن . الخ .

وتزاد الياء في هذه الكلمات: «نَبَأٌ، آثَاءٌ، مِنْ تِلْقَاءِ . بِأَيْكُمْ الْمُفْتُونُ، بِأَيْدٍ»
من قوله تعالى: «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ» .

وتزاد الواو في نحو «أَوَّلُو، أُولَئِكَ، أَوْلَاءُ، أُولَاتٍ» .

«قاعدة الميم» خلاصتها أن الهزة إذا كانت ساكنة تكتب بحرف حركة ما قبلها نحو «أُذْنٌ، أَوْثَمِنَ أَلْبَاسًا»، (إلا ما استثنى) . أما الهزة المتحركة، فإن كانت أول الكلمة واتصل بها حرف زائد، كتبت بالألف مطلقاً، سواء أ كانت مفتوحة أم مكسورة نحو «أَيُّوبُ، أَوَّلُو، إِذَا، سَأَصْرَفُ، سَأُنْزِلُ، فَيَأْيُ» (إلا ما استثنى) . وإن كانت الهزة وسطاً، فإنها تكتب بحرف من جنس حركتها، نحو «سَأَلَ، سُئِلَ، تَقَرَّؤُهُ» (إلا ما استثنى) . وإن كانت متطرفة كتبت بحرف من جنس حركة ما قبلها نحو «سَبَأٌ، شَاطِئٌ، أَوَّلُو» (إلا ما استثنى) وإن سكن ما قبلها حذفت^(١) نحو «مِلْءُ الْأَرْضِ، يُخْرِجُ الْخَبْءَ» (إلا ما استثنى) . وللمستثنيات كثيرة في الكل .
(قاعدة البدل) : خلاصتها أن الألف تكتب واواً للتفخيم في مثل الصلاة والزكاة والحياة، (إلا ما استثنى) وترسم ياء إذا كانت متقلبة عن ياء نحو «يَتَوَقَّأَكُمُ، يَاحْسِرَتَا يَا أَسْمَاءُ» . وكذلك ترسم الألف ياء في هذه الكلمات: «إِلَى، عَلَى، أَنَّى - بمعنى كيف؟ - مَتَى، بَلَى، حَتَّى، لَدَى» ما عدا «لَدَى الْبَابِ» في سورة يوسف، فإنها ترسم أَلْفًا . وترسم النون أَلْفًا في نون التوكيد الخفيفة، وفي كلمة «إِذْنَ» .

وترسم هاء التانيث تاء مفتوحة في كلمة «رَحِمَتْ» بالبقرة والأعراف، وهود ومريم، والروم، والزخرف . وفي كلمة «نِعْمَةٌ» بالبقرة، وآل عمران، والمائدة، وإبراهيم، والنحل، ولقمان، وفاطر، والطور . وفي كلمة «لِعْنَةُ اللَّهِ» . وفي كلمة

(١) أي حذفت من الحرف ورسمت مفردة .

معصية « بسورة قلم سمع . وفي هذه الكلمات : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ، قُرَّةَ عَيْنٍ ،
جَنَّةُ نَعِيمٍ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ » وفي كلمة امرأة أضيفت إلى زوجها نحو « امْرَأَةُ عِمْرَانَ ، امْرَأَةُ
نُوحٍ » وفي غير ذلك .

(قاعدة الوصل والفصل) : خلاصتها أن كلمة « أَنْ » بفتح الهمزة توصل بكلمة
« لَا » إذا وقعت بعدها . ويستثنى من ذلك عشرة مواضع . منها : « أَنْ لَا تَقُولُوا ،
أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » .

وكلمة « مِنْ » توصل بكلمة « مَا » إذا وقعت بعدها . ويستثنى « مِنْ مَمْلَكَتِ
أَيْمَانِكُمْ » في النساء والروم ، « وَمِنْ مَارَزَقْنَاكُمْ » في سورة المنافقين .
وكلمة « مِنْ » توصل بكلمة « مَنْ » مطلقا .

وكلمة « عَنْ » توصل بكلمة « مَا » . إلا قوله سبحانه « عَنْ مَا هُوَ عَنْهُ » .
وكلمة « إِنْ » بالكسر توصل بكلمة « مَا » التي بعدها ، إلا قوله سبحانه :
وَإِنْ مَارِئِبْنُكَ .

وكلمة « أَنْ » بالفتح توصل بكلمة « مَا » مطلقا من غير استثناء .
وكلمة « كُلَّ » توصل بكلمة « مَا » التي بعدها ، إلا قوله سبحانه « كُلَّ مَارَدُّوا
إِلَى الْفِتْنَةِ ، مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ » .

وتوصل كلمات « نَعِمًا ، وَرَبِمَا ، وَكُنَّا ، وَيَكُنَّ » . ونحوها .
(قاعدة ما فيه قراءتان) خلاصتها أن الكلمة إذا قرئت على وجهين ، تكتب
برسم أحدهما ، كما رسمت الكلمات الآتية بلا ألف في المصحف وهي : مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ ،
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَوَاعَدْنَا مَوْسَى ، تُفَادُّوهُمْ » ، ونحوها ، وكلها مقروءة بإثبات الألف
وحذفها . وكذلك رسمت الكلمات الآتية بالتاء المفتوحة ، وهي غِيَاةُ الْجُبِّ ، أَنْزَلَ
عليه آيَةً في المنكبات « ثَمَرَةٍ مِنْ أَكَامِيهَا » في فصلت ، « وَمِنْ الْعُرْفَةِ آمَنُونَ »

في « سبأ » . وذلك لأنها جمعاء مقروءة بالجمع والإفراد . وغير هذا كثير ، وحسبنا ما ذكرناه للتبثيل والتنوير .

مزاياء الرسم العثماني :

لهذا الرسم مزاياء وفوائد :

(الفائدة الأولى) الدلالة في القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة بقدر الإمكان ، وذلك أن قاعدة الرسم لوحظ فيها أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان أو أكثر ، كتبت بصورة تحتل هاتين القراءتين أو الأكثر . فإن كان الحرف الواحد لا يحتل ذلك بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات جاء الرسم على الحرف الذي هو خلاف الأصل ، وذلك ليعلم جواز القراءة به وبالحرف الذي هو الأصل . وإذا لم يكن في الكلمة إلا قراءة واحدة بحرف الأصل رُسمت به . مثال الكلمة تكتب بصورة واحدة وتقرأ بوجوه متعددة قوله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ أِن » رُسمت في المصحف العثماني هكذا : « إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ أ » من غير نقط ولا شكل ولا تشديد ولا تخفيف في نوني إِنْ وهذان ، ومن غير ألف ولا ياء بعد الدال من هذان .

وحجىء الرسم كما ترى ، كان صالحاً عندهم لأن يُقرأ بالوجوه الأربعة التي وردت كلها بأسانيد صحيحة . (أولها) قراءة نافعة ومن معها إذ يشددون نون « إِنْ » ويخففون « هذان » بالألف .

(ثانيها) : قراءة ابن كثير وحده إذ يخفف النون في « إِنْ » ويشدد النون في « هذان » .

(ثالثها) قراءة حفص إذ يخفف النون في « إِنْ » و « هذان » بالألف .

(رابعها) : قراءة أبي عمرو بتشديد « إِنْ » وبالياء وتخفيف النون في « هذين » فتدبر هذه الطريقة المثلى الضابطة لوجوه القراءة لتعلم أن سلفنا الصالح كان في قواعد رسمه للمصحف أبعد منا نظراً وأهدى سبيلاً .

القاعدة الثانية :

إفادة المعاني المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة ، وذلك نحو قطع كلمة « أَمْ » في قوله تعالى : « أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » ووصلها في قوله تعالى : « أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » إذ كتبت هكذا « أَمْ » بإدغام الميم الأولى في الثانية وكتابتهما ميماً واحدة مشددة ، فقطع أَمْ الأولى في الكتابة للدلالة على أنها أَمْ المنقطعة التي بمعنى بل ووصل أَمْ الثانية للدلالة على أنها ليست كذلك .

القاعدة الثالثة :

الدلالة على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في كتابة كلمة « أَيْدٍ » من قوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ » إذ كتبت هكذا « بِأَيْدٍ » وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهي : زيادة الميم تدل على زيادة المعنى .

ومن هذا القبيل كتابة هذه الأفعال الأربعة بحذف الواو وهي :

« وَيَدْعُوا الْإِنْسَانَ ، وَيَمْخُوا اللَّهُ الْبَاطِلَ ، يَوْمَ يَدْعُوا الدَّاعِ ، سَنَدْعُوا الزَّبَانِيَةَ » فإنها كتبت في المصحف العثماني هكذا : « وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ ، وَيَمْخُ اللَّهُ ، يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » ولكن من غير شط ولا شكل في الجميع .

قالوا : والسر في حذفها من « وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ » هو الدلالة على أن هذا الدعاء سهل على الإنسان يسارع فيه كما يسارع إلى الخير ! بل لإثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير . والسر في حذفها من « وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ » الإشارة إلى سرعة ذهابه واضمحلاله .

والسر في حذفها من « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ » الإشارة إلى سرعة الدعاء وسرعة إجابة الداعين . والسر في حذفها من « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » الإشارة إلى سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوة البطش ! ويجمع هذه الأسرار قول المراكشي : « والسر في حذفها من هذه الأربعة سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المنفعل للتأثر به في الوجود » اهـ .

الفائدة الرابعة :

الدلالة على أصل الحركة مثل كتابة الكسرة ياء في قوله سبحانه « وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى » إذ تكتب هكذا « وَإِيتَائِي ذِي الْقُرْبَى » ومثل كتابة الضمة واو في قوله سبحانه : « سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ » إذ تكتب هكذا (سأوريكم) ومثل ذلك الدلالة على أصل الحرف نحو الصلاة والزكاة إذ كتبا هكذا : « الصلاة ، الزكوة » ليفهم أن الألف فيهما متقلبة عن واو . (من غير نقط ولا شكل كما سبق) .

الفائدة الخامسة :

إفادة بعض اللغات الفصيحة ، مثل كتابة هاء التانيث تاء مفتوحة دلالة على لغة طي ، وقد تقدمت الأمثلة لهذا النوع . ومثل قوله سبحانه : « يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ » كتبت بحذف الياء هكذا « يَأْتِ » للدلالة على لغة هذيل .

الفائدة السادسة :

حملُ الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال ، ولا يتكلموا على هذا الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح في الجملة . وينضوى تحت هذه الفائدة مزيتان : (إحداهما) التوثق من ألفاظ القرآن وطريقة أدائه وحسن ترتيله وتجويده . فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف ، مهما تكن قاعدة رسمه واصطلاح كتابه . فقد تخطى المطبعة في الطبع ، وقد يخفى على القارئ بعض أحكام تجويده ، كالقلقلة والإظهار والإخفاء والإدغام والروم والإشمام ونحوها ، فضلاً عن خفاء تطبيقتها .

ولهذا قرّر العلماء أنه لا يجوز التعويل على المصاحف وحدها . بل لابد من التثبت في الأداء والقراءة ، بالأخذ عن حافظٍ ثقة . وإن كنت في شكٍ قل لي بربك : هل يستطيع المصحف وحده بأي رسم يكون ، أن يدل قارئاً أبلاً كان على النطق الصحيح بفوائح السور الكريمة ؟ مثل « كهيعص حم عسق ، طسم » ؟ ؟ ؟ ومن هذا الباب الروم والإشمام في قوله سبحانه « مَالِكٌ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » من كلمة « لَا تَأْمَنَّا » !

(المزية الثانية) اتصال السند برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وتلك خاصّة من خواص هذه الأمة الإسلامية امتازت بها على سائر الأمم .

قال ابن حزم : « نَقُلُ الثقة عن الثقة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم مع الاتصال ، خصّ الله به المسلمين دون سائر الملل . وأما مع الإرسال والإعصال فيوجد في كثير من كتب اليهود ، ولكن لا يقربون فيه من موسى قربنا من محمد صلى الله عليه وسلم . بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عمراً . إننا يبلغون إلى شمعون ونحوه . ثم قال : وأما النصاري فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق . وأما

النقل للشتم على طريق فيه كذاب أو مجهول العين، فكثير في نقل اليهود والنصارى، وأما أقوال الصحابة والتابعين، فلا يمكن اليهود أن يبلغوا صاحب نبي أو تابعي، ولا يمكن النصارى أن يصلوا إلى أعلى من شمعون وبولص « ١٠ » .

هل رسم المصحف توقيفي؟

للعلماء في رسم المصحف آراء ثلاثة :

(الرأي الأول) : أنه توقيفي لا يجوز مخالفته . وذلك مذهب الجمهور . واستدلوا بأن النبي ﷺ كان له كُتَّاب يكتبون الوحي ، وقد كتبوا القرآن فعلاً بهذا الرسم وأقرهم الرسول على كتابتهم ، ومضى عهده ﷺ والقرآن على هذه الكتابة لم يحدث فيه تغيير ولا تبدل . بل ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يضع الدستور لكتاب الوحي في رسم القرآن وكتابه . ومن ذلك قوله لما وبه وهو من كتبة الوحي : « إِيَّاكَ اللَّهُ وَآةَ وَحَرَفِ الْقَلَمِ وَأَنْصِبِ الْبَاءَ ، وَفَرَّقِ السَّيْنَ ، وَلَا تُعَوِّرِ أَلِيمَ ، وَحَسِّنِ اللَّهَ ، وَمُدِّ الرَّحْمَنَ ، وَجَوِّدِ الرَّحِيمَ ، وَضَعْ قَلَمَكَ عَلَى أَذْنِكَ الْيُسْرَى ، فَإِنَّهُ أَذْكُرُ لَكَ » .

ثم جاء أبو بكر فكتب القرآن بهذا الرسم في صحف ، ثم حذا حذوه عثمان في خلافته ، فاستنسخ تلك الصحف في مصاحف على تلك الكتابة وأقر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عمل أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، وانتهى الأمر بعد ذلك إلى التابعين وتابعي التابعين ، فلم يخالف أحد منهم في هذا الرسم ، ولم ينقل أن أحداً منهم فكَّر أن يستبدل به رسماً آخر من الرسوم التي حدثت في عهد ازدهار التأليف ، ونشاط التدوين ، وتقدم العلوم . بل بقي الرسم العثماني محترماً متبعاً في كتابة المصاحف لا يُمسُّ استقلاله ، ولا يُباح حمله ! .

وملخص هذا الدليل أن رسم المصاحف العثمانية ، ظفر بأمر كل واحد منها يجعله

جديراً بالتقدير ووجوب الاتباع . تلك الأمور هي إقرار الرسول ﷺ عليه ، وأمره بدستوره . وإجماع الصحابة - وكانوا أكثر من اثني عشر ألف صحابي - عليه ، ثم إجماع الأمة عليه بعد ذلك في عهد التابعين والأئمة المجتهدين !

وأنت خير بأن اتباع الرسول واجب فيما أمر به أو أقر عليه؛ لقوله تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » والاهتداء بهدى الصحابة واجب خصوصاً الخلفاء الراشدين ، لحديث العز باض بن سارية وفيه يقول صلى الله عليه وسلم « فَإِنَّهُ مَنْ بَعَثَ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَمَلَائِكُمْ سُنَّتِي وَسُنَّةَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ » ولا ريب أن إجماع الأمة في أي عصر واجب الاتباع ، خصوصاً العصر الأول . قال تعالى : « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا » .

وعن حكي إجماع الأمة على ما كتبه عثمان ، صاحب المفتح إذ يروى بإسناده إلى مصعب بن سعد قال : « أدركتُ الناسَ حينَ شَقَّقَ عثمانُ رضى الله عنه المصاحف ، فأعجبهم ذلك ولم يعبه أحدٌ » وكذلك يروى شارح العقيلة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن عثمان أرسل إلى كل جند من أجناد المسلمين مصحفًا ، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف الذي أرسل إليهم . ولم يعرف أن أحداً خالف في رسم هذه المصاحف العثمانية .

وانعقاد الإجماع على تلك المصطلحات في رسم المصحف دليل على أنه لا يجوز العدول عنها إلى غيرها . وبإمر الله الإمام الخراز إذ يقول :

«وبعد جرده الإمام في مصحف ليقصدى الأنام
ولا يكون بعده اضطراب وكان فيما قد رأى صواب

وقصة اختلافهم شهيرة كقصة اليمامة المسيرة
فينبئ لأجل ذا أن نفتق مرسوم ما أصله في المصحف
ونفتدي بفعله وما رأى في جعله لمن يخط ملجأ .

أقوال العلماء في التزام الرسم العثماني :

روى السخاوي بسنده أن مالكا رحمه الله سئل : أرايت من استكتب مصحفا
أترى أن يكتب على ما استعده الناس من المجاء اليوم ؟ فقال : لأرى ذلك ، ولكن
يكتب على الكتابة الأولى . قال السخاوي : والذي ذهب إليه مالك هو الحق ، إذ فيه
بقاء الحالة الأولى إلى أن تعلمها الطبقة الأخرى ، ولا شك أن هذا هو الأجرى بعد
الأخرى . إذ في خلاف ذلك تجهيل الناس بأولية ما في الطبقة الأولى .

وقال أبو عمرو الداني : لا يخالف لمالك من علماء الأمة في ذلك . وقال أبو عمرو
الداني أيضاً : سئل مالك عن الحروف في القرآن مثل الواو والألف ، أترى أن يغير
من المصحف إذا وجد فيه كذلك ؟ قال : لا . قال أبو عمرو : يعني الألف والواو الزيدتين
في الرسم المدومتين في اللفظ نحو « أولوا » .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ألف
أو ياء أو غير ذلك .

وجاء في حواشي المنهج في فقه الشافعية ما نصه : « كلمة الربا تكتب بالواو
والألف كما جاء في الرسم العثماني ، ولا تكتب في القرآن بالياء أو الألف ، لأن رسمه
سنة متبعة » .

وجاء في المحيط البرهاني في فقه الحنفية ما نصه « إنه ينبئ ألا يكتب المصحف
بغير الرسم العثماني » .

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى مانصه: «وقال جماعة من الأئمة إن الواجب على القراء والعلماء وأهل الكتابة أن يتبعوا هذا الرسم في خط المصحف؛ فإنه رسم زيد بن ثابت، وكان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتب وحيه». وقال البيهقي في شمع الإيمان: «من كتب مصحفًا ينبغي أن يحافظ على المصاحف الذى كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوه شيئًا؛ فإنهم كانوا أكثر علمًا وأصدق قلبًا ولسانًا وأعظم أمانة، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكًا عليهم». اهـ.

ويمكن مناقشة هذا الرأى الأول بأن الأدلة التى ساقوها لاتدل على تحريم كتابة القرآن بغير هذا الرسم؛ إذ ليس فيها زجر الإنم ووعيده، ولا نهى الحرام وتهديده، إنما قصارها الدلالة على جواز الكتابة بالرسم العثمانى ووجاهته ودقته. وذلك محل اتفاق ونسليم.

الرأى الثانى :

أن رسم المصاحف اصطلاحى لاتوقيفى، وعليه فتجوز مخالفته. ومن جنح إلى هذا الرأى ابن خلدون فى مقدمته. ومن تحمّس له القاضى أبوبكر فى الانتصار؛ إذ يقول مانصه :

«وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئًا، إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطّ المصاحف رسمًا يعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ماعداه، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف. وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه، أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه، ولا فى نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية.

بل السنة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً ولا نهى أحداً عن كتابته . ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعله بأن ذلك اصطلاح وأن الناس لا يخفى عليهم الحال . ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول ، وأن يجعل اللام على صورة الكاف ، وأن تخرج الألفات ، وأن يكتب على غير هذه الوجوه ، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والمجاء القديمين ، وجاز أن يكتب بالخطوط والمجاء الحديثة ، وجاز أن يكتب بين ذلك .

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة ، وكان الناس قد أجازوا ذلك وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته ، وما هو أسهل وأشهر وأولى ، من غير تأنيب ولا تناكر ، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حديث محدود مخصوص ، كما أخذ عليهم في القراءة والأذان .

والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز ، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته ونصوب الكاتب به على أى صورة كانت .

وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه . وأنى له ذلك ؟ اه بتلخيص .

ونوقش هذا المذهب :

(أولاً) : بالأدلة التي ساقها جمهور العلماء لتأييد مذهبهم . وهامى بين يدك عن

كُتُب ، بعضها من السنة ، وبعضها من إجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم .

(ثانياً) : أن ما ادعاه من أنه ليس في نصوص السنة ما يوجب ذلك وبديل عليه مردود

بما سبق من إقرار الرسول كُتَاب الوحي على هذا الرسم ، ومنهم زيد بن ثابت الذي كتب

المصحف لأبي بكر وكتب المصاحف لعمان، والحديث الآنف، وفيه يقول الرسول لمعاوية:
« أَلَيْسَ الدَّوَاةَ وَحَرَفِ الْقَلَمِ الْحِ ». فإنه حجة على أنه ﷺ كان واضع دستور الرسم لهم.
(ثالثاً) أن قول القاضي أبي بكر: « ولذلك اختلفت خطوط المصاحف » الخ
لا يُسلم له بعد قيام الإجماع وانقاده ومعرفة الناس بالرسم التوقيفي وهو رسم عثمان على
ما قرروه هناك.

وتزيدك هنا ما ذكره العلامة ابن المبارك نقلاً عن العارف بالله شيخه عبد العزيز الدباغ
إذ يقول في كتابه الإبريز ما نصه: « رسم القرآن سرّاً من أسرار الله المشاهدة وكمال
الرفعة، قال ابن المبارك فقلت له: هل رسم الواو بدل الألف في نحو « الصلاة، والزكاة،
والحياة، ومِسْكَاة ». وزيادة الواو في « سَاورِيكُمْ، وأُولَئِكَ، وأُولَاءِ، وأُولَاتِ ». و
كالياء في نحو « هُدَيْيَهُمْ، ومَلَانِهِ، وبِأَيِّسِكُمْ، وبِأَيِّدِهِ ». هذا كله صادر من النبي
صلى الله عليه وسلم، أو من الصحابة؟ فقال: « هو صادر من النبي ﷺ وهو الذي
أمر الكتاب من الصحابة أن يكتبوه على هذه الهيئة، فما نقصوا ولا زادوا على ما سمعوه
من النبي » فقلت له: إن جماعة من العلماء ترخّصوا في أمر الرسم وقالوا: إنما هو
اصطلاح من الصحابة مشوا فيه على ما كانت قريش تكتب عليه في الجاهلية. وإنما
صدر ذلك من الصحابة لأن قريشاً تعلموا الكتابة من أهل الحيرة، وأهل الحيرة
ينطقون بالواو في الربا، فكتبوا على وفق منطقتهم. وأما قريش فإنهم ينطقون فيه
بالألف، وكتابتهم له بالواو على منطق غيرهم وتقليد لهم، حتى قال القاضي أبو بكر البلاقاني:
كل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه،
فإنه ليس في الكتاب ولا في السنة ولا في الإجماع ما يدل على ذلك؟. قال: -

« ما للصحابة ولا للغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف من
النبي، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها، لأسرار

لا تهتدى إليها العقول، وهو سرٌّ من الأسرار خَصَّ الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية. وكما أن نظم القرآن معجز، فرسمه أيضاً معجز! وكيف تهتدى العقول إلى سر زيادة الألف في «مائة» دون «فئة». وإلى سر زيادة الياء في «بأيدٍ وبأيِّكم»؟ أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف في «سَمَوْا» بالفتح، ونقصانها من «سَمَوُ» بسباً؟ وإلى سر زيادتها في «عَتَوْا» حيث كان، ونقصانها من «عَتَوْ» في الفرقان؟ وإلى سر زيادتها في «آمَنُوا»، وإسقاطها من «بَاوُ، جَاوُ، تَبَوَّوْ، قَاوُ» بالبقرة؟ وإلى سر زيادتها «يَعْمُورُوا الَّذِي»، ونقصانها من «يعفونهم» في النساء؟ أم كيف تبلغ العقول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض، كحذف الألف من «قُرْءَانًا» بيوسف والزخرف، وإثباتها في سائر المواضع؟ وإثبات الألف بعد واو «سَمَوَاتٍ» في فصلت وحذفها من غيرها. وإثبات الألف في «الميعاد» مطلقاً، وحذفها من الموضع الذي في الأنفال وإثبات الألف في «سِرَاجًا» حيثما وقع، وحذفه من موضع الفرقان وكيف تتوصل إلى فتح بعض التاءات وربطها في بعض؟ فكل ذلك لأسرار إلهية، وأغراض نبوية. وإنما خفيت على الناس لأنها أسرار باطنية لا تدرك إلا بالفتح الرباني، فهي بمنزلة الألفاظ والحروف للقطعة التي في أوائل السور، فإن لها أسراراً عظيمة، ومعاني كثيرة. وأكثر الناس لا يهتمون إلى أسرارها، ولا يدركون شيئاً من المعاني الإلهية التي أشير إليها! فكذلك أمر الرسم الذي في القرآن حرفاً بحرف.

وأما قول من قال: إن الصحابة أصطلحوا على أمر الرسم المذكور، فلا يخفى ما في كلامه من البطلان، لأن القرآن كتب في زمان النبي ﷺ وبين يديه. وحينئذ فلا يخلو ما اصطلاح عليه الصحابة، إما أن يكون هو عين الهيئة أو غيرها، فإن كان عينها

بطل الاصطلاح ، لأن أسبقية النبي ﷺ تنافي ذلك وتوجب الانبعاث . وإن كان غير ذلك فكيف يكون النبي ﷺ ككتب على هيئة كهيئة الرسم القياسي مثلاً ، والصحابة خالفوا وكتبوا على هيئة أخرى ؟ فلا يصح ذلك لوجهين : (أحدهما) نسبة الصحابة إلى المخالفة ، وذلك محال ، (ثانيهما) : أن سائر الأمة من الصحابة وغيرهم أجمعوا على أنه لا يجوز زيادة حرف في القرآن ولا نقصان حرف منه . وما بين الدفتين كلام الله عز وجل ، فإذا كان النبي ﷺ أثبت ألف الرحمن والعالمين مثلاً ، ولم يزد الألف في «مائة» ولا في «ولأوضحوا» ولا الياء في «بأيد» ونحو ذلك ، والصحابة عما كسوه في ذلك وخالفوه ، لزم أنهم - وحاشاهم من ذلك - تصرفوا في القرآن بالزيادة والنقصان ، ووقضوا فيما أجمعوا عليه وغيرهم على ملأ يحل لأخذ فعله ، ولزم تطرق الشك إلى جميع ما بين الدفتين ، لأننا مهما جوزنا أن تكون فيه حروف ناقصة أو زائدة على ما في علم النبي ﷺ وعلى ما عنده وأنها ليست بوحي ولا من عند الله ولا نعلمها بعينها ، شككنا في الجميع . ولئن جوزنا لصحابي أن يزد في كتابته حرفاً ليس بوحي ، لزمنا أن يجوز لصحابي آخر نقصان حرف من الوحي ، إذ لا فرق بينهما ، وحينئذ تنحل عروة الإسلام بالكلية .

ثم قال ابن المبارك بعد كلام . . فقلت له : فإن كان الرسم توقيفياً بوحي إلى النبي ﷺ وأنه كألفاظ القرآن فلم لم ينقل تواتراً حتى ترتفع عنه الريبة وتطمئن به القلوب كألفاظ القرآن ؟ فإنه ما من حرف إلا وقد نقل تواتراً لم يقع فيه اختلاف ولا اضطراب . وأما الرسم فإنه إنما نقل بالآحاد ، كما يعلم من الكتب الموضوعة فيه . وما نقل بالآحاد وقع الاضطراب بين النقلة في كثير منه . وكيف تضع الأمة شيئاً من الوحي ؟ . فقال : «ما ضيعت الأمة شيئاً من الوحي ، والقرآن بحمد الله محفوظ ألفاظاً ورسمًا . فأهل العرفان والشهود والعيان ، حفظوا ألفاظه ورسمه ، ولم يضيعوا منها شعرة واحدة ، وأدركوا ذلك بالشهود والعيان الذي هو فوق التواتر . وغيرهم حفظوا ألفاظه الواصلة إليهم بالتواتر واختلافهم

في بعض حروف الرسم لا يقدح ولا يصير الأمة مضيقاً ، كما لا يضر جهل العامة بالقرآن وعدم حفظهم لألفاظه « ١٥١ » .

الرأى الثالث :

يميل صاحب التبيان ومن قبله صاحب البرهان ، إلى ما يفهم من كلام العز ابن عبد السلام ، من أنه يجوز بل تجب كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة الشائعة عندهم ، ولا تجوز كتابته لهم بالرسم العثماني الأول ، لثلا يوقع في تغيير من الجهال . ولكن يجب في الوقت نفسه المحافظة على الرسم العثماني ، كأثر من الآثار النفيسة الموروثة عن سلفنا الصالح ، فلا يهمل مراعاة لجهل الجاهلين ، بل يبقى في أيدي العارفين الذين لا تخلو منهم الأرض . وهالك عبارة التبيان في هذا المقام إذ يقول ما نصه :

وأما كتابته (أى المصحف) على ما أحدث الناس من الهجاء ، فقد جرى عليه أهل المشرق ، بناء على كونها أبعد من اللبس ، وتحاماه أهل المغرب بناء على قول الإمام مالك وقد سئل . هل يكتب المصحف على ما أحدث الناس من الهجاء ؟ فقال : « لا : إلا على السكتبة الأولى » . قال في البرهان : قلت : وهذا كان في الصدر الأول ، والعلم حتى غض . وأما الآن فقد يخشى الالتباس ، ولهذا قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسم الأول باصطلاح الأئمة ، لثلا يوقع في تغيير من الجهال . ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه ، لثلا يؤدي إلى دروس العلم . وشيء قد أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين . » وإن تخلو الأرض من قائم لله بحجة « ١٥١ » .

أقول : وهذا الرأى يقوم على رعاية الاحتياط للقرآن من ناحيتين : ناحية كتابته في كل عصر بالرسم المعروف فيه ، إبعاداً للناس عن اللبس والخطأ في القرآن ، وناحية إبقاء

ورسمه الأول المأثور ، بقرؤه العارفون ومن لا يخشى عليهم الالتباس . ولا شك أن الاحتيال
مطلب ديفي جليل ، خصوصاً في جانب حماية التنزيل .

ج - الشبهات التي أثيرت حول كتابة القرآن ورسمه

الشبهة الأولى :

يقولون : روى عن عثمان أنه حين عرض عليه المصحف قال : « أحسنتم وأجملتم ،
إن في القرآن لحناً ستقيمه العرب بألسنتها » .

ويقولون : روى عن عكرمة أنه قال : « لما كتبت المصاحف عرضت على
عثمان فوجد فيها حروفاً من الالحن فقال : لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو
قال : ستعربها بألسنتها . لو كان الكاتب من ثقيف والملى من هذيل لم توجد فيه
هذه الحروف .

أورد أعداء الإسلام هاتين الروایتين وقالوا : إنهما طعنان صريحان في
رسم المصحف ، فكيف يكون مصحف عثمان وجمعه للقرآن ، موضع ثقة ،
وإجماع من الصعابة ؟ وكيف يكون توقيفاً ؟ وهذا عثمان نفسه يقول بملء فيه :
« إن فيه لحناً » .

ونجيب على هذه الشبهة أولاً : بأن ما جاء في هاتين الروایتين ضعيف الإسناد ،
وأن فيهما اضطراباً وانقطاعاً . . قال العلامة الألوسي في تفسيره : « إن ذلك لم يصح
عن عثمان أصلاً » اهـ ولعلك تلح معي دليل سقوط هاتين الروایتين مائلاً فيهما

من جراء هذا التناقض الظاهر بين وصفهما نسخ المصحف بأنهم أحسنوا وأجلوا ،
ووصفهما المصحف الذى نسخوه بأن فيه لحناً . وهل يقال للذين لحنوا فى المصحف :
أحسنتم وأجلتم ؟ .

اللهم إلا إذا كان المراد معنى آخر .

ثانياً : أن المعروف عن عثمان فى دقته وكال ضبطه وتحريه يجعل صدور أمثال
هاتين الروايتين من المستحيل عليه . انظر إلى ما سبق من دستوره فى جمع القرآن .
ثم انظر إلى ما أخرجه أبو عبيد عن عبد الرحمن بن هانىء مولى عثمان قال : كنت
عند عثمان وهم يمرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شاة إلى أبى بن كعب فيها « لم
يَقْسَن » وفيها « لَا تَبْدِلْ لِخَلْقِ » وفيها « فَأَمِهْلِ السَّكَافِرِينَ » فدعا بدواة فحبا
أحد اللامين وكتب « خلقت الله » وحبا « فأمهل » وكتب « فمهّل » وكتب « لم يقسنه »
فألحق فيها الماء .

قال ابن الأنبارى : فكيف يدعى عليه أنه رأى فساداً فأمضاه ؟ وهو يوقف على
ما يكتب ويرفع الخلاف الواقع من الناسخين فيه ، فيحكم بالحق ويلزمهم إثبات الصواب
وتخليده .

ثالثاً : على فرض صحة ما ذكر يمكن أن تؤوله بما يتفق والصحيح للتواتر عن عثمان
فى نسخ المصاحف وجمع القرآن ، ومن نهاية التثبت والدقة والضبط .

وذلك بأن يراد بكلمة « لحناً » فى الروايتين المذكورتين قراءة ولغة . والمعنى أن فى
القرآن ورسم مصحفه وجهاً فى القراءة لاتلين به السنة العرب جميعاً ، ولكنها لاتلبث أن
تلين به السنة جميعاً بالمران وكثرة تلاوة القرآن بهذا الوجه . وقد ضرب بعض أجلاء
العلماء لذلك مثلاً كلمة (الصراط) بالصاد المبدلة من السين فتقرأ العرب بالصاد عملاً
بالرسم ، وبالسين عملاً بالأصل .

الشبهة الثانية :

يقولون : روى عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » ويقول « هُوَ مِنْ لَحْنِ الْكِتَابِ » .

والجواب : هل غرار ماسبق ، أى أن ابن جبير لا يريد بكلمة « لحن » خطأ . إنما يريد بها اللغة والوجه في القراءة على حد قوله تعالى : « وَاتَّقِرْ فَتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » . والدليل على هذا التوجيه أن سعيد بن جبير نفسه كان يقرأ : « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » ، فلو كان يريد باللحن خطأ ماضى لنفسه هذه القراءة . وكيف يرضى ما يعتقد أنه خطأ ؟

وهذه الكلمة في آية من سورة النساء ونصها : « لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . أُولَٰئِكَ سَنُوْثِرُهُمْ أَجْرًا عَظِيْمًا » فكلمة « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » قرأها الجمهور بالياء منصوباً كما ترى . وقرأها جماعة بالواو ، منهم أبو عمرو في رواية بونس وهارون عنه . ولكل من القراءتين وجه صحيح فصيح في اللغة العربية ، فالنصب مخرج على المدح ، والتقدير « وأمدح المقيمين الصلاة » . والرفع مخرج على العطف ، والمعطوف عليه مرفوع كما ترى .

الشبهة الثالثة :

يقولون : ألا يكفى في الطعن على جمع القرآن ورسمه ما روى عن ابن عباس في قوله تعالى : « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا » أنه قال : إن الكاتب أخطأ والصواب : « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا » .

ونجيب (أولاً) بما أجاب به أبو حيان إذ يقول ما نصه : إن من روى عن ابن عباس أنه قال ذلك ، فهو طاعن في الإسلام ملحد في الدين ، وابن عباس برىء من ذلك القول ١٥١ .

(ثانياً) بما أخرجه ابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه فسر « تَسْتَأْنِسُوا » فقال : أى تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها يعنى أصحاب البيوت .

(ثالثاً) أن القراء لم يرووا غير قراءة « تَسْتَأْنِسُوا » فلو كان ذلك النقل صحيحاً عن ابن عباس لنقلوا عنه أنه قرأ « تَسْتَأْذِنُوا » .

(رابعاً) إذا سلمنا للحاكم أن هذا الخبر صحيح عن ابن عباس ، فإننا نرده برغم دعوى هذه الصحة ، لأنه معارض للقاطع المتواتر وهو قراءة « تَسْتَأْنِسُوا » والقاعدة أن معارض القاطع ساقط ، وأن الرواية متى خالفت رسم المصحف فهي شاذة لا يلتفت إليها ولا يعول عليها .

الشبهة الرابعة :

يقولون : ألا يكفي في الطعن على جمع القرآن ورسمه ما روى عن ابن عباس أيضاً أنه قرأ « أَفَلَمْ يَدَّبِّبِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً » . فقيل له : إنها في المصحف « أَفَلَمْ يَهْدِ الَّذِينَ آمَنُوا » فقال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس . ونجيب : بأنه لم يصح ذلك عن ابن عباس . قال أبو حيان : بل هو قول ملحد زنديق . وقال الزمخشري : ونحن ممن لا يصدق هذا في كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكيف يخفى هذا ؟ حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام (أى المصحف الإمام) وهو مصحف عثمان ، وكان متقلبا بين أيدى أولئك الأعلام ، الخطاطين

لدين الله المهيمنين عليه ، لا يفعلون عن جلالته ودقائمه ، خصوصاً عن القانون الذى إليه المرجع ، والقاعدة التى أقيم عليها البناء ؟ هذا والله فِرْيَةٌ ، ما فيها مِرْيَةٌ ١ هـ . وقال الفراء : لا يتلى إلا كما أنزل : « أَفَلَمْ يَيْئَاسْ » ١ هـ . وعلى ذلك تكون رواية ذلك فى الدر المنثور وغيره عن ابن عباس رواية غير صحيحة . ومعنى « أَفَلَمْ يَيْئَاسِ الَّذِينَ آمَنُوا » : أَفَلَمْ يَلْمُوا قال القاسم بن معن : هى لغة هوازن . وجاء بها الشعر العربى فى قول الغائل :

« أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونَنِي أَلَمْ تَيَأْسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمٍ ^(١) »

أى ألم تعلموا .

الشبهة الخامسة :

يقولون : من وجوه الطعن أيضاً ما روى عن ابن عباس أنه كان يقول فى قوله تعالى « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » إنما هى « ووصى رَبُّكَ » التزقت الواو بالصاد وكان يقرأ : ووصى ربك ، ويقول : أَمَرَ رَبُّكَ ، إِنْهُمَا وَاوَانِ التَّصَقَّتْ إِحْدَاهُمَا بِالصَّادِ وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا الْحَرْفَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ . وَوَصَّى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ . فَلَصَقَتْ إِحْدَى الْوَائِينَ بِالصَّادِ ، فَقَرَأَ النَّاسُ : « وَقَضَى رَبُّكَ » وَلَوْ نَزَلَتْ عَلَى الْقَضَاءِ مَا أَشْرَكَ أَحَدٌ .

ونجيب : عن ذلك كله (أولاً) بما أجاب به ابن الأنبارى إذ يقول : « إن هذه الروايات ضعيفة » .

(١) قال فى القاموس : زَهْدَمَ كَجَعْفَرَ : فرس لعنترة ، وفرس لبشر بن عمرو الرِّياحى - إلى أن قال - والزَّهْدَمَانِ أخوان من عبس : زَهْدَمٌ ، وَكَرْدَمٌ .

(ثانياً) أن هذه الروايات معارضة للمتواتر القاطع ، وهو قراءة « وقضى » ومعارض القاطع ساقط .

(ثالثاً) أن ابن عباس نفسه ، وقد استفاض عنه أنه قرأ : « وقضى » وذلك دليل على أن ما نسب إليه في تلك الروايات من الدسائس الرخيصة التي لفقها أعداء الإسلام . قال أبو حيان في البحر : والمتواتر هو « وقضى » وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتادة ، بمعنى أمر . وقال ابن مسعود وأصحابه بمعنى « وصى » اهـ إذن رواية « وقضى » هي التي انمقد الإجماع عليها من ابن عباس ، وابن مسعود ، وغيرهما فلا يتعلق بأذيال مثل هذه الرواية الساقطة إلا ملحد ، ولا يرفع عقيرته بها إلا عدو من أعداء الإسلام .

الشبهة السادسة :

يقولون : إن ابن عباس روى عنه أيضاً أنه كان يقرأ : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ضِيَاءً ^(١) » ويقولون ، خذوا هذه الواو ، واجملوها في « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا آسَکُمْ . » وروى عنه أيضاً أنه قال : انزعوا هذه الواو ، واجملوها في « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » .

ونجيب (أولاً) بأن هذه الروايات ضعيفة ؟ لم يصح شيء منها عن ابن عباس .

(ثانياً) أنها معارضة لقراءة المتواترة المجمع عليها ، فهي ساقطة .

(ثالثاً) أن بلاغة القرآن قاضية بوجود الواو لا بحذفها ، لأن ابن عباس نفسه فسر الفرقان في الآية المذكورة بالنصر ، وعليه يكون الضياء بمعنى التوراة أو الشريعة . فالقيام للواو لأجل هذا التفسير .

(١) الآية في سورة الأنبياء - لكن اتصال الواو بكلمة « ضياء » . ونص الآية الكريمة : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ » .

الشبهة السابعة :

يقولون : روى عن ابن عباس في قوله تعالى : « مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْسُكَاتٍ » أنه قال : هي خطأ من الكاتب . هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة . إنما هي : « مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ كَمِثْسُكَاتٍ » .

ونجيب (أولا) بأنها رواية معارضة للقاطع المتواتر ، فهي ساقطة .

(ثانياً) أنه لم ينقل عن أحد من القراء أن ابن عباس قرأ : « مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ » ، فكيف يقرأ رضى الله عنه بما يعتقد أنه خطأ ، ويترك ما يعتقد أنه صواب ؟ ألا إنها كذبة مفضوحة ! ولو أنهم نسبوها لأبي بن كعب ، لكان الأمر أهون ، لأنه روى في الشواذ أن أبا بن كعب قرأ : « مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ » . والذي ينبغي أن تحمل عليه هذه الروايات أن أبا رضى الله عنه . أراد تفسير الضمير في القراءة المعروفة للمتواترة وهي مثل نوره . فهي روايات عنه في التفسير لافي القراءة ، بدليل أنه كان يقرأ : « مَثَلُ نُورِهِ » .

دفع عام عن ابن عباس

كل ما روى عن ابن عباس في تلك الشبهات ، يمكن دفعه دفعا عاما بأن ابن عباس قد أخذ القرآن عن زيد بن ثابت وأبي بن كعب ، وهما كانا في جمع المصاحف . وزيد بن ثابت كان في جمع أبي بكر أيضا . وكان كاتب الوحي ، وكان يكتب ما يكتب بأمر النبي ﷺ وإقراره . وابن عباس كان يعرف ذلك ويوقن به ، فبحال إذن أن ينطق لسانه بكلمة تحمل رائحة اعتراض على جمع القرآن ورسم القرآن أو إلا فكيف يأخذ عن زيد وابن كعب ثم يعترض على جمعهما ورسمهما ؟

الشبهة الثامنة :

يقولون : روى عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : سألت عائشة عن الحـنـ القرآن ، عن قوله تعالى : « إِنَّ هَٰذَا نِ لَسَاحِرَآ نِ » وعن قوله تعالى : « وَآلْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَآلْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » وعن قوله تعالى : « إِنَّ آلَّذِينَ آمَنُوا وَآلَّذِينَ هَادُوا وَآلصَّابِثُونَ » . فقالت : يابن أخى هذا من عمل الكتّاب ، قد أخطأوا فى الكتاب . قال السيوطى فى هذا الخبر : إسناده صحيح على شرط الشيخين . ويقولون أيضاً : روى عن أبى خلف مؤلى بنى جُحج أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة فقال : جئت أسألك عن آية فى كتاب الله ، كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها ؟ قالت : آية آية ؟ قال : « آلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا » أو « آلَّذِينَ يَأْتُونَ مَا آتَوْا » . قالت : أيهما أحب إليك ؟ قلت : والذى نفسى بيده لإحداهما أحب إلى من الدنيا جميعاً . قالت : أيهما ؟ قلت : « آلَّذِينَ يَأْتُونَ مَا آتَوْا » . فقال : أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها ، وكذلك أنزلت ، ولكن الهجاء حرف .

ونجيب (أولاً) بأن هذه الروايات مهما يكن سندها صحيحاً ، فإنها مخالفة للمتواتر القاطع ، ومعارض القاطع ساقط مردود ، فلا يلتفت إليها ، ولا يعمل بها . (ثانياً) أنه قد نص فى كتاب إتحاف فضلاء البشر ، على أن لفظ « هذان » قد رسم فى المصحف من غير ألف ولا ياء ، ليحتمل وجوه القراءات الأربع فيها ، كما شرحنا ذلك سابقاً فى فوائد رسم المصحف . وإذن فلا يعقل أن يقال أخطأ الكتّاب ، فإن الكتّاب لم يكتب ألفاً ولا ياء . ولو كان هناك خطأ تعقده عائشة ما كانت تنسبه للكتّاب ، بل كانت تنسبه لمن يقرأ بتشديد (إن) وبالألف لفظاً فى (هذان) . ولم ينقل عن عائشة ولا عن غيرها تخطئة من قرأ بما ذكر ، وكيف تنكر هذه القراءة وهى متواترة مجمع عليها ؟ ، بل هى قراءة الأكثر ، ولها وجه فصيح فى العربية لا يخفى على مثل عائشة . ذلك هو إلزام المثنى الألف فى جميع حالاته . وجاء منه قول الشاعر العربى : -

« واهالسلوى ثم واهأ واهأ ياليتَ عيناها لنا وفاها
وموضع الخللخال من رجلاها بضمن يَرْضَى به أباهأ
إنَّ أباهأ وأبأ أباهأ قد بلغا في المجدِ غايتها »

فبعيدٌ عن عائشة أن تذكر تلك القراءة ولو جاء بها وحدها رسم المصحف .

(ثالثاً) أن مانسب إلى عائشة رضى الله عنها من تحطئة رسم المصحف في قوله تعالى :
« والمقيمين الصلاة » بالياء ، مردود بما ذكره أبو حيان في البحر إذ يقول ما نصه :
« وذكر عن عائشة رضى الله عنها وعن أبان بن عثمان أن كتبها بالياء من خطأ كاتب
المصحف . ولا يصح ذلك عنهما ، لأنها عريبان فصيحان ، وقطع النعوت مشهور في لسان
العرب . وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيبويه وغيره وقال الزمخشري : « لا يلتفت
إلى ما زعموا من وقوعه خطأ في خط المصحف . وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب
يريد كتاب سيبويه » ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص
من الافتنان ، وخفى عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل
كانوا أبعدهم في الغيرة على الإسلام ، وذب المطاعن عنه ، من أن يتركوا في كتاب الله
ثلمة يسدها من بعدهم ، وخرقا يرفوه من يلحقهم » .

(رابعاً) أن قراءة « والصابثون » بالواو ، لم ينقل عن عائشة أنها خطأت من
يقرأ بها ، ولم ينقل أنها كانت تقرأ بالياء دون الواو . فلا يعقل أن تكون خطأت من
كتب بالواو .

(خامساً) أن كلام عائشة في قوله تعالى : « يؤتون ما آتوا » لا يفيد إنكار
هذه القراءة المتواترة المجمع عليها . بل قالت للسائل : أيهما أحبُّ إليك ؟ ولا تحصر
للمسوع عن رسول الله ﷺ فيما قرأت هي به . بل قالت : إنه مسموع ومنزل فقط .

وهذا لا ينافي أن القراءة الأخرى مسموعة ومنزلة كذلك . خصوصاً أنها متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم . أما قولها : ولكن المجاء حرف ، فكلمة حرف مأخوذة من الحرف بمعنى القراءة واللغة ، والمعنى أن هذه القراءة المتواترة التي رسم بها المصحف ، لغة ووجه من جوه الأداء في القرآن الكريم . ولا يصح أن تكون كلمة حرف في حديث عائشة مأخوذة من التحريف الذي هو الخطأ ، وإلا كان خديفاً معارضاً للتواتر ، ومعارض القاطع ساقط .

الشبهة التاسعة :

يقولون : روى عن خارجة بن زيد بن ثابت أنه قال : « قالوا لزيد يا أبا سعيد « أَوْهَمْتَ » إنما هي « ثمانية أزواج من الضأن اثنتين ^(١) اثنتين ، ومن المعز اثنتين اثنتين ومن الإبل اثنتين اثنتين ، ومن البقر اثنتين اثنتين » . فقال : لا . إن الله تعالى يقول « فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » فهما زوجان ، كل واحد منهما زوج . الذكر زوج ، والأنثى زوج » اهـ . قال أعداء الإسلام : فهذه الرواية تدل على تصرف نساخ المصحف واختيارهم ما شاءوا في كتابة القرآن ورسمه .

والجواب أن كلام زيد هذا لا يدل على ما زعموا . إنما يدل على أنه بيان لوجه ما كتبه وقراه سماعاً وأخذاً عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تصرفاً وتشبيهاً من تلقاء نفسه . وكيف يتصور هذا من الصحابة في القرآن وهم مضرب الأمثال في كمال ضبطهم وتشبثهم في الكتاب والسنة . لاسيما زيد بن ثابت ، وقد عرفت فيما سبق من هو زيد في حفظه

(١) يريدون آية سورة الأنعام ونصها : « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ الْحَجَّ

وأما منه ودينه وورعه ؟ ! وعرفت دستور الدقيق الحكيم في كتابة الصحف والمصاحف !
« فأنى يؤفكون » ؟

الشبهة العاشرة :

يقولون : إن مروان هو الذى قرأ « ملك يوم الدين » من سورة الفاتحة بحذف الألف من لفظ « مالك » . ويقولون : إنه حذفها من تلقاء نفسه دون أن يرد ذلك عن النبي ﷺ فضلاً عن أن يتواتر عنه قراءة ولفظاً ، أو يصح كتابة ورسمها .
والجواب أن هذا كذب قاضح (أولاً) لأنه ليس لهم عليه حجة ولا سند .

(ثانياً) أن الدليل قام ، والتواتر تم ، والإجماع انمقد ، على أن النبي ﷺ قرأ لفظ « مالك يوم الدين » بإثبات الألف وحذفها ، وأخذ أصحابه عنه ذلك . فممن قرأ بهما على وابن مسعود وأبى بن كعب . وممن قرأ بالقصر أى حذف الألف أبو الدرداء وابن عباس وابن عمر . وممن قرأ بالمد أى بإثبات الألف أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين . وهؤلاء كلهم كانوا قبل أن يكون مروان ، وقبل أن يولد مروان ، وقبل أن يقرأ مروان . وقصارى ما فى الأمر أن مروان اتفق أن روايته كانت القصر فقط . وذلك لا يضرنا فى شيء . كما اتفق أن رواية عمر بن عبد العزيز كانت المد فقط .
(ثالثاً) أن كلمة « إمالك » رسمت فى المصحف العثمانى هكذا « ملك » كما سبق .

خلاصة الدفاع :

والخلاصة أن تلك الشبهة وما مائلها ، مدفوعة بالنصوص القاطعة ، والأدلة الناصعة ، على أن جميع القرآن الذى أنزله الله وأمر بإثباته ورسمه ؛ ولم ينسخه ناسخ فى تلاوته ، وهو هذا الذى حواه مصحف عثمان بين الدفتين ، لم ينقص منه شيء ، ولم يزد فيه شيء ، بل

إن ترتيبه ونظمه كلاهما ثابت على ما نظمه الله سبحانه وتعالى ورتبه رسوله ﷺ من آى وسور . لم يقدم من ذلك مؤخر ، ولم يؤخر منه مقدم . وقد ضبطت الأمة عن النبي ﷺ ترتيب آى كل سورة ومواقعها ، كما ضبطت منه نفس القراءات وذات التلاوة على ما سبق وما سيحىء فى الكلام على القراءات إن شاء الله .

فلنلاحظ دائماً فى الرد على أمثال تلك الشبهات أمران : (أولهما) تلك القاعدة الذهبية التى وضعها العلماء : وهى أن خبر الآحاد إذا عارض القاطع سقط عن درجة الاعتبار ، وضرب به عرض الحائط ، مهما تسكن درجة إسناده من الصحة .

(ثانيهما) خطأ الدفاع الذى أقنأه فى المبحث الثامن حصناً حصيناً دون النيل من الصحابة وآتهمهم بسوء الحفظ أو عدم الثبوت والتحزى ، خصوصاً فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

شبهة على التزام الرسم العثمانى فى هذا العصر :

يقولون : إن كثيراً من المتعلمين لا يحفظون القرآن ولا يحسنون قراءته فى المصحف ، لعدم معرفتهم الرسم العثمانى . فلماذا ننفق بهذا الرسم ولا نكتب المصاحف اليوم باصطلاح الكتابة المعروف ، تسهياً على الناشئة ، وتيسيراً على الناس ؟

والجواب (أولاً) أن للعلماء آراء فى ذلك بالجواز ، بل قال بعضهم - وهو العز ابن عبد السلام - بوجوب كتابة المصحف للعامة باصطلاح كتابتهم الحديث خشية الالتباس كما يجب كتابته بالرسم العثمانى محافظةً على هذا التراث العزيز . وقد سبق شرح آراء العلماء قريباً . وما هى منك ببعيد .

(ثانياً) أن فى الرسم العثمانى مزايا وفوائد ذكرناها سابقاً .

(ثالثاً) أن مذهب الجمهور قائم على أدلة متوافرة على وجوب التزام هذا الرسم عندهم . وقد تقدمت تلك الأدلة أيضاً .

(رابعاً) أن مصطلح الخط والكتابة في عصرنا، عرضة للتغيير والتبديل . ومن المبالغة في قداسة القرآن حمايته من التغيير والتبديل في رسمه .

(خامساً) أن إخضاع المصحف لمصطلحات الخط الحديثة ، ربما يجرُّ إلى فتنة ، أشبه بالفتنة التي حدثت أيام عثمان ، وحملته على أن يجمع القرآن . فربما يقول بعض الناس لبعض ، أو بعض الشعوب لبعض ، عند اختلاف قواعدهم في رسم المصحف : رسمى خيرٌ من رسمك ، أو مصحفى خيرٌ من مصحفك ، أو رسمى صواب ورسمك خطأ . وقد يجر ذلك إلى أن يؤثَّم بعضهم بعضاً ، أو يقاتل بعضهم بعضاً . ومن المقرر أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

(سادساً) أن الرسم العثماني أشبه بالرسم العام الذي يجمع الأمة على كتابة كتاب ربها في سائر الأعصار والأمصار ، كاللغة العربية ، فإنها اللسان العام الذي يجمع الأمة على قراءة كتاب ربها في سائر الأعصار والأمصار . وما يكون لنا أن نفرط في أمر هذا شأنه يجمع الشتات ، وينظم الأمة في سلك واحد لافرق بين ماض وحاضر وآت .

(سابعاً) أنه يمكن تسهيل القراءة على الناس بإذاعة القرآن كثيراً إذاعة مضبوطة دقيقة ، وبإذاعة فن التجويد في المدارس وفي أوساط المتعلمين ، وأخيراً يمكن - كما قالت مجلة الأزهر - أن ننثب في ذيل كل صفحة من صفحات المصحف على ما يكون فيها من الكلمات المخالفة للرسم المعروف ، والاصطلاح للألوف . لاسيما أن رسم المصاحف العثمانية لا يخالف قواعدها في الخط والإملاء إلا قليلاً ، وفي كلمات معدودة : أضف إلى ذلك أن الفرق بين الرسمين لا يوقع القارئ اليقظ في لبس عند تأمله وإمعانه غالباً .

ولقد مرت على الأمة أجيال وقرون، وما شعرت بفضاضة في التزامها الرسم العثماني، على أن المعوّل عليه أولاً وقبل كل شيء هو التلقّي من صدور الرجال . وبالتلقّي يذهب الفموض من الرسم كائنًا ما كان . وليس بعد العيان بيان .

د - المصاحف تفصيلا

لعلك لم تنس ما ذكرناه في المباحث السابقة عن نشأة المصاحف العثمانية وكتابتها ورسمها ، وتحريق عثمان ما سواها من المصاحف الفردية التي كانت لبعض الصحابة ، والتي كان يخالف بعضها بعضا ، على مقدار ما وصل إليه علم الواحد منهم بأحرف القراءات ، وبما نسخ وما لم تنسخ تلاوته في العرصة الأخيرة . ولأجل الإحاطة بما يتّصل بالمصاحف العثمانية ، يجدر بنا أن نتحدث عما يأتي :

الحروف السبعة في المصاحف العثمانية :

المصاحف التي نسخها عثمان رضی الله عنه كان مجموعها مشتملا على الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن ، كما بينا ذلك أوفى بيان تحت عنوان خاص في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف ، فارجع إليه إن شئت . ويؤيده هنا أن هذه المصاحف نسخت من الصحف التي جمعت على عهد أبي بكر وكانت عند حفصة .

ومن المتفق عليه أن هذه الصحف كتب فيها القرآن بحروفه السبعة التي نزل عليها ولم يرد أن عثمان أمرهم أن يتركوا ستة أحرف منها ويبقوا حرفاً واحداً كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء . فلنستمسك بالمتفق عليه حتى يثبت لدينا ما ينفيه . فما يكون لنا أن نترك اليقين للشك . ثم إن دفع الفتنة ، وتوحيد الكلمة بين المسلمين لا يتوقف على ترك ستة

أحرف وإبقاء حرف واحد من الأحرف التي نزل عليها القرآن، بل إن الذي يدفع الفتنة ويوحد الكلمة، هو إقرار النازل كما نزل، من تعدد حروفه إلى سبعة، راحة بهذه الأمة. غاية ما يجب في هذا الباب، هو إحاطة المسلمين علماً بهذه الحروف، حتى يتركوا ما عداها، ولا يعتمدوا سواها؛ وحتى يعتمد كل منهم صواب قراءة غيره مادامت قراءته لا تتعدها. ومن هنا تجتمع كلمهم وتنطفي فتتهم، على نمط ما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين اشتعلت مثل هذه الفتنة بين بعض الصحابة، فجالهم بأن أفهمهم أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وقرر فيهم هذا المعنى، وحكم بأن كلام من اختلفين على صواب في قراءته وأنها هكذا أنزلت. وما كان لعثمان وجهور الصحابة وجميع الأمة أن يتركوا هدى الرسول في هذا « وإن خير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ».

بقي أن نفسر لك معنى قول عثمان للرهط القرشيين الثلاثة « إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا » فقد فهم بعضهم من هذه الجملة أن عثمان أمر أن يتركوا ستة أحرف، ويقتصرُوا في نسخ المصاحف على حرف قريش ولفظهم وحدهم. وهذا مردود بوجوه :

(أحدها) أن اللفظ لا يؤدي ذلك المعنى.

(ثانيها) أن القرآن فيه كلمات كثيرة من لغات قبائل أخرى وليست من لغة قريش : انظر في ذلك ما قدمناه في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف أيضاً، وما ذكره السيوطي في الإتيان في النوع السابع والثلاثين .

(ثالثها) أن المصاحف العثمانية كانت مشتملة على الأحرف السبعة كما بينا آنفاً .

(رابعها) أنه لم ينقل إلينا نقلاً صحيحاً صريحاً أنهم تركوا من الأحرف السبعة شيئاً

فضلا عن أن يتركوها ما عدا واحدا ، ولو فعلوا ذلك لنقل متواتراً ، لأن هذا الأمر الجلل ، مما تتوافر الدواعى على نقله وتواتره . وقصارى ما وصلنا من بعض الطرق أنهم اختلفوا فى كلمة « الثابت » فى قوله تعالى من سورة البقرة : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الثَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ » الخ أيسكتونها بالتاء المفتوحة ؛ أم بالهاء ، فأمرهم عثمان أن يسكتوها بالتاء المفتوحة ، لأنها كذلك فى لغة قريش .

وهذا بوضح لنا أن عثمان فى كلمته تلك ، إنما يريد الاختلاف فى الكتابة والرسم لا فى الألفاظ والألفاظ والحروف . أو يريد أن لغة قريش متوافر فيها التواتر أكثر من غيرها فليأخذوا بها عند الاختلاف لهذا الغرض وحده ، وهو التواتر الذى شرطوه فى دستور كتابتهم وجمعهم . أضف إلى ذلك أن المصاحف نقلت من الصحف التى جمع أبو بكر رضى الله عنه القرآن فيها ، والتى ظفرت بالتواتر وإجماع الأمة كما قدمنا . فهل يرضى عثمان ويوافقه الصحابة جميعاً على أن يخرقوا هذا الإجماع ، ويعيشوا بذلك التواتر ، فى أمر جعل الله تعدد الوجوه والحروف فيه رحمة بالأمة إلى هذا اليوم ؟ ذلك فهم بعيد .

الصحف والمصاحف

قلنا : إن أبا بكر رضى الله عنه جمع القرآن فى صحف ، وإن عثمان جمعه ونسخه فى مصاحف . والفرق بين الصحف والمصاحف فى الأصل أن الصحف جمع صحيفة ، وهى القطعة من الورق أو الجلد يكتب فيها .

أما المصحف فهو بزنة اسم المفعول من أصحفه أى جمع فيه الصحف . فكان للمصحف ملحوظ فى معناه اللغوى دفته ، وهما جانباه أو جلده اللذان يتخذان جامعاً لأوراقه ، ضابطاً لمصحفه ، حافظاً لها .

ولا يلحظ هذا في معنى الصحف ، وإن كان يصح استعمال كلا اللفظين في كلا المعنيين استعمالاً متوسماً فيه .

هذا في أصل اللغة ، أما في الاصطلاح فالمراد بالصحف الأوراق المجردة التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر ، وكانت سوراً مرتبة آياتها فقط ؛ كل سورة على حدة ، لكن لم يترتب بعضها إثر بعض . والمراد بالمصحف اصطلاحاً الأوراق التي جمع فيها القرآن مع ترتيب آياته وسوره جميعاً على الوجه الذي أجمعت الأمة أيام عثمان رضي الله عنه . وقد أطلق بعضهم لفظ المصحف على صحف أبي بكر ، وتوجيهه لا يخفى .

ولقد بقيت الصحف عند أبي بكر حتى حضرته الوفاة فدفن بها إلى عمر لأنه وصى له بالعهد ، ولما مات عمر انتقلت إلى ابنته أم المؤمنين حفصة بوصية من عمر ، ثم طلبها عثمان ونسخ المصاحف منها وردها إليها وبقيت عندها حتى توفيت رضي الله عنها .

وقد حضر جنازتها مروان وإلى المدينة وقتئذ ورغب إلى أخيها عبد الله بن عمر أن يبعث إليه بالصحف ، فبعثها إليه ، وكان مروان قد طلبها من السيدة حفصة من قبل فأبت رضي الله عنها . أخرج ابن أبي داود في رواية أن مروان أحرق هذه الصحف ؟ وفي رواية أنه غسلها ، وفي رواية شققها . ولا مانع من الجمع بين هذه الروايات الثلاث بأنه غسلها أولاً ، ثم شققها ثانياً ، ثم أحرقها أخيراً ، مبالغة في التكريم والحو ، كما روى أنه قال : إنما فعلت هذا لأني خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب ، أي يظن أن فيها ما يخالف المصاحف ، فإنها كانت صحفاً منثورة ، لا تأخذ شكل المصاحف المجموعة المنظومة .

عدد المصاحف

اختلفوا في عدد المصاحف التي استنسخها عثمان رضي الله عنه ، فصبوب ابن عاشر

أنها ستة : المكي ، والشامي ، والبصري ، والكوفي ، والمدني العام الذي سيره عثمان رضي الله عنه من محل نسخه إلى مقره ، والمدني الخاص به الذي حبسه لنفسه وهو المسمى بالإمام . وقال صاحب زاد القراء : لما جمع عثمان القرآن في مصحف سماه الإمام ونسخ منه مصاحف فأنفذ منها مصحفاً إلى مكة ، ومصحفاً إلى الكوفة ، ومصحفاً إلى البصرة ، ومصحفاً إلى الشام ، وحبس مصحفاً بالمدينة ، وهذا القول كسابقه في أنها ستة ، وذهب السيوطي وابن حجر إلى أنها خمسة . ولعلهما أرادا بالخمسة ماعدا المصحف الإمام فيكون الخلاف لفظياً بينه وبين سابقيه .

وقيل إنها ثمانية ، خمسة متفق عليها وهي الكوفي والبصري والشامي والمدني العام والمدني الخاص ، وثلاثة مختلف فيها وهي المكي ، ومصحف البحرين ، ومصحف اليمن . وقيل إن عثمان رضي الله عنه أنفذ إلى مصر مصحفاً .

ولعل القول بأن عددها ستة ، هو أولى الأقوال بالقبول . والمفهوم على كل حال أن عثمان رضي الله عنه ، قد استنسخ عدداً من المصاحف في حاجة الأمة وجمع كلماتها وإطفاها فتحتها . ولا يتعلق بتعيين العدد كبير غرض ، فيختلفوا في هذا التعيين ما وسعتهم أدلة ذلك الاختلاف . والله تعالى أعلم بالحقيقة .

كيف أنفذ عثمان المصاحف الثمانية ؟

كان الاعتماد في نقل القرآن - ولا يزال - على التلقي من صدور الرجال ثقة عن ثقة وإماماً عن إمام إلى النبي ﷺ . لذلك اختار عثمان حُفَظاً يثق بهم وأنفذهم إلى الأقطار الإسلامية واعتبر هذه المصاحف أصولاً ثوابي مبالغة في الأمر ، وتوثيقاً للقرآن ولجمع كلمة المسلمين . فكان يرسل إلى كل إقليم مصحفه مع من يوافق قراءته في الأكثر الأغلب . روى أن عثمان رضي الله عنه أمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدني ، وبعث عبد الله بن السائب

مع المكي ، والمغيرة بن شهاب مع الشامي ، وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي ، وعامر ابن عبد القيس مع البصري . ثم نقل التابعون عن الصحابة فقرأ أهل كل مصر بما في مصحفهم تلقياً عن الصحابة الذين تلقوه من فم النبي ﷺ فقاموا في ذلك مقام الصحابة الذين تلقوه من فم النبي ﷺ . ثم تفرغ قوم للقراءة والأخذ والضبط ، حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم ، وأجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم واعتماد روايتهم . ومن هنا نسبت القراءة إليهم ، وأجمعت الأمة - وهي معصومة من الخطأ في إجماعها - على ما في هذه المصاحف ، وعلى ترك كل ما خالفها من زيادة ونقص وإبدال ، لأنه لم يثبت عندهم ثبوتاً متواتراً أنه من القرآن .

أين المصاحف العثمانية الآن ؟

وليس بين أيدينا دليل قاطع على وجود المصاحف العثمانية الآن فضلاً عن تعيين أماكنها . وقصارى ما علمناه أخيراً أن ابن الجزري رأى في زمانه مصحف أهل الشام ، ورأى في مصر مصحفاً أيضاً .

أما المصاحف الأثرية التي تحتويها خزائن الكتب والآثار في مصر ويقال عنها إنها مصاحف عثمانية فإننا نشك كثيراً في صحة هذه النسبة إلى عثمان رضي الله عنه ، لأن بها زركشة ونقوشاً موضوعة ككلمات للفصل بين السور ، ولبیان أعشار القرآن ، ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ، ومن النقط والشكل أيضاً كما علمت .

نعم إن المصحف المحفوظ في خزانة الآثار بالمسجد الحسيني والنسب إلى عثمان رضي الله عنه ، مكتوب بالخط الكوفي القديم ، مع تجويف حروفه وسعة حجمه جداً . ورسمه يوافق رسم المصحف المدني أو الشامي حيث رسم فيه كلمة «من يرتد» من سورة المائدة بدالين اثنين

مع فك الإدغام ، وهى فيها بهذا الرسم . فأكبر الظن أن هذا المصحف منقول من المصاحف العثمانية على رسم بعضها . وكذلك المصحف المحفوظ بقلك الخزانة ويقال إن على بن أبى طالب رضى الله عنه كتبه بخطه ، يلاحظ فيه أنه مكتوب بذلك الخط الكوفى القديم . بيد أنه أصغر حجما ، وخطه أقل تجويفا من سابقه ، ورسمه يوافق غير المدنى والشامى من المصاحف العثمانية ، حيث رسمت فيه الكلمة السابقة « من يرتد » بدال واحدة مع الإدغام ، وهى فى غيرهما كذلك . فمن الجائز أن يكون كاتبه عليا ؛ أو يكون قد أمر بكتابه فى الكوفة .

ثم إن عدم بقاء المصاحف العثمانية قاطبة لا يضرنا شيئا مادام المولى عليه هو النقل والتلقى ثقة عن ثقة ، وإماما عن إمام ، إلى النبى ﷺ . وذلك مقتواتر مستفيض على أكمل وجه فى القرآن حتى الآن .

على أن المصاحف العثمانية نسخت على غرارها الآلاف المؤلفة فى كل عصر ومصر ، مع المحافظة على الرسم العثمانى ؛ كما سيجىء إن شاء الله ، فاصبر « وما صبرك إلا بالله » .

المصاحف فى دور التجويد والتحسين :

كانت المصاحف العثمانية أشبه بماء نزل من السماء ، فأصاب أرضا خصبة صالحة ، ولكنها ظامئة ممتعشة . فما كاد يصل إليها الماء حتى اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ! كذلك المصاحف الشريفة ، ما كاد عثمان يرسلها إلى الآفاق الإسلامية حتى أقبلت عليها الأمة من كل صوب وحـدب ، وحتى اجتمعت عليها الكلمة فى الشرق والغرب ، وحتى نسخت على غرارها آلاف مؤلفة من المصاحف المقدسة فى كل جيل وقبيل .

ومما يلفت النظر أن يد التجويد والصفّل والتحسين أخذت تتناول المصاحف على ألوان شتى وضروب متنوعة ، فهناك تحسينات مادية أو شكلية ترجع إلى النسخ والطبع والحجم والورق والتجليد والتذهيب ونحو ذلك . وهذه لا تمنينا كثيراً ، لأن أمرها هين ، وإن كان فيها بعض التيسير أو التشويق إلى القرآن الكريم . وهناك تحسينات معنوية أو جوهرية ترجع إلى تقريب نطق الحروف وتمييز الكلمات وتحقيق الفروق بين المقابلات عن طريق الإجمام والشكل ونحوهما . وفي هذه نسوق الحديث .

الإجمام :

إجمام الكتاب : نَقَطَهُ . قال في القاموس : « أَعْجَمَ فَلَانَ الْكَلَامَ : ذَهَبَ بِهِ إِلَى الْعُجْمَةِ ، وَالْكِتَابَ : نَقَطَهُ كَعَجْمَةٍ وَعُجْمَةٍ (أى بتخفيف الجيم وتضعيفها) » . والمعروف أن المصحف العثماني لم يكن منقوطةً ، وذلك للمعنى الذى أسلفناه ، وهو بقاء الكلمة محتملة لأن تقرأ بكل ما يمكن من وجوه القراءات فيها . بيد أن المؤرخين يختلفون ، فمنهم من يرى أن الإجمام كان معروفاً قبل الإسلام ولكن تركوه عمداً في المصاحف للمعنى السابق . ومنهم من يرى أن النقط لم يعرف إلا من بعد على يد أبى الأسود الدؤلى .

وسواء أكان هذا أم ذاك فإن إجمام المصاحف لم يحدث على المشهور إلا في عهد عبد الملك بن مروان إذ رأى أن رقعة الإسلام قد اتسعت ، واختلط العرب بالعجم ، وكادت المعجمة تمس سلامة اللغة ، وبدأ اللبس والإشكال في قراءة المصاحف يُبلِغُ بالناس ، حتى ليشق على السواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلماته وهى غير معجمة . هناك رأى بثاقب نظره أن يتقدم للإنقاذ ، فأمر الحاجاج أن يعنى بهذا الأمر الجلال ، وندب الحاجاج - طاعةً لأمر المؤمنين - رجلين يعالجان هذا المشكل ، هما نصر بن عاصم الليثى ، ويحيى بن يعمر العدواني . وكلاهما كف ، قدير على ما ندب إليه ،

إذ جمعا بين العلم والعمل، والصلاح والورع، والخبرة بأصول اللغة ووجوه قراءة القرآن .
وقد اشتركا أيضاً في التلمذة والأخذ عن أبي الأسود الدؤلى .

ويرحم الله هذين الشيخين ، فقد نجحنا فى هذه المحاولة ، وأعجبا المصحف الشريف
لأول مرة ، ونقطا جميع حروفه المتشابهة ، والتزمنا ألا تزيد النقطة فى أى حرف على
ثلاث . وشاع ذلك فى الناس بعد ، فكان له أثره العظيم فى إزالة الإشكال واللبس عن
المصحف الشريف .

وقيل إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى ، وإن ابن سيرين كان له
مصحف منقوط ، نقطه يحيى بن يعمر . ويمكن التوفيق بين هذه الأقوال بأن أبا الأسود
أول من نقط المصحف ولكن بصفة فردية ، ثم تبعه ابن سيرين ، وأن عبد الملك أول من
نقط المصحف ، ولكن بصفة رسمية عامة ، ذاعت وشاعت بين الناس ، دفعاً للبس
والإشكال عنهم فى قراءة القرآن .

شكل المصاحف :

شكل الكتاب فى اللغة رديف لإعجامة . وقد عرفت أن الإعجام هو النقط . قال
صاحب القاموس مانصه : « .. والكتاب (أى وشكل الكتاب : أعجمه ، كأشكلكه
كأنه أزال عنه الإشكال) » ١ . ثم شاع استعمال الشكل فى خصوص ما يعرض للحروف
من حركة أو سكون . والمناسبة بين المعنيين ظاهرة ، لأن فى كل منهما إزالة لإشكال
الحرف ودفعاً للبس عنه .

واتفق المؤرخون على أن العرب فى عهدهم الأول ، لم يكونوا يعرفون شكل الحروف
والكلمات فضلاً عن أن يشكلوها . ذلك لأن سلامة لغتهم ، وصفاء سليقةهم وذلافة ألسنتهم

كل أولئك كان يغنيهم عن الشكل . ولكن حين دخلت الإسلام أمم جديدة ؛ منهم العجم الذي لا يعرفون العربية ، بدأت المعجمة تحيف على لغة القرآن . بل قيل إن أبا الأسود الدؤلي سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : « أَنْ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » . فقرأها بجر اللام من كلمة « رسوله » . فأفرغ هذا اللحن الشنيع أبا الأسود وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله . ثم ذهب إلى زياد وإلى البصرة وقال له وقد أجيبتك إلى ما سألت . وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله ، فتباطأ في الجواب حتى راعه هذا الحادث . وهنا جدّ جدّه ، وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله ، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف ، وجعل علامة السكون نقطتين

طفق الناس ينهجون منهجه ، ثم امتدّ الزمان بهم فبدوا يزيدون ويبتكرون ، حتى جعلوا للحرف المشدّد علامة كالقوس ، ولألف الوصل جرّة فوقها أو تحته أو وسطها ، على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة . ودامت الحال على هذا حتى جاء عبد الملك ابن مروان ، فرأى بئافذ بصيرته أن يميز ذوات الحروف من بعضها ، وأن يتخذ سبيله إلى ذلك التمييز بالإعجام والنقط ، على نحو ما تقدم تحت العنوان السابق . وهناك اضطّر أن يستبدل بالشكل الأول الذي هو النقط ، شكلاً جديداً هو ما نعرفه اليوم من علامات الفتحة والكسرة والضمة والسكون . والذي اضطره إلى هذا الاستبدال ، أنه لو أبقى العلامات الأولى على ما هي عليه نقطاً ، ثم جاءت هذه الأخرى نقطاً كذلك لتشابهها واشتبه الأمر . فميز بين الطائفتين بهذه الطريقة . وَنِعْمًا فَعَلَ !

حكم نقط المصحف وشكله

كان العلماء في الصدر الأول يرون كراهة نقط المصحف وشكله ، مبالغةً منهم في المحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف ، وخوفاً من أن يؤدي ذلك إلى التغير فيه .

ومن ذلك ما روى عن ابن مسعود أنه قال : جرّدوا القرآن ولا تخلطوه بشيء . وما روى عن ابن سيرين أنه كره النقطة والفواتح والخواتم إلى غير ذلك .
ولكن الزمان تغير - كما علمت - فاضطر المسلمون إلى إعجام المصحف وشكله لنفس ذلك السبب أي للمحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف ، وخوفاً من أن يؤدي تجرده من النقطة والشكل إلى التغيير فيه .

فمقول حينئذ أن يزول القول بكرهه ذينك الإعجام والشكل ، ويحل محلّه القول بوجوب أو باستحباب الإعجام والشكل . لما هو مقرر من أن الحكم بدور مع علته وجوداً وعدمًا . قال النووي في كتابه التبيان مانعه : قال العلماء : ويستحب نقطة المصحف وشكله ، فإنه صيانة من اللحن فيه . وأما كراهة الشعبي والنخعي النقطة ، فإنما كراهاه في ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه . وقد أمن ذلك اليوم فلا يمنع من ذلك لكونه محدثاً ، فإنه من المحدثات الحسنة ، فلا يمنع منه كمنظأره مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات وغير ذلك . والله أعلم اهـ .

تجزئة القرآن :

كانت المصاحف العثمانية مجردة من التجزئة التي نذكرها ، كما كانت مجردة من النقطة والشكل . ولما امتدّ الزمان بالناس جعلوا يفتنون في المصاحف وتجزئتها عدّة تجزئات ، مختلفة الاعتبار . فمنهم من قسم القرآن ثلاثين قسماً ، وأطلقوا على كل قسم منها اسم الجزء بحيث لا يخطر بالبال عند الإطلاق غيره ، حتى إذا قال قائل : قرأت جزءاً من القرآن ، تبادر إلى الذهن أنه قرأ جزءاً من الثلاثين جزءاً التي قسموا المصحف إليها . وجرى على ذلك أصحاب الربعات ، إذ طبعوا كل جزء نسخة مستقلة ، ومجموع النسخ الجامعة للقرآن كله يسمونه (ربعة) . ويوجد من هذا القبيل أجزاء مستقلة بالطبع . بأيدي صفار التلاميذ في المدارس وغيرهم .

ومن الناس مَنْ قسموا الجزء إلى حزبين، وَمَنْ قسموا الحزب إلى أربعة أجزاء سموها كل واحد منها رُبْعاً .

ومن الناس مَنْ وضعوا كلمة خمس ، عند نهاية كل خمس آيات من السورة، وكلمة عشر عند نهاية كل عشر آيات منها، فإذا انقضت خمس أخرى بعد العشر أعادوا كلمة خمس، فإذا صارت هذه الخمس عشر أعادوا كلمة عشر وهكذا دواليك إلى آخر السورة. وبعضهم يكتب في موضع الأُخماس رأس الخاء بدلاً من كلمة خمس ، ويكتب في موضع الأعشار رأس العين بدلاً من كلمة عشر . وبعض الناس يرمز إلى رموس الآي برقم عددها من السورة أو من غير رقم. وبعضهم يكتب فواتح السور كعنوان ينوّه فيه باسم السورة وما فيها من الآيات المكية والمدنية إلى غير ذلك .

والعلماء في ذلك كلام طويل ، بين الجواز بكراهة والجواز بلا كراهة، ولكن الخطب سهل على كل حال ، مادام الفرض هو التيسير والتسهيل، ومادام الأمر بعيداً عن اللبس والتزيد والدخيل . « وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ » .

احترام المصحف :

ليس فيما نرى ونسمع ، كتابٌ أُحيط بهالة من الإجلال والتقدّيس ، كالقرآن الكريم . حتى لقد وصفه الحق جل شأنه بأنه كتاب مكنون ، وحكم بأنه لا يمسه إلا المطهرون ، وأقسم على ذلك إذ يقول : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

وحتى نهى الرسول ﷺ عن السفر به إلى أرض العدو ، إذا خيف وقوع المصحف في أيديهم . والحديث مرّوًى في الصحيحين .

وحق أنى العلماء بكفر من رمى به فى قاذورة ، وبحرمة من باعه لكافر ولو ذمياً ،
وقالوا بوجوب الطهارة لاسمه وحمله ، وكذلك ما يتصل به من خريطة وغلاف وصندوق
على الصحيح .

واستحبوا تحسين كتابته ، وإيضاحها ، وتحقيق حروفها .

قال النووى : ويستحب أن يقوم المصحف إذا قُدمَ به عليه ، لأن القمام يستحب
للعلماء والأخيار ، فالمصحف أولى اهـ .

رزقنا الله الأدب معه ومع كتابه ، ومع كافة من اصطفاهم من عباده ، آمين .

المبحث الحادى عشر

فى القراءات ، والقراء والشبهات التى أثبتت فى هذا المقام

١ — القراءات

القراءات جمع قراءة ، وهى فى اللغة مصدر ممتاعى لقراء . وفى الاصطلاح مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره فى النطق بالقرآن الكريم ، مع اتفاق الروايات والطرق عنه ، سواء أ كانت هذه المخالفة فى نطق الحروف أم فى نطق هيئاتها . قال السيوطى عند كلامه على تقسيم الإسناد إلى عالٍ ونازل مانصه : ومما يشبه هذا التقسيم الذى لأهل الحديث ، تقسيم القراء أحوال الإسناد إلى قراءة ورواية وطريق ووجه . فالخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم ؛ واتفقت عليه الروايات والطرق عنه ، فهو قراءة . وإن كان للراوى عنه ، فرواية . أو لمن بعده فنازلاً ، فطريق . أو لا على هذه الصفة مما هو راجع إلى تخير القارىء فيه ، فوجه . ١ .

وفى منجد المقرئين لابن الجزرى ما نصّه : « للقراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعز و الناقلة » (١) ... والمقرئ : العالم بها رواها مشافهة ، فلو حفظ التيسير مثلاً ليس له أن يقرئ بما فيه إن لم يشافهه من شؤفة به مسلسلاً ، لأن فى القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسمع والمشافهة . والقارىء المبتدىء من شرع فى الأفراد إلى أن يفرد ثلاثاً من القراءات . والمنتهى من نقل من القراءات أكثرها وأشهرها . ١ .

نشأة علم القراءات :

قلنا غير مرة : إن العول عليه فى القرآن الكريم إنما هو التاقى والأخذ ، فقة

(١) قال فى القاموس : « الناقلة : ضد القاطنين » .

عن ثقة ، وإماماً عن إمام إلى النبي ﷺ ، وإن المصاحف لم تكن ولن تكون هي العمدة في هذا الباب . إنما هي مرجع جامع للمسلمين ، على كتاب ربهم ، ولكن في حدود ما تدل عليه وتعيّنه ، دون ما لا تدل عليه ولا تعيّنه . وقد عرفت أن المصاحف لم تكن منقوطة ولا مشكولة ، وأن صورة الكلمة فيها كانت لكل ما يمكن من وجوه القراءات المختلفة ، وإذا لم نحتملها كتبت الكلمة بأحد الوجوه في مصحف ، ثم كتبت في مصحف آخر بوجه آخر وهم جرا . فلا غرو أن كان التعويل على الرواية والتلقي هو العمدة في باب القراءة والقرآن .

وقلنا : إن عثمان رضي الله عنه حين بعث المصاحف إلى الآفاق أرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته في الأكثر الأغلب ، وهذه القراءة قد تخالف الذائع الشائع في القطر الآخر عن طريق المبعوث الآخر بالمصحف الآخر .

ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم قد اختلف أخذهم عن رسول الله ﷺ ، فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد ، ومنهم من أخذه عنه بحرفين ، ومنهم من زاد . ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال ، فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم ، وأخذ تابع التابعين عن التابعين ، وهم جرا حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات بضبطونها ويعتنون بها وينشرونها كما يأتي . هذا منشأ علم القراءات واختلافها ، وإن كان الاختلاف يرجع في الواقع إلى أمور يسيرة بالنسبة إلى مواضع الاتفاق الكثيرة كما هو معلوم : لكنه - على كل حال - اختلاف في حدود السبعة الأحرف التي نزل عليها القرآن كلها من عند الله ، لا من عند الرسول ولا أحد من القراء أو غيرهم .

وللنويري كتاب مخطوط بدار الكتب في مصر ، وضعه شرحاً للطبقة في القراءات العشر ، يحمل بي أن أنقل إليك منه هنا الكلمة الآتية :

« والاعتماد في نقل القرآن على الحفاظ . ولذلك أرسل (أى عثمان رضى الله عنه) كل مصحف مع مَنْ يوافق قراءته في الأكثر وليس بلازم . وقرأ كل مصحف بما في مصحفهم ، وتلقوا ما فيه من الصحابة الذين تلقوه عن النبي ﷺ . ثم تجرد للأخذ عن هؤلاء قوم أسهروا ليلهم في ضبطها ، وأنعبوا نهارهم في نقلها ، حتى صاوروا في ذلك أئمةً للاقتداء ، وأنجحاً للاقتداء ، وأجمع أهل بلدهم على قبول قراءتهم ، ولم يختلف عليهم اثنان في صحة روايتهم ودرايتهم . ولتصديهم للقراءة نُسبت إليهم ، وكان المعول فيها عليهم . » ثم إن القراء بعد هؤلاء كثروا ، وفي البلاد انتشروا ، وخلفهم أمم بعد أمم ، وعرفت طبقاتهم ، واختلفت صفاتهم ، فكان منهم المتقن للتلاوة المشهورة بالرواية والدراية ، ومنهم المحصل لوصف واحد . ومنهم المحصل لأكثر من واحد ، فكثر بينهم لذلك الاختلاف ، وقلّ منهم الائتلاف .

فقام عند ذلك جهابذة الأمة ، وصناديد الأئمة ، فبالقوا في الاجتهاد بقدر الحاصل ، وميزوا بين الصحيح والباطل ، وجمعوا الحروف والقراءات ، وعزّوا الأوجه والروايات ، وبيّنوا الصحيح والشاذّ ، والكثير والنادر ، بأصول أصلوها ، وأركان فصلوها ، إلخ . اهـ .

طبقات الحفاظ المقرئين الأوائل :

ولقد اشتهر في كل طبقة من طبقات الأمة جماعة بحفظ القرآن وإقراءه . فالمشهورون من الصحابة بإقراء القرآن عثمان ، وهلى ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ، وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق الإسلامية .

والمشهورون من التابعين : ابن المسيب ، وعروة ، وسالم ، وعمر بن عبد العزيز وسليمان ابن يسار ، وأخوه عطاء وزيد بن أسلم ، ومسلم بن جندب ، وابن شهاب الزهري ،

وعبد الرحمن بن هرمز ، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القاري . (وكل هؤلاء كانوا بالمدينة) .

وعطاء ، ومجاهد ، وطاوس ، وعكرمة ، وابن أبي مُلَيْكَةَ ، وعبيد بن عمير ، وغيرهم (وهؤلاء كانوا بمكة) .

وعامر بن عبد القيس ، وأبو العالية ، وأبو رجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر^(١) وجابر بن زيد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة ، وغيرهم . (وهؤلاء كانوا بالبصرة) .

وعلقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعُيَيْدَةَ ، والربيع بن خَثِمَ ، والحارث بن قيس ، وعمر بن شُرَحْبِيل ، وعمر بن ميمون ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وزر بن حبيش ، وعبيد ابن فضالة ، وأبو زُرْعَةَ بن عمرو ، وسعيد بن جبیر ، والنخعي ، والشعمي . (وهؤلاء كانوا بالكوفة) .

والنفيرة بن أبي شهاب الخزومي صاحب مصحف عثمان ، وخُلَيْد بن سَعِيد صاحب أبي الدرداء ، وغيرهما . (وهؤلاء كانوا بالشام) .

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويُنَوِّنُ بها . فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القمقاع ، ثم شَيْبَةُ بن نَصَّاح^(٢) ، ثم نافع بن أبي نعيم .

وكان بمكة عبد الله بن كثير ، وحديد بن قيس الأعرج ، ومحمد بن مُحَافِظ .

وكان بالكوفة يحيى بن وثاب ، وعاصم بن أبي النجود ، وسليمان الأعمش ، ثم حمزة بن الكسائي .

(١) قال في القاموس : « يَمْرُ كَيْفَعَلْ أَسْمَاء » .

(٢) قال في القاموس : وَنِصَاحَةٌ وَالدُّشَيْبَةُ الْقَارِي هَكَذَا بِالنَّاءِ الْمَرْبُوطَةِ . وَلَكِنْ

الَّذِي فِي كُتُبِ الْقُرْآنِ كَالنَّشْرِ وَطَبَقَاتِ الْقُرْآنِ « نِصَاح » مِنْ غَيْرِ تَاءٍ مَرْبُوطَةٍ .

وكان بالبصرة عبدالله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمرو، وأبو عمرو بن العلاء وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي.

وكان بالشام عبدالله بن عامر، وعطية بن قيس الكلبي، وإسماعيل بن عبدالله ابن المهاجر. ثم يحيى بن الحارث الذمري، ثم شريح بن يزيد الحضرمي. وقد لمع في سماء هؤلاء القراء نجوم عدّة مهروا في القراءة والضبط حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرّحل إليهم، ويؤخذ عنهم.

أعداد القراءات :

ثم اشتهرت عبارات تحمل أعداد القراءات فقليل : القراءات السبع، والقراءات العشر، والقراءات الأربع عشرة.

وأحظى الجميع بالشهرة ونباهة الشأن، القراءات السبع.

وهي القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة المعروفين وهم : نافع، وعاصم، وحزرة، وعبد الله بن عامر؛ وعبد الله بن كثير؛ وأبو عمرو بن العلاء، وعلى الكسائي. والقراءات العشر هي هذه السبع وزيادة قراءات هؤلاء الثلاثة : أبي جعفر، ويعقوب، وخلف. وعلم القراءات أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. ثم أهل عهد التدوين للقراءات ولم يكن لهذه السبعة بهذا العنوان وجود أيضاً، بل كان أول من صنف في القراءات أمثال أبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي حاتم السجستاني، وأبي جعفر الطبري، وإسماعيل القاضي. وقد ذكروا في القراءات شيئاً كثيراً، وعرضوا روايات تروى على أضعاف قراءة هؤلاء السبعة.

ثم اشتهرت قراءات هؤلاء السبعة بعد ذلك على رأس المائتين في الأمصار الإسلامية. فكان الناس في البصرة على قراءة أبي عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع.

ومكثت القراءات السبع على هذه الحال دون أن تأخذ مكانها من التدوين حين خاتمة القرن الثالث ، إذ نهض ببغداد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس لجمع قراءات هؤلاء الأئمة السبعة غير أنه أثبت اسم الكسائي وحذف يعقوب .

وجاء اقتصاره على هؤلاء السبعة مصادفة واتفاقاً ، من غير قصد ولا عمد . ذلك أنه أخذ على نفسه ألا يروى إلا عن اشتهر بالضبط والأمانة وطول العرف في ملازمة القراءة واتفاق الآراء على الأخذ عنه والتلقي منه . فلم يتم له ما أراد هذا إلا عن هؤلاء السبعة وحدهم . وإلا فأئمة القراء لا يحصون كثرة ، وفيهم من هو أجل من هؤلاء قدراً ، وأعظم شأنًا .

وإذن فليس اقتصار ابن مجاهد على هؤلاء السبعة بخاصة للقراء فيهم ، ولا بملزم أحداً أن يقف عند حدود قراءاتهم . بل كل قراءة توافرت فيها الأركان الثلاثة للضابط المشهور وجب قبولها ^(١) .

ومن هنا كانت القراءات العشر ، بزيادة قراءات : يعقوب ، وأبي جعفر ، وخلف . على قراءات أولئك السبعة .

وكانت القراءات الأربع عشرة ، بزيادة أربع على قراءات هؤلاء العشرة ، وهي قراءات الحسن البصري ، وابن مكيصن ، ويحيى اليزيدي ، والشنبوذي .

(١) أي إن وجدت الآن . ولكن هيئات أن توجد ، بعد أن استقر الأمر في الواقع وعرف أنه ليس بعد القراءات العشر التي بين أيدينا قراءة أخرى متواترة . وسيستقر ذلك بتحقيقه فيما بعد فانتظره .

فوائد اختلاف القراءات :

استوفينا هذه النقطة بياناً في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف (من ص ١٣٨ - ص ١٤٤) .

أنواع اختلاف القراءات

تكلمنا على هذا الموضوع في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف أيضاً (من ص ١٢٨ - ص ١٨٠) .

ضابط قبول القراءات

لعلماء القراءات ضابط مشهور ، يزنون به الروايات الواردة في القراءات فيقول : كل قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديرأ ، ووافقت العربية ولو بوجه ، وصح إسنادها ولو كان عن فوق العشرة من القراء ، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها ، ولا يحل إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن . وهذا الضابط نظمه صاحب الطيِّبة فقال :

« وكلُّ ما وافقَ وجهَ النُحوِ وكان للرسم احتمالاً يحوى
وصحَّ إسناداً ، هو القرآنُ فهذه الثلاثةُ الأركانُ
وحيثما يختلُّ ركنٌ أثبت شدوذهُ لو أنه في السبعة »

والمراد بقولهم : « ما وافق أحد المصاحف العثمانية » أن يكون ثابتاً ولو في بعضها دون بعض . كقراءة ابن عامر : « قالوا اتخذ الله ولداً » من سورة البقرة ، بغير واو . وكقراءته : « وبالزبر وبالكاتب النير » بزيادة الباء في الاسمين ، فإن ذلك ثابت في

المصحف الشامي . وكقراءة ابن كثير : « جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » في الموضع الأخير من سورة التوبة ، بزيادة كلمة « مِنْ » فإن ذلك ثابت في المصحف المسكي .

والمراد بقولهم : « ولو تقديرأ » أنه يكفي في الرواية أن توافق رسم المصحف ، ولو موافقة غير صريحة ، نحو : « مَالِكٍ يَوْمَ الدِّينِ » ، فإنه رسم في جميع المصاحف بحذف الألف من كلمة « مالك » . فقراءة الحذف تحتمله تحقيقاً كما كتب « مَالِكِ النَّاسِ » ، وقراءة الألف تحتمله تقديرأ كما كتب : « مَالِكِ الْمَلِكِ » ، فتكون الألف حذفت اختصاراً ، كما حذفت في حالات كثيرة ألعنا إليها سابقاً في قواعد رسم المصحف . أما الموافقة الصريحة فكثيرة نحو قوله سبحانه : « وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا » فإنها كتبت في المصحف بدون نقط . وهنا وافقت قراءة « نُشِزُهَا » بلزاي وقراءة « نُشِزُهَا » بالراء .

ومن بعد نظر الصحابة في رسم المصحف أن الكلمة التي رُويت على الأصل وعلى خلاف الأصل كانوا يكتبونها بالحرف الذي يخالف الأصل ، ليتعادل مع الأصل الذي لم يكتب في دلالة الصورة الواحدة على القراءتين ، إذ يدل على إحداها بالحروف وعلى الثانية بالأصل . نحو كلتي (الصراط ، والمصيطرون) بالصاد المبدلة بالسين ، فإنهم كتبوها بالصاد وعدلوا عن السين التي هي الأصل ، لتكون قراءة السين وإن خالفت الرسم قد أتت على الأصل فيعتدلان ، وتكون قراءة الإشمام أيضاً محتملة . ولو كتب ذلك بالسين على الأصل لفات هذا الاحتمال وعدت قراءة غير السين مخالفة للرسم والأصل كليهما . ولذلك كان الخلاف المشهور في بصطة الأعراف دون بسطة البقرة ؛ لكون حرف البقرة كتب بالسين وحرف الأعراف كتب بالصاد .

والعلامة النويري على الطيبة كلمة نفيسة في هذا الموضوع إذ يقول ما نصه :

« اعلم أن الرسم هو تصوير الكلمة بحروف هجائها بتقدير الابتداء بها والوقف عليها والعماني هو الذي رُسم في المصاحف العثمانية. وينقسم إلى قياسي، وهو ما وافق اللفظ، وهو معنى قولهم: تحقيقاً. وإلى سماعي وهو ما خالف اللفظ، وهو معنى قولهم: تقديرًا وإلى احتمالي وسيأتي.

ومخالفة الرسم اللفظ محصورة في خمسة أقسام، وهي الدلالة على البدل نحو: «الصراط» وعلى الزيادة نحو: «مالك»، وعلى الحذف نحو: «لكننا هو»، وعلى الفصل نحو: «فإل هؤلاء»، وعلى أن الأصل الوصل نحو: «ألا يسجدوا» فقرأه الصاد والحذف والإثبات والفصل والوصل خمستها وافقها الرسم تحقيقاً، وبغيرها تقديرًا، لأن السين تبدل صادًا قبل أربعة أحرف منها الطاء كما سيأتي، وألف مالك عند المثلث زائدة، وأصل «لكننا» الإثبات، وأصل «فإل» الفصل، وأصل «ألا يسجدوا» الوصل. فالبدل في حكم المبدل منه، وكذا الباقي. وذلك لمتحقق الوفاق التقديري، لأن اختلاف القراءتين إذا كان يتغاير دون تضاد ولا تناقض فهو في حكم الموافق، وإذا كان بتضاد أو تناقض ففي حكم المخالف. والواقع الأول فقط، وهو الذي لا يلزم من صحة أحد الوجهين فيه بطلان الآخر.

وتحقيقه: أن اللفظ تارة يكون له جهة واحدة، فيرسم على وفقها، فالرسم هنا محصر جهة اللفظ، فمخالفة مناقض. وتارة يكون له جهات فيرسم على إحداها، فلا يحصر جهة اللفظ، فاللفظ به موافق تحقيقاً، وبغيره تقديرًا، لأن البدل في حكم المبدل منه. وكذا بقية الخمسة.

والقسم الثالث ما وافق الرسم احتمالاً. ويندرج فيه ما وقع الاختلاف فيه بالحركة والسكون نحو «القدس»، وبالتخفيف والتشديد نحو «ينشركم» بيونس، وبالقطع والوصل المعبر عنه بالشكل نحو «ادخلوا» بغافر، وباختلاف الإجماع نحو «يعلمون» و«يفتح»، وبالإجماع والإهمال نحو «ننشرها» وكذا المختلف في كيفية لفظها

كالدغم والمسهل والممّال والمرقّ والمُدوّر، فإن المصاحف العثمانية هكذا كلها، لتجردها عن أوصافها.

فقول الناظم : « وكان للرسم احتمالاً » دخل فيه ما وافق الرسم تحقيقاً بطريق الأولى، وسواء وافق كل المصاحف أو بعضها، كقراءة ابن عامر « قَالُوا أَلَمْ نَخْذَ اللَّهُ وَلَدًا » « وبالزُّبُرِ وبالكتاب » فإنه ثابت بالشامى، وكابن كثير فى « جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » بالتوبة، فإنه ثابت فى السكوفى، إلى غير ذلك.

وقوله « احتمالاً » يحتمل أن يكون جعله مقابلاً للتحقيق . ففسكون التهمة عنده ثنائية، وهو التحقيق والاحتمالى، ويكون قد أدخل التقديرى فى الاحتمالى، وهو الذى فعله فى نشره . ويحتمل أن يكون ثلث التهمة، ويكون حكم الأوّين ثابتاً بالأولوية . ولولا تقدير موافقة الرسم للزم السكل مخالفة السكل فى نحو « السَّمَوَاتِ وَالصَّالِحَاتِ » والليل .

ثم إن بعض الألفاظ يقع فيه موافقة لإحدى القراءتين أو القراءات تحقيقاً والأخرى تقديرأ، نحو « مَلِكٌ »، وبعضها يقع فيه موافقة القراءتين أو القراءات تحقيقاً، نحو « أَنْصَارًا لِلَّهِ، فَتَادَتِهِ الْمَلَائِكَةُ، وَيَغْفِرُ لَكُمْ، وَهِيَ لَكَ » .

واعلم أن مخالف صريح الرسم فى حرف مدغم أو مبدل أو ثابت أو محذوف أو ونحو ذلك، لا يُعَدُّ مخالفاً إذا ثبتت القراءة به ووردت مشهورة. ألا ترى أنهم يعدّون إثبات ياءات الزوائد وحذف ياء « تَسْأَلُنِي » بالكهف، وقراءة « وَأَكُونُ مِنَ الصَّالِحِينَ » ونحو ذلك من مخالف الرسم غير مردود، لرجوعه لمعنى واحد، وتمشيه مع صحة القراءة وشهرتها . بخلاف زيادة كلمة ونقصانها، وتقديمها وتأخيرها، حتى ولو كانت حرف معنى فإن له حكم الكلمة، ولا نسوغ مخالفة الرسم فيه . وهذا هو الحدُّ الفاصل فى حقيقة اتباع الرسم ومخالفته « اهـ » .

وقولهم في الضابط المذكور : « وافق العربية ولو بوجه » يريدون وجهاً من وجوه قواعد اللغة سواء أكان أفصح أم فصيحاً ، مجعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله ، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاها الأئمة بالإسناد الصحيح وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية .

هاك الحافظ أبو عمرو الداني في كتابه جامع البيان بعد ذكره إسكان كلمة « بَارِئُكُمْ » و « بِأَمْرِكُمْ » في قراءة أبي عمرو ، وبعد حكاية إنكار سيبويه لذلك ، يقول مانعه : « والإسكان أصح في النقل وأكثر في الأداء . وهو الذي اختاره وأخذ به ، إلى أن قال : وأئمة القراء لا تعتمد في شيء من حروف القرآن على الألف في اللغة والأفيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل . والرواية إذا ثبتت عندهم لا يردها قياس عربية ولا فُشُوْلة لأن القراءة سُنَّة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها » اهـ .

(قلت) وهذا كلام وجيه فإن علماء النحو إنما استمدوا قواعدهم من كتاب الله تعالى وكلام رسوله وكلام العرب ، فإذا ثبتت قرآنية القرآن بالرواية المقبولة كان القرآن هو الحكم على علماء النحو وما قعدوا من قواعد ، ووجب أن يرجعوا بمقواعدهم إليه ، لا أن يرجع نحن بالقرآن إلى قواعدهم المخالفة لحكمها فيه ، وإلا كان ذلك عكساً للآية ، وإهمالاً للأصل في وجوب الرعاية !

وقولهم في ذلك الضابط : « وصح إسناده » يريدون به أن يروى تلك القراءة عدلً ضابط عن مثله وهكذا إلى الرسول ﷺ من غير شذوذ ولا علة قاذحة . بل شرطوا فوق هذا أن تكون الرواية مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له ، غير معدودة عندهم من الغلط ، ولا مما شذ به بعضهم . والمحقق ابن الجزرى يشترط للتواتر ويصرح به في هذا الضابط ، ويعتبر أن ما اشتهر واستفاض موافقاً للرسم والعربية في قوة المتواتر في القطع بقرآنيته ، وإن كان غير متواتر .

منطوق هذا الضابط ومفهومه :

يدل هذا الضابط بمنطوقه، على أن كل قراءة اجتمع فيها هذه الأركان الثلاثة يحكم بقبولها، بل لقد حكموا بكفر من جحد^(١). سواء أكانت تلك القراءة مروية عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة؛ أم عن غيرهم من الأئمة القبولين. ويدل هذا الضابط بمفهومه على أن كل قراءة لم تتوافر فيها هذه الأركان الثلاثة. يحكم بعدم قبولها. وبعدم كفر من يجحدها. سواء أكانت هذه القراءة مروية عن الأئمة السبعة أم عن غيرهم، ولو كان أكبر منهم مقاماً، وأعظم شأنًا. هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف الخلف، كما صرح به الداني، ومكي، والمهدوي، وأبو شامة. وناهيك بهؤلاء الأربعة أنهم أئمة في قراءات القرآن وعلوم القرآن.

قال أبو شامة في كتابه المرشد الوجيز ما نصه : « فلا ينبغي أن يفتر بكل قراءة تُعزى إلى واحدٍ من هؤلاء الأئمة السبعة ويطلق عليها لفظ الصحة، وأنها كذلك أنزلت، إلا إذا دخلت في ذلك الضابط. وحينئذ فلا يفترض بنقلها مصنف عن غيره، ولا يختص ذلك بنقلها عنهم، بل إن نقلت عن غيرهم من القراء فذلك لا يخرجها عن الصحة؛ فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لأعلى من تُنسب إليه. والقراءات المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم، منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ. غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءاتهم، تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما نقل عن غيرهم » اهـ لكن رأى أبي شامة وأضرابه في القراءات السبع غير سديد كما سيجيء.

(١) قد يقال : لا يسلم لم ذلك إلا إن كانت القراءة متواترة معلومة من الدين بالضرورة، ويمكن أن يجاب بأن هذه الأركان الثلاثة أمانة التواتر والعلم من الدين بالضرورة. كما يأتي تفصيله. وإذن يكون الحكم صحيحاً.

ثم إن مفهوم هذا الضابط المحكوم عليه بما ترى تنضوى تحته بضع صور يخالف بعضها حكم بعض تفصيلاً، وإن اشتركت كلها في الحكم عليها إجمالاً بعدم قبولها كما علمت .

ذلك أن الضابط المذكور يصدق مفهومه بنفى الأركان الثلاثة، ويصدق بنفى واحد واثنتين منها . ولكل حالة حكم خاص تعلمه من عبارة الإمام مكى التى نسوقها إليك ونصها : « فإن سأل سائل : ما الذى يقبل من القراءات الآن فيقرأ به ؟ وما الذى يقبل ولا يقرأ به ؟ وما الذى لا يقبل ولا يقرأ به ؟ فالجواب أن جميع ما روى من القراءات على أقسام : قسم يقرأ به اليوم : وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال ، وهن أن ينقل عن الثقات عن النبي ﷺ ، ويكون وجهه فى العربية التى نزل بها القرآن سائفاً ، ويكون موافقاً لخط المصحف .

فإذا اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث قرئ به وقطع على تعينه وصحته وصدقه ، لأنه أخذ عن إجماع من جهة موافقة خط المصحف وكفر من جرده . قال : والقسم الثانى : ما صح نقله عن الآحاد وصح وجهه فى العربية وخالف لفظه خط المصحف . فهذا يقبل ولا يقرأ به ^(١) لعلتين : إحداهما أنه لم يؤخذ عن إجماع ، إنما أخذ أخبار الآحاد ، ولا يثبت قرآن يقرأ به بخبر الواحد . والعللة الثانية أنه يخالف لما قد أجمع عليه فلا يقطع على تعينه وصحته ، ومالم يقطع على صحته لا تجوز القراءة به ولا يكفر من جرده ،

(١) ومعنى هذا أنه يقبل على اعتبار أنه خبر شرعى يصح الاحتجاج به عند من يرى ذلك وهم الحنفية دون الشافعية ، ولا يقرأ به على أنه قرآن ، ولا ليوم القارىء أحداً أنه قرآن . قال النووي : « أعلم أن الذى استقرت عليه المذاهب وآراء العلماء أن من قرأ بها (أى الشواذ) غير معتقد أنها قرآن ولا موهم أحداً ذلك بل لما فيها من الأحكام =

ولبس ما صنع إذا جعده . والقسم الثالث : هو ما نقله غير ثقة أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية فهذا لا يقبل وإن وافق خط المصحف . قال : ولكل صنف من هذه الأقسام تمثيل تركنا ذكره اختصاراً « ١٥ » .

ثم انبرى المحقق ابن الجزرى لذلك التمثيل الذى تركه مكى اختصاراً فقال : -
(مثال القسم الأول) : ملك ومالك ، ويخضعون ، ويخادعون ، وأوصى ووصى ، ويطوع ، وتطوع ونحو ذلك من القراءات المشهورة .

(ومثال الثانى) قراءة ابن مسعود وأبى الدرداء : « والذكر والأنثى » فى قوله تعالى « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » بحذف لفظ « ما خلق » . وقراءة ابن عباس : « وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيحَةٍ صَالِحَةٍ غَضَبًا » ، بإبدال كلمة أمام من كلمة وراء ، وبزيادة كلمة صالحة « وأما الغلام فكان كافراً » بزيادة كلمة « كافراً » ونحو ذلك مما ثبت برواية الثقات إلى أن قال :

(ومثال القسم الثالث) مما نقله غير ثقة كثير كما فى كتب الشواذ مما غالب إسناداه ضعيف كقراءة ابن السميع وأبى السّمال وغيرهما فى « نُتَجِّيكَ ^(١) بِيَدِكَ » بالجيم المعجمة « وَلَمَّا خَلَفَكَ آيَةٌ » بفتح اللام أى من قوله « خَلَفَكَ » بسكونها . وكالقراءة المنسوبة إلى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه والى جمعها أبو الفضل محمد ابن جعفر الخزازى ونقلها عنه أبو القاسم الهذلى وغيره « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ = الشرعية عند من يحتج بها أو الأحكام الأدبية ؛ فلا كلام فى جواز قراءتها . وعلى هذا يحمل حال من قرأها من المتقدمين . وكذلك أيضاً يجوز تدوينها فى الكتب والتكلم على ما فيها . وإن قرأها باعتماد قرآنيها أو لإيهام قرآنيها حرم ذلك . ونقل ابن عبد البر فى تمهيده إجماع المسلمين عليه « ١٥ » .

(١) هنا سقط . والصواب « نتجيك » بالخاء المهملة فى « نُتَجِّيكَ بِيَدِكَ » الخ .

العلماء « برفع الهاء ونصب الهمزة ، يعنى برفع لفظ الجلالة ونصب لفظ العلماء .
وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه فتكلف توجيهها ، فإنها لا أصل
لها ، وإن أبا حنيفة ليرى منها .

ومثال ما نقله ثقة ولا وجه له فى العربية - ولا يصدر هذا إلا على وجه السهو
والغلط وعدم الضبط ، يعرفه الأئمة المحققون والحفاظ الضابطون ، وهو قليل جداً بل
لا يكاد يوجد .

وقد جعل بعضهم منه رواية خارجة عن نافع « معائش » بالهمز ثم قال : ويدخل
فى هذين القسمين ما يذكره بعض المتأخرين من شراح الشاطبية فى وقف حمزة نحو :
« أَسْمَائِهِمْ ، وَأُولَئِكَ » بياء خالصة ، ونحو « شُرَكَاءُكُمْ ، وَأَحِبَّاءُكُمْ » بواو خالصة .
ونحو « بَدَأَكُمْ ، وَأَخَاهُ » بألف خالصة ، ونحو « رَأَى رَأًى ، وَتَرَى تَرَاءًى ، وَاشْمَزَتْ
فى اشْمَازَتْ ، وَفَادَّارَأْتُمْ فى فَادَّارَأْتُمْ » بحذف الهمزة فى ذلك كله مما يسمونه للتخفيف
الرسمى ولا يجوز فى وجه من وجوه العربية ، فإنه إما أن يكون منقولاً عن ثقة - ولا سبيل
إلى ذلك - فهو مما لا يقبل ، إذ لا وجه له . وإما أن يكون منقولاً عن غير ثقة ؛ فنحنه
أخرى وردّه أولى . مع أنى تتبع ذلك فلم أجده منصوصاً لحمة لا بطريق صحيحة
ولا ضعيفة .

ثم قال : ويبقى قسم مردود أيضاً ، وهو ما وافق العربية والرسم ولم ينقل
ألبتة . فهذا ردّه أحق ، ومنعه أشد ؛ ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر .
وقد ذكر جواز ذلك عن محمد بن الحسن بن مقسم البغدادى المقرئ النحوى وكان
بعد الثلاثمائة .

قال الإمام أبو طاهر بن أبى هاشم فى كتابه البيان : « وقد نبغ نابغ فى عصرنا فزعم
أن كل ما صح عنده وجه فى العربية بحرف من القرآن يوافق المصحف فقراءته جائزة فى
الصلاة وغيرها . فابتدع بدعة ضلّ بها قصد السبيل (قلت) : وقد عقد له بسبب ذلك

مجلس ببغداد حضره الفقهاء والقراء ، وأجمعوا على منعه ، وأوقف للضرب ، ورجع ،
وكتب عليه محضر بذلك . كما ذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد ، وأشرنا
إليه في الطبقات « ١٠ » .

ملاحظة :

إما اكتفى القراء في ضابط القراءة المشهورة بصحة الإسناد مع الركنين الآخرين
ولم يشترطوا التواتر : مع أنه لا بد منه في تحقق القرآنية لأسباب ثلاثة : -
أحدها : أن هذا ضابط لا تعريف ، والتواتر قد لوحظ في تعريف القرآن على أنه شرط
أو شرط على الأقل . ولم يلحظ في الضابط لأنه يفتقر في الضوابط ما لا يفتقر في التعاريف .
فالضوابط ليست لبيان الماهية والحقيقة .

ثانيها : التيسير على الطالب في تمييز القراءات المقبولة من غيرها ، فإنه يسهل عليه
بمجرد رعايته لهذا الضابط أن يميز القراءات المقبولة من غير المقبولة . أما إذا اشترط
التواتر فإنه يصعب عليه ذلك التمييز ، لأنه يضطر في تحصيله إلى أن يصل إلى جمع
يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الرواية . وهيئات أن
يتيسر له ذلك .

ثالثها : أن هذه الأركان الثلاثة تكاد تكون مساوية للتواتر في إفادة العلم
القاطع بالقراءات المقبولة . بيان هذه المساواة أن ما بين دفتي المصحف متواتر وجمع عليه
من الأمة في أفضل عهودها وهو عهد الصحابة ، فإذا صحَّ سند القراءة ووافقت قواعد
اللغة ثم جاءت موافقة لخط هذا المصحف المتواتر ، كانت هذه الموافقة قرينة على إفادة
هذه الرواية للعلم القاطع وإن كانت آحاداً .

ولا تنس ما هو مقرر في علم الأثر من أن خبر الآحاد يفيد العلم إذا احتفت به
قرينة توجب ذلك .

فكان التواتر كان يطلب تحصيله في الإسناد قبل أن يقوم المصحف وثيقة متواترة بالقرآن . أما بعد وجود هذا المصحف المجمع عليه ، فيكفي في الرواية صحتها وشهرتها متى وافقت رسم هذا المصحف ولسان العرب .

قال صاحب الكواكب الدرية نقلاً عن المحقق ابن الجزرى مانصه : « قولنا : « وصحَّ سندها » نغنى به أن يروى تلك القراءة العدل الضابط عن مثله ، وهكذا حتى ينتهى ، وتسكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذَّ به بعضهم .

وقد شرط بعض المتأخرين التواتر في هذا الركن ولم يكتف بصحة السند وزعم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر^(١) . وأن ما جاء بحجى الأحاد لا يثبت به قرآن . وهذا مما لا يخفى مافيه ، فإن التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنين الآخرين من موافقه الرسم وغيره . إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي ﷺ وجب قبوله وقطع بكونه قرآناً ، سواء وافق الرسم أم خالفه » اهـ .

وبهذا التوجيه الذى وجهنا به الضابط المذكور ، يهون اعتراض العلامة النووى في شرحه على الطيِّبة ، إذ يقول مانصه : وقوله : « وصحَّ إسناداً » ظاهره أن القرآن يكتفى في ثبوته مع الشرطين المتقدمين بصحة السند فقط ولا يحتاج إلى تواتر . وهذا قول حادث مخالف لإجماع الفقهاء والمحدثين وغيرهم ، كما استراه إن شاء الله تعالى . ولقد ضلَّ بسبب هذا القول قوم فصاروا يقرءون أحرفاً لا يصح لها سند أصلاً ، ويقولون : التواتر

(١) أى في هذا الضابط الذى لوحظ فيه وجود الركنين الآخرين مع هذا الركن . وإنما فسرنا كلامه بذلك لأن التواتر مجرد شرط أو شرط في القرآن كما هو التحقيق . ولأن موضوع حديثه هنا إنما هو اشتراط التواتر في هذا الركن الذى هو جزء من الضابط ، كما صرح به أولاً ، كما يرشد إليه كلامه آخرأ .

ليس بشرط . وإذا طولبوا بسند صحيح لا يستطيعون ذلك . ولا يدّ هذه المسألة من بعض بسط ، فلذلك نُخصت فيها مذاهب القراء والفقهاء الأربعة المشهورين وما ذكر الأصوليون والمفسرون وغيرهم . رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وذكرت في هذا التعليق المهم من ذلك ، لأنه لا يحتمل التطويل ، فأقول :

« القرآن عند الجمهور من أئمة المذاهب الأربعة منهم الغزالي وصدر الشريعة وموفق الدين المقدسي وابن مفلح والطوفي ، هو ما نقل بين دفتي المصحف نقلاً متواتراً . وقال غيرهم : هو الكلام المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم للإعجاز بسورة منه . وكل من قال بهذا الحدّ اشترط التواتر كما قال ابن الحاجب رحمه الله تعالى ، للقطع بأن العادة تقضى بالتواتر في تفاصيل مثله . والقائلون بالأول لم يحتاجوا للعادة ، لأن التواتر عندهم جزء من الحد ، فلا تتصور ماهية القرآن إلا به . وحينئذ فلا بدّ من التواتر عند أئمة المذاهب الأربعة ، ولم يخالف منهم أحد فيما علمت بعد الفحص الزائد . وصرح به جماعات لا يحصون ، كابن عبد البر وابن عطية وابن تيمية والتونسي في تفسيره والنووي والسبكي والإسنوي والأذري والزرکشي والدميري وابن الحاجب والشيخ خليل وابن عرفة وغيرهم ، رحمهم الله تعالى .

وأما القراء فأجمعوا في أول الزمان على ذلك وكذلك في آخره ، لم يخالف من المتأخرين إلا أبو محمد مسكي ، وتبعه بعض المتأخرين . وهذا كلامهم . . الخ » اهـ . ثم ساق نقولاً كثيرة عزاهما إليهم يقصر المقام هنا عن عرضها . وفيما ذكرناه كفاية . وهذا التوجيه الذي وجهناه بالضابط الساف يجعل الخلاف كأنه لفظي ، ويسير بجماعات القراء على جدّد الطريق في تواتر القرآن « وَمَنْ سَلَكَ الْجَدَدَ أَمِنَ الْعِثَارَ » .

أنواع القراءات من حيث السند :

ينقل السيوطي عن ابن الجزري أن أنواع القراءات ستة :-

(الأول المتواتر) . وهو ما رواه جمع عن جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن

مثلهم : مثاله ما اتفقت الطرق في نقله عن السبعة . وهذا هو الغالب في القراءات .

(الثاني المشهور) : هو ما صحَّ سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله وهكذا ، ووافق

العربية ، ووافق أحد المصاحف العثمانية ، سواء أكان عن الأئمة السبعة أم العشرة أم غيرهم من الأئمة المقبولين ، واشتهر عند القراء فلم يعدَّوه من الغلط ولا من الشذوذ ، إلا أنه

لم يبلغ درجة المتواتر . مثاله : ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة ، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض . ومن أشهر ما صنف في هذين النوعين التيسير للداني ، والشاطبية ، وطيبة النشر في القراءات العشر . وهذان النوعان هما اللذان بقرا بهما مع وجوب اعتقادهما ، ولا يجوز إنكار شيء منهما .

(النوع الثالث) ما صحَّ سنده ، وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الاشتهار

المذكور . وهذا النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده . من ذلك ما أخرجه الحاكم من طريق عاصم الجحدري عن أبي بكر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : « مُتَكَيِّثِينَ عَلَى رَفَارِفَ خُضِرٍ وَعَبَّاقِرِيَّ حِسَانَ » . ومنه قراءة « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » بفتح الفاء .

(الرابع الشاذ) وهو ما لم يصحَّ سنده ، كقراءة ابن السَّمِيعِ : « قَالِيَوْمَ

نُحَيِّيكَ بِيَدِنِكَ » بالحاء المهملة « لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً » بفتح اللام من كلمة « خَلَقَكَ » .

(الخامس الموضوع) وهو ما نسب إلى قائله من غير أصل . مثال ذلك القراءات

التي جمعها محمد بن جعفر الخزازي ، ونسبها إلى أبي حنيفة . وقد سبق الكلام عليها في شرح الضابط الآنف .

(النوع السادس) ما يشبه المذرج من أنواع الحديث . وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير كقراءة سعد بن أبي وقاص « وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمِّ » بزيادة لفظ « مِنْ أُمِّ » . وقراءة : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ » بزيادة لفظ « فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ » وقراءة الزبير : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيَسْتَعِينُونَ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ » بزيادة لفظ « وَيَسْتَعِينُونَ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ » .

ولما كان شبيهاً ولم يكن مذرجاً ، لأنه وقع خلاف فيه . قال عمر رضى الله عنه : « فما أدري أكانت قراءاته (يعنى الزبير) « أم فسر » أخرجه سميد بن منصور ، وأخرجه ابن الأنباري وجزم بأنه تفسير . وكان الحسن يقرأ : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ، الْوُرُودُ : الدُّخُولُ » قال ابن الأنباري : قوله « الْوُرُودُ : الدُّخُولُ » ، تفسير من الحسن لمعنى الورد . وغلط فيه بعض الرواة فأدخله في القرآن .

قال ابن الجزري و آخر كلامه : « وربما كانوا يدخلون التفسير في الكلام بإيضاحاً ، لأنهم متحققون لما تلقوه عن رسول الله ﷺ قرآنك . فهم آمنون من الاقتباس » انتهى بتصرف تبعنا فيه صاحب الكواكب الدرية .

تواتر القرآن :

أكتفى في هذا الموضوع بأن أسوق إليك نقولاً ثلاثة فوق ما نقلته عن النويري من قبل :

أولها : يقول الإمام الغزالي في المستصفى مانصه : حَدَّثَ الْكِتَابَ مَا نَقَلَ إِلَيْنَا بَيْنَ دَفْتِي الْمَصْحَفِ عَلَى الْأَحْرَفِ السَّبْعَةِ الْمَشْهُورَةِ نَقْلًا مُتَوَاتِرًا . ونعني بالكتاب القرآن المنزل . وقيدناه بالمصحف لأن الصحابة بالغوا في الاحتياط في نقله ، حتى كرهوا التعاشير والنقط ،

وأمروا بالتجريد ؛ كيلا يختلط بالقرآن غيره ؛ ونقل إلينا متواتراً ، فنعلم أن المكتوب في المصحف المتفق عليه هو القرآن ، وأن ما هو خارج عنه فليس منه ؛ إذ يستحيل في العرف والعادة مع توافر الدواعي على حفظه أن يهمل بعضه فلا ينقل ، أو يختلط به ما ليس منه . ثم قال : فإن قيل : لم شرطتم التواتر ؟ قلنا ليحصل العلم به ، لأن الحكم بما لا يعلم جهل وكون الشيء كلام الله تعالى أمر حقيقي ليس بوضعي حتى يتعلق بظننا ، فيقال : إذا ظننتم كذا فقد حرمننا عليكم فعلاً ، أو حللناه لكم ، فيكون التحريم معلوماً عند ظننا ، ويكون ظننا علامة لتعلق التحريم به . إلى أن قال :

ويتشعب عن حد الكلام مسألتان : « (إحداهما) مسألة التتابع في صوم كفارة اليمين : فإنه ليس بواجب على قول ، وإن قرأ ابن مسعود « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ » لأن هذه الزيادة لم تتواتر ، فليست من القرآن ، فتحتمل على أنه ذكرها في معرض البيان ، لما اعتقده مذهباً ، فلمله اعتقد التتابع حملاً لهذا المطلق على المقيد بالتتابع في الظهار . وقال أبو حنيفة : يجب التتابع ، لأنه وإن لم يثبت كونه قرآناً ، فلا أقل من كونه خبراً ، والعمل يجب بخبر الواحد . وهذا ضعيف ، لأن خبر الواحد لا دليل على كذبه ، وهو ^(١) إن جملة من القرآن فهو خطأ قطعاً ، لأنه وجب على رسول الله ﷺ أن يبلغه طائفة من الأمة تقوم الحجة بقولهم ، وكان لا يجوز له مناجاة الواحد به . وإن لم يجعله من القرآن ، احتمل أن يكون ذلك مذهباً له ، للدليل قد دلل عليه ، واحتمل أن يكون خبراً . وما ترددين

(١) كذا بالأصل الذي نقلت عنه . ولعل الواو في لفظ « وهو » زادت المطبعة خطأ . وجملة « لا دليل على كذبه » حالية من لفظ « الواحد » ، والمعنى هكذا : لأن خبر الواحد هنا حال كونه لا دليل على كذبه ، ولفظ هو ضمير فصل أو عائذ على خبر الواحد ، إن جملة (أي أبو حنيفة) من القرآن الخ . ويمكن أن تكون كلمة « وهو » كلها مدرجة في الطبع أو النسخ فتدبر .

أن يكون خيراً أو لا يكون ، فلا يجوز العمل به ، وإنما يجوز العمل بما يصرح الراوى بسماعه من رسول الله ﷺ .

(أما المسألة الثانية) فهى أن البسمة آية من القرآن لكن هل هى آية من أول كل سورة ؟ فيه خلاف . وميل الشافعى - رحمه الله - إلى أنها آية من سورة الحمد وسائر السور ، لكنها فى أول كل سورة آية برأسها ، أو هى مع أول آية من سائر السور آية هذا مما نقل عن الشافعى فيه تردد . وهذا أصح من قول من حمل تردد قول الشافعى على أنها هل هى من القرآن فى أول كل سورة ؟ بل الذى يصح أنها حيث كتبت مع القرآن بخط القرآن ، فهى من القرآن « ١٥٠ ما أردنا نقله بتصرف طفيف .

ثانيها : يقول صاحب مسلم الثبوت وشارحه ما نصه : « ما نُقلَ آحاداً فليس بقرآن قطعاً ؛ ولم يعرف فيه خلاف لواحد من أهل المذاهب ، واستدل بأن القرآن مما تتوافر الدواعى على نقله ، لتضمنه التجدى ، ولأنه أصل الأحكام ، باعتبار المعنى والنظم جميعاً ، حتى تعلق بنظمه أحكامه كثيرة ، ولأنه يقربك به فى كل عصر بالقراءة ، ولذا علم جهد الصحابة فى حفظه بالتواتر القاطع . وكل ما تتوافر دواعى نقله ، ينقل متواتراً عادة . فوجوده ملزوم للتواتر عند الكل عادة ، فإذا انتفى اللازم وهو التواتر ، انتفى الملزوم قطعاً . والمنقول آحاداً ؛ ليس متواتراً فليس قرآناً » ١٥١ .

ثالثها : يقول الحافظ جلال الدين فى الإتيان ما نصه : لا خلاف أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواتراً فى أصله وأجزائه . وأما فى محله ووضعه وترتيبه ، فكذلك عند محققى أهل السنة ، للقطع بأن العادة تقضى بالتواتر فى تفاصيل مثله ، لأن هذا المعجز العظيم ، الذى هو أصل الدين القويم ، والصراط المستقيم ؛ مما تتوافر الدواعى على نقل جملة وتفصيله ، فما نقل آحاداً ولم يتواتر يقطع بأنه ليس من القرآن .

« وذهب كثير من الأصوليين إلى أن التواتر شرط في ثبوت ما هو من القرآن بحسب أصله . وليس بشرط في محله ووضعه وترتيبه . بل يكثر فيها نقل الآحاد . قيل وهو الذي يقتضيه صنع الشافعي في إثبات البسملة من كل سورة . ورد هذا المذهب بأن الدليل السابق يقتضي التواتر في الجميع ، ولأنه لو لم يشترط لجاز سقوط كثير من القرآن المكرر ، وثبوت كثير مما ليس بقرآن منه . أما الأول فلأننا لو لم نشترط التواتر في المحل ، جاز ألا يتواتر كثير من المكررات الواقعة في القرآن . مثل « فبأى آلاء ربكما تكذبان » . وأما الثاني فلأنه إذا لم يتواتر بعض القرآن بحسب المحل ، جاز إثبات ذلك البعض في الموضع بنقل الآحاد . وقال القاضي أبو بكر في الانتصار : « ذهب قوم من الفقهاء والمتكلمين إلى إثبات قرآن حكماً لا علماً بنجر الواحد دون الاستفاضة . وكره ذلك أهل الحق وامتنعوا منه وقال قوم من المتكلمين : إنه يسوغ إعمال الرأي والاجتهاد في إثبات قراءة وأوجه وأحرف ، إذا كانت تلك الأوجه صواباً في العربية ، وإن لم يثبت أن النبي ﷺ قرأ بها . وأبى ذلك أهل الحق وأنكروه وخطأوا من قال به » . اهـ

وقد بنى المالكية وغيرهم ممن قال بإنكار البسملة قولهم على هذا الأصل ، وقرروا أنها لم تتواتر في أوائل السور ، ومالم يتواتر فليس بقرآن . وأجيب من قبلنا بمنع كونها لم تتواتر ، فرب متواتر عند قوم دون آخرين ، وفي وقت دون آخر . ويمكن في تواترها لإثباتها في مصاحف الصحابة فن بعدهم بخط المصحف مع منعهم أن يكتب في المصحف ما ليس منه ، كأسماء السور وآمين والأعشار . فلو لم تكن قرآناً لما استجازوا إثباتها بخطه من غير تمييز ، لأن ذلك يحمل على اعتقاد كونها قرآناً . فيكونون مفررين بالمسلمين حاملين لهم على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآناً ، وهذا مما لا يجوز اعتقاده في الصحابة . فإن قيل : لعلها أثبتت للفصل بين السور . أجيب : بأن هذا فيه تغيير ،

ولا يجوز ارتكابه لمجرد الفصل ، ولو كانت له لكتبت بين براءة والأنفال ١٠٠هـ .
كلام السيوطي .

وهذه النقول الثلاثة كافية في الموضوع كما ترى لأن عبارتي المستصفي ومسلم الثبوت
يقينان الدليل واضحاً على تواتر القرآن وإن اختلف طريقتهما في الاستدلال . وعبارة
السيوطي تذكر الخلاف في عموم هذا التواتر لما كان أصلاً وغير أصل ، وتؤيد هذا العموم
وتردُّ على من قصر التواتر على أصل القرآن دون محله ووضعه وترتيبه .

الآراء في القراءات السبع :

هنا يجد الباحث نفسه في معترك مليء بكثرة الخلافات واضطراب النقول واتساع
المسافة بين المختلفين إلى حد بعيد .

وإليك صورة مصغرة تشهد فيها حرب الآراء والأفكار مشوبةً بين الكتاتيب
في هذا الموضوع :

(١) يببالغ بعضهم في الإشادة بالقراءات السبع ويقول : من زعم أن القراءات السبع
لا يلزم فيها التواتر فقولُه كفر لأنه يؤدي إلى عدم تواتر القرآن جملة . ويعزى هذا
الرأى إلى مفتى البلاد الأندلسية الأستاذ أبي سعيد فرج بن لب ، وقد تمحس رأيه كثيراً
وألف رسالة كبيرة في تأييد مذهبه والرد على من رد عليه .

ولكن دليله الذي استند إليه لا يسلم له ، فإن القول بعدم تواتر القراءات السبع
لا يستلزم للقول بعدم تواتر القرآن . كيف ؟ وهناك فرق بين القرآن والقراءات السبع بحيث
يصح أن يكون القرآن متواتراً في غير القراءات السبع ، أو في القدر الذي اتفق عليه
القراء جميعاً ، أو في القدر الذي اتفق عدد يؤمن تواطؤهم على الكذب قراءاً كانوا

أو غير قراء ، بينما تكون القراءات السبع غير متواترة ، وذلك في القدر الذي اختلف فيه القراء ولم يجتمع على روايته عدد يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة ، وإن كان احتمالاً ينفيه الواقع كما هو التحقيق الآتي .

(٢) يبالغ بعضهم في توهين القراءات السبع والفض من شأنها ، فيزعم أنه لا فرق بينها وبين سائر القراءات ، ويحكم بأن الجميع روايات آحاد . ويستدل على ذلك بأن القول بتواترها منكر يؤدي إلى تكفير من طعن في شيء منها ، مع أن الطعن وقع فعلاً من بعض العلماء والأعلام .

ونناقش هذا الدليل بأننا لانسلم أن إنكار شيء من القراءات يقتضي التكفير على القول بتواترها . وإنما يحكم بالتكفير على من علم تواترها ثم أنكره . والشيء قد يكون متواتراً عند قوم غير متواتر عند آخرين ، وقد يكون متواتراً في وقت دون آخر فطعن من طعن منهم يحمل على مالم يعلموا تواترها منها ، وهذا لا ينفي التواتر عند من علم به ، « وفوق كل ذي علم عليم » .

ويمكن مناقشة هذا الدليل أيضاً بأن طعن الطاعنين إنما هو فيما اختلف فيه وكان من قبيل الأداء . أما ما اتفق عليه فليس بموضع طعن . ونحن لا نقول إلا بتواتر ما اتفق عليه دون ما اختلف فيه .

(٣) يقول ابن السبكي في جمع الجوامع وشارحه ومحشيه : « القراءات السبع متواترة تواتراً تاماً أي نقلها عن النبي ﷺ جمع يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب لمثلهم ، وهم جرا . ولا يضر كون أسانيد القراء آحاداً ، إذ تخصيصها بمجاعة لا يمنع مجيء القراءات عن غيرهم ، بل هو الواقع ، فقد تلقاها عن أهل كل بلد بقراءة إمامهم الجم الغفير عن مثلهم ؛ وهم جرا . وإنما أسندت إلى الأئمة المذكورين ورواتهم المذكورين في أسانيدهم ، لتصدّ بهم

لضبط حروفها وحفظ شيوخهم الكل فيها « ١٥٠ .
وقد يناقش هذا بأنها لو تواترت جميعاً ، ما اختلف القراء في شيء منها لكنهم اختلفوا
في أشياء منها ، فإذا لا يسلم أن تكون كلها متواترة .
ويجيب عن هذا بأن الخلاف لا ينفي التواتر بل الكل متواتر وهم فيه مختلفون ،
فإن كل حرف من الحروف السبعة التي نزل بها القرآن بلغه الرسول ﷺ إلى جماعة يؤمن
تواطؤهم على الكذب حفظاً لهذا الكتاب ، وهم بلغوه إلى أمثالهم وهكذا . ولا شك أن
الحروف يخالف بعضها بعضاً ، فلا جرم تواتر كل حرف عند من أخذ به وإن كان الآخر
لم يعرفه ولم يأخذ به . وهنا يجتمع التخالف والتواتر . وهنا يستقيم القول بتواتر القراءات
السبع بل القراءات العشر كما يأتي .

(٤) ويذهب ابن الحاجب إلى تواتر القراءات السبع ، غير أنه يستثني منها ما كان
من قبيل الأداء كالمدة والإمالة وتخفيف الهمزة . قال البناني على جمع الجوامع : « وكان وجه
ذلك أن ما كان من قبيل الأداء بأن كان هيئة اللفظ يتحقق اللفظ بدونها ، كزيادة اللد على أصله
وما بعده من الأمثلة ، وما كان من هذا القبيل لا يضبطه السماع عادة لأنه يقبل الزيادة والنقصان ؛
بل هو أمر اجتهدى . وقد شرطوا في التواتر ألا يكون في الأصل عن اجتهاد . فإن قيل
قد يتصور الضبط في الطبقة الأولى للعلم بضبطها ما سمعته منه ﷺ على الوجه الذي صدر
منه من غير تفاوت بسبب تكرار عرضها ما سمعته منه ﷺ . قلنا إن سلم وقوع ذلك
لم يفد ، إذ لا يأتي نظيره في بقية الطبقات ، فإن الطبقة الأولى لا تقدر عادة على القطع بأن
ما تلقته الثانية جارية على الوجه الذي نطق به النبي ﷺ . وبما تقرر علم أن الكلام فيما زاد
على أصل المد وما بعده لا في الأصل فإنه متواتر .

الحاصل أنه إن أريد بتواتر ما كان من قبيل الأداء تواتره باعتبار أصله ، كأن
يراد تواتر المد من غير نظر لمقداره ، وتواتر الإمالة كذلك ، فالوجه خلاف ما قال

ابن الحاجب ، للعلم بتواتر ذلك . وإن أريد تواتر الخصوصيات الزائدة على الأصل ، فالوجه ما قاله ابن الحاجب . قاله ابن قاسم « ا هـ بقليل من التصرف .

لكننا إذا رجعنا لمباراة ابن الحاجب نجدها كما يقول في مختصر الأصول له :
« القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء ، كالمدة والإمالة وتخفيف الميم ونحوه » ا هـ وهذا زعم صريح منه بأن المد والإمالة وتخفيف الميم ونحوها من قبيل الأداء وأنها غير متواترة . وهذا غير صحيح ، كما يأتيك نبؤه في مناقشة ابن الجزري له طويلاً .

(هـ) يذهب أبو شامة إلى أن القراءات السبع متواترة فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء ، أما ما اختلفت الطرق في نقله عنهم فليس بمتواتر ، سواء أكان الاختلاف في أداء الكلمة كما ذهب ابن الحاجب أم في لفظها . فالاستثناء هنا أعم مما استثناء ابن الحاجب . وعبارة أبي شامة في كتابه المرشد الوجيز نصها ما يأتي : « ما شاع على السنة جماعة من متأخري القرنين وغيرهم من أن القراءات السبع متواترة ، ونقول به فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء السبعة ، دون ما اختلفت فيه ، بمعنى أنه نفيت نسبته إليهم في بعض الطرق . وذلك موجود في كتب القراءات ، لاسيما كتب المغاربة وللشارقة ، فبينهما تباين في مواضع كثيرة . والحاصل أنا لا نلتزم التواتر في جميع الألفاظ المختلف فيها بين القراء . أي بل منها المتواتر وهو ما اتفقت الطرق على نقله عنهم ، وغير المتواتر وهو ما اختلفت فيه بالمعنى السابق . وهذا بظاهره يتناول ما ليس من قبيل الأداء وما هو من قبيله » ا هـ . نقلًا عن الجلال الحلي في شرح جمع الجوامع بتذييل منه .

ورأى أبو شامة هذا كنت أقول في الطبعة الأولى إنه أمثل الآراء فيما أرى ، وذلك لأمر أربعة :

أولها : أنه رأى سليم من التوهينات التي نوقشت بها الآراء السابقة .

ثانيها : أن يستند إلى الواقع في دعواه وفي دليله . ذلك أن القراءات السبع وقع اختلاف بعضها حقيقة في النطق بألفاظ الكلمات تارة ، وبأداء تلك الألفاظ تارة أخرى . ومن هنا كانت الدعوى مطابقة للواقع . ثم إن دليله يقوم على الواقع أيضاً في أن بعض الروايات مضطربة في نسبتها إلى الأئمة القراء ، فبعضهم نفاها وبعضهم أثبتها . وذلك أمانة انتفاء التواتر ، لأن الاتفاق في كل طبقة من الجماعة الذين يؤمن تواطؤهم على الكذب لازم من لوازم التواتر . وقد انتفى هذا الاتفاق هنا فينتفى التواتر ، لما هو معلوم من أنه كلما انتفى اللازم انتفى الملزوم .

ثالثها : أن هذا الرأي صادر عن إخصائي متمهر في القراءات وعلوم القرآن وهو أبو شامة « وصاحب الدار أدري بما فيها » .

رابعها : أن هذا الرأي يتفق وما هو مقرر لدى المحققين من أن القراءات قد تتوافر فيها الأركان الثلاثة المذكورة في ذلك الضابط المشهور ، وقد تنتفى هذه الأركان الثلاثة كلاً أو بعضاً ، لا فرق في هذا بين القراءات للسبع وغير السبع على نحو ما تقدم . ويتفق هـذا الرأي أيضاً وما صرحوا به من تقسيم القراءات باعتبار السند إلى ستة أقسام كما سبق .

استدراك :

لكني بعد معاودة البحث والنظر ، واتساع أفق اطلاعي فيما كتب أهل التحقيق في هذا الشأن ، تبين لي أن أبا شامة أخطأه الصواب أيضاً فيمن أخطأ ، وأنتى أخطأت في مشايخته وتأيبده .

ويضطرنني إنصاف الحق أن أكرر على الوجوه التي أبدته بها بين يديك ، فأنتفضها وجهاً وجهاً . « والرجوع إلى الحق فضيلة » .

١ - فرأى أبي شامة المسطور لم يسلم من مثل تلك التوهيمات التي نوقشت بها الآراء السابقة ، وسترى قريباً شدة مناقشته الحساب في كلام ابن الجزرى .

٢ - ثم إن الغطاء قد انكشف عن أن القراءات السبع بل القراءات العشر كلها متواترة في الواقع ، وأن الخلاف بينها لا ينفي عنها التواتر ، فقد يجتمع التواتر والتخالف ، كما بينا عند عرض رأى ابن السبكي ، وكما يستبين لك الأمر فيما يأتى من تحقيق ابن الجزرى .

٣ - أما أن أبا شامة إخصائى متمهر ، فسبحان من له العصمة ، والكمال لله تعالى وحده . على أن الذى رد عليه واختارنا رأيه - وهو ابن الجزرى - إخصائى متمهر أيضاً ، وإليه انتهت الزعامة فى هذا الفن ، حتى إذا أطلق لقب المحقق لم ينصرف إلا إليه « وكم ترك الأول للآخر » .

٤ - وأما ما قرره المحققون من تقسيم القراءات إلى متواتر وغير متواتر ، فهو تقسيم لا يغنى عن أبي شامة شيئاً فى رأيه هذا ، لأن كلامهم هناك كان فى مطلق القراءات ، أما كلامنا وكلام أبي شامة هنا فهو فى خصوص القراءات السبع . وبينهما برزخ لا يبغيان .

الآراء فى القراءات الثلاث المتممة للعشر :

لقد علمت فيما سبق ما قيل فى القراءات السبع من أنها متواترة أو غير متواترة . أما القراءات الثلاث المكملّة للعشر ، فقيل فيها بالتواتر ، ويعزى ذلك إلى ابن السبكي . وقيل فيها بالصحة فقط ، ويعزى ذلك إلى الجلال الحلى . وقيل فيها بالشذوذ ، ويعزى ذلك إلى الفقهاء الذين يعتبرون كل ما وراء القراءات السبع شاذاً .

التحقيق تواتر القراءات العشر كلها :

والتحقيق الذى يؤيده الدليل ، هو أن القراءات العشر كلها متواترة ، وهو رأى الحققين من الأصوليين والقراء كابن السبكي وابن الجزرى والنويرى ، بل هو رأى أبى شامة فى نقل آخر صححه الناقلون عنه ، وجوزوا أن يكون رأى الآنف مدسوساً عليه ، أو قاله أول أمره ثم رجع عنه بعد . ولعل من الصواب والحكمة أن أترك الكلام هنا للمحقق ابن الجزرى ، يصول فيه ويجول ، ويسهب ويطرب ، واضعاً للحق فى نصابه ، دافعاً للخطأ وشبهاته . فاقراء واصبر على الإكثار والتطويل ، فإن المقام دقيق وجليل ، « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

قال - رحمه الله - فى كتابه منجد المقرئين ، ابتداء من الصفحة السابعة والخمسين ما نصه :

(الفصل الثانى فى أن القراءات العشر متواترة فرشاً وأصولاً ، حال اجتماعهم وافتراقهم ، وحلّ مشكل ذلك) اعلم أن العلماء بالغوا فى ذلك نفيّاً وإثباتاً ، وأنا أذكر أقوال كلٍّ ثم أبين الحق من ذلك . أما من قال بتواتر الفرش ^(١) دون الأصول فابن الحاجب . قال فى مختصر الأصول له : « القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء ، كالمدة والإمالة وتخفيف الممزة ونحوه » اهـ . فزعم أن اللد والإمالة وما أشبه ذلك من الأصول كالإدغام وترقيق الراءات وتفخيم اللامات ونقل الحركة وتسهيل الممزة ، من قبيل الأداء وأنه غير متواتر . وهذا قول غير صحيح كما سنبينه .

(١) يراد بالفرش الجزئيات التى يقع الخلاف فى قراءتها ولا يقاس عليها . كقراءة « يَخْدَعُونَ » فى سورة البقرة لا يقاس عليها ما جاء فى سورة النساء من كلمة « يَخَادِعُونَ » الله « مع أن الخلاف وقع فى قراءة الأولى . ويراد بالأصول الكلّيات التى تندرج تحتها جميع الجزئيات المتماثلة ، كقواعد اللد والهمز والإمالة .

أما المدُّ فأطلقه وتحتّمه ما يسكب المعبرات ، فإنه إما أن يكون طبيعياً أو عرضياً .
والطبيعي هو الذي لا تقوم ذات حروف المد بدونه ، كالآلف من قال ، والواو من يقول ،
والياء من قيل . وهذا لا يقول مسلم بعدم تواتره ، إذ لا تمكن القراءة بدونه . والمدُّ
العرضيُّ هو الذي يعرض زيادة على الطبيعي لموجب إما سكون أو همز . فأما السكون فقد
يكون لازماً كما في فوائح السور ، وقد يكون مشدداً نحو « آلم ، ق ، ن ، ولا الضالين »
ونحوه ، فهذا يلحق بالطبيعي لا يجوز فيه القصر ؛ لأن المدَّ قام مقام حرف توصلاً للنطق
بالساكن . وقد أجمع المحققون من الناس على مدّه قدرأ سواء . وأما الهمز فعلى قسمين :
(الأول) إما أن يكون حرف المد في كلمة والهمز في أخرى وهذا تسميه القراء منفصلاً ،
واختلفوا في مدّه وقصره ، وأكثرهم على المد . فادعاه عدم تواتر المد فيه ترجيح بلا مرجح ،
ولو قال العكس لكان أظهر لشبهته ، لأن أكثر القراء على اللد . (الثاني)
أن يكون حرف المد والهمز في كلمة واحدة ، وهو الذي يسمى متصلاً . وقد أجمع القراء
سلفاً وخلفاً من كبير وصغير وشريف وحقير ، على مدّه ، لا خلاف بينهم في ذلك
إلا ما روى عن بعض من لا يمول عليه بطريق شاذة فلا تجوز القراءة به . حتى إن إمام
الرواية أبا القاسم الهذلي - الذي دخل المشرق والمغرب وأخذ القراءة عن ثلاثمائة وخمسة
وستين شيخاً ، وقال : رحلت من آخر المغرب إلى فرغانة يميناً وشمالاً ، وجبلًا وبحراً ،
وألف كتابه الكامل الذي جمع فيه بين الذرّة وأذن الجرة ، من صحيح وشاذ ومشهور
ومنكر - قال في باب المدّ في فصل المتصل : « لم يختلف في هذا الفصل أنه ممدود على
وتيرة واحدة ، فالقراء فيه على نمط واحد ، وقدّروه بثلاث ألفات - إلى أن قال - وذكر
العراقي أن الاختلاف في مد كلمة واحدة كالاختلاف في مد كلمتين ، ولم أسمع هذا الفير .
وطالما مارست الكتب والعلماء فلم أجِد من يجعل مدّ الكلمة الواحدة كمدّ الكلمتين
إلا العراقي » . قلت : والعراقي هو منصور بن أحمد المقرئ كان بخراسان . ولقد أخطأ

في ذلك ، وشيوخه الذين قرأ عليهم نعرفهم : الإمام أبو بكر بن مهران ، وأبو الفرج الشنبوذي ، وإبراهيم بن أحمد الروزي ، ولم يرو عنهم شيء من ذلك في طريق من الطرق . فإذا كان ذلك يحسر ابن الحاجب أو من هو أكبر منه على أن يقدم على ما أجمع عليه فيقول : هو غير متواتر ، فهذه أقسام المد العرضي أيضاً متواترة : لا يشك في ذلك إلا جاهل . وكيف يكون المد غير متواتر وقد أجمع عليه الناس خلفاً عن سلف ؟

فإن قيل : قد وجدنا القراء في بعض الكتب كالتيسير للعافظ الداني وغيره ، جعل لهم فيما مَدَّ للهمز مراتب في المد إشباعاً وتوسطاً وفوقه ودونه ، وهذا لا ينضبط ؛ إذ للمد لا حد له . وما لا ينضبط كيف يكون متواتراً ؟ قلت : نحن لا ندعي أن مراتبه متواترة ، وإن كان قد ادَّعاه طائفة من القراء والأصوليين . بل نقول : إن المد العرضي من حيث هو متواتر مقطوع به قرأه النبي ﷺ ، وأنزل الله تعالى عليه ، وأنه ليس من قبيل الأداء ، فلا أقل من أن نقول : القدر المشترك متواتر . وأما ما زاد على القدر المشترك كما صم وحمة وورش ، فهو إن لم يكن متواتراً فصحيح مستفاض ^(١) متلقى بالقبول . ومن ادعى تواتر الزائد على القدر المشترك فليبين .

وأما الإمامة على نوعيها ، فهي وضدها لفتان فاشيتان من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، مكتوبتان في المصاحف ، متواترتان ، وهل يقول أحد في لغة أجمع الصحابة والمسلمون على كتابتها في المصاحف إنها من قبيل الأداء ؟ وقد نقل الحافظ الحجة أبو عمرو الداني في كتابه إيجاز البيان الإجماع على أن الإمامة لغة لقبائل العرب ، دعاهم إلى الذهاب إليها التماس الخفة . وقال الإمام أبو القاسم الهذلي في كتاب السكامل : إن الإمامة والتفخيم لفتان ليست إحداها أقدم من الأخرى : بل نزل القرآن بهما جميعاً . إلى أن قال - والجملة

(١) كذا بالأصل . ولعل صوابه « مستفيض » .

بعد التطويل أن من قال: إن الله تعالى لم ينزل القرآن بالإمالة خطأ وأعظم الفرية على الله تعالى، وظن بالصعابة خلاف ما هم عليه من الورع والتقى.

قلت: كأنه يشير إلى كونهم كتبوا بالإمالة في المصاحف نحو «يحيى، وموسى، وهدى، ويسعى، والهدى، وبغشها، وجلبها، وآسى، وآتيناكم» وما أشبه ذلك مما كتبوه بالياء على لغة الإمالة، وكتبوا مواضع تشبه هذا بالألف على لغة الفتح، منها قوله عز وجل في سورة إبراهيم: «وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» حتى إنهم كتبوا «تَعْرِفُهُمْ بِسَمِيِّهِمْ» في البقرة بالياء، وكتبوا «سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ» بالألف وأي دليل أعظم من ذلك؟

قال الهذلي: وقد أجمعت الأمة من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا على الأخذ والقراءة والإقراء بالإمالة والتفخيم. وذكر أشياء، ثم قال: وما أحد من القراء إلا رويت عنه إمالة قلت أو كثرت - إلى أن قال - وهي (بمعنى الإمالة) لغة هوازن، وبكر بن وائل، وسعد بن بكر.

وأما تخفيف الهمزة ونحوه من النقل والإدغام وترقيق الراءات وتفخيم اللامات فتواتر قطعاً، معلوم أنه منزل من الأحرف السبعة، ومن لغات العرب الذين لا يحسنون غيره، وكيف يكون غير متواتر أو من قبيل الأداء؟ وقد أجمع القراء في مواضع على الإدغام في مثل «مُدِّكِرٍ، أَثْقَلَتْ»^(١) دَعَوْا اللَّهَ رَبَّهُمَا، مَالِكٌ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ» وكذلك أجمع القراء في مواضع على تخفيف الهمز نحو «الآن، الله، أذكركين» في الاستفهام، وفي مواضع على النقل نحو «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي»، و«يرى، ونرى». وعلى ترقيق الراءات في مواضع نحو «فِرْعَوْنَ، وَمِرْيَةَ» وعلى تفخيم اللامات في مواضع نحو اسم الجلالة بعد الضمة والفتحة.

(١) لعله يريد إدغام التاء في الدال.

وأجمع الصحابة - رضوان الله عليهم - على كتابة الهمزة الثانية من قوله تعالى في آل عمران : « أَوْ نَبِّئُكُمْ » بواو . قال أبو عمرو الداني وغيره : إنما كتبوا ذلك على إرادة تسهيل الهمزة بين بين ا هـ . وكيف يكون ما أجمع عليه القراء إنما عن أمم غير متواتر . وإذا كان اللدّ وتخفيف الهمز والإدغام غير متواتر على الإطلاق ، فما الذي يكون متواتراً ؟ أقصر « الم ، ودابة ، وأولئك » الذي لم يقرأ به أحد من الناس ؟ أم تخفيف همزة « آذِ كَرِيْنِ ، آلهُ » الذي أجمع الناس على أنه لا يجوز وأنه لحن ؟ أم إظهار « مُدَكِّرِ » الذي أجمع الصحابة والمسلمون على كتابته وتلاوته بالإدغام ؟ فليت شعري من الذي تقدمه قبل بهذا القول ، فقفي أثره ، والظاهر أنه لما سمع قول الناس : إن التواتر فيما ليس من قبيل الأداء ، ظن أن اللد والإمالة وتخفيف الهمز ونحوه من قبيل الأداء ، فقال غير مفكر فيه . وإلا فالشيخ أبو عمرو لو فكر فيه ، لما أقدم عليه ، أو لو وقف على كلام إمام الأصوليين من غير مدافعة القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني في كتاب الانتصار ، حيث قال : « جميع ما قرأ به قراء الأمصار مما اشتهر عنهم استفاض نقله . ولم يدخله في حكم الشذوذ ، بل رآه سائفاً جائزاً من همز وإدغام ومدّ وتشديد وحذف وإمالة ، أو ترك ذلك كله أو شيء منه ، أو تقديم أو تأخير ، فإنه كله منزل من عند الله تعالى ، ومما وقف الصحابة على صحته ، وخير بينه وبين غيره ، وصوب للجميع القراءة به قال : ولو سوغنا لبعض القراء إمالة ما لم يُمِلَّهُ الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة أو غير ذلك ، لسوغنا لهم جميع قراءة الرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أطال - رحمه الله - الكلام على تقدير ذلك ، وجوز أن يكون النبي ﷺ أقرأ واحداً بعض القرآن بحرف . وبعضه بحرف آخر ، على ما قد يراه أيسر على القارى » ا هـ .

قلت : وظهر من هذا أن اختلاف القراء في الشيء الواحد مع اختلاف المواضع قد أخذه الصحابي كذلك من رسول الله ﷺ ، وأقرأه كذلك ، إلى أن اتصل بالقراء . نحو قراءة حفص « تَجَرَّيْهَا » بالإمالة فقط ، ولم يُمِلْ في القرآن غيره ، وقراءة ابن عامر

« إِبْرَاهِيمَ » في مواضع محصورة ، وقراءة أبي جعفر « يُحْزِن » في الأنبياء فقط بضم الياء وكسر الزاي ، وفي باقي القرآن بفتح الياء وضم الزاي ، وقراءة نافع عكسه في جميع القرآن بضم الياء وكسر الزاي إلا في الأنبياء فإنه فتح الياء وضم الزاي ، وشبه ذلك مما يقول القراء عنه : جمع بين اللفتين .

وليت الإمام ابن الحاجب أخلى كتابه من ذكر القراءات وتواترها ، كما أخلى غيره كتبهم منها . وإذ قد ذكرها فليته لم يتعرض إلى ما كان من قبيل الأداء . وإذ قد تعرض فليته سكت عن التمثيل ، فإنه إذا ثبت أن شيئاً من القراءات من قبيل الأداء لم يكن متواتراً عن النبي ﷺ ، كتقسيم وقف حمزة وهشام وأنواع تسهيله ، فإنه وإن تواتر تخفيف الهمز في الوقف عن رسول الله ﷺ فلم يتواتر أنه وقف على موضع بخمسين وجهاً ولا بعشرين ولا بنحو ذلك . وإنما إن صحَّ شيء منها فوجهٌ ، والباقي لاشك أنه من قبيل الأداء ^(١) .

ولما قال ابن السبكي في كتابه جمع الجوامع : « والسبع متواترة ، قيل : فيما ليس من قبيل الأداء كالمدة والإمالة وتخفيف الهمز ونحوه » وسُئِلَ عن زيادته على ابن الحاجب « قيل » المقتضية لاختياره أن ما هو من قبيل الأداء كالمدة والإمالة إلى آخره متواترٌ فأجاب - رحمه الله - في كتابه منع الموانع : اعلم أن السبع متواترة ، والمدة متواترة ، والإمالة متواترة ، كل هذا بين لا شك فيه . وقول ابن الحاجب : « فيما ليس من قبيل الأداء » صحيح لو تجرّد عن قوله : كالمدة والإمالة . لكن تمثيله بهما أوجب فساداً كما سنوضحه من بعد ، فلذلك قلنا : « قيل » ليتبين أن القول بأن المدة والإمالة والتخفيف غير متواترة

(١) لعلك فهمت أن مرادهم بكلمة « من قبيل الأداء » ما يتصل بتقدير الأصول المتواترة . مثلاً المدة للهمز أصل جاء متواتراً . أما تقديره بأربع حركات أو ست فليس بمتواتر ، لأنه لا يسهل ضبطه . وقيل فيه بالتواتر أيضاً .

ضعيف عندنا ، بل هي متواترة . ثم أخذ يذكر المد والإمالة والتخفيف - إلى أن قال -
فإذا عرفت ذلك فكلما قاض بتواتر السبع . ومن السبع مطلق المد والإمالة وتخفيف
الهمز بلا شك .

أما من قال : إن القراءات متواترة حال اجتماع القراء لا حال افتراقهم ، فأبو شامة
قال في المرشد الوجيز في الباب الخامس منه : « فإن القراءات المنسوبة إلى كل قارئ من
السبعة وغيرهم منقسمة إلى الجمع عليه والشاذ ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة
الصحيح في قراءتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما نقل عن غيرهم . فما نُسب
إليهم وفيه إنكار أهل اللغة وغيرهم ، الجمع بين الساكنين في تاءات البزجي ، وإدغام
أبي عمرو ، وقراءة حمزة « فما استطاعوا » وتسكين من أسكن « بارئكم » ونحوه
« وسبأ ، ويابني ، ومكر السيء » وإشباع الياء في « يرتقي ، ويتقي ، ويبصر ^(١)
وأفئدة من الناس » وقراءة « ملائكة » بفتح الهمزة ، وهمز « ساقها ^(٢) » وخفض
« والأرحام » في أول النساء ، ونصب « كن فيكون » والفصل بين المتضايقين في الأنعام ،
وغير ذلك ، إلى أن قال : فكل ذلك محمول على قلة ضبط الرواة فيه ، ثم قال :
وإن صحَّ النقل فيه فهو من بقايا الأحرف السبعة التي كانت القراءة للباحة عليه على
ما هو جائز في العربية ، فصيحاً كان أو دون ذلك . وأما بعد كتابة المصاحف على
اللفظ المنزل ، فلا ينبغي قراءة ذلك اللفظ إلا على اللغة الفصحى من لغة قریش وما نسبها ،
حملاً لقراءة النبي صلى الله عليه وسلم والسادة من أصحابه على ما هو اللائق ، فإنهم
إنما كتبوه على لغة قریش ، فكذا قراءتهم به . قال : وقد شاع على ألسنة جماعة من
المقرئين المتأخرين وغيرهم من التقليدين : أن القراءات السبع كلها متواترة ؛ أي في
(١) كذا بالأصل فتأمله .

(٢) لعل الصواب « سوقيه » من قوله سبحانه : « فاستَوَى عَلَى سَوْدِهِ » فتدبر .

كل فرد فرد ممن روى عن هؤلاء الأئمة السبعة . قالوا : والقطع بأنها منزلة من عند الله تعالى واجب . قال : ونحن بهذا نقول ، لكن فيما اجتمعت على نقله عنهم الطرق ، واتفقت عليه الفرق من غير تكبير له ، مع أنه شاع واشتهر واستفاض ، فلا أقل من اشتراط ذلك إذا لم يفتق التواتر في بعضها .

فانظر يا أخى إلى هذا الكلام الساقط ، الذى خرج من غير تأمل ، المتناقض ، فى غير موضع فى هذه الكلمات اليسيرة ! أو قفت عليه شيخنا الإمام ولى الله تعالى أبامحمد ابن محمد بن محمد الجالى رضى الله عنه ، فقال : ينبغى أن يُعدم هذا الكتاب من الوجود ولا يظهر ألبتة ، وإنه طعن فى الدين . قلت : ونحن - يشهد الله - أننا لا نقصد إسقاط الإمام أبى شامة ، إذ الجواد قد يعثر ، ولا يحجل قدره . بل الحق أحق أن يُتبع . ولكن نقصد التنبيه على هذه الزلة المزلّة ، ليحذر منها من لا معرفة له بأقوال الناس ولا اطلاع له على أحوال الأئمة .

أما قوله : « فما نسب إليهم وفيه إنكار أهل اللغة الخ » فغير لائق بمثله أن يجعل ما ذكره منكراً عند أهل اللغة . وعلماء اللغة والإعراب الذين عليهم الاعتماد سلفاً وخلفاً ، يوجّهونها ويستدلون بها . وأنى يسمهم إنكار قراءة تواترت أو استفاضت عن رسول الله ﷺ إلا نؤيس لا اعتبار بهم لا معرفة لهم بالقراءات ولا بالآثار ، جدوا على ما علموا من القياسات ، وظنوا أنهم أحاطوا بجميع لغات العرب أفصحها وفصيحتها ، حتى لو قيل لأحدهم شئ من القرآن على غير النحو الذى أنزل الله يوافق قياساً ظاهراً عنده ولم يقرأ بذلك أحد ، لقطع له بالصحة . كما أنه لو سئل عن قراءة متواترة لا يعرف لها قياساً لأنكرها ولقطع بشذوذها ، حتى إن بعضهم قطع فى قوله عز وجل : « مَالِكٌ لَا تَآمَنَّا » بأن الإدغام الذى أجمع عليه الصحابة رضى الله عنهم والمسلمون لحن وأنه لا يجوز عند العرب ، لأن الفعل الذى هو تآمن مرفوع ، فلا وجه لسكونه حتى يدغم فى النون التى تليه ! .

فانظر يا أخى - إلى قلة حياء هؤلاء من الله تعالى . يجعلون ماعرفوه من القياس أصلاً والقرآن والعظيم فرعاً ! حاشا العلماء المتقدي بهم من أئمة اللغة والإعراب من ذلك . بل يحيثون إلى كل حرف مما تقدم ونحوه ، يبالغون في توجيهه والإنكار على من أنكره . حتى إن إمام اللغة والنحو أبا عبد الله محمد بن مالك قال في منظومته السكافية الشافية في الفصل بين المتضايقين :

« وَعُمِدَتِي قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ فَكَمْ لَهَا مِنْ عَاضِدٍ وَنَاصِرٍ »

ولو لا خوف الطول وخروج الكتاب عن مقصوده ، لأوردت مازعم أن أهل اللغة أنكروه ، وذكرت أقوالهم فيها ، ولكن إن مد الله في الأجل ، لأضعن كتاباً مستقلاً في ذلك ، يشفى القلب وبشرح الصدر ، أذكر فيه جميع ما أنكره من لا معرفة له بقراءة السبعة والعشرة .

والله در الإمام أبي نصر الشيرازي حيث حكى في تفسيره عند قوله تعالى « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » كلام الزجاجي في تضعيف قراءة الخفض . ثم قال : ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين ، لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن رد ذلك فقد رد على النبي ﷺ واستفتح ما قرأ به . وهذا مقام محذور لا يقلد فيه أئمة اللغة والنحو . ولعلمهم أرادوا أنه صحيح فصيح وإن كان غيره أفصح منه ، فإننا لاندعى أن كل ما في القراءات على أرفع الدرجات من الفصاحة .

وقال الإمام الحافظ أبو عمرو الداني في كتابه جامع البيان ، عند ذكر إسكان « بَارِئُكُمْ وَيَأْمُرُكُمْ » لأبي عمرو بن العلاء : « وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية . بل على الأثبت في الأثر والأصح في

النقل . والرواية إذا ثبتت عندهم لم يردّها قياس عربية ولا فسوّ لغة ، لأن القراءة سنّة متّبعة ، فلزم قبولها والمصير إليها .

قلت : ثم لم يكف الإمام أبا شامة حتى قال : « فكل ذلك (يعنى ماتقدم) محمول على قلة ضبط الرواة » لا والله . بل كله محمول على كثرة الجهل ممن لا يعرف لها أوجهاً وشواهد صحيحة تخرج عليها ، كما سنبيّنه إن شاء الله تعالى في الكتاب الذي وعدنا به آنفاً ، إذ هي ثابتة مستفاضة ؛ ورواتها أئمة ثقات . وإن كان ذلك محمولاً على قلة ضبطهم ، فليت شعري أكان الدين قد هان على أهله ؟ حتى يحىء شخص في ذلك الصدر يدخل في القراءة بقلة ضبطه ما ليس منها ، فيسمع منه ويؤخذ عنه ، ويقرأ به في الصلاة وغيرها ، ويدكره الأئمة في كتبهم ، ويقرءون به ويستفاض ، ولم يزل كذلك إلى زماننا هذا لا يمنع أحد من أئمة الدين القراءة به ، مع أن الإجماع منعقد على أن من زاد حركة أو حرفاً في القرآن أو نقص من تلقاء نفسه مُهرّجاً على ذلك يكفر ؛ والله جلّ وعلا تولّى حفظه : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » .

وأعظم من ذلك تنزله ؛ إذ قال : « وعلى تقدير صحتها وأنها من الأحرف السبعة ، لا ينبغي قراءتها ، ، حملاً لقراء النبي ﷺ وأصحابه على ما هو اللاحق بهم » . فإذا كان النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم لم يقرءوا بها مع تقدير صحتها وأنها من الأحرف السبعة ، فمن أوصلها إلى هؤلاء الذين قرءوا بها .

ثم يقول : « فلا أقل من اشتراط ذلك » يعنى اشتراط الشهرة والاستفاضة . قلت : ألا تنظرون إلى هذا القول ؟ ثم أحد في الدنيا يقول : إن قراءة ابن عامر وحزمة وأبي عمرو ومن اجتمع عليه أهل الحرمين والشام أبي جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر ، وقراءة

البرزى وقنبل وهشام ، إن تلك غير مشهورة ولا مستفاضة وإن لم تكن متواترة ١٩
هذا كلام مَنْ لم يدر ما يقول ، حاشا الإمام أباشامة منه . وأنا من قرط اعتقادى فيه
أكاد أجزم بأنه ليس من كلامه فى شيء . ربما يكون بعض الجملة المتعصين الحق بكتابه ،
أو أنه ألف هذا الكتاب أول أمره ، كما يقع لكثير من المصنفين . وإلا فهو فى غيره من
مصنفاته كشرحه على الشاطبية ، بالغ فى الانتصار والتوجيه لقراءة حمزة « والأرحام »
بالخفص ، والفصل بين المتضايقين . ثم قال فى الفصل : ولا التفات إلى قول من زعم أنه
لم يأت فى الكلام مثله ، لأنه ناف ، ومن أسند هذه القراءة مثبت والإثبات مرجح
على النفى بالإجماع . قال : ولو نقل إلى هذا الزاعم عن العرب أنه استعمله فى النثر
لرجع عن قوله . فما باله ما يكتفى بناقلى القراءة من التابعين عن الصحابة رضى الله عنهم
ثم أخذ فى تقرير ذلك . قلت : هذا الكلام مبين لما تقدم ، وليس منه فى شيء . وهو
الأليق بمنه ، رحمه الله .

ثم قال أبو شامة فى المرشد بعد ذلك القول : « فالحاصل أنا لسنا ممن يلتزم التواتر
فى جميع الألفاظ المختلف فيها » . قلت : ونحن كذلك ؛ لكن فى القليل منها ، كما تقدم
فى الباب الثانى (١) .

قال : « وغاية ما يبيده مدعى تواتر المشهور منها ، كما دغام أبى عمرو ، ونقل الحركة
لورش ، وصلة ميم الجمع وها الكناية لابن كثير ، أنه متواتر عن ذلك الإمام الذى نُسبت
تلك القراءة إليه بعد أن يجهد نفسه فى استواء الطرفين والواسطة ، إلا أنه بقى عليه التواتر

(١) يشير بذلك إلى مثل قراءة هشام « أفئدة » بياء بعد الميم . فإنه اعتبره صحيحاً
مقطوعاً به وإن لم يتواتر ، لأن استفاضته وموافقته الرسم والعربية قرائن مثلها يفيد العلم
فى غير المتواتر . انظر المنجد ص ١٩ .

من ذلك الإمام إلى النبي ﷺ في كل فرد فرد من ذلك . ومن ثمّ تسكب العبرات ، فإنها من ثمّ لم ينقلها إلا آحاداً إلا اليسير منها .

قلت : هذا من جنس ذلك الكلام المتقدم . أوقفت عليه شيخنا الإمام واحد زمانه شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب بيبرو الشافعي ، فقال لي : معذور أبو شامة ، حيث إن القراءات كالحديث ، مخرجها كمخرجه ، إذا كان مدارها على واحد كانت آحادية ؛ وخفي عليه أنها نسبت إلى ذلك الإمام اصطلاحاً ؛ وإلا فكل أهل بلدة كانوا يقرءونها أخذوها أمّا عن أم . ولو انفرد واحد بقراءة دون أهل بلده لم يوافقه على ذلك أحد ، بل كانوا يجنبونها ويأمرون باجتنابها .

قلت : صدق . وما يدل على هذا ما قال ابن مجاهد : قال لي قنبل : قال القواس في سنة سبع وثلاثين ومائتين : اتى هذا الرجل (يعنى البزى) فقل له : هذا الحرف ليس من قراءتنا . يعنى « وما هو بميت » مخففاً . وإنما يخفف من الميت من قد مات ، ومن لم يميت فهو مشدد . فلقيت البزى فأخبرته ، فقال له : قد رجعت عنه ... وقال محمد بن صالح : سمعت رجلاً يقول لأبي عمرو : كيف تقرأ « لا يعذب عذابه أحد » . ولا يوثق وثاقه أحد ؟ فقال : « لا يعذب » بالكسر . فقال له الرجل : كيف ؟ وقد جاء عن النبي ﷺ « لا يعذب » بالفتح . فقال له أبو عمرو : لو سميت الرجل الذى قال : سميت النبي ﷺ ما أخذته عنه . أو تدري ماذا ؟ لأنى أتهم الواحد الشاذ إذا كان على خلاف ما جاءت به العامة . قال الشيخ أبو الحسن السخاوى : وقراءة الفتح أيضاً ثابتة بالتواتر . قلت : صدق ؛ لأنها قراءة الكسائى . قال السخاوى : وقد تواتر الخبر عند قوم دون قوم . وإنما أنكرها أبو عمرو ؛ لأنها لم تبلغه على وجه التواتر .

قلت : وهذا كان من شأنهم على أن تعين هؤلاء القراء ليس بلازم ، ولو عين غير

هؤلاء لجاز . وتعيينهم إما لكونهم تصدوا للإقراء أكثر من غيرهم ، أو لأنهم شيوخ
المعين كما تقدم . ومن ثم كره من كره من السلف أن تنسب القراءة إلى أحد . روى
ابن أبي داود عن إبراهيم النخعي قال : كانوا يَكُوهُونَ سند فلان وقراءة فلان . قلت :
وذلك خوفاً مما توهمه أبوشامة من القراءة إذا نسبت إلى شخص تكون آحادية . ولم يدر
أن كل قراءة نسبت إلى قارى من هؤلاء كان قراؤها زمن قارئها وقبله أكثر من قرائها
في هذا الزمن وأضعافهم . ولو لم يكن انفراد القراء متواترا لكان بعض القرآن غير متواتر
لأننا نجد في القرآن أحرفاً تختلف القراء فيها ، وكل منهم على قراءة لا توافق الآخر ،
كأرجه وغيرها ، فلا يكون شيء منها متواترا . وأيضاً قراءة من قرأ «مالك ويخادعون»
فكثير من القرآن غير متواتر ، لأن التواتر لا يثبت باثنين ولا بثلاثة .

قال الإمام الجعفي في رسالته : وكل وجه من وجوه قراءته كذلك (يعني متواتراً)
لأنها أبعاضه . ثم قال : فظهر من هذا فساد قول من قال : هو متواتر دونها ، إذ هو عبارة
عن مجموعها .

ثم قال ابن الجزري : وما يحقق لك أن قراءة أهل كل بلد متواترة بالنسبة إليهم
أن الإمام الشافعي رضي الله عنه جعل البسملة من القرآن مع أن روايته عن شيخه مالك
تقتضي عدم كونها من القرآن ، لأنه من أهل مكة وهم يثبتون البسملة بين السورتين
ويعدونها من أول الفاتحة آية ، وهو قرأ قراءة ابن كثير على إسماعيل القسطنطيني
ابن كثير ، فلم يعتمد في روايته عن مالك في عدم البسملة ، لأنها آحاد ، واعتمد على
قراءة ابن كثير لأنها متواترة ، وهذا لطيف فتأمل ، فإنني كنت أجد في كتب أصحابنا
يقولون : إن الشافعي رضي الله عنه روى حديث عدم البسملة عن مالك ولم يعول عليه ،
فدل على أنه ظهرت له فيه علة ، وإلا لما ترك العمل به . قلت : ولم أر أحداً من أصحابنا

بين العلة ، فبيننا أنا ليلة مفكر ، إذ فتح الله تعالى بما تقدّم - والله تعالى أعلم - أنها هي العلة . مع أنى قرأت القرآن برواية إمامنا الشافعى عن ابن كثير كالبرزى وقنبل . ولما علم بذلك بعض أصحابنا من كبار الأئمة الشافعية قال لى : أريد أن أقرأ عليك القرآن بها .

ومما يزيدك تحقيقاً ما قاله أبو حاتم السجستاني ، قال : أول من تنبع بالبصرة وجوه القراءات وألفها وتنبّع الشاذ منها هارون بن موسى الأعمور . قال : وكان من القراء . فكره الناس ذلك ، وقالوا : قد أساء حين ألفها . وذلك أن القراءة إنما يأخذها قرون وأمة عن أفواه أمة ، ولا يلتفت منها إلى ما جاء من راوٍ راوٍ . قلت : يعنى أحاداً أحاداً .

وقال الحافظ العلامة أبو سعيد خليل كيكلى العلأى فى كتابه المجموع المذهب : وللشيخ شهاب الدين أبى شامة فى كتابه المرشد الوجيز وغيره كلام فى الفرق بين القراءات السبع ^(١) والشاذة منها . و ^(٢) كلام غيره من متقدمى القراء ما يؤهم أن القراءات السبع ليست متواترة كلها ، وأن أعلاها ما اجتمع فيه صحة السند وموافقة خط المصحف الإمام والفصيح من لغة العرب ، وأنه يكفى فيها الاستفاضة ، وليس الأمر كما ذكر هؤلاء . والشبهة دخلت عليهم مع انحصار أسانيدنا فى رجال معروفين ، وظنوها كاجتهاد الآحاد ^(٣) .

(١) كذا بالأصل . ولعله قد سقطت هنا كلمة « المتواتر » ، ولعل كلمة « والشاذة » أصلها « والشاذ » بدون تاء مربوطة . فتدبر .

(٢) كذا بالأصل . ولعله قد سقطت هنا كلمة « فى » ويكون الصواب : « وفى كلام غيره » فتأمل .

(٣) لعل أصله : « فظنوها كأخبار الآحاد » .

قلت : « وقد سألت شيخنا إمام الأئمة أبا المعالي رحمه الله تعالى عن هذا الموضع فقال : انحصار الأسانيد في طائفة ، لا يمنع مجيء القرآن عن غيرهم . فلقد كان يتلقاه أهل كل بلد ، يقرؤه منهم الجهم الفقير عن مثلهم ، وكذلك دائماً . والتواتر حاصل لهم . ولكن الأئمة الذين تصدوا لضبط الحروف وحفظوا شيوخهم منها وجاء السند من جهتهم ^(١) . وهذه الأخبار الواردة في حجة الوداع ونحوها أجلى ^(٢) ، ولم تزل حجة الوداع منقولة ، فن ^(٣) يحصل بهم التواتر عن مثلهم في كل عصر ، فهذه كذلك . وقال : هذا موضع ينبغي التنبيه له . انتهى والله أعلم . »

ذلك ما قاله العلامة ابن الجزري في هذا المقام من كتابه المنجد ، ولعله فصل الخطاب في هذا الموضوع ، ولذلك آثرنا أن ننقله إليك محاولين حسن عرضه وضبطه والتعليق عليه مختصراً بقدر الإمكان . ولقد كنت أود أن تكون النسخة التي نقلت منها أكثر تحريراً مما رأيت ، ولكن ما الحيلة ؟ وهي أول طبعة عن نسخة مخطوطة برواق المغاربة من الأزهر الشريف ، ومن شأن البدايات أن يكون فيها نقص ، ثم تصير إلى الكمال في النهاية إن شاء الله .

(١) (٢) لعل في هذين الموضعين سقطاً .

(٣) صواب هذه الفاء أن تكون عينا أو ميماً أو باءاً .

ب - القراء

القراء جمع قارىء وهو فى اللغة اسم فاعل من قرأ . ويطلق فى الاصطلاح على إمام من الأئمة المعروفين الذين تنسب إليهم القراءات السابقة . وقد سردنا عليك أسماءهم . ونتحلفك هنا بنبذة قصيرة عن كل واحد من مشهورهم وعن بعض من اشتهر بالرواية عنه ، لتطلع على لمحة من فضلهم ، ولتتصل انصالاً علمياً بهذه الفئة الكريمة التى لها هذا الأثر الرائع فى المحافظة على أداء القرآن الكريم بتلك الطرق المدوَّنة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى مدى تلك القرون الطويلة .

ونحن لا نريد بهذه الكلمات استقصاء تاريخهم ولا الأدوار التى مرّت قراءاتهم . فذلك شوط واسع . أفردته بالتأليف جماعة ، منهم الذهبي وابن الجوزى فى طبقات القراء^(١) .

القراء السبعة رحمهم الله :

١ - ابن عامر

اسمه عبد الله اليحصبي ، نسبة إلى يحصب ، وهو فخذ من حمير ويكنى أبا نعيم ، وأبا عمران . وهو تابعى جليل ، لقى واثقه بن الأسقع والنعمان بن بشير ، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب الحزمى ، عن عثمان بن عفان ، عن رسول الله ﷺ وقيل إنه

(١) طبقات القراء لابن الجزرى عوّلت عليها فى تراجم القراء خصوصاً عند الاختلاف بين المراجع ، لأنه هو المعروف بالحق . وبهذه المناسبة أريد أن تقضى العجب أو الأسف معى على أن الذى عني بطبع هذا الكتاب ونشره هو المستشرق الألمانى (ج . برجستراسر) كما سمعت أنه طبع كتاباً بمصر أيضاً فى القراءات لابن خالويه ، ثم نقله إلى بلاده ، ومصر كلها محرومة منه !! .

قرأ على عثمان نفسه، وقد توفي بدمشق سنة ١١٨ ثمانى عشرة ومائة، وقد اشتهر برواية قراءته هشام وابن ذكوان، ولكن بواسطة أصحابه.

(فأما هشام) فقد أخذ القراءة عن عراك بن خالد المزى، عن يحيى بن الحارث الذمارى، عن ابن عامر. وكان هشام قاضياً فقيهاً محدثاً ثقةً ضابطاً، توفي بدمشق سنة ٢٤٥ خمس وأربعين ومائتين.

(وأما ابن ذكوان) فهو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشى، الدمشقى. أخذ القراءة عن أيوب بن تميم، عن يحيى بن الحارث الذمارى، عن ابن عامر يقول أبو زرعة فيه: «إنه الحافظ الدمشقى، لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان في زمن ابن ذكوان عنده أقرأ منه»، توفي سنة ٢٤٢ اثنتين وأربعين ومائتين.

وفى ابن عامر وروايته يقول صاحب الشاطبية :-

«وأما دِمَشْقُ الشَّامِ دَارُ ابْنِ عامِرٍ فَتِلْكَ بَعِيدُ اللَّهِ طَابَتْ مُحَلَّلَا
هشامٌ، وعبدُ اللَّهِ، وهو انْقِسَابُهُ لِدِ ذِكْوَانَ بِالْإِسْنَادِ عَنْهُ تَفَقَّلَا»

٢ - ابن كثير

هو أبو محمد، أو أبو معبد، عبد الله بن كثير الدارى. كان إمام الناس فى القراءة بمكة، تحفه السكينة ويحوطه الوقار. لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصارى، وأنس بن مالك.

وروى عن مجاهد عن ابن عن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ. وقرأ على عبد الله بن السائب الخزومى. وقرأ عبد الله هذا على أبي بن كعب وعمر بن الخطاب. وكلاهما قرأ على رسول الله ﷺ. وتوفى سنة ١٢٠ عشرين ومائة بمكة المكرمة. وقد اشتهر بالرواية عنه - ولكن بواسطة أصحابه - البرزى وقنبل.

(أما البزّي) فهو أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبي بركة. قال بزي نسبة إلى بركة هذا وهو جدّه الأعلى. كان إماماً ضابطاً ثقة انتهت إليه مشيخة الإقراء بمكة روى عن عكرمة بن سليمان عن شبل بن عباد وإسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين عن ابن كثير. وكان إمام المسجد الحرام ومقرئه ومؤذنه توفي سنة ٢٥٠ خمسين ومائتين. (وأما قنبل) فهو محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن محمد الخزومي المكي يسكنى أبا عمر، ويلقب بقنبل لشدة^(١). كان إماماً في القراءة ضابطاً ثقة يؤمه الناس من أقطار الأرض. أخذ القراءة عن أبي الحسن أحمد القواس عن وهب، عن القسط، عن شبل ومعروف، وكلاهما قرأ على ابن كثير. توفي سنة ٢٩١ إحدى وتسعين ومائتين. وفي ابن كثير وراوييه يقول صاحب الشاطبية :

« ومكة عبدُ الله فيها مقامُهُ هو ابنُ كثيرٍ كثيرُ القومِ مُعتَلًا
روى أحمدُ البزّي له ومحمدٌ عَلَى سَنَدٍ وَهُوَ الملقَّبُ قُنْبَلًا »

٣ - عاصم

هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي (والنجود بفتح النون وضم الجيم مأخوذ من نجدت الثياب إذا سويت بعضها ببعض).

كان قارئاً متقناً، آية في التحرير والإتقان والفصاحة وحسن الصوت بقراءة القرآن قرأ على زر بن حبيش على عبد الله بن مسعود على رسول الله ﷺ. وقرأ أيضاً على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي، معلم الحسن والحسين.

وقرأ عبد الرحمن هذا على الإمام عليّ، وأخذ الإمام عليّ قراءته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. توفي بالكوفة أو بالسماوة سنة ١٢٧ سبع وعشرين ومائة.

روى عنه شعبة وحفص كلاهما بدون واسطة.

(١) قُنْبَلٌ كَقُنْفُذٍ : الغلامُ الحادُّ الرأسِ الخفيف الروح. ذلك أصل معناه، ثم

سمى به محمد بن عبد الرحمن القاري. انظر القاموس إن شئت.

(أما شعبة) فهو المشهور بابن عيَّاش بن سالم الأسدي وقيل اسمه محمد، وقيل مطرق، ويكنى أبا بكر لأن شعبة اسم مشترك بينه وبين أبي بسطاط شعبة بن الحجاج البصري. كان إماماً عالماً كبيراً. توفي بالكوفة سنة ١٩٣ ثلاث وتسعين ومائة.

(وأما حفص) فهو أبو عمر حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز كان ربيب عاصم: تربي في حجره، وقرأ عليه، وتعلم منه كما يتعلم الصبي من معلمه، فلا جرم كان أدقَّ إتياناً من شعبة. توفي سنة ١٨٠ ثمانين ومائة.

وفي عاصم وراويه يقول صاحب الشاطبية :

« وبالكوفة الفراء منهم ثلاثة أذاعوا فقد ضاعت شذى وقرّ نقلًا
فأما أبو بكر وعاصمُ اسمه فشُعْبَةُ رَاوِيهِ الْمُبَرِّزُ أَفْضَلًا
وذاك ابنُ عيَّاشٍ أبو بكرٍ الرضا وحَفْصٌ وبالإتيانِ كان مُفَضَّلًا

٤ — أبو عمرو

هو أبو عمرو زَبَّان بن العلا حمار البصري. كان من أعلم الناس بالقراءة مع صدق وأمانة وثقة في الدين. روى عن مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبيرة، عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ. وأقرأ على جماعة منهم أبو جعفر وزيد بن القفّاع والحسن البصري. وقرأ الحسن على حطان وأبي العالية. وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب. توفي سنة ١٥٤ أربع وخمسين ومائة.

وعمن اشتهر بالرواية عنه الدوري والسوسي، ولكن بواسطة اليزيدي أبي محمد يحيى بن المبارك المدوي المتوفى سنة ٢٠٢ اثنتين ومائتين. وسمى باليزيدي نسبة إلى يزيد ابن منصور خال الخليفة المهدي، لأنه كان يؤدب ولده.

(أما الدورى) فهو أبو عمر حفص بن عمر المقرئ الضريمر ، ولقب بالدورى نسبة إلى الدور ، وهو موضع بالجانب الشرقى من بغداد ، كان ثقة ضابطاً ؛ أول من جمع القراءات. روى عن اليزيدى عن أبي عمرو ، وتوفى سنة ٢٤٦ ست وأربعين ومائتين .
(وأما السوسى) فهو أبو شبيب صالح بن زياده روى عن اليزيدى عن أبي عمرو .
وكان ثقة ضابطاً . توفى سنة ٢٦١ إحدى وستين ومائتين .

وفى أبي عمرو وراوييه يقول صاحب الشاطبية :

« وَأَمَّا الْإِمَامُ الْمَازِنِيُّ صَرِيحُهُمْ أَبُو عَمْرٍو الْبَصْرِيُّ فَوَالِدُهُ الْعَلَا
أَفَاضَ عَلَى يَحْيَى الْيَزِيدِيِّ سَنِيْبُهُ فَأَصْبَحَ بِالْعَذْبِ الْفَرَاتِ مُعَلِّلاً
أَبُو عَمْرٍو الدُّورِيُّ وَصَالِحُهُمْ أَبُو شُعَيْبٍ هُوَ السُّوسِيُّ عَنْهُ تَقَبُّلاً »

٥ - حمزة

هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفى مولى عكرمة بن ربيع التيمى . قرأ على أبي محمد سليمان بن مهران الأعمش ، على يحيى بن وثاب ، على زر بن حبیش ، على عثمان وعلى وابن مسعود ، على النبى ﷺ . كان ورعاً بكتاب الله ، مجوداً له عارفاً بالفرائض والعربية ، حافظاً للحديث . توفى بجلوان سنة ١٥٦ ست وخمسين ومائة .

ومن اشهر بالرواية عنه خلف وخلاد ، لكن بواسطة أبي عيسى سليم بن عيسى الحنفى الكوفى المتوفى سنة ١٨٨ ، ثمان وثمانين ومائة .

(أما خلف) فهم أبو محمد خلف بن هشام بن طالب بن البزار . كان زاهداً عابداً . روى عن سليم بن عيسى الحنفى عن حمزة . وتوفى سنة ٢٢٩ تسع وعشرين ومائتين .
(وأما خلاد) فهو أبو عيسى خلاد بن خالد الأحول الصيرفى . روى عن سليم بن

عيسى عن حمزة. وكان أضبط أصحاب سليم وأجلهم عرفانا وتحقيقا. توفى بالكوفة سنة ٢٢٠ عشرين ومائتين .

وفي ذلك يقول صاحب الشاطبية :

« وَحَمَزَةُ مَا أَرْكَاهُ مِنْ مُتَوَرِّعٍ إِمَامًا ، صَبُورًا ، لِلْقُرْآنِ مُرَتَّلًا
رَوَى خَلْفَ عَنْهُ وَخَلَا ذَا الَّذِي رَوَاهُ سَلِيمٌ مُتَقِنًا وَمُحَصَّنًا »

٦ - نافع

هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم اللدني . أخذ القراءة عن أبي جعفر القاري وعن سبعة من التابعين ، وهم أخذوا عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة ، عن أبي بن كعب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالمدينة المنورة . توفى سنة ١٦٩ تسع وستين ومائة .

ومن اشتهر بالرواية عنه قالون وورش :

(أما قالون) فهو أبو موسى عيسى بن مينا النحوي . ولقب بقالون لجودة قراءته لأن قالون معناه الجيّد في أصل وضعها . قرأ على نافع واختصّ به كثيرا ، وقال : قرأت على نافع غير مرة ، وكتبت عنه . توفى سنة ٢٢٠ عشرين ومائتين .

(وأما ورش) فهو عثمان بن سعيد المصري ، يكنى أبا سعيد ، ويلقب بورش لشدة بياضه ^(١) . رحل إلى المدينة فقرأ على نافع ختمات سنة ١٥٥ خمس وخمسين ومائة ، ثم رجع إلى مصر فانتهت إليه رئاسة الإقراء بها ، وكان حسن الصوت جيد القراءة . توفى سنة ١٩٧ ستم وتسعين ومائة .

وفي ذلك يقول صاحب الشاطبية :

(١) الْوَرَشُ في أصل اللغة : يطلق على شيء يصنع من اللبن . فيصح أن يضرب به المثل في البياض . انظر القاموس .

« فَأَمَّا الْكَرِيمُ السَّرُّ فِي الطَّيِّبِ ^(١) نَافِعٌ فَذَلِكَ الَّذِي اخْتَارَ الْمَدِينَةَ مَنْزِلًا
وَقَالُوا عَيْسَى نَمَّ عَمَّا نَزَّهَتْهُمْ بِصُحْبَتِهِ الْمَجْدُ الرَّفِيعُ تَأْتِلًا

٧ - الكسائي

هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي . لقب بالكسائي لأنه كان في الإحرام
لابسًا كساءً ، قال أبو بكر الأنباري : اجتمعت في الكسائي أمور : كان أعلم الناس بالنحو
وأوحدهم بالغريب ، وكان أوجد الناس بالقرآن ، فكانوا يكثرُونَ عليه ، حتى يضطر
أن يجلس على الكرسي ويقلو القرآن من أوله إلى آخره ؛ وهم يسمعون منه ويضبطون
عنه . توفي سنة ١٨٩ تسع وثمانين ومائة .

وقد اشتهر بالرواية عنه أبو الحارث والهمداني .

(أما أبو الحارث) فهو الليث بن خالد الروزي . كان من أجلاء أصحاب الكسائي
ثقة وضبطًا . توفي سنة ٢٤٠ أربعين ومائتين .

(وأما الدوري) فهو أبو عمر حفص بن عمر الدوري الذي أئتمنا إليه في الرواية
عن أبي عمرو .

وفي الكسائي وروايته يقول صاحب الشاطبية :

« وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي الْكَسَائِيِّ فَتَمْتَعَهُ لِمَا كَانَ فِي الْإِحْرَامِ فِيهِ تَسَرُّبَلًا
رَوَى كَثِيرُهُمْ عَنْهُ أَبُو الْحَارِثِ الرَّضَا وَحَفْصُ بْنُ هُرَيْرَةَ الدُّورِيُّ وَفِي الدُّرَرِ قَدْ خَلَا ،

(١) يشير بهذه الكلمة إلى ما روى عنه أنه كان إذا تكلم يشم من فيه ريح المسك

بسبب قراءة النبي ﷺ في فيه منامًا ؛ كما أخبر نافع بذلك .

تمام القراء العشرة :

وهالك كلمة عن الثلاثة الذين إذا أضيفوا إلى السبعة السابقين ، تكمل بهم عدّة القراء العشرة أصحاب القراءات العشر المعروفة ، والتي سبق الكلام عليها قريباً .

٨ — أبو جعفر

هو يزيد بن القعقاع القارى ، نسبة إلى موضع بالمدينة يسمى : قارا . وقد سبق أنه أخذ عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة ، عن أبي بن كعب ، عن رسول الله ﷺ .
توفى أبو جعفر سنة ١٣٠ ثلاثين ومائة ، وكان تابعياً جليلاً القدر ، رفيع المنزلة .

وقد اشتهر بالرواية عنه أبو موسى عيسى بن وردان الحذاء ، وأبو الربيع سليمان ابن مسلم بن جَاز .

(أما ابن وردان) فهو أبو موسى عيسى بن وردان ، المدني ، الحذاء ، من أصحاب نافع في القراءة على أبي جعفر . كان مقرئاً ضابطاً ثقة . وتوفى سنة ١٦٠ ستين ومائة .

(وأما ابن جَاز) فهو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جَاز . قرأ على أبي جعفر وشيئة بن نصاحه ونافع . وتوفى بعد سنة ١٧٠ سبعين ومائة بالمدينة المنورة .

٩ — يعقوب

هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي . قرأ على أبي النذر سلام بن سليمان الطويل . وقرأ سلام على عاصم وعلى أبي عمرو . توفى يعقوب سنة ٢٠٥ خمس ومائتين .
ومن اشتهر بالرواية عنه رَوْحُ بن عبد المؤمن ، ومحمد بن المتوكل الأولوى الملقب برؤوس وغيرهما .

(أما رُوْحُ) فهو أبو الحسن رُوْحُ بن عبد المؤمن بن عبدة بن مسلم الهذلي النحوي،
قرأ على إمام البصرة أبي محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق
الحضرمي، وكان إماماً جليلاً ثقة روى عنه البخاري. وتوفي سنة ٢٣٤ أربع أو خمس
وثلاثين ومائتين.

(وأما رُوَيْسُ) فهو أبو عبد الله محمد بن المتوكل اللؤلؤي البصري، المعروف برويس.
كان من أئمة أصحاب يعقوب. وتوفي بالبصرة سنة ٢٣٨ ثمان وثلاثين ومائتين.

١٠ — خلف

هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب، قرأ على سليم عن حمزة،
وعلى يعقوب بن خليفة الأعشى، وعلى أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري صاحب المفضل
الضبي، وعلى أبان العطار، وهم عن عاصم. وتوفي خلف سنة ٢٢٩ تسع وعشرين ومائتين
كما سبق في ترجمة حمزة.

ومن اشتهر بالرواية عنه أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن عثمان بن عبد الله، المروزي،
ثم البغدادي، الوراق، المتوفى سنة ٢٨٦ ست وثمانين ومائتين.
ومن اشتهر بالرواية عنه أيضاً أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم الحداد البغدادي،
المتوفى سنة ٢٩٢ اثنتين أو ثلاث وتسعين ومائتين.

تمام القراءة الأربعة عشر :

وهالك كلمة مختصرة عن الأربعة الذين إذا أضيفوا إلى العشرة السابقين كملت عدة
القراء الأربعة عشر الذين تنسب إليهم القراءات المعروفة بالقراءات الأربع عشرة.

١١ — الحسن البصري

هو السيد الإمام الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد البصري الفقيه بشهرته عن
تعريفه . المتوفى سنة ١١٠ عشر ومائة .

١٢ — ابن محيصة

هو محمد بن عبد الرحمن السهمي المكي ، مقرر أهل مكة مع ابن كثير . المتوفى سنة
١٢٣ ثلاث وعشرين ومائة .

١٣ — يحيى اليزيدي

هو يحيى بن المبارك بن المفيرة الإمام أبو محمد المدوني البصري المعروف باليزيدي .
المتوفى سنة ٢٠٢ اثنتين ومائتين .

١٤ — الشنوبذی

هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يوسف بن العباس بن ميمون أبو الفرج الشنوبذی
الشنوبذی البغدادي . المتوفى سنة ٣٨٨ ثمان وثمانين وثلاثمائة .

هؤلاء الأئمة وأضرابهم هم الذين خدموا الأمة والملة ، وحافظوا على الكتاب والسنة ،
وفيهما يقول السيوطي بإتقانه : « ثم لما اتسع الخرق ، وكاد الباطل يلتبس بالحق ،
قام جهابذة الأمة والقوائم في الاجتهاد ، وجمعوا الحروف والقراءات ، وعزوا الوجوه
والروايات ، وميزوا الصحيح والمشهور والشاذ ، بأصول أصلوها ، وأركان فصلوها . فأول
من صنّف في القراءات أبو عبيد القاسم بن سلام ، ثم أحمد بن حنبل الكوفي ، ثم إسماعيل

ابن إسحاق المالكي صاحب قالون ، ثم أبو جعفر بن جرير الطبري ، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الدجوني ، ثم أبو بكر مجاهد ، ثم قام الناس في عصره وبعده بالتأليف في أنواعها ، جامعا ومفردا ، موجزا ومسهباً . وأئمة القراءات لا تحصى . وقد صنف طبقاً لهم حافظ الإسلام أبو عبد الله الذهبي ، ثم حافظ القرآن أبو الخير بن الجزري « ١٠١ » .

أسأل الله تعالى أن يغفر للجميع بواسع رحمته ، وأن يجزيهم أفضل الجزاء على خدمتهم الكتابه . آمين .

حكم مراء العشر :

وقع الخلاف أيضاً في القراءات الأربع التي تزيد على العشر وتكمل الأربع عشرة : فقليل يتواتر بعضها . وقيل بصحتها . وقيل بشذوذها ، إطلاقاً في الكل . وقيل : إن المسألة ليست مسألة أشخاص ولا أعداد ، بل هي قواعد ومبادئ . فأيا قراءة تحققت فيها الأركان الثلاثة لذلك الضابط المشهور فهي مقبولة ، وإلا فهي مردودة . لا فرق بين قراءات القراء السبع والقراء العشر والقراء الأربعة عشر وغيرهم ، فالميزان واحد في الكل والحق أحق أن يتبع .

قال صاحب الشافى : « التمسك بقراء سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثراً ولا سنة ، وإنما هو من جمع بعض المتأخريين فانتشروا . ووهم من قال : إنه لا تجوز الزيادة على ذلك . وذلك لم يقل به أحد » ١٠٢ شىء من التصرف .

وقال الكواشى : « كل ما صح سنده ، واستقام وجهه في العربية ، ووافق خط المصحف الإمام ، فهو من السبعة المنصوصة . (يريد السبعة الأحرف في الحديث النبوى المعروف) ثم قال : وقد اشتد إنكار أئمة هذا الشأن على من ظن انحصار القراءات المشهورة في مثل ما في التيسير والشاطبية » ١٠٣ .

وهذا رأى قريب من الصواب ، لولا أنه لم يقصر نظره على ما هو الواقع القائم بيننا اليوم من القراءات ، ولم يطبق الحكم ولم يفصله فيه ، بل أساق الكلام عاماً كما ترى .

والتحقيق هو ما ذهب إليه أبو الخير بن الجزرى ، من أن القراءات العشر التى بين أيدينا اليوم متواترة دون غيرها . قال فى منجد المقرئين ما يفيد أن الذى جمع فى زمننا هذه الأركان الثلاثة (أى فى ذلك الضابط المشهور مع ملاحظة إبدال شرط صحة الإسناد بتواتره) هو قراءة الأئمة العشرة التى أجمع الناس على تلقىها بالقبول . أخذها الخلف عن السلف إلى أن وصلت إلى زماننا . فقراءة أحدهم كقراءة الباقين فى كونها مقطوعاً بها . أما قول من قال : إن القراءات المتواترة لا حدة لها فإن أراد القراءات المعروفة فى زماننا فغير صحيح ؛ لأنه لا يوجد اليوم قراءة متواترة وراء القراءات العشر . وإن أراد ما يشمل قراءات الصدر الأول فمحتمل .

ثم إن غير المتواتر من القراء على قسمين :

(القسم الأول ما صحَّ سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه ووافق العربية والرسم . وهذا ضربان : ضرب استيفاض نقله وتلقاه الأمة بالقبول ، كما انفرد به الرواة وبنص الكتب المعتبرة ، أو كراتب القراء فى المدِّ ونحو ذلك ، فهذا صحيح مقطوع به وبأنه منزل من عند الله على النبي ﷺ من الأحرف السبعة . وهذا الضرب يلحق بالقراءة المتواترة وإن لم يبلغ مبلغها ، لأنه من قبيل أخبار الآحاد التى احتفت بها قرأين تفيد العلم والضرب الثانى لم تتلقه الأمة بالقبول ولم يستفيض . وهذا فيه خلاف العلماء : منهم من يجوز القراءات والصلاة به ، ومنهم من يمنع القراءة بما وراء العشر منع تحريم لا كراهة . قال ابن السبكي فى جمع الجوامع : « ولا يجوز القراءة بالشاذ » والصحيح أن ما وراء العشر فهو شاذ ، وفقاً لبغوى والشيخ الإمام . ويريد بالشيخ الإمام والده مجتهد العصر أبا الحسن على بن عبد الكافي السبكي .

(القسم الثاني) من القراءة الصحيحة : ما وافق العربية وصح سنده . وخالف الرسم ، كلذى يرد عن طريق صحيح من زيادة ونقص ، وإبدال كلمة بأخرى ، مما جاء عن أبى الدرداء وعمر وابن مسعود وغيرهم ، فهذه القراءة تسمى اليوم شاذة لكونها شذت عن رسم المصحف المجمع عليه ، وإن كان إسنادها صحيحاً . فلا تجوز القراءة بها لا فى الصلاة ولا فى غيرها . قال الإمام أبو عمر بن عبد البر فى كتاب التمهيد : « وقال مالك إن من قرأ فى صلاته بقراءة ابن مسعود أو غيره من الصحابة مما يخالف المصحف لم يصل وراه . وعلماء المسلمين مجمعون على ذلك إلا قوماً شذوا لا يعرج عليهم » .

وحكى ابن عبد البر الإجماع أيضاً على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ .

وقال ابن الجزرى : قال أصحابنا من الشافعية وغيره : لو قرأ بالشاذ فى صلاته بطلت صلاته إن كان عالماً . وإن كان جاهلاً لم تبطل ولكن لا تحسب له تلك القراءة . واتفق علماء بغداد على تأديب الإمام ابن شنبوذ واستنابته على قراءته وإقرائه بالشاذ . ذلك كله فيما صح فيه النقل والعربية ولكنه خالف الرسم .

أما ما لم يصح فيه نقل فهو أقل من أن يسمى شاذاً ، ولو وافق العربية والرسم . بل هو قراءة مكذوبة يكفر بمتممها .

حكى المحقق ابن الجزرى أن استفاء رُفِع من العجم إلى دمشق فى حدود الأربعين والسائة صورته : هل تجوز القراءة بالشاذ ؟ وهل يجوز أن يقرأ القارىء عشر كل آية بقراءة ورواية ؟ . فأجاب عليه الإمامان : أبو عمرو بن الصلاح وأبو عمرو ابن الحاجب :

أما ابن الصلاح فقال : يشترط أن يكون المقروء به تواتراً نقله عن رسول الله ﷺ قرآناً ، واستفاض نقله كذلك . وتلقته الأمة بالقول ، كهدم القراءات السبع ، لأن المعتبر

في ذلك اليقين والقطع ، على ما تقرر وتمهد في الأصول . فما لم يوجد فيه ذلك كما عدا السبع أو كما عدا العشر فممنوع من القراءة بمنع تحريم لا منع كراهة ، في الصلاة وخارج الصلاة ، وممنوع من عرف المصادر والمعاني ومن لم يعرف ذلك ، وواجب على من قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يقوم بواجب ذلك . وإنما نقلها من نقلها من العلماء لفوائد فيها تتعلق بعلم العربية لا للقراءة بها . هذا طريق من استقام سبيله . - ثم قال - والقراءة الشاذ ما نقل قرآننا من غير تواتر ولا استفاضة متلقاة بالقبول من الأمة كما اشتمل عليه المحسب لابن جني وغيره . وأما القراءة بالمعنى من غير أن ينقل قرآننا فليس ذلك من القراءات الشاذة أصلاً . والمجتزئ على ذلك مجتزئ على عظيم ، وضالٌّ ضلالاً بعيداً ، فيعزَّر ويمنع بالحبس ونحوه ، ولا يُحَلَّى ذو ضلالة ، ولا يحلُّ ذلك المتمكن من ذلك إمامه . ويجب منع القارىء بالشاذ وتأنيبه بعد تعريفه ، وإن لم يمتنع فعليته التعزير بشرطه .

وإذا شرع القارىء بقراءة ينبغي ألا يزال يقرأ بها ما بقي للكلام تعلّق بما ابتدأ به . وما خالف هذا فممنوع جازئ وممتنع . وعذر المرض مانع من بيانه بحقه . والعلم عند الله تعالى . اهـ .

وأما ابن الحاجب فقال : لا يجوز أن يقرأ بالقراءة الشاذة في صلاة ولا غيرها ، عالمًا كان بالعربية أو جاهلاً . وإذا قرأ بها قارىء ، فإن كان جاهلاً بالتحريم عُرف به وأمر بتركها ، وإن كان عالمًا أذّب بشرطه ، وإن أصرَّ على ذلك أذّب على إصراره وحبس إلى أن يرتدع عن ذلك . وأما تبديل آتينا بأعظنا ، وسوّلت بزيت ، ونحوه ، فليس هذا من الشواذ ، وهو أشدُّ تحريماً ، والتأديب عليه أبلغ ، والمنع منه أوجب اهـ .

فذلكة البحث .

يخلص لنا من هذا البحث بعد تحقيق وجوه الخلاف فيه أمور مهمة ؛ يجدر بنا أن نوليها الالتفات والانتباه الخاص :

أولها - أن القراءة ، لا تكون قرآناً إلا إن كانت متواترة ، لأن التواتر شرط في القرآنية .

ثانيها - أن القراءات العشر الدائمة في هذه العصور متواترة على التحقيق الآنف . وإذن هي قرآن . وكل واحدة منها يطلق عليها أنها قرآن .

ثالثها - أن ما وراء القراءات العشر مما صحّت روايته آحاداً ولم يستفص ولم تقلقه الأمة بالقبول ، شاذّ وليس بقرآن ، وإن وافق رسم المصحف وقواعد العربية .

رابعها - أن ركن صحة الإسناد المذكور في ضابط القرآن المشهور ، لا يراد بالصحة فيه مطلق صحة ، بل المراد صحة ممتازة تصل بالقراءة إلى حد الاستفاضة والشهرة وتلقّي الأمة لها بالقبول ، حتى يكون هذا الركن بقرينة الركنين الآخرين في قوة التواتر الذي لا بد منه في تحقق القرآنية . كما فصلنا ذلك من قبل .

خامسها - أن القراءة قد تكون متواترة عند قوم ، غير متواترة عند آخرين . والمأمور به ألا يقرأ المسلم إلا بما تواتر عنده ، ولا يكتفى بما روى له آحاداً وإن كان متواتراً عند الراوى له ، كما رَدَّ الشافعي رواية مالك مع صحّتها ، لخالفها ما تواتر عنده . ولا تنس ما قاله ابن الجزري في ذلك آنفاً .

سادسها - أن هذا الذي روى من طريق الآحاد المحضة ولم يصل إلى حد الاستفاضة والشهرة ، هو أصل الداء ، ومثار كثير من الشبهات والخلاف . أما الشبهات فقد مرّ عليك منها نماذج ، وأما الخلافات فقد شاهدت منها في هذا البحث ما شاهدت ، وسقشاهد ما شاهد ؛ وإني أسترعى نظرك إلى أمرين :

أولهما أن طريق الآحاد المحضة هذا هو الذى فصح باب المطاعن لبعض الأئمة فى بعض الروايات الواردة فى القراءات السبع ، كابن جرير الطبرى الذى ذكر فى تفسيره شيئاً من ذلك ، وألف كتاباً كبيراً فى القراءات وعليها ، وضمنه بعض تلك المطاعن .

وثانيهما أن وجود هذه الروايات على ندرتها جعل البعض يشتط ويسرف ، فسحب حكمها على الجميع وقال : إن القراءات السبع وغيرها كلها قراءة آحاد . وهذا قول فى نهاية الإسفاف والخطر : أما إسفافه فلأنه لا يليق مطلقاً أن يسحب حكم الأقل الضئيل على الأكثر الجليل ، وأما خطره فلأنه يؤدى إلى نقض تواتر القرآن ، أو إلى عدم وجود القرآن الآن مادام القرآن مشروطاً فيه التواتر ولا تواتر على رأيهم . ولا يعقل أن يكون القرآن المفروض فيه التواتر موجوداً على حين أن وجوه قراءاته كلها غير متواترة ، ضرورة أنه لا يتحقق قرآن بدون أوجه للقراءة .

ذلك ما وصلنا إليه بعد إعادة النظر فى هذا الموضوع . والحمد لله الذى هدانا لهذا « وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » .

ج - نقض الشبهات التى أثيرت فى هذا المقام

هناك شبهات أثيرت حول القراءات فى اختلافها وتعددتها مما فى صحتها وتواتر التواتر منها ، وفى القرآن الكريم وتواتره وإجماع الأمة عليه . من تلك الشبهات ما تجده مذكوراً فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف . ومنها ما تجده مذكوراً فى مبحث جمع القرآن . فارجع إليها - إن شئت - ولا داعى إلى التطويل بإعادتها .

بيد أن الرواية التى نسبوها لابن مسعود فى إنكاره قرآنية المؤذنين تكاد تكون أقوى هذه الشبهات ، من جهة أنها وردت بأسانيد صححها بعض

أعلام الحديث يكابن جبر . وقد سبق عرضها من توجهها وتخصيصها حتى على هذا
الاحتمال .

وهذا يزيدك هنا في توهين هذه الشبهة ، أمورا :

(أولا) أن عاصما وهو أحد القراء السبعة ، قرأ القرآن كله وفيه الموءذتان بأسانيد
صحيحة ، بعضها يرجع إلى ابن مسعود نفسه . ذلك أن عاصما قرأ على أبي عبد الرحمن
عبد الله بن حبيب ، وقرأ على أبي مريم زر بن حبيش الأسدي ، وعلى سعيد بن عياش
الشيباني .

وقرأ هؤلاء على ابن مسعود نفسه ، وقرأ ابن مسعود على رسول الله ﷺ .

(ثانيا) أن حمزة وهو من القراء السبعة أيضا ، قرأ القرآن كله بأسانيده الصحيحة
وفيه الموءذتان عن ابن مسعود نفسه . ذلك أن حمزة قرأ على الأعشى أبي محمد سليمان
ابن مهران وقرأ الأعشى على يحيى بن وثاب ، وقرأ يحيى على علقمة الأسود ، وعبيد ابن
فضلة الخزاعي ، وزر بن حبيش ، وأبي عبد الرحمن السلمي . وهم قرءوا على ابن مسعود ،
على النبي ﷺ .

ولحمزة سند آخر بهذه القراءة إلى ابن مسعود أيضا . ذلك أنه قرأ على أبي إسحاق
السبيعي ، وعلى محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ؛ وعلى الإمام جعفر الصادق . وهؤلاء
قرءوا على علقمة بن قيس ، وعلى زر بن حبيش ، وعلى زيد بن وهب ، وعلى مسروق .
وهم قرءوا على المنهال وغيره وهم على ابن مسعود وأمير المؤمنين على كرم الله وجهه
وما على النبي ﷺ .

(ثالثا) أن الكسائي قرأ القرآن وفيه الموءذتان بسنده إلى ابن مسعود أيضا . ذلك
أنه قرأ على حمزة الذي انتهى بين يديك سنده إلى ابن مسعود من طريقين .

(رابعها) أن خلفاً يقرأ المعوذتين في ضمن القرآن الكريم بسنده إلى ابن مسعود أيضاً . وذلك أنه قرأ علي سليم وهو علي حرة .

وهذه القراءات كلها التي رويت بأصح الأسانيد ويأجماع الأمة فيها المعوذتان والفاتحة على اعتبار أن هذه السور الثلاث أجزاء من القرآن وداخلة فيه .

فالقول ببقاء ابن مسعود على إنكار قرآنية هذه السورة محض افتراء عليه . وكل ما في الأمر أنه لم يكتب الفاتحة في مصحفه اتسكالا على شهرتها وعدم الخوف عليها من النسيان حتى تكتب . وكذلك القول في المعوذتين . وقيل إنه لم يكن يعلم أول الأمر أن المعوذتين من القرآن ، بل كان يفهم أنهما رُقِيَّةٌ يعوذ بهما الرسولُ الحسنُ والحسين . ومن هنا جاءت روايات إنكاره أنهما من القرآن . ثم علم بعد ذلك قرآنيتهما . ومن هنا جاءت الروايات عنه بقرآنيتهما . كما سقناه بين يديك عن أربعة من القراء السبعة بأسانيد هي من أصح الأسانيد المؤيدة بما تواتر واستفاض ، وبما أجمعت الأمة عليه من قرآنية الفاتحة والمعوذتين ، منذ عهد الخلافة الراشدة إلى يوم الناس هذا .
أما بعد فيصح أن نعتبر ما كتب في هذا الموضوع هنا كلاماً عن الشبهة الأولى التي أثبتت فيه .

الشبهة الثانية :

يقولون : إن التواتر في جميع القرآن غير مسلم ، لأن الدواعي التي ذكرتموها في دليل تواتره ، لا تتوافر في جميع أجزاء القرآن . وآية ذلك أن البسمة على رأى من يجعلها من القرآن لا يجرى فيها التحدى ، ولا يتحقق فيها أنها أصل الأحكام ، حتى يكون ذلك من الدواعي للتوافرة على نقلها وتواترها .

ونجيب (أولاً) بأن التحدى يجرى فيها باعتبار انضمامها إلى غيرها من آيتين أخريين، ليتألف من الجميع ثلاث آيات يقوم بهن الإجماز. وذلك كافٍ في أن يكون من دواعي الاعتناء بها ونقلها تواتراً.

(ثانياً) أنه يتعلق بنظمها تلك الأحكام المعروفة من أن لقارئها أجراً عظيماً إن كان طاهراً، ووعيداً شديداً إن كان جنباً وقرأها بقصد القرآنية أو مسها، ونحو ذلك. وهذا من الدواعي المتوافرة على نقلها وتواترها.

الشبهة الثالثة :

يقولون : لو كان القرآن متواتراً لوقع التكفير في البسمة ، على معنى أن من يقول بقرآنيته يحكم بكفر منكرها ، ومن لا يقول بقرآنيته يحكم بكفر مثبتها . وعلى ذلك يكفر المسلمون بعضهم بعضاً .

والجواب : أن قرآنية البسمة في أوائل السور اجتهادية مختلف فيها . وكل ما كان من هذا القبيل لا يكفر منكره ولا مثبتته ، شأن كل أمر اجتهادي . إنما يكفر من أنكر متواتراً معلوماً من الدين بالضرورة . وقرآنية البسمة في أوائل السور ليست متواترة معلومة من الدين بالضرورة .

أما منكر البسمة التي في قصة كتاب سليمان من سورة النمل . فهو كافر قطعاً ، لأن قرآنيته متواترة معلومة من الدين بالضرورة ، ولا خلاف بين المسلمين في قرآنيته حتى يكفر بعضهم بعضاً كما يزعم أولئك المعتضون .

الشبهة الرابعة :

يقولون : إن استدلالكم على تواتر القرآن بتوافر الدواعي على نقله ، منقوض

بالسنة النبوية، فإنها غير متواترة، مع ذلك تتوافر الدواعي على نقلها، فإنها أصل الأحكام كما أن القرآن أصل الأحكام.

ونجيب (أولاً) بأن توافر الدواعي على نقل القرآن متواتراً، لم يحى من ناحية أصالة الأحكام فحسب. بل جاء منها ومن نواحي الإعجاز والتعدي والتعبد بتلاوته والتبرك به في كل عصر وقراءته في الصلاة ونحو ذلك.

والسنة النبوية لا يجمع فيها كل هذا. بل يوجد فيها بعضه فقط وذلك لا يكفي في توافر الدواعي على نقلها متواترة.

(ثانياً) أن المراد بأصالة الأحكام الفرد الكامل الذي لا يوجد إلا في القرآن. ذلك لأن أصالة الأحكام فيه ترجع إلى اللفظ والمعنى جميعاً. أما المعنى فواضح. وأما اللفظ فمن ناحية الحكم بأعجازه، وبثواب من قرأه. وبالوعود الكريمة والعطايا العظيمة لمن حفظه، وبالوعيد الشديد لمن نسيه بعد حفظه ولن مسه أو قرأه جنباً، إلى غير ذلك والسنة النبوية ليس لفظها شيء من هذه الأحكام. ولهذا تجوز روايتها بالمعنى. أما معناها فإن كان مما تتوافر الدواعي على نقله وجب تواتره وإلا فلا. ولهذا يقطع بكذب نقل الروافض ما نسبوه إلى رسول الله ﷺ من أنه نص على أن الإمامة العظمى من بعده، محصورة في عليٍّ وولده. رضى الله عنهم. بيان ذلك أنه لو صح ما زعموه لنقل متواتراً، فإنه مما تتوافر الدواعي على نقله، لتعلقه بأمر يتصل بمستقبل الحكم الأعلى والولاية العظمى في الإسلام لجميع بلاد الإسلام.

الشبهة الخامسة :

يقولون : إن تواتر القرآن منقوض بأن ابن مسعود وهو من أجلاء الصحابة لم يوافق على مصحف عثمان بدليل الروايات الآتية وهي :

(١) أن شقيق بن سلمة يقول : « خطبنا عبد الله بن مسعود على المنبر فقال : « وَمَنْ يَفْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . غلوا مصاحفكم . « أى أخفوها حتى لا تحرق » وكيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت ، وقد قرأت من في رسول الله ﷺ مثله ؟ » رواه النسائي وأبو عوانة وابن أبي داود .

(٢) أن خير بن مالك يقول : « لما أمر بالمصاحف أن تغير ساء ذلك عبد الله بن مسعود فقال : من استطاع أن يغل مصحفه « أى يخفيه حتى لا يحرق » فليفعل . وقال في آخره : أفأترك ما أخذت من في رسول الله ﷺ ؟ »

(٣) أن الحساكم يروى من طريق أبي ميسرة قال : « رحت فإذا أنا بالأشعري وحذيفة وابن مسعود . فقال ابن مسعود : « والله لأدفعه بعني مصحفه . أقرأني رسول الله ﷺ » فذكره .

ونجيب (أولاً) بأن هذه الروايات لا تدل أبداً ، على عدم تواتر القراءات ولا على عدم تواتر ما جاء في مصحف عثمان . غاية ما تدل عليه أن ابن مسعود لم يوافق أول الأمر على إحراق مصحفه . وهذا لا ينقض تواتر ما جاء في مصحف عثمان . لأنه ليس من شرط التواتر على ما في مصحف عثمان أن يحرق ابن مسعود مصحفه ، ولا أن يحرق أحد مصحفه . بل المحقق للتواتر أن يرويه جمع يؤمن بتواطؤهم على الكذب في كل طبقة . وهذا موجود في مصحف عثمان لأن ما فيه رواه ووافق عليه جموع عظيمة من الصحابة محال أن تكذب وحسبك عثمان ودستوره في جمع القرآن . فارجع إليه إن شئت .

(ثانياً) أنه على فرض مخالفة ابن مسعود لمصحف عثمان ، فإن هذه المخالفة لا تذهب بتواتر القرآن . لأن أركان التواتر متحققة في المصحف العثماني على رغم هذه المخالفة المفروضة ولم يقل أحد في الدنيا : إن من شرط التواتر ألا يخالف فيه مخالف حتى تكون مخالفة ابن مسعود لمصحف عثمان ناقضة لتواتر القرآن .

(ثالثاً) أن هذه الروايات التي ساقوها طعننا في تواتر القرآن ، لا تدل على أن ابن مسعود يخالف في القراءة بمصحف عثمان . بل هو يقرأ به كما يقرأ بروايته التي انفرد بها وسمعتها وحده من فم النبي ﷺ . ألا ترى إلى قوله : « وقد قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم مثله » فإن كلمة « مثله » فيها اعتراف منه بأن زيد بن ثابت قرأ مثله من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن ما انفرد ابن مسعود به تعتبر روايته آحادية . وأنت خير بأن رواية الآحاد لا تكفي في ثبوت القرآنية . لذلك لم يوافق الصحابة على ما انفرد به ابن مسعود ، بخلاف مصحف عثمان فقد وافقه عدد التواتر ، وظفر بإجماع الأمة ولم يكتب فيه إلأما استقر في العرصة الأخيرة من غير نسخ لتلاوته ، على ما سبق بيانه هناك في مبحث جمع القرآن .

(رابعاً) أن عدم دفع ابن مسعود مصحفه ليحرق كان توقفاً منه في أول الأمر . ثم عاد بعد ذلك وحرقه حين بلغه أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كرهوا ذلك في مقالته ، كما جاء في حديث شقيق من رواية ابن أبي داود عن طريق الزهري . وبهذا اتحدت الصفوف ، واتفقت الكلمة ، وتم للمصالحف للعثمانية الظفر من كل وجه بإجماع الأمة حتى ابن مسعود . والحمد لله على هذا الكرم والجلود . حمداً يوافي نعمه ، ويكافئ مزيده ، ويستنزل رضاه ، آمين .

فهرس

الموضوع	صفحة
خطبة الكتاب	٢
مقدمة الكتاب	١٠
المبحث الأول في معنى علوم القرآن	١٢ - ٢٨
العلم عند الحكماء والمتكلمين	١٢
العلم في لسان الشرع العام	١٢
العلم عند الماديين وعلماء التدوين	١٣
القرآن في اللغة	١٤
القرآن في الاصطلاح	١٥
القرآن عند المتكلمين	١٧
القرآن عند الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية	١٩
هل القرآن علم شخص ؟	٢١
هل تصاغ للأعلام تعاريف ؟	٢١
إطلاق القرآن على الكل وعلى أبعاضه	٢٢
معنى علوم القرآن بالمعنى الإضافي	٢٣
القرآن كتاب هداية وإعجاز	٢٤
القرآن يحض على الانتفاع بالكون	٢٥
إعجاز علمي للقرآن	٢٥
علوم القرآن بالمعنى المدون ، وموضوعه ، وفائدته .	٢٧
المبحث الثاني في تاريخ علوم القرآن	٢٨ - ٤٠
عهد ما قبل التدوين	٢٨
عهد التمهيد لعلوم القرآن	٣٠
عهد التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الإضافي	٣١

الموضوع	صفحة
أول عهد لظهور هذا الاصطلاح	٣٤
علوم القرآن في القرن السادس والسابع والثامن والتاسع	٣٦
علوم القرآن في العصر الأخير .	٣٨
خلاصة	٣٩
كلمة لا بد منها	٣٩
المبحث الثالث في نزول القرآن	٤٠
معنى نزول القرآن	٤٠
تنزيلات القرآن	٤٣
التنزيل الأول إلى اللوح المحفوظ	٤٣
التنزيل الثاني إلى بيت العزة	٤٤
التنزيل الثالث على النبي ﷺ	٤٧
كيفية أخذ جبريل القرآن ، وعنم أخذ ؟	٤٧
ما الذي نزل به جبريل ؟	٤٨
ما نزل على النبي ﷺ مما سوى القرآن	٥٠
مدة النزول على النبي ﷺ	٥١
دليل تنجيم هذا النزول	٥٢
الحكم والأسرار في تنجيم القرآن	٥٣-٦٢
الحكمة الأولى بوجوهها الخمسة	٥٣
الحكمة الثانية بوجوهها الخمسة أيضاً	٥٥
الحكمة الثالثة بوجوهها الأربعة	٥٨
الحكمة الرابعة الإرشاد إلى مصدر القرآن	٦٠
الحركة الطاحنة بين معتقدي الوحي ومنكريه (وهو بحث جديد مفيد)	٦٣-٩١

الموضوع	صفحة
حقيقة الوحي وأنواعه وكيفيةه	٦٣
الوحي من ناحية العلم	٦٥
الدليل الأول التنويم المغناطيسى	٦٦
الدليل الثانى بعض عجائب المخترعات	٦٩
الدليل الثالث الحاكى « القونفراف »	٧٩
الدليل الرابع عجائب بعض الحيوانات الدنيا	٧٠
الدليل الخامس العبقريّة	٧١
الدليل السادس المظاهر الروحانية فى بعض الناس	٧٣
الوحي من ناحية العقل	٧٣
المعجزة	٧٣
دفع الشبهات عن الوحي	٧٦
الشبهة الأولى وجوابها	٧٦
الشبهة الثانية وجوابها	٧٦
الشبهة الثالثة والرابعة والخامسة وجوابها	٧٧
الشبهة السادسة وجوابها	٧٨
الشبهة السابعة وجوابها	٧٩
الشبهة الثامنة وجوابها	٨١
الشبهة التاسعة وجوابها	٨٢
الشبهة العاشرة وجوابها	٨٤
ذيل لهذه الشبهة والجواب عليه	٨٢
خاتمة المبحث	٩١
المبحث الرابع فى أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن	٩٢ - ١٠٥
فوائد الإسلام بأول ما نزل وآخره	٩٢

الموضوع	الصفحة
القول الأول في أول ما على نزل الإطلاق	٩٣
القول الثاني في أول ما نزل على الإطلاق	٩٤
القول الثالث في أول ما نزل على الإطلاق	٩٥
القول الرابع في أول ما نزل على الإطلاق	٩٦
آخر ما نزل على الإطلاق	٩٦
القول الأول والثاني والثالث في آخر ما نزل على الإطلاق	٩٧
القول الرابع والخامس في آخر ما نزل على الإطلاق	٩٨
القول السادس والسابع والثامن والتاسع	٩٩
القول العاشر	١٠٠
مثلان من أوائل وأواخر مخصوصة	١٠١
ما نزل في الحجر	١٠١
ما نزل في أمر الجهاد والدفاع	١٠١
شبهة في هذا المقام	١٠٢
جواب هذه الشبهة	١٠٣
ملحوظة وتحقيق	١٠٤
المبحث الخامس في أسباب النزول	١٠٦ - ١٣٦
معنى سبب النزول	١٠٦
فوائد معرفة أسباب النزول	١٠٩
الفائدة الأولى والثانية	١٠٩
الفائدة الثالثة والرابعة	١١٢
الفائدة الخامسة والسادسة والسابعة	١١٣
طريق معرفة سبب النزول	١١٤

الموضوع	الصفحة
التعبير عن سبب النزول	١١٤
تعدد الأسباب والنازل واحد	١١٦
شبهة في الموضوع وجوابها	١٢١
تعدد النازل والسبب واحد	١٢١
العموم والخصوص بين لفظ الشارع وسببه	١٢٣
عموم اللفظ وخصوص سببه	١٢٥
أدلة الجمهور	١٢٧
شبهات المخالفة وتفنيدها	١٣٠
شبيه بالسبب الخاص من اللفظ العام	١٣٥
المبحث السادس في نزول القرآن على سبعة أحرف	١٣٧ - ١٩١
أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف	١٣٩
شواهد بارزة في هذه الأحاديث الواردة	١٤٥
فوائد أخرى لاختلاف القراءة وتعدد الحروف	١٤٦
معنى نزول القرآن على سبعة أحرف	١٥٣
الوجوه السبعة في المذاهب المختار	١٥٥
لماذا اخترنا هذا المذهب ؟	١٥٧
الذين قالوا بهذا المذهب	١٥٨
النسبة بين هذه المذاهب ومذهب الرازي	١٦١
دفع الاعتراضات الواردة على المذهب المختار	١٦٤
بقاء الأحرف السبعة في المصاحف	١٦٨
الأقوال الأخرى ودفعها	١٧٢
القول الأول	١٧٢

الموضوع	صفحة
القول الثاني إلى القول السابع	١٧٣
القول الثامن والتاسع	١٧٤
العناية بدفع هذا القول لقوة شبهته	١٧٥
القول العاشر ودفعه	١٨٠
القول الحادى عشر إلى الأربعين	١٨٢
ردود إجمالية لهذه الأقوال الأخيرة	١٨٣
علاج الشبهات الواردة على أصل الموضوع	١٨٤
الشبهة الأولى وجوابها	١٨٥
الشبهة الثانية وجوابها	١٨٧
الشبهة الثالثة وجوابها	١٨٩
الشبهة الرابعة وجوابها	١٩٠
للمبحث السابع فى المكى والمدنى من القرآن الكريم	١٩٢ - ٢٣٨
الاصطلاحات فى معنى المكى والمدنى	١٩٣
فائدة العلم بالمكى والمدنى	١٩٥
الطريق الموصل إلى معرفة المكى والمدنى	١٩٦
الضوابط التى يعرف بها المكى والمدنى	١٩٦
السور المكية والمدنية والمختلف فيها	١٩٨
أنواع السور المكية والمدنية	١٩٩
وجوه تتعلق بالمكى والمدنى	٢٠٠
فروق أخرى بين المكى والمدنى	٢٠٢
نقض الشبهات التى أثبتت حول هذا الموضوع	٢٠٥
الشبهة الأولى وفى طيها شبهات أربع	٢٠٦
ظاهرة مسكنة	٢١٣

الموضوع	الصفحة
الشبهة الثانية وجوابها	٢١٦
الشبهة الثالثة وجوابها	٢١٨
الشبهة الرابعة وجوابها	٢٢٠
الشبهة الخامسة وجوابها	٢٢٥
رأى فى فواتح السور المعترض بها	٢٢٥
الرأى الثانى فى تلك الفواتح وتشتمل على وجوه مهمة	٢٢٨
الشبهة السادسة وجوابها	٢٣٧
المبحث الثامن فى جمع القرآن الكريم وما يتعلق به	٢٣٩ - ٢٨٨
جمع القرآن بمعنى حفظه فى الصدور	٢٤٠
جمع القرآن بمعنى كتابته فى عهد رسول الله ﷺ	٢٤٦
جمع القرآن على عهد أبى بكر رضى الله عنه	٢٤٩
دستور أبى بكر فى كتابة الصحف	٢٥٢
مزايا هذه الصحف	٢٥٣
جمع القرآن على عهد عثمان رضى الله عنه	٢٥٥
تنفيذ عثمان لقرار الجمع ودستوره فى كتابة المصاحف .	٢٥٧
تحميق عثمان للمصاحف والصحف المخالفة	٢٦٠
فذلكة البحث	٢٦٢
الرد على ما يثار حول جمع القرآن من شبه	٢٦٣
الشبهة الأولى وهى تعتمد على سبع شبه	٢٦٣
نقض هذه المزاعم الباطلة	٢٦٥
الشبهة الثانية وجوابها	٢٧٥
والثالثة وجوابها	٢٨٠

الصفحة	الموضوع
٢٨٣	» الرابعة وجوابها
٢٨٤	» الخامسة وجوابها
٢٨٦	» السادسة وجوابها
٣٣٧-٢٨٩	خط منيع من خطوط الدفاع عن الكتاب والسنة (وهو بحث جديد مهم)
٢٩١	الجهة الأولى في عوامل حفظ الصحابة للكتاب والسنة
٢٩١	العامل الأول أنهم كانوا أميين
٢٩٣	العامل الثانى أنهم كانوا مضرب المثل فى الذكاء والحفظ
٢٩٤	» الثالث بساطة معيشتهم والعامل الرابع حبهم لله ورسوله
٢٩٦	» الخامس إيجاز القرآن وبلاغة النبي عليه الصلاة والسلام
٢٩٧	» السادس ترغيبهم فى الإقبال على الكتاب والسنة
٢٩٩	» السابع منزلة الكتاب والسنة من الدين
٣٠٠	» الثامن ارتباط كلام الله ورسوله بما يثير الاهتمام
٣٠٢	» التاسع اقتران الكتاب والسنة بأمر خارق للعادة
٣٠٤	» العاشر حسن سياسة الكتاب والسنة لهذه الأمة
٣٠٨	» الحادى عشر الترغيب والترهيب اللذان فى الكتاب والسنة
٣١١	» الثانى عشر حمل الصحابة بالكتاب والسنة
٣١٢	» الثالث عشر وجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم
٣١٢	عوامل خاصة بالقرآن الكريم أولها التحدى
٣١٣	ثانيها العناية بكفاية القرآن الكريم وثالثها تشريع قراءته فى الصلاة
٣١٣	رابعها الترغيب فى تلاوة القرآن فى غير الصلاة
٣١٤	خامسها عناية الرسول بتعليم القرآن وإذاعته ونشره
٣١٥	سادسها القداسة التى امتاز بها القرآن

الموضوع	صفحة
الجهة الثانية في عوامل تثبت الصحابة من الكتاب والسنة	٣١٦
العامل الأول أمر القرآن بالتثبت ونهيه عن التهم	٣١٦
العامل الثاني الترهيب الشديد في الكذب على الله ورسوله	٣١٧
العامل الثالث الحض على الصدق والتنفير من الكذب	٣١٨
العامل الرابع غرام الصحابة بالتفقه والتعلم	٣٢٠
العامل الخامس بسر الوسائل لدى الصحابة إلى أن يقتبوا	٣٢١
العامل السادس شجاعة الصحابة ومراحمهم	٣٢٢
العامل السابع تكافل الصحابة تكافلاً اجتماعياً	٣٢٣
العامل الثامن ترويضهم على الصدق عملاً	٣٢٥
العامل التاسع الأسوة الحسنة التي كانوا يمدونها في رسول الله ﷺ	٣٢٦
العامل العاشر سمو تربية الصحابة على فضائل الإسلام	٣٢٩
عوامل أخرى	٣٣٠
مظاهر هذا التثبت	٣٣١
نتيجة ذلك	٣٣٤
الموقف خطير	٣٣٥
شهادة علينا من الله للصحابة	٣٣٦
شهادة الرسول ﷺ لأصحابه	٣٣٧
حكمة الله في اختيار الصحابة لحل شريعته الخلقامية	٣٣٧
المبحث التاسع في ترتيب آيات القرآن وسوره	٣٣٨ - ٣٦٠
معنى الآية	٣٣٨
طريق معرفة الآية	٣٤٠
عدد آيات القرآن	٣٤٣

الموضوع	صفحة
سبب الاختلاف في عدد الآيات	٣٤٤
فوائد معرفة الآيات	٣٤٤
ترتيب آيات القرآن	٣٤٦
ملاحظة في عدد كلمات القرآن وحروفه	٣٤٨
شبهة تتصل بالموضوع وتفنيدها	٣٤٩
معنى السورة	٣٥٠
حكمة تسوير السور	٣٥١
أقسام السور	٣٥٢
المذاهب في ترتيب السور	٣٥٣
احترام هذا الترتيب	٣٥٨
شبهتان خفيفتان وجوابهما	٣٦٠
المبحث العاشر في كتابة القرآن ورسمه ومصاحفه	٣٦١ - ٤١٠
الكتابة	٣٦١
شأن الكتابة في الإسلام	٣٦٣
هل كان النبي ﷺ يقرأ ويكتب؟	٣٦٤
كتابة القرآن	٣٦٧
رسم المصحف وقواعد هذا الرسم	٣٦٩
قاعدة الحذف	٣٦٩
قاعدة الزيادة	٣٧٠
قاعدة الممز وقاعدة البدل	٣٧١
قاعدة الوصل والفصل وقاعدة ما فيه قراءتان	٣٧٢
مزايي الرسم العثماني	٣٧٣

الموضوع	صفحة
هل رسم المصحف توقيفي؟	٣٧٧
الرأى الأول أنه توقيفي	٣٧٧
الرأى الثانى أنه اصطلاحى لا توقيفى	٣٨٠
و الثالث وسط بين الرأين	٣٨٥
الشبهات التى أثبتت حول كتابة القرآن ورسمه	٣٨٦
الشبهة الأولى	٣٨٦
جواب هذه الشبهة	٣٨٦
الشبهة الثانية وجوابها	٣٨٨
الشبهة الثالثة وجوابها	٣٨٨
الشبهة الرابعة وجوابها	٣٨٩
الشبهة الخامسة	٣٩٠
جواب الشبهة الخامسة وتصوير الشبهة السادسة	٣٩٠
جواب السادسة وتصوير السابعة وجوابها	٣٩١
الشبهة السابعة وجوابها	٣٩٢
الشبهة الثامنة وجوابها	٣٩٣
تصوير الشبهة التاسعة	٣٩٥
جواب التاسعة وتصوير العاشرة وجوابها	٣٩٦
خلاصة الدفاع	٣٩٦
شبهة على التزام الرسم العثمانى فى هذا المعصر	٣٩٧
جواب هذه الشبهة	٣٩٧
المصاحف تفصيلا والحروف السبعة فى المصاحف العثمانية	٣٩٩
المصحف والمصاحف	٤٠١

الصفحة	الموضوع
٤٠٢	عدد المصاحف العثمانية
٤٠٣	كيف أنقذ عثمان المصاحف العثمانية
٤٠٤	أين المصاحف العثمانية الآن؟
٤٠٥	المصاحف في دور التجويد والتحصين
٤٠٦	إجمام المصاحف
٤٠٧	شكل المصاحف
٤٠٨	حكم نقط المصحف وشكله
٤٠٩	تجزئة القرآن
٤١٠	احترام المصحف
٤١٢ - ٤٧٥	البحث الحادى عشر فى القراءات والقراء والشبهات فيها
٤١٢	القراءات
٤١٢	نشأة علم القراءات
٤١٤	طبقات الحفاظ المقرئين الأوائل
٤١٦	أعداد القراءات
٤١٨	ضابط قبول القراءات
٤٢٣	منطوق هذا الضابط ومفهومه
٤٢٧	ملاحظة فى الاكتفاء بصحة الإسناد فى الضابط المذكور
٤٢٩	أنواع القراءات من حيث السند
٤٣١	تواتر القرآن الكريم
٤٣٥	الآراء فى القراءات السبع
٤٤٠	الآراء فى القراءات الثلاث المتممة للعشر
٤٤١	التحقيق تواتر العشر كلها

الموضوع	صفحة
القرءاء	٤٥٦
ابن عامر	٤٥٦
ابن كثير	٤٥٧
عاصم	٤٥٨
أبو عمرو	٤٥٩
حزرة	٤٦٠
نافع	٤٦١
الكسائي	٤٦٢
أبو جعفر ويعقوب	٤٦٣
خلف	٤٦٤
الحسن البصري وابن محيصن ويحيى اليزيدي والشنبوذى	٤٦٥
حكم ما وراء العشر	٤٦٦
فذلكة هذا البحث	٤٧٠
نقض الشبهات التى أثبتت فى هذا المقام	٤٧١
الشبهة الأولى وجوابها	٤٧١
الشبهة الثانية	٤٧٣
الشبهة الثالثة والرابعة	٤٧٤
الشبهة الخامسة	٤٧٥

شكر ورجاء

أما بعد شكر الله تعالى وحده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فإنني أتوجه بأجزل الشكر إلى كل من عاونني في هذا الكتاب برأيه ، أو بسعيه ، أو بقراءته والإقبال عليه ، أو بتقديره وتشجيعي على المضي فيه .

وأرجو كل من يطلع عليه أن يلتمس لي العذر إن كنتُ قصرت ، وأن يرشدني إلى شاكلة الصواب إن كنتُ أخطأت ، وأن يصحح نسيخته على ما جاء في هذه الطبعة ، وأن يعلم أنني حاولت جهد طاقتي حسن الإخراج وجودة الطبع ، ولكن الظروف أبت إلا أن تقف بي عند هذا الحد . ولعلني سددتُ أو قاربتُ ، وعلى كل حال فالعودُ أحمدُ إن شاء الله .

وأستغفر الله من كل خطيئة وزلل ، وأسأله أن يقابل بالقبول ما وقفنا إليه من نافع العلم وصالح العمل ، وأن يُصلح منا جميعاً الحال والمآل ، وأن يحقق للإسلام والمسلمين جميع الآمال . والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان في البدايات والنهايات ، آمين . وسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟